AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00846 5217

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

S R C

Library
The American University
at Cairo

Happy is the man that findeth wisdom and the man that getteth understanding

PROVERBS 3-13

Ex libris datis
in memoriam
nes Polk McKinney
ittsburgh, Pennsylvania

تاريخ التربية الاسلامية

98B2038 pwt 14/5 (sh)

يسر دار الكشاف أن تعلن أنها نشرت الأصل
الانجليزي لهذه الدراسة بعنوان :

History of Muslim Education

ويطلب من المركز الرئيسي ببيروت ، ومن فروع
ووكلاء دار الكشاف في الأقطار العربية واوربا واميركا

LA
99
S512
1954
c. 1

Shalabi, Ahmad
Tarikh al-tarbiyah al-islamiyah

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY

تاريخ التربية الإسلامية

وضعه بالانجليزية وترجمه إلى العربية

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه في الفلسفة من جامعة كمبردج
مدرس تاريخ الحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة

اعتمدت جامعة كمبردج هذه الدراسة لدرجة الدكتوراه في الفلسفة
وقررت جامعة القاهرة طبعها على نفقتها



دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع

١٩٥٤

٣٧٧,٩٥٣
ش ا . ت
١
٣

31527

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ »

(قرآن كريم)

سورة الزمر الآية التاسعة

from PROFESSOR A. J. ARBERRY, PEMBROKE COLLEGE, CAMBRIDGE

10 October 1952

I have much pleasure in warmly recommending the publication of Dr Ahmad Shalaby's thesis entitled "The History of Muslim Education with special reference to Egypt". This work, which secured for Dr Shalaby the award of the Degree of Doctor of Philosophy in this University, is a most valuable contribution to knowledge. Based very largely upon unpublished manuscripts, together with extremely wide reading of printed texts, it collects together a vast range of important information, which has been critically examined and competently arranged. The publication of this book will be a great service to scholarship.

تفضل أستاذي البروفسور أربري بكتابة هذا الخطاب يذكر رأيه في هذه الدراسة ، ويوصي بطبعها ونشرها ، وأنا أخشى ألا توفي ترجمة هذا الخطاب بما فيه من إبداع وبهاء وتشجيع بالغ ، ولذلك أدعه كما هو شاكراً للبروفسور أربري ثقته ورأيه الكريم .

المؤلف

مطلوب الرد : [illegible]

كلية دار العلوم

بشأن موافقة الجامعة على طبع رسالة الدكتور احمد شلبى للدكتوراه على نفقتها .

الرجو عند الرد ذكر هذا الرقم ١٠٦٦

٥٢/٤/٢١ القاهرة في سنة ١٣٧٢ (٢١ أبريل سنة ١٩٥٣)

عدد المرفقات

جامعة فؤاد الأول

المكتبة العامة

٢١٧٤

١٩٥٣/٤/١٨

١٩٥٣/٤/١٩

حضرة الأستاذ الدكتور عميد كلية دار العلوم

أتشرف بأن أخبر حضرتكم أن حضرات أعضاء لجنة المكتبة والطبع والنشر قد وافقوا على أن تطبع على نفقة الجامعة رسالة حضرة الدكتور احمد شلبى المدرس بالكلية التى حصل بها على الدكتوراه من جامعة كمبردج — فنرجو التكرم بتكليف حضرته تقديم أصول الرسالة الى مطبعة الجامعة فى أقرب فرصة .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،

المراقب العام

للمكتبات الجامعية

(توقيع)

حضرة الدكتور احمد جاب الله شلبى

يسرنى أن أبلغ حضرتكم صورة ماورد الى الكلية من الجامعة بشأن موافقة لجنة المكتبة والطبع والنشر على طبع رسالتكم للدكتوراه على نفقة الجامعة .

مع قبول خالص التهنئة والتحية ،

عميد الكلية

ابراهيم البيلى

تقدير واعتراف

احس انني مدين ديناً عظيما لجامعة القاهرة التي رشحتني عضواً لاحدى بعثاتها ومدين كذلك للحكومة المصرية التي تفضلت فوافقت على هذا الترشيح ، وأتاحت لي ان ادرس بجامعات انجلترا بضع سنوات ، وان ازور أقطاراً أخرى في الشرق والغرب لهذه الأغراض العلمية . فلهذه الجامعة شكري وتقديري ولمصر العزيزة حبي ووفائي .

ويطيب لي ان اسجل عميق شكري لأستاذي البروفسور آرثر أربري ، الذي اقترح هذا الموضوع وأشرف على اعداده ، والحق يقال انه كان لتوجيهات البروفسور أربري ، واقتراحاته النافعة ، ونقده البنائي ، وقيادته الملهمة ، فضل كبير في انتاج هذه الرسالة .

وفي أثناء الرحلة العلمية التي قمت بها للبحث والدراسة ، إبّان إعداد هذه الرسالة ، لاقيت كثيراً من الرعاية ، وموفوراً من المساعدة ، من هيئات متعددة وأفراد كثيرين ، وكان لابناء العروبة الافاضل القدح المعلى في هذا الشأن ؛ فقد احتفوا بي ، ويسروا مهمتي ، في دمشق الفيحاء ، وفي حلب ، وبيروت ، وبغداد ، والنجف ، وغيرها . وكان لكثير من العلماء والمشرفين على دور الكتب في انجلترا وهولندة واسبانيا والقاهرة واستانبول فضل لا ينسى . فالى هؤلاء جميعاً أزجي عميق شكري وصادق تقديري .

احمد شلبي

تصدير الكتاب

بقلم الاستاذ الدكتور ارثر اربري الذي كان مشرفاً على الرسالة واستاذ الدراسات الاسلامية بجامعة كمبردج

للاسلام على الجنس البشري مآثر تدعو الى الاعجاب وتستدعي الشكران ، ولدينا مؤلفات عدة تصف ما أسهم به المسلمون في ترقية الفنون والآداب والعلوم والسياسة ، ومن الواضح ان المسلمين ما كانوا يصلون الى تحقيق هذه الاهداف العلمية الرفيعة لولا حرصهم البالغ على التعلم والتعليم ، ذلك الحرص الذي تميز به الشعب الاسلامي خلال تاريخه الطويل ، فهبّ رجاله ونساؤه مستجيبين لدعوة الرسول : « اطلبوا العلم ولو في الصين » .

ومن اجل هذا كانت دراسة المعاهد التعليمية ونظمها عملا عظيم الاهمية جليل الخطر . وفي هذا الكتاب يقدم صديقي وتلميذي سابقاً الدكتور احمد شلبي نتيجة ابحاثه ودراساته في ذلك الموضوع ، وهي التي قدمها الى جامعة كمبردج فحصل بها على درجة الدكتوراه. وسوف يتفق معي كل قارىء على ان هذه الدراسة قوية الدعائم وناجحة الى اقصى حدود النجاح ، وقد اعتمد الباحث في اخراجها على المصادر الأصلية المتعددة وبخاصة مجموعة كبيرة من المخطوطات التى تيسر له قراءتها في اثناء رحلته العلمية الى دول اوربا والى دول الشرق الأوسط . وأشهد ان الدكتور شلبي في اختياره لهذه المصادر وفي دراسته لها وانتفاعه بها قد تجلت فيه مواهب البحاثة الدقيق من جلد ، وعمق ، واحاطة ، وحماسة ، وامتياز ، ومقدرة على الوصول الى قلب المشكلة ، وموهبة الوضوح ، وحسن النظام ، وروعة العرض . وكل هذا جعل الكتاب يسد جانباً ضرورياً من الدراسات الاسلامية وهو الى جانب هذا كتاب جذاب رائع .

انه ليسرني بالغ السرور ان اهنىء الدكتور احمد شلبي على قيامه بطبع هذه الدراسة ونشرها ، كما يسرني ان اقدم للقراء هذا الجهد الكبير .

فهرس الموضوعات

مقدمة الكتاب ١ — ١٣

مقدمة الترجمة العربية ١٤ — ١٦

الفصل الاول

أمكنة التعليم ١٧ — ١١٥

أولا : أمكنة التعليم قبل انتشار المدارس ٢٠ — ٩٥

١ — الكتاب لتعليم القراءة والكتابة ٢٠

٢ — الكتاب لتعليم القرآن ومبادىء الدين الاسلامي ٢٦

٣ — التعليم الأولي بالقصور ٣٦

٤ — حوانيت الوراقين ٤٠

٥ — منازل العلماء ٤٥

٦ — الصالونات الأدبية ٥١

٧ — البادية ٧٨

٨ — المسجد ٨٤

ثانياً : المدارس ٩٦ — ١١٥

مقدمة

لماذا انتقل التعليم من المساجد الى المدارس ؟ ٩٦

ماذا كان الفرق بين المساجد والمدارس ؟ ٩٧

لماذا عنيت مدارس المسلمين بالعلوم الدينية اكثر من سواها ٩٨

نشأة المدارس في العالم الاسلامي ٩٩

مدارس نظام الملك ١٠١

مدارس نور الدين زنكي ١٠٢

مدارس العهد الايوبي ١٠٤

مدارس الطب ١٠٧

المدرسة النورية الكبرى (نموذج لمدارس المسلمين في ذلك العهد) ١٠٨

الفصل الثاني

المكتبات : ١١٧ - ١٨٦

المكتبات والتعليم ١١٩
القيمة الأدبية للكتاب ١٢١
القيمة الأدبية للمكتبات ١٢٥
أبنية المكتبات ونظمها ١٢٨
الفهارس ١٣٢
استعارة الكتب ١٣٥
موظفو المكتبة : ١٣٨
١ — الخازن (أمين المكتبة) ١٣٨
٢ — المترجمون ١٤٣
٣ — النساخ ١٤٥
٤ — المجلدون ١٥١
٥ — المناولون ١٥٣
حالة المكتبة المالية ١٥٦
أنواع المكتبات : ١٥٨
ا — المكتبات العامة ١٥٩
ب — مكتبات بين العامة والخاصة ١٧٣
ح — المكتبات الخاصة ١٧٩

الفصل الثالث

المدرسون : ١٨٧ - ٢٦٧

مقدمة

١ — المعلمون الذين لم يتحلق حولهم الطلاب ١٨٩
٢ — عناية المسلمين بتلقي العلم من معلم لا من الصحف والكتب ١٨٩
٣ — المسلمون الأول أدركوا ضرورة فن التربية للمدرس ١٩٠
: — تعاون البيت والمدرسة لخدمة التلميذ ١٩١
العلاقة بين الحكومات والمدرسين ١٩٢
المستوى الاجتماعي للمدرسين ١٩٨
حالة المدرسين المالية ٢١٥
مدرسو المدارس النظامية: ٢٣٣
اول مدرس بنظامية بغداد ٢٣٥

تحقيق نهاية نظامية بغداد ٢٣٦
تحقيق مكان نظامية بغداد ٢٣٧
المعيدون ٢٣٩
أخلاق المدرسين وواجباتهم ٢٤١
الاجازات العلمية ٢٤٥
العقوبات ٢٥٢
الجوائز والمكافآت ٢٥٧
ملابس المدرسين ٢٥٩
نقابة المعلمين ٢٦٤

الفصل الرابع

التلاميذ ٢٦٩ — ٣٤٥

الاسلام والتعليم ٢٧١
رياضة الأطفال في نظر بعض فلاسفة المسلمين :
الغزالي ٢٧٤
ابن سينا ٢٧٧
آراء مؤلف منهاج المتعلم ٢٧٨
تكافؤ الفرص في التعليم عند المسلمين ٢٧٨
توجيه التلاميذ على حسب مواهبهم ٢٨٦
سن التعليم ٢٨٨
عدد التلاميذ في الفصل أو الحلقة ٢٩٢
العقل والجسم ٢٩٥
أخلاق التلاميذ وواجباتهم ٢٩٩
صلة التلميذ بالتلميذ ٣٠٢
جهود التلاميذ لتحصيل العلم ٣٠٣
الرحلات لطلب العلم ٣٠٧
تعليم المرأة ٣١٨

الفصل الخامس

رعاة العلم وفلسفة النظم بالمعاهد العلمية ٣٤٧ — ٣٨١

منشئو المعاهد العلمية :
المأمون ٣٤٩
نور الدين ٣٥٠

صلاح الدين ٣٥٠
نظام الملك ٣٥١
الاوقاف على التعليم ٣٥٩
حلقة الدرس ٣٦٨
مراحل التعليم ٣٧٣
الداخلية في المدارس ٣٧٨

الفصل السادس

موضوعات الدراسة ٣٨٣ - ٤٢٠

بين التعليم والعلم ٣٨٥
المذهب الاسماعيلي في مصر والأسباب التي دعت الى دراسته ٣٨٦
المذهب الاسماعيلي في مصر : ٣٨٧
اولا : عقائد الاسماعيلية : ٣٨٩
ا — الوصي والائمة ٣٨٩
ب — العصمة ٣٩٣
حـ — صفات الائمة ٣٩٥
د — الظاهر والباطن ٣٩٧
هـ — الائمة والتشريع ٣٩٩
ثانياً : جهود الفاطميين لنشر مذهبهم ٤٠٣
ا — بواسطة حلقات التعليم ٤٠٣
ب — الشعر في خدمة المذهب الاسماعيلي ٤٠٧
١ — من شعر ابن هانىء ٤٠٨
٢ — من شعر الامير تميم ٤١٠
٣ — من شعر المؤيد في الدين ٤١١
حـ — الاحتفالات بمناسبات معينة: ٤١٢
١ — عيد الغدير ٤١٣
٢ — عاشوراء ٤١٤
٣ — أعياد الميلاد ٤١٥
د — إسناد الوظائف للاسماعيلية ٤١٦
ثالثاً : المصريون والمذهب الاسماعيلي . ٤١٩

مصادر البحث ٤٢١

فهرس الاعلام ٤٣٠

فهرس الأشكال والمخططات

شكل رقم (١)	منظر للجامع الأموي بدمشق	مواجه لصفحة ٩٠
شكل رقم (٢)	منظر آخر للجامع الأموي بدمشق	« « ٩١
مخطط	للمدرسة النورية الكبرى	« « ١٠٨
شكل رقم (٣)	صحن المدرسة النورية الكبرى	« « ١١٠
شكل رقم (٤)	مدخل المدرسة النورية الكبرى	« « ١١١
	وقد سجلت على عتبته العليا الأوقاف على المدرسة	
شكل رقم (٥)	منظر خارجي لقبة ضريح نور الدين	« « ١١٢
شكل رقم (٦)	إيوان المدرسة النورية (قاعة المحاضرات)	« « ١١٣
شكل رقم (٧)	نظام ترتيب الكتب في المكتبات الاسلامية الكبرى	« « ١٣١
شكل رقم (٨)	التجليد المصري في عهد مبكر	بين صفحة ١٥٢ وصفحة ١٥٣
شكل رقم (٩)	تجليد للقرآن الكريم محلّى ببعض الآيات القرآنية	
شكل رقم (١٠)	تجليد للقرآن الكريم	
شكل رقم (١١)	« « «	
خريطة تقريبية لبغداد في القرن السابع الهجري ويظهر بها موقع المدرسة النظامية		مواجه لصفحة ٢٣٩
شكل رقم (١٢)	تجليد رائع للقرآن الكريم	« « ٣٦٦
شكل رقم (١٣)	إجازة علمية بخط الحريري صاحب المقامات	« « ٢٤٨
شكل رقم (١٤)	إجازتان علميتان أخريان	« « ١٤٩
شكل رقم (١٥)	اللوح الذي سجلت عليه أوقاف المدرسة الشامية الجوانية	« « ٣٦٧

تصويب

في هذا الكتاب بعض الأخطاء المطبعية الطفيفة التي يستطيع القارىء تصحيحها بسهولة . وفيما يلي قائمة بأكثر هذه الاخطاء غموضاً :

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٤	٨	لمكتّب	والمكتّب
٣١	١١	الحصن	الحصّان ٣)
٣٨	٤	الفاشية	الغاشية
٤٨	١٥	ذات	ذلك
٦٦	١٣	يبغي	يبني
٧٠	١٠	التعيين	اليقين
٧٤	١٥	ابن زولامه	ابن زولاق
٧٥	٧	القواليا	العواليا
٧٦	٧	لمنح	لهم المنح
٧٧	١٤	زبالة	ذبالة
٨٠	١١	وأوعى	وأدعى
٨٠ هامش	١	البيان م	البيان حـ٢ :
٨١	١٢	أغوى	أغرى
٨٢	١	أبو العيثل عبدالله خليد	أبو العميثل عبدالله بن خليد
٨٥	١١	سواء للطائفين والقائمين والركع السجود	للناس سواء العاكف فيه والباد

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٨٧	١١	سنة ١٣٣	سنة ١٣٢
٨٧	١٢	عبد الله بن علي	أبو اسماعيل عامر
٨٧	١٤	عبد الله بن علي	أبو اسماعيل
١١٥	١	بعونية	بعوينة
١٢٧	١٨	للناس	الناس
١٤٢	١٢	الرا	الرياسة في
١٤٨	١	نكلف	فكلف
٢٣٣	٦	لاضافة	بالاضافة
٢٤٨	٨	والكتابة	والكتاب
٢٥١	١	بسمة	بسمته
٢٧٢	٤	من فرقة طائفة	من كل فرقة منهم طائف
٢٨٣	٣	نَشَأ	نشْء
٣٢١	هامش	القابس	القابسي
٣٧٥	١٩	للشافعي بأنها نسبت الشافعي	الشافعي بأنها نسبت للشافعي
٣٨١	٦	الفتيان	الفتيات
٣٨٩	١٥	يختا	يختار

مقدمة

يقول Paul Monroe في مقدمة كتابه :

« The Educational Renaissance of the Sixteenth century »

(النهضة التعليمية في القرن السادس عشر) ما ترجمته : « إنه لمن الشاق العسير أن يحاول الانسان ان يحصل على معلومات دقيقة فيما يختص بالنشاط التعليمي في العهود الماضية ، وبخاصة فيما يتعلق بتفاصيل عن الحياة المدرسية » وقد لمست ان ما قرره Monroe عن صعوبة الحصول على هذه المادة فيما يتعلق بالتعليم في اوروبا ، ينطبق تمام الانطباق على النظم التعليمية عند المسلمين ، ولهذا احتاجت هذه الرسالة الى جد متصل ، وكفاح عنيف في سبيل اتمامها ، وأذكر انني طالما قرأت كتباً ضخمة بعضها يقع في عدة اجزاء وكنت آمل ان اجد فيها ما يفيدني في هذا الموضوع ، ولكنني كنت اخرج منها بمحصول ضئيل ، أو أخرج بلا شيء . ويرجع السبب في ذلك ، إلى ان المؤرخين المسلمين ركّزوا جهدهم في تسجيل النشاط السياسي والحربي للخلفاء والملوك والعظماء ، ولم يهتموا اهتماماً يذكر بتسجيل الاصلاحات التعليمية . ومن ذلك مثلا ان هؤلاء المؤرخين تحدثوا في سطور قليلة جداً عن مدارس نظام الملك ذات الشهرة الواسعة ولكنهم تحدثوا بافاضة عن إصلاحاته الاقتصادية وانتصاراته العسكرية . ومما يثير الدهشة اكثر من هذا ، ان كتاب « المحاسن اليوسفية » الذي الفه عن صلاح الدين

قاضيه ابن شداد ، قد خلا تماماً من أية إشارة للنهضة التعليمية التي رعاها مؤسس أسرة الأيوبيين . وبينما يشمل الكتاب تفاصيل دقيقة عن مولد صلاح الدين ، وحياته ، وأخلاقه ، وحروبه ، تراه لا يذكر شيئاً قط عن مدارسه ، ومنهاجه التعليمي . بل ان الرسائل التي كتبها المسلمون عن التعليم من أمثال ابن جماعة وابن سحنون والزرنوجي والعاملي لم تعد تشفي غلة الباحث في العصر الحاضر ، لأنها مقتضبة ، ولأن بعضها تكرار للبعض الآخر ، وتميل غالباً الى الحديث عن أخلاق الطلاب والمدرسين وواجباتهم ثم تذكر من أسباب قوة الحفظ ، وأسباب عدم النسيان ، وما ماثلها ، ألواناً إن كانت قد قبلت في العهد الماضي ، فهي غير مقبولة في العصر الحديث ؛ فان الباحث الآن لا يميل الى أن يعتقد أن قراءة تسابيح معينة تشحذ الذهن ، وان قراءة ألواح القبور تورث النسيان ، وغير ذلك مما ازدحمت به هذه الملخصات . فهذه الرسائل مع فائدتها لا تمد الباحث الحديث بالمادة المتنوعة التي يحتاج اليها لدراسة موضوع كهذا .

وهنالك حقيقة أخرى ذات أهمية كبرى ؛ هي أن كل فصل من فصول هذا الكتاب كان يحتاج الى مصادر غير تلك التي تلزم عند كتابة فصل آخر منه ، بل إن كل قسم من اقسام الفصل الواحد كان يحتاج الى مصادر غير مصادر قسم آخر في نفس الفصل ، ففي الفصل الاول مثلاً لكل من الكتّاب ، ومنازل العلماء ، والصالونات الادبية ، والمساجد ، والمدارس ، مراجع تكاد تكون خاصة .

وعلى ذلك فقد احتاج هذا الكتاب الى عدد كبير من الكتب

والمخطوطات والوثائق لتمد الموضوع بالمادة التي تشرح جوانبه وتكشف عن غموضه ؛ ومن أجل هذا قمت برحلة طويلة زرت فيها المكتبة الوطنية بباريس ومكتبة ليدن بهولندة ، ومكتبة الاسكوريال باسبانيا ثم عرجت على الشرق الاوسط ؛ فزرت مكتبات عدة بمصر ، وسوريا ، والعراق ، ولبنان ، وفلسطين ، وتركيا ، كما استطعت في هذه الرحلات ان أزور من أمكنة التعليم بهذه البلاد ما انحدر من العصور الوسطى التي ندرس تاريخ التربية فيها ، وقد أفادتني هذه الزيارات فائدة عظيمة القيمة جليلة الشأن .

ولم يعالج هذا الموضوع من قبل على النسق الذي يُعرض به الآن ، وكل ما كتب عنه لا يعدو بضع مقالات قليلة واشارات استطرادية من بعض المؤلفين ، وفيما عدا هذا فقد كان الموضوع بكراً . ثم ان ما كتب عنه لم يعتمد ـ في اعتقادي ـ على المخطوطات والمراجع التي أتيح لي ان أعتمد عليها عند كتابتي لهذه الرسالة .

والمصادر التي امدّتني بالمادة لهذا الموضوع يمكن تقسيمها الى أربعة أقسام :

١ ـ دراسة الأمكنة و (اللوحات) التاريخية .

٢ ـ الرسائل التعليمية التي سبقت الاشارة اليها .

٣ ـ مؤلفات عن الثقافة العامة .

٤ ـ كتب التاريخ .

١ ـ أما دراسة الامكنة واللوحات التاريخية فقد كانت ذات قيمة عظمى في هذا الموضوع ، وبخاصة تلك البقاع وهذه اللوحات التي شاهدتها

في دمشق ؛ فلقد أتيح لي هنـاك ان أدرس عدة مدارس تنحـدر من العصور الوسطى وبخاصـة مدرسة نور الدين التي شيدت في القرن السادس الهجري ، وأتاح لي ذلك ان اضع يدي على نظم تخطيـط المدارس ، وأبان لي ان الداخلية مثلاً كانت من الملحقات الضرورية لكل مدرسة ، كما وضّح موقع مطبخ المدرسة ، وحجرة الطعام فيها ، وغير ذلك ممـا يظهر فيما ذكرته مفصلاً في مكانه ، وقد قرأت عدة لوحات أثبتُّ صور بعضها في هذه الرسالة ، ومنهـا حصلت على معلومات كبيرة القيمة فيما يختص بالأوقاف على التعليم وبحالة المدرسين المالية ، كما صححت بمـا هو مكتوب على بعضها مـا وقع فيه بعض المؤرخين من هفوات نشأت ـ فيما يبدو ـ عن أنهم كتبوا عن هذه المدارس دون ان يزوروها .

٢ ـ الرسائل التعليمية : وأهم الرسائل التعليمية التي اقتبست منها هي :

ابن جماعة تذكرة السامع والمتكلم

ابن شداد الأعلاق الخطيرة (مخطوط بدمشق)

النعيمي الدارس في تاريخ المدارس

ابن عبدون رسالة ابن عبدون نشرت في (Journal Asiatique 1934)

الجاحظ رسالة المعلمين (مخطوط بالموصل)

القابسي الفضلة

القطموني ترغيب الناس الى العلم (مخطوط باستانبول)

ابن سحنون آداب المعلمين

؟ منهاج المتعلم (مخطوط بحلب : مؤلفه غير معروف)

ابو حنيفة نصيحة لأحد تلاميذه (مخطوط باستانبول)

الوليد بن بكر الوجازة في احكام الاجازة (مخطوط ببغداد)

الزرنوجي تعليم المتعلم

الشهيد المنيـة (مخطوط بالنجف)

طاش كبري زاده رسالة في علم الأدب (مخطوط ببغداد)

العاملي أدب المفيد والمستفيد .

ولا نزاع ان المعلومات التي استقيتها من هذه الرسائل كانت ثمينـة جداً ؛ فابن جماعة مثلاً شرح لي بافاضة عدة مسائل وبخاصة وصف الحلقة ، وآداب الطلاب في الأقسام الداخليـة ، وأعمار التلاميذ ثم نُظُم استعارة الكتب من المكتبات . وأكثر هذه المسائل لم يعالجها ـ فيما اعرف ـ غير ابن جماعة . واما منهاج المتعلم ـ وهو هذه المخطوطة الثمينة التي كان لي حظ العثور عليها بين مجموعة كبيرة من المخطوطات التي كانت مكدسة في صندوق مقفل بحلب ـ فيبدو لي أنها فريدة فيما تعرضت له من اختبـار ذكاء الطلاب ، وتوزيعهم في فصـول متعددة بحسب مواهبهم ودرجتهم من الذكاء والفطنة . وقد تفضل الاستاذ عبـاس العزّاوي المحامي ببغداد باطلاعي على مجموعة من المخطوطات من بينها « الوجازة في صحة القول بأحكام الاجازة » وهي مصدر هـام فيما يختص بالشهادات الدراسية التي يمنحها المدرسون للتلاميذ . وكانت رسالة المعلمين للجاحظ ـ التي كان يُعتقَد أنهـا فُقِدت ـ مفيدة للغاية وبخاصة فيما يتعلق بحـالة المدرسين الاجتماعية . كما كان أدب المعلمين لابن سحنون الذي نسبه ابن خلدون

سهواً لمحمد بن زيد المصدر الهام الذي وضح ان البنت كانت تتعلم في مكان خاص لا مع الولد كما حكاه بعض الكتاب نتيجة لغفلة في فهم النصوص . واقتُبست معلومات هامة نافعة عن مدارس دمشق من النعيمي. وفي الحقيقة أن جميع الرسائل التعليمية التي ذكرت هنا أسهمت بشيء مفيد في هذا البحث .

٣ ـ أما ذلك الانتاج الذي أسميناه « مؤلفات عن الثقافة العامة » فقد كان ذا فائدة عظمى استمدّت منه هذه الرسالة الشيء الكثير . ومن المعروف ان اللغة العربية تزخر بمثل هذا النوع من الانتاج الذي يشمل معلومات وافرة من نواح متعددة من الحضارة الاسلامية : سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وثقافية ، فاذا ما درس الباحث في التعليم هذا النوع بشيء من الأناة والدقة فانه يخرج بمحصول وفير . ويمكن تقسيم هذه المؤلفات الى المجموعات الآتية :

أ ـ كتب الرحالة والجغرافيين من أمثال :

كتاب البلدان	لليعقوبي
البلدان	لابن الفقيه
أحسن التقاسيم	للمقدسي
المسالك والممالك	لابن حوقل
الرحلة	لابن جبير
معجم البلدان	لياقوت
تحفة النظار	لابن بطوطة

وقد حفلت هذه الكتب بالمفيد النافع ذلك لأن هؤلاء الرحالة قاموا بهذه الرحلات الطويلة خلال العالم الاسلامي ، وسجلوا عن كل مكان ما رأوا فيه ، وما سمعوا عنه من الثقات ، ومن ذلك وصف مسجد دمشق وذكر تكاليف تشييده ، وقد أخذت ذلك من كتاب « البلدان » . كما وجدت في أحسن التقاسيم للمقدسي مادة نافعة عن ملابس المدرسين . وعلى العموم فان هذه الكتب وبخاصة رحلة ابن جبير قد أمدتني بمادة غزيرة عن مجموعةٍ من النقط كالأوقاف على التعليم وكالمكتبات وعن وصف الحلقات الدراسية وغيرها .

ب ـ كتب التراجم : يقول Von Grunebaum في مقال نشره في 1) The Journal of General Education « ان مجموعة كتب التراجم التي أنتجها المسلمون لشيء يدعو الى الدهشة والاعجاب ؛ لكثرتها ، ودقتها ، وما جمعته من مادة رائعة ، وان علماء الغرب في العصور الوسطى ليس لديهم ما يقارَن بنتاج معاصريهم من العرب في هذا الميدان » وفي الحقيقة أن مجموعة كتب التراجم لتمثل جانباً غنياً في الأدب العربي ، وهي بجانب كثرتها منظمة تنظيما دقيقاً ؛ فللاطباء تراجمهم الحافلة ، وللادباء والاعيان معاجمهم ، وللشعراء والعلماء والفقهاء طبقاتهم وسيرهم ، وهناك بجانب هذا التوزيع العلمي ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، والكواكب السائرة في تراجم علماء المائة العاشرة ، وخلاصة الأثر في تراجم علماء القرن الحادي عشر ، وسلك الدرر في ذكر

(١) العدد الرابع ص ٢٥

اعيان القرن الثاني عشر وهكذا .

ومن تراجم الأشخاص الذين عاشوا في العهد الذي قمت بدراسته كنت أستخلص مادةً ذات قيمةٍ كبيرة انبثت في أعطاف هـذا البحث ؛ وعلى هذا فالقارىء سيرى في أغلب الاقسام إشارة الى المراجع الآتية :

الأغاني	لابي الفرج الاصفهاني	
الفهرست	لابن النديم	
طبقات الأدباء	للانباري	
تاريخ بغداد	للخطيب البغدادي	
معجم الأدباء	لياقوت	
وفيات الأعيان	لابن خلكان	
فوات الوفيات	لابن شاكر الكتبي	
الوافي	للصفدي	(مخطوط بدار الكتب المصرية)
أخبار الحكماء	للقفطي	
عيون الأنباء	لابن أبي أصيبعة	
طبقات الشافعية	للسبكي	
نفح الطيب	للمقري	
مناقب الشافعي واصحابه	لابن قاضي شهبة	(مخطوط بدمشق)
أخبار النساء	للسيوطي	(مخطوط بدمشق)

فالأغاني مثلاً كان مصدراً أساسياً للقسم الذي عُقد للحديث عن الصالونات الأدبية وكذلك عن تعليم البنت ، وفي الموضوع الاخير كانت

مخطوطة السيوطي سالفة الذكر ذات فائدة تذكر ، اما ياقوت ، وابن خلكان ، والقفطي ، وابن ابي أصيبعة ، فقد كانت مصادر هامة لنقط متعددة ؛ كالتدريس بالمساجد ، وملابس المدرسين ، وحالتهم المالية والاجتماعية ، وعدد تلاميذ الفصل الدراسي ، والرحلات للتعليم ، ومجهود التلاميذ لتحصيل العلم ، وغيرها .

جـ ـ كتب الحسبة : في كتب الحسبة دائماً فصل يعقد للحديث عن «الحسبة على المدرسين» . ومن ذلك الفصل حصلت على مادة توضح مكان تعليم الصبيان القرآن ، ومسألة العقوبات التي كان ينزلها المدرسون بالتلاميذ . وعلى هذا فقد قرأت من كتب الحسبة :

نهاية الرتبة	للشيزري
معالم القربة	للقرشي
الحسبة	لعبد الرازق الحصان

د ـ كتب أخرى يتعذر وضعها تحت عنوان واحد ؛ مثل :

ابن عبد ربه	العقد الفريد
الجاحظ	البيان والتبيين
	التاج في اخلاق الملوك
ابو حيان التوحيدي	الامتاع والمؤانسة
	المقابسات
	الصداقة والصديق
ابن سينا	القانون

ابن عبد البر	جامع بيان العلم	
الصابي	رسوم دار الخلافة	(مخطوط ببغداد)
كشاجم	أدب النديم	
الغزالي	الاحياء	
العبدري	المدخل	
السبكي	مفيد النعم	
ابن خلدون	المقدمة	
المقريزي	الخطط	
السيوطي	حسن المحاضرة	
القلقشندي	صبح الأعشى	

من هذه الكتب حفلت الرسالة بمعلومات وفيرة ؛ فلقد اعتمدت الى حد كبير على كتب ابي حيان التوحيدي عند كتابة القسم الخاص بالدراسة في منازل العلماء ، ومن كتاب الاحياء أخذت رأي الغزالي فيما يتعلق بتربية الاطفال ، أما كتب الجاحظ فهي دوائر معارف ، حافلة بالوان من العلم والمعرفة في نواح متعددة ، ومنها استقيت معلومات كثيرة عن المنهاج العلمي الذي وضع لأولاد الملوك ، وعن حالة المدرسين الاجتماعية ، وقيمة الكتب الأدبية ، وعن الآداب التي يجب ان يتحلى بها اولئك الذين يتاح لهم ان يحضروا الصالونات الادبية ، وفي هذه النقطة الأخيرة اسهم بنصيب وافر كل من كشاجم في كتابه « أدب النديم » والصابي في « رسوم دار الخلافة » . أما الخطط وحسن المحاضرة فكانا مع ابن دقماق مرجعين هامين في كل ما يتعلق بمدارس مصر .

٤ ـ كتب التاريخ : في العرض التاريخي الذي استدعته هذه الرسالة ، انتفعت انتفاعاً كبيراً بكتب التاريخ ؛ سواء العام منها وهو ما دون تاريخ العالم الاسلامي كله ؛ كالطبري ، وابن الاثير ، والعبر ، او كتب التاريخ المحلية التي تحدث كل منها عن جزء معين من العالم الاسلامي ؛ كتاريخ آل سلجوق ، وتاريخ الأمم المنقطعه ، (مخطوط بالمتحف البريطاني) والروضتين ، ومفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، (مخطوط بمكتبة جامعة كمبردج) واتعاظ الحنفا وغيرها ، وينبغي ان أخص الروضتين لأبي شامة بكلمة ؛ اذ سبق هذا الكتاب غيره من الكتب التاريخية فيما قدمه لهذه الرسالة من عون وافادة ، وبخاصة في توضيح النهضة التعليمية التي قام بها نور الدين زنكي في مملكته قصيرة العمر .

وقد أسهمت الكتب الحديثة بنصيب يذكر في انتاج هذا الكتاب فقد كان كتاب Lammens عن

Etudes sur le Régne du Calife Omaiyade Moawia Ier

مرشداً هاماً في القسم الذي عقد هنا لدراسة التعليم الأولي لأولاد العظماء . ومن الفصول الأربعة التي عقدها Adam Mez في كتابه الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري عن العلماء ، وعلوم الدين ، والمذاهب الفقهية ، والقضاة اقتبست مادة مفيدة جداً عن المكتبات ، وملابس المدرسين ، والتعليم الأولي لأولاد الخلفاء والعظماء بقصور أهليهم . وكانت كتب Lane - Poole عن : Saladin - Cairo-Egypt in the Middle Ages ذات فائدة عظمى ، وبخاصة في الكلام عن مجانية التعليم وعن الداخلية في التعليم بمصر ، كما كان كتابا الاستاذ Gibb : Arabic Literature and Muhammadanism مفيدين كل

القائدة في عدة نقط وبخاصة في الصالونات الأدبية . وهناك كتب أخرى حديثة غير هذه يجدر بنا ذكرها لما لها من عظيم الأثر في هذا النتاج وهي :

Richard Coke : Baghdad : The City of Peace.

Palmer	Harun al Rashid.
Nicholson	A Literary History of the Arabs.
Browne	A Literary History of Persia.
Khuda Bukhsh	Islamic Civilization.
Amir Ali	A Short History of the Saracens.
Barthold	Muslim Culture.
Stern	Marriage in Early Islam.
Hitti	The History of the Arabs

كوركيس عواد	خزائن الكتب في العراق
احمد امين	فجر الاسلام
»	ضحى الاسلام

كما ان هناك كثيراً من المجلات العلمية الدورية الحافلة بالابحاث التي أفادتني فائدة جديرة بالذكر ؛ ومن هذه المجلات .

Islamic Culture.
Journal of Education.
The Nineteenth Century.

وسيجد القارىء اشارة لهذه المجلات ولغيرها هنا وهناك في أعطاف هذا الكتاب .

ويجدر بي أن أقرر ان طبيعة العمل في بعض عناصر هذا الموضوع كانت تحتاج الى ان تعرض عرضاً تاريخياً متطوراً ، كما كانت هناك عناصر أخرى هي بالمبادىء أشبه ؛ فلا تحتاج الى عرض تاريخي وانما تحتاج الى ان تقرر ويقام الدليل عليها .

ومن النوع الاول ما كان يحتاج الى عرض منذ نشأته الى نهاية الفترة التاريخية التي نتحدث عنها كالمساجد وكحالة المدرسين المالية ، ومنها ما كنت أتتبعه في تطوره التاريخي حتى يستقر في فترة ما فأتوقف عن مواصلة البحث فيه ، كملابس المدرسين التي تطورت من عهد الى آخر حتى وضع الامام أبو يوسف نظاماً لها ظل قدوة لمن جاء بعده ، وكالشهادات الدراسية ؛ ومن النوع الثاني العقوبات والجوائز والمكافآت ونقابة المدرسين وهذه وأمثالها بالمبادىء أشبه فلا تحتاج لعرض تاريخي وكل ما يحتاج اليه في دراستها ان تُقرَّر وان يورد من النصوص ما يدل على انها وجدت في معاهد التعليم .

* * *

وحيما كنت اسير في معالجة أي موضوع سيراً تاريخياً كنت أجد لزاماً عليّ عندما اصل الى القرن الرابع الهجري - ان أهتم بمصر اهتماماً خاصاً فقد كانت مصر منذ ذلك العهد مركزاً ثقافياً عظيم الاهمية في العالم الاسلامي . ومن ظواهر الاهتمام بمصر الفصل الاخير الذي وضع للحديث عن التعليم في العهد الفاطمي ، ثم من ظواهر هذا الاهتمام ايضاً العناية بالدولة الايوبية التي قامت على أنقاض الفاطميين وورثت حضارتهم ثم تسلمت قيادة النهضة التي ابتدأها نظام الملك وورثها نور الدين عن السلاجقة وورثها عنه صلاح الدين فاجتمعت في مصر في العهد الايوبي حضارة الخلافة العباسية وحضارة الخلافة الفاطمية وتطلعت عيون المسلمين الى مصر فنجحت في أداء رسالتها نجاحاً عظيما ، وبسقوط الايوبيين في مصر سنة ٦٤٨ وقفت هذه الدراسة وان كان تيار الحياة العلمية ظل يسير في العهود التالية في المجرى الذي انتظم له في عهد الايوبيين .

مقدمة الترجمة العربية

قابلت كثيراً من العلماء والمشتغلين بالدراسات الاسلامية في اثناء زيارتي للدول العربية وبعض أقطار أوروبا ، وكان جلُّهم يشجعونني ويبذلون لي كثيراً من المساعدات والتيسير ، ويبدون أملهم أن يظهر هذا الموضوع في أقرب فرصة .

وكان كل يوم يمر لبان دراستي لذلك الموضوع يزيدني تعلقاً به وحباً له ، فما كدت أنتهي منه حتى كان قد أصبح قطعة من نفسي أو كانت نفسي قطعة منه ، ولقد سررت كثيراً بالنتائج التي حصلت عليها ، والتي أوضحت مدى الرقي الذي وصلت اليه التربية الاسلامية في تلك العصور .

وكان استاذي Professor A J . Arberry يبدي رغبة ان ينشر هذا البحث سريعاً ، وقد تفضل فكتب تقريره وتوصيته بطبعه ونشره ، وهي توصية رقيقة ، تنم عن خلقه الكريم ، وعنايته بتلاميذه ، في أثناء عملهم معه ، وبعد أن يستقلوا عنه .

ولما حصلت على الدكتوراه ، أدركت ان عملي لم ينته بعد فبدأت أفكر في نشر هذا البحث باللغة الانكليزية والعربية وبغيرهما إن أمكن ، ثم وجدت الفرصة مهيأة لنشر البحث باللغة الانكليزية ؛ فبينما كانت جامعة القاهرة تسير في الاجراءات الرسمية لاتخاذ قرار بطبع هذه الرسالة ونشرها على حسابها الخاص ، حضر الى القاهرة خصيصاً حضرة الاستاذ مصطفى فتح الله مدير دار الكشاف للطبع والنشر ببيروت ـ وكان قد سمع عن هذه الرسالة ـ فاتفق معي على طبعها باللغة الانكليزية ليتولى نشرها

للمستشرقين ولابناء الهند والباكستان وغيرهما من الممالك الاسلامية التي لا يجيد اهلها اللغة العربية مع تعلقهم بالاسلام ورغبتهم في قراءة اي شيء ينشر عنه . وقد اتخذت جامعة القاهرة قرارها بعد ذلك ببضعة أسابيع وهو القرار الذي نشرت صورته فيما سبق . وقد شكرت القائمين بالأمر في الجامعة على هذا التقدير واعتذرت من عدم تنفيذ القرار بسبب اتفاقي مع الاستاذ مصطفى فتح الله .

ثم بقي علي ان أخرجه باللغة العربية لأقدمه للناطقين بالضاد ، فعكفت على ترجمته ، وكان من الممكن ان يكون عملي سهلاً يسيراً لو قمت بالترجمة من الاصل الأنجليزى الى اللغة العربية ، ولكني عدت الى ملفاتي وأوراقي ، والى الكتب نفسها التي اقتبست منها ، لأحصل على المادة الأصلية من المراجع الأساسية ، ولأنقل الى القارىء لغة المؤلفين العرب من مراجعها المختلفة كلما استشهدت بها .

وكان علي ، وأنا اكتب رسالتي باللغة الانجليزية ، أن اوجز ، اذ يحتم القانون بجامعة كمبردج الا تتجاوز رسالة الدكتوراه في التاريخ او الأدب ستين ألف كلمة . ولكنني وانا بصدد ترجمتها للغة العربية كنت في حل من ذلك الشرط ، ولهذا فقد فصّلت في الترجمة العربية ما أجملت احياناً في الأصل الانكليزي ، وشرحت هنا ما أوجزت هناك .

وفي الترجمة العربية بجانب ذلك معلومات جديدة استطعت أن أحصل عليها من متابعة الدراسات الحديثة ومن استمرار القراءة في الكتب الأصلية ، وقد كان حظ الترجمة العربية في ذلك اوفر من الأصل الانكليزي اذ

كانت الفترة بين نشر الأصل الانكليزي ونشر الترجمة العربية خصبة في هذا الشأن ، وقد استدعى ذلك تغيير بعض الأقسام تغييراً تاماً كموضوع نقابة المدرسين كما استدعى ادخال كثير من الحذف والاضافة على كثير من الاقسام الأخرى .

وختمته بفهارس شاملة تعين القارىء على تتبع ما قد يحتاج اليه . ومن واجبي ان أبدي شكري للمجاهد الفاضل الاستاذ مصطفى فتح الله الذي أبدى استعداده لطبعه ونشره باللغة العربية بالاضافة الى طبعة ونشره باللغة الانكليزية .

واني اذ أقدم ثمرة جهدي المتواضع أرجو ان اكون قد وفقت في ان أقدم للمسلمين وللمشتغلين بالدراسات الاسلامية ولأبناء اللغة العربية شيئاً فيه جدوى وغناء .

أحمد ثلبي

الفصل الاول

امكنة التعليم

يعتبر عام ٤٥٩ هـ حداً فاصلا فيما يختص بأمكنة التعليم عند المسلمين؛ ففي هذا العام افتتحت في بغداد أول مدرسة من مجموعة المدارس الكثيرة المنظمة التي أنشأها الوزير السلجوقي العظيم نظام الملك ، وقد انتشرت هذه المدارس في العالم الاسلامي حتى شملت البلدان والقرى الصغيرة ، بالاضافة الى المدارس الكبرى في عواصم الاقاليم ، ثم اقتدى بنظام الملك كثير من الملوك والعظماء في ذلك المضمار على ما سيأتي تفصيله .

وقبل انتشار المدارس كانت حلقات التعليم لا تعقد في أمكنة من طراز واحد ، بل تعقد في أمكنة مختلفة المشارب ، كالمساجد ، ومنازل العلماء ، ودكاكين بيع الكتب ، وغيرها ، فلما انتشرت المدارس وهيئت فيها فرص أوسع للمدرسين والطلاب ، ووجدت فيها نظم مهذبة واستعدادات راقية ، جذبت لها جلة الأساتذة والجمهرة العظمى من الطلاب . وعلى هذا فقد قلّ الاقبال على الأنواع الأخرى التي كانت عامرة من قبل وإن ظلت محتفظة بطابعها . واذاً فقد قل عدد حلقات التعليم قلة ظاهرة في غير المدارس غير أنها ظلت موجودة بعد ذلك مع قلتها وقلة المقبلين عليها .

وعلى هذا ففي دراستنا لأمكنة التعليم سندرس نوعين :

١ ـ أمكنة التعليم قبل انتشار المدارس .

٢ ـ المدارس .

ولن نقف بطبيعة الحال في دراستنا لامكنة التعليم قبل انتشار المدارس عند سنة ٤٥٩ ، بل سنتخطى ذلك ؛ لأن هذه الأمكنة ـ كما قلنا آنفاً ـ استمرت تؤدي مهمتها بعد إنشاء المدارس وانتشارها .

أولا - أمكنة التعليم قبل انتشار المدارس

١ - الكتاب لتعليم القراءة والكتابة

وُجد هذا النوع من الكتاتيب قبل ظهور الاسلام ولو أنه كان قليل الانتشار . وأول من تعلم الكتابة العربية من اهل مكة هو سفيان بن أمية ابن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وقد تعلماها من بشر بن عبد الملك الذي تعلمها من الحيرة [١] ويروي ابن خلدون [٢] « أن الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية واخذها من أسلم بن سدرة » والخط من الصنائع الحضرية كما يقول ابن خلدون [٣] ، وقد تعلمه هؤلاء المكيون من البلاد المتحضرة التي كانوا يرحلون اليها في تجارتهم ، ولكن اول شخص اتخذ تعليم الخط مهنة له في جزيرة العرب هو رجل من وادي القرى أقام بها وعلم الخط قوماً من أهلها [٤] .

وبهذا بدأت القراءة والكتابة تنتشر في جزيرة العرب ولكن انتشارها كان بطيئاً إذ انه لما جاء الاسلام كان عدد القرشيين الذين يستطيعون القراءة والكتابة سبعة عشر رجلاً فقط [٥] ولكن الدين الجديد والنظام السياسي الذي نشأ في أحضانه شجعا الناس على تعلم القراءة والكتابة ، اذ

---

١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٥٧ .
٢) المقدمة ص ٢٩٣ .
٣) المصدر نفسه ص ٢٩٤ .
٤) البلاذري ص ٤٥٧ .
٥) المصدر نفسه .

أصبحتا ضروريتين وبخاصة لذوي الطموح وكبار الآمال الذين كانوا يطمعون ان يشغلوا المناصب للعهد الجديد ، ثم كانت القراءة والكتابة ضروريتين كذلك للذين رغبوا في أن يكونوا رواة لأحاديث الرسول ؛ اذ اعتُبر المكفوفون من المحدّثين غير ثقات ، لعدم استطاعتهم القراءة والكتابة اللتين تعينان على الضبط والدقة [١] . ولما تقدم العهد بالاسلام ، وتُرجمت الدواوين الى اللغة العربية في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، ظهرت وظائف كثيرة ولكن لهؤلاء الذين يجيدون القراءة والكتابة . ثم ظهر بعد ذلك الجاحظ وهو في القمة من الأدباء الكبار الذين رفعوا شأن القراءة والكتابة وأعلوا قدرهما . استمع اليه وهو يقول في رسالة المعلمين [٢] « ولولا الكتاب (الكتابة) لاختلّت أخبار الماضين وانقطعت آثار الغائبين، وانما اللسان للشاهد لك ، والقلم للغائب عنك ، وللماضي قبلك ، والغابر بعدك . فصار نفعه أعم والدواوين اليه افقر . والملك المقيم بالواسطة لا يدرك مصالح اطرافه ، وسد ثغوره ، وتقويم سكان مملكته الا بالكتاب ،ولولا الكتاب لما تمّ تدبير ولا استقامت الأمور ، وقد رأينا عمود صلاح الدين والدنيا انما يعتدل في نصابه ويقوم على أساسه بالكتاب والحساب . »

كل هذا جعل الناس يتجهون نحو تعلم القراءة والكتابة وقد بدأ ذلك منذ مطلع الاسلام وكلما تقدم بهم الزمن جد دافع جديد يحسّن لهم إجادة هذا الفن بل الابداع فيه .

---

١) النواوي : تهذيب الاسماء ص ٧٣

٢) مخطوط ورقة ٨ ب

ولما كان عدد المسلمين الذين يعرفون القراءة والكتابة قليلاً في صدر الاسلام فقد استخدمهم الرسول كلَّهم او جُلَّهم للكتابة بين يديه [١] ، ومن ثم اضطلع الذميون بمهمة تعليم القراءة والكتابة للراغبين في تعلُّمها . وفي غزوة بدر وقع كثير من أهل مكة في الأسر وقد جعل الرسول للقارئين منهم أن يفتدوا أنفسهم بتعليم القراءة والكتابة عدداً من ابناء المسلمين [٢] ومن اجل هذا أصبح من الشائع المتعارَف عليه ان يقوم غير المسلمين بمهنة تعليم القراءة والكتابة [٣] .

وكان هذا النوع من التعليم يجري في منازل المعلمين وربما خصَّص هؤلاء حجرة في بيوتهم لاستقبال الطلاب ، وقد حافظ الكتّاب من هذا النوع في الكثير الغالب على استقلاله التام عن الكتاب الآخر الذي سنتحدث عنه فيما بعد والذي كان يجري به تعليم القرآن الكريم ومبادىء الدين الاسلامي . وكثير من الباحثين لم يفرقوا بين نوعي الكتاب هذين وقرروا أنه كان هناك نوع واحد من الكتاتيب تُتعلم فيه القراءة والكتابة ويُحفظ فيه القرآن وتدرس به علوم الدين . ومن هؤلاء الباحثين الدكتور فيليب حتي الذي يقول [٤] :

« وكان منهاج المدرسة الأولية (الكتّاب) يتركز في القرآن الذي كان يقوم مقام كتاب للمطالعة ليتعلم التلاميذ القراءة ، ثم يختارون منه ما

---

١) انظر البلاذري ١٤٧ ، ٤٥٩ .

٢) الكامل للمبرد طبعة Weight ص ١٧١ .

٣) انظر البلاذري في المواضع السابقة وانظر كذلك : Lammens p. 361

٤) History of the Arabs, P. 408

يكتبون ليتعلموا الكتابة ، ومع القراءة والكتابة كان التلاميذ يتعلمون قواعد اللغة العربية وقصص الأنبياء وبخاصة أحاديث الرسول محمد » وقد قرر الاستاذ احمد أمين هذه النتيجة ايضاً اذ يقول [1] « وبعض المكاتب كان لتعليم مبادىء القراءة والكتابة والقرآن وبعضها كان يعلم فيه ايضاً اللغة وما اليها » .

ولكن النصوص التي حصلت عليها تجعلني اعتقد ان هذا النوع من الكتاتيب حافظ غالباً على استقلاله عن الكتّاب الآخر وبخاصة في بلاد المشرق ، وانا اسوق على هذا من الأدلة ما يدعم هذا الرأي . وهذه الأدلة كما سيرى القارىء متسلسلة في عصور مختلفة مما يدل على ان فكرة الفصل بين الكتّابين ظلت موجودة على مر السنين :

١ ـ وأول هذه الأدلة يتعلق بالعصر الاسلامي الاول وقد سبقت الاشارة اليه وهو ان تعليم القراءة والكتابة كان من اعمال الذميين وأسرى بدر وليس لهؤلاء بطبيعة الحال أية صلة بالقرآن الكريم ولا بالدين الاسلامي ، وقد تلت هذه الفترة حقبة اخرى كان المتعارف عليه فيها أن هذا العمل هو من أعمال الذميين أما من تعلم القراءة والكتابة من المسلمين فقد كان لا يجلس مجلس معلم القراءة والكتابة ، اذ كانت هناك مهام اخطر تنتظره على ما سبق ايراده .

٢ ـ واكثر صراحة من هذا ما يسجله العالم الأندلسي أبو بكر بن العربي (٥٤٢ هـ) في ذلك الموضوع حيث يقول « وللقوم في التعليم سيرة

---

١) ضحى الاسلام ٢ : ٥٠ .

بديعة ، وهي ان الصغير منهم اذا عقل بعثوه الى المكتب فيتعلم الخط والحساب والعربية فاذا حذقه كله او حذق منه ما قدر له خرج الى المقري فلقنه كتاب الله فحفظ منه كل يوم ربع حزب او نصفه او حزبا [1] .

٣ - ثم يجيء ما شاهده الرحالة العظيم ابن جبير (٦١٤ هـ) وسجله في الرحلة [2] ونصه « وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها انما هو تلقين ، ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها تنزيهاً لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو ، وقد يكون في اكثر البلاد الملقّن على حدة لمكتّب على حدة ، فينفصل من التلقين الى التكتيب . لهم في ذلك سيرة حسنة ، ولذلك يأتى لهم حسن الحظ لأن المعلم له لا يشتغل بغيره فهو يستفرغ جهده في التعليم والصبي في التعلّم كذلك » .

٤ - ومثل هذا ما سجله ابن بطوطة [3] (٧٧٩ هـ) اذ يقول : ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الاشعار وسواها ، ولا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً له ، فينصرف الصبي من التعليم الى التكتيب لأن معلم الخط لا يعلم غيره .

٥ - ويقول ابن خلدون [4] (٨٠٨ هـ) « ولتعليم الخط عند أهل المشرق قانون خاص ومعلمون له على انفراده ، كما تُتعلّم سائر الصنائع ، ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان ، واذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن

---

١) احكام القرآن ٢ : ٢٩١ .
٢) ص ٢٧٢ .
٣) تحفة النظار ١ : ٢١٣ .
٤) المقدمة ٣٩٨ .

الاجادة ، ومن اراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة في طلبه ويبتغيه من أهل صنعته .

وعلى هذا فقد كان هذا النوع من الكتاتيب أسبق أنواع المعاهد التعليمية وجوداً في العالم الاسلامي ، وقد اشتُق اسم هذا المعهد (الكتّاب) من التكتيب وتعليم الكتابة ، وهي المهمة التي اضطلع بها ، ويؤيد ذلك ما ورد في اللسان [1] من ان « الكتّاب موضع تعليم الكتاب » أي الكتابة وهذا ايضاً يؤيد ما ذهبنا اليه من ان الكتاب وجد متصلاً في الغالب بتعليم الكتابة والقراءة ولا شيء سواهما ، ولما كان الصبيان هم الذين يتعلمون في هذا الكتّاب وهم الذين يتعلمون في المعهد الآخر الذي كان مخصصاً لتعليم القرآن والدين فقد كان ذلك سبباً في أن اطلق اسم الكُتّاب على المعهد الثاني ايضاً ثم شاع هذا الاطلاق واصبح اسم الكتاب يطلق على لمعهد الذي يتعلم فيه الصبيان أياً كان الموضوع الذي يتعلمونه قرآناً كان او قراءة وكتابة ، ومن هنا خالف المبردُ صاحبَ اللسان وعرف المكتب بأنه « موضع التعليم » [2] غير ان هذا لا يعني بطبيعة الحال ان المعهدين التقيا واصبحا معهداً واحداً .

---

١) ٢ : ١٩٣

٢) لسان العرب ٢ : ١٩٣

٢ ـ الكُتّاب لتعليم القرآن ومبادىء الدين الاسلامي

كتب Goldziher مقالا هاماً في دائرة معارف الأديان والأخلاق عن التعليم الأولي عند المسلمين ، وقد حاول فيه أن يثبت أن كُتّاب تعليم القرآن ومبادىء الدين الاسلامي قد أنشىء في عهد مبكر وأنه يرجع الى صدر الاسلام ، وقد دعم رأيه بالأسانيد الآتية :

١ ـ أرسلت أم مسلمة ، إحدى زوجات الرسول مرة الى معلم كتّاب تطلب منه ان يرسل لها بعض تلاميذ كتّابه ليساعدوها في ندف الصوف وغزله .

٢ ـ كان عمر بن ميمون يحفظ الصيغة التي تقي الانسان شر العين وقد أسندها الى سعد بن ابي وقاص الذي كان يعلمها أولاده ويكتبها لهم كما يفعل المدرس مع تلاميذه .

٣ ـ مرّ ابن عمر وابو أُسيد في مناسبة ما بكتّاب فلفتا اليهما انظار التلاميذ .

٤ ـ كان اللوح المخصّص للكتابة موجوداً في وقت مبكر جداً ؛ فلقد رُوي عن ام الدرداء أنها كتبت على لوح من هذا النوع عبارات في الحكمة ليقلدها تلميذ كانت تعلمه الكتابة والقراءة [١] .

ذلك مجمل ما ادلى به العلامة Goldziher من براهين ، و Goldziher لم يميز بين نوعي الكُتّاب ، ومن اجل هذا اتخذ أية اشارة الى اللوح او

---

(١) Encyclopaedia of Religions and Ethics v P. 199.

الكُتّاب كأنها دليل على أن كتاب تعليم القرآن قد ظهر للوجود في وقت مبكر . ولكني اعتقد ان هذا المعهد نشأ في عهد متأخر نوعاً ما وان المقصود من الكتّاب في العبارات التي اوردها Goldziher انما هو كتّاب تعليم القراءة والكتابة ، وقد ظهر هذا بشكل واضح في الدليل الثاني والرابع اللذين نُصّ فيهما على تعليم الكتابة وعلى التدريب عليها باستعمال صيغة الرقية او عبارات الحكمة .

والذي دعاني الى الاعتقاد ان الكتاب الذي نتحدث عنه الآن لم يظهر في وقت مبكر ، ان منهاجه مبنيٌّ على القرآن ، مما يجعل وجوده متوقف على وجود حَفَظَةٍ للقرآن الكريم . وهذا يدعونا الى أن نُبرزَ حقيقةً هامة وهي ان حِفظَ شخص للقرآن في العهد الاسلامي المبكر كان نادراً جداً ؛ يقول ابن العربي [1] « ومنهم [من المتعلمين] ، وهم الأكثر ، من يؤخر حفظ القرآن ويتعلم الفقه والحديث وما شاء الله فربما كان اماماً وهو لا يحفظه ، وما رأيت بعيني إماماً يحفظ القرآن ، ولا رأيت فقيهاً يحفظه الا اثنين » وقد اتجه المتعلمون هذا الاتجاه لأن القرآن رسمه لهم في الآية الكريمة « كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته » [2] اذ فهموا أنه لم يكن المقصود الحفظ وانما التدبر والتفكير والعمل بهدي القرآن ، يروي السيوطي [3] « أن الرجل من الصحابة كان يحفظ من القرآن عشر آيات ثم لا يتجاوزها حتى يفهم معناها ويؤدي ما طلب فيها » وعلى هذا أمضى ابن عمر

---

١) أحكام القرآن ٢ : ٢٩١

٢) سورة ٣٨ آية ٢٨

٣) الاتقان في علوم القرآن ٢ : ٢٠٨

ثماني سنوات في حفظ سورة البقرة واخرج ابن اشته في المصاحف بسند صحيح عن محمد ابن سيرين قال مات أبو بكر ولم يجمع القرآن وقتل عمر ولم يجمع القرآن قال ابن اشته قال بعضهم يعني لم يقرأ جميع القرآن حفظاً [1] وروى ابن حنبل في مسنده [2] أنه «كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا يعني عَظُم»

وحتى أولئك الذين حفظوا القرآن من الصحابة فقد كانت تنتظرهم أعمال أعظم ومهام أضخم من تعليم الاطفال . يقول ابن خلدون [3] « ثم ان الصحابة كلّهم لم يكونوا أهل فتيا ، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم ، وانما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن ، العارفين بناسخه ومنسوخه ، ومتشابهه ومحكمه ، وسائر دلالته ، بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم او ممن سمعه منهم من السابقين ، وكانوا يُسمَّون لذلك القراء ، اي الذين يقرأون الكتاب ، لأن العرب كانوا أمة أمية فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ ، وبقي الأمر كذلك زمناً ، ثم عظمت أمصار الاسلام ، وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب ، وتمكن الاستنباط ، وكمل الفقه ، وأصبح صناعة وعلماً ، فبدلوا اسم الفقهاء والعلماء من القراء » .

والنتيجة التي تقرر الآن هي ان الكتّاب من هذا النوع لم يظهر خلال العهد المبكر للاسلام بل كانت قلة من الاطفال يتعلمون عن طريق

---

١) الاتقان في علوم القرآن ٢ : ٢٠٨ .
٢) ج ٣ ص ١٢٠
٣) المقدمة ٣١٣ .

الاندساس بين الكبار في حلقات المساجد كما كان يفعل علي بن أبي طالب وعبدالله بن عباس ، أما جمهرة الأطفال فكانوا يتلقون القرآن عن آبائهم وذويهم ، أو عن معلمين خصوصيين ، ومن هنا يمكن تفسير ظاهرة هامة؛ هي ان النصائح التي كانت تتصل بتعليم الاطفال كانت توجه لا الى معلمي الكتاتيب كما حدث فيما بعد ، بل الى الآباء والمدرسين الخصوصيين كما سيظهر من النصائح التي حدّدت منهاج التعليم لهؤلاء الأطفال والتي وجهها ولاة الأمور للآباء والمؤدبين وسنورد فيما بعد نماذج منها .

واذا كان الكتّاب من هذا النوع لم يظهر في العهد الاسلامي المبكر فمتى ظهر ؟ لقد حاولت في دراستي ان أحدد تاريخاً تقريبياً لنشأة هذا المعهد ، وانتهيت في محاولاتي الى ان هذا الكتّاب كمعهد عام كان تطوراً لتعليم أولاد الملوك والعظماء في قصور ذويهم ، وأن الحجاج بن يوسف الثقفي كان خطوة في مراحل التطور في ذلك الموضوع ، والذي يدعو الى هذا الاعتقاد ان اسم الحجاج كمعلم لم يرد - فيما أعرف - مرتبطاً بكلمة كتّاب ، وانما بكلمة صبيان ، فيقال له في جميع المراجع « معلم صبيان » ومن هنا تنشأ فكرة أن الكتّاب من هذا النوع لم يكن قد وُجد في ذلك الوقت ، اما صلة الحجاج بتعليم الصبيان فيحددها القزويني [1] بقوله : « ان الحجاج كان في اول أمره معلماً لوشاقية سليمان بن نعيم ، وزير عبد الملك بن مروان ، فاختاره سليمان ليعمل في بلاط عبد الملك حيث ترقى فيه ... » [كلمة وشاقية فارسية ومعناها الأولاد والاتباع] .

---

١) أخبار البلاد وآثار العباد ص ٦٥ .

ومن ذلك يفهم ان الحجاج كان مؤدباً الا انه خطا خطوة جديدة فلم يعد مؤدباً لأولاد الخاصة فقط ، ولكن لأتباعهم أيضاً ، ولم يكن مشرفاً على فرد او فردين كما كان العهد بالمؤدبين ، وانما اصبح مشرفاً على عدد من الاولاد الأتباع . ولكن المسألة لم تصل الى حد تكوين الكتّاب ، وبهذا نستطيع التوفيق بين الروايات والظروف المختلفة لهذه المسألة [1] . وهناك شيء آخر يدعم الاتجاه الذي نميل اليه ، وهو ما ورد عن كتاب أبي القاسم البلخي [2] من أنه كان يتعلم به ٣،٠٠٠ تلميذ ومثل هذا العدد الضخم يوحي بان هذا النوع من الكتاتيب كان ـ في نهاية القرن الاول ومطلع

---

١) ليس من المسلم به ما ذكره ابن خلكان (١ : ١٧٣) من ان الحجاج واباه كانا يعلمان الصبيان بالطائف ، وقد اورد ابن نباتة ما يوحي بالتشكيك في رواية ابن خلكان ، قال في سرح العيون (١٠٢ ـ ١٠٤) :

وزعم بعض الرواة ان الحجاج كان اول امره معلم صبيان ويسمى كليباً وفيه يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلك دائر وآخر كالقمر الازهر

وعلق ابن نباتة على ذلك بقوله : وبعض الرواة ينكر هذا القول ويقول هذه من اكاذيب الشعراء .

ويروي ابن نباتة كذلك ان يوسف بن ابي عقيل الثقفي كان رجلا نبيلا ، جليل القدر ، ويستدل على ذلك بأنه لما هم بالخروج لعبد الملك ومعه الحجاج ، اقبل سليم بن عمرو القاضي ، وكان من اورع الناس واتقاهم ، فقام اليه يوسف فسلم عليه ، وقال له : اني أريد ان آتي أمير المؤمنين فان كان لك حاجة فاعلمني . . . . . ولما انصرف القاضي قال الحجاج لأبيه : من هذا الذي قمت اليه ؟ فقال : يا بني هذا سليم بن عمرو القاضي . فقال الحجاج : يغفر الله لك يا ابت ، أنت ابن ابي عقيل تقوم الى رجل من كندة .

فرجل هكذا مكانته من عبد الملك ومكانته في أهله لا يعقل ان يكون رزقه من الرغفان التي ترد مختلفة الاحجام والاشكال من بيوت الناس ، هذا الى ان تسمية الحجاج كليباً ليست من المسلم به ايضاً . وقد شكك في ذلك ابن نباتة كما سبق .

(٢) ياقوت ، معجم الادباء ٤ : ٢٧٢ .

الثاني ـ حديث الوجود وقليل الانتشار مما دعا الى ان يؤمّه جمهرة عظيمة من التلاميذ .

أما عن المكان الذي كان يوجد به الكتاب من هذا النوع ، فقد وردت توصيات كثيرة بألا يكون في المسجد ؛ ومن ذلك ما قاله الامام مالك حينما سئل عن ذلك « لا أرى ذلك يجوز لأن الأطفال لا يتحفظون من النجاسة » [١]

وقد ورد في كتب الحسبة ما يؤيد ذلك فقد نصت على أنه « لا يجوز تعليم الأطفال في المسجد لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات بل يتخذون للتعليم حوانيت في الدروب وأطراف الأسواق » [٢] .

واضاف الحصان [٣] قوله « ويُمنَع المعلمون من التعليم في المساجد » .

ولكن على الرغم من كل هذا التحذير اتخذ المعلمون لهم زوايا بالمساجد ، وغرفاً ملتصقة بها لتعليم الاطفال ، مهملين لسبب او لغيره هذه التوصيات الواضحة . والذي يقرأ رحلة ابن جبير ، ورحلة ابن بطوطة ، يجد ذكراً لكثير من الحلقات التي التف فيها الاطفال في المسجد حول معلم يعلمهم القرآن ، وقد ذكر ابن حوقل [٤] أمثلة اخرى لهذا النوع .

وبجانب الكتاتيب التي اتخذت بالمسجد او التصقت به نجد كتاتيب

---

١) التعليم عند القابس ٦٧ ب مخطوط .

٢) الشيزري : نهاية الرتبة ص ١٠٣ ، القرشي : معالم القربة ص ١٧٠ وانظر ايضاً ابن عبدون محمد التجيبي Journal Asiatique, Tome cc XXIV of 1934

٣) الحسبة ص ١٢٤ .

٤) كتاب صورة الارض ١٢١ ، ١٢٧ .

اخرى قامت مستقلة تمام الاستقلال يحدثنا الامام الشافعي عن احدها فيقول: كنت يتيماً في حجر أمي فدفعتني في الكتاب .... فلما ختمت القرآن دخلت المسجد [١] . وهناك كتّاب هام سبقت الاشارة اليه ، وهو كتّاب أبي القاسم البلخي ، وكان يتعلم به ٣،٠٠٠ تلميذ ، وتدل رواية ياقوت [٢] على ان هذا الكتاب بجانب استقلاله عن المسجد كان فسيحاً جداً ليتسع لهذا العدد الكبير ولهذا كان يحتاج البلخي ان يركب حماراً ليتردد بين هؤلاء وأولئك ، وليشرف على جميع تلاميذه . وكان هناك بلخي آخر اسمه احمد بن سهل (٣٢٢ هـ) وكان فاضلا قائماً بجميع العلوم القديمة والحديثة يسلك في مصنفاته طريقة الفلاسفة الا انه بأهل الأدب اشبه ، وكان معلماً للصبيان ثم رفعه العلم الى مرتبة علية [٣] ... وازداد عدد الكتاتيب وعدد المعلمين في القرن الثاني الهجري وما تلاه من قرون ، وكانت زيادة سريعة وضخمة حتى اصبح بكل قرية كتّاب بل ربما وجد فيها اكثر من كتّاب ، وقد ذكر ابن حوقل [٤] أنه عدّ حوالي ٣٠٠ معلم كتاب في مدينة واحدة هي مدينة بُلُرم في صقلية [٥] .

---

١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ١ : ٩٨ .
٢) معجم الادباء ٤ : ٢٧٢ .
٣) المرجع السابق ١ : ١٤١ ـ ١٥٢ .
٤) كتاب صورة الارض ١ : ١٢٦ .
٥) يبدو لي ان هؤلاء المعلمين كانوا يعلمون في اقل من ٣٠٠ كتاب ، اذ ذكر ابن حوقل نفسه ص ١٢٩ انه رأى كتاباً واحداً يقوم بالعمل فيه خمسة من المعلمين ومن المحتمل ان يكون ذلك متكرراً في كتاتيب اخرى ؛ وعلى هذا فيجدر ان يصحح ما ذكره Earnst Diez في مقاله بدائرة المعارف الاسلامية تحت عنوان (مسجد) من ان ابن حوقل عد في بلرم ٣٠٠ كتاب .

اما المنهاج المبكر الذي وضع لتعليم الاطفال فقد كتبه عمر بن الخطاب وبعث به الى ساكني الأمصار وهو : اما بعد فعلموا اولادكم السباحة والفروسية وروّوهم ما سار من المثل وحسن من الشعر [1] وكان ابن التوأم يقول : من تمام ما يجب على الآباء من حفظ الأبناء ان يعلموهم الكتاب والحساب والسباحة [2] .

ولما انشئت الكتاتيب وتولى حفظة القرآن العمل بها ، اصبح القرآن الكريم نقطة الارتكاز في هذه الدراسة الابتدائية ، وتبعته بعض المواد الأخرى ، فيوصي الغزالي بأن يتعلم الطفل في المكتب القرآن ، وأحاديث الأخيار ، وحكايات الأبرار واحوالهم ، ثم بعض الاحكام الدينية ، فالشعر على ان يحفظ الطفل من الأشعار التي فيها ذكر العشق واهله [3] . ويضيف ابن مسكوية [4] مبادىء الحساب ، وقليلاً من قواعد اللغة العربية ، ويضع الجاحظ [5] منهاجاً مفصلاً هاك بعضه : « ولا تشغل قلب الصبي بالنحو الا بقدر ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام ، في كتاب ان كتبه ، وشعر ان انشده ، وشيء ان وصفه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو اولى به ؛ كرواية الخبر الصادق ، والمثل الشاهد ، والمعنى البارع ، ويعرف بعض الحساب دون الهندسة والمساحة ، ويعلم كتابة الانشاء بلفظ سهل وعبارة حلوة ، ويحذر التكلف ، ويحثه ـ في قراءة كتب

---

١) البيان والتبيين ٢ : ٩٢
٢) المصدر السابق .
٣) الغزالي : الاحياء ٣ : ٥٧
٤) تهذيب الاخلاق ص ٢٠
٥) رسالة المعلمين مخطوط ورقة ١٣، ١٤

البلغاء ـ ان يستفيد المعاني لا الألفاظ » .

ولا يمكن ان يقبل الباحث ما ورد في دائرة المعارف الاسلامية [1] من ان « الادب كان الموضوع الرئيسي الذي يعلّم للاطفال مما دعا الى ان تسمى الكتاتيب مجالس الادب » وقد ذكر Earnst Diez ان مرجعه في هذا الاقتباس هو الاغاني ١٨ : ١٠١ ، ولكن الاغاني لا يعني هذا من قريب او من بعيد ؛ فكل ما ورد فيه هو حديث الحسين بن عبد الله بن جبلة الذي يقول فيه : « كان لجدي اولاد ، وكان عليٌّ اصغرهم ، وكان الشيخ يَرِقُّ عليه ، فجدر ، فذهبت احدى عينيه في الجدري ، فأسلِم في الكتّاب ، فحذق بعض ما يحذقه الصبيان ، فحمل على دابة ، ونُثر عليه اللوز ، فوقعت على عينه الصحيحة لوزةٌ ، فذهبت ، فقال الشيخ لولده : انتم لكم ارزاق من السلطان ، فان اعنتموني على هذا الصبي ، والا صرفت بعض ارزاقكم اليه ، فقلنا : وما تريد ؟ قال : تختلفون به الى مجالس الأدب » فمجالس الأدب انضم اليها علي بن جبلة بعد ان اتم دراسته بالكتاب بتفوق ، فهي مرحلة اخرى غير مرحلة الكتاب .

وما ذكرناه هنا عن منهاج تعليم الاطفال ، هو المنهاج العام ، ولكن اختلافاً جزئياً كان يحدث تبعاً لاختلاف الامكنة وللعناية ببعض العلوم وتقديمها على البعض الآخر ، وقد اوضح ابن خلدون ذلك في فصل عقده بالمقدمة [2] وعنوانه « تعليم الوُلدان واختلاف مذاهب الأمصار الاسلامية في طرقه » ويمكن تلخيصه فيما يلي : تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر

---

١) ٣ : ٣٦٠

٢) ص ٣٩٧ ـ ٣٩٩

الدين ، اخـذ به اهل الملة ، ودرجوا عليه في جميع امصارهم ، لما يسبق الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده بسبب آيات القرآن ومتون الاحاديث ، وصار القرآن اصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات ، واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للوُلدان ؛ فأما اهل الغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط ، مع العناية برسمه ، واختلاف حملة القرآن فيه ، ولا يخلطون ذلك بسواه في مجالس تعليمهم ، لا من حديث ، ولا من فقه ، ولا من شعر ، ولا من كلام العرب .

واما اهـل الاندلس فمذهبهم تعليم القرآن والـكتاب من حيث هو ، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم ، فلا يقتصرون على القرآن ، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر ، والترسل ، واخذهم بقوانين العربيـة ، وتجويد الخط ، ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه بل عنايتهم فيه بالخط اكثر من جميعها .

واما اهل افريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ، ومدارسة قوانين العلوم (اي العلوم الدينيـة) ، وتلقين بعض مسائلها ، الا ان عنايتهم بالقرآن ، واستظهار الولدان اياه ، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته اكثر ، وعنايتهم بالخط تبع لذلك .

واما اهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك .

هذا وقد كان المعلمون يعنون عناية خاصة بتحفيظ الفتيـات سورة النور [1]

---

١) البيان والتبيين ٢ : ٩٢

ونختم هذا القسم بأن نذكر أسماء بعض المعلمين الموهوبين الذين بدأوا حياتهم معلمين للاطفال ، ثم خطت بهم مواهبهم فأصبحوا لامعين في المجتمع الاسلامي ، وانتقلوا الى مكانة جديدة ضمنت لأسمائهم الخلود وهم :

الضحاك بن مزاحم	١٠٥ هـ
الكميت بن زيد	١٢٦ هـ
عبد الحميد الكاتب	١٣٢ هـ

٣ – التعليم الأولي بالقصور

كان من الجلي الواضح عند المسلمين منذ العصور الأولى أن تتلوّن مناهج التعليم تبعاً لمستقبل المتعلمين وما ينتظرهم من مهام [١] . وفي ضوء هذه الفكرة وُجِدَ نوع من التعليم الابتدائي بقصور الخلفاء والعظماء ، يجد أبناء هؤلاء فيه ما يؤهلهم لتحمل الاعباء التي سينهضون بها في المستقبل . فهذا النوع من التعليم مرتبط بالنوع الذي سبقه اذ أن كلا منهما مهمته تغذية الصبيان بنوع من الثقافة وقسط من المعرفة ، ولكن التعليم الأولي بالقصور ينبسط ويجاوز هذا الحد ؛ فالمنهاج هنا يضعه أو يشارك الأبُ في وضعه ليكون ملائماً لابنه ، والمعلم هنا لا يسمى معلم صبيان أو معلم كتاب ، وانما يطلق عليه لفظ « مؤدب » وقد « اشتق اسم المؤدب من الادب والادب لما خلق واما رواية وقد أطلقوا كلمة مؤدب على معلمي اولاد الملوك اذ كانوا يتولون الناحيتين جميعاً [٢] ثم إن المتعلم هنا يظل يتلقى

---

١) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه جـ١ ص٢٦٣ ومحاضرات الادباء للاصفهاني جـ١ ص ٢١

٢) رسالة المعلمين للجاحظ : مخطوط ظهر الورقة رقم ١١

العلم حتى يجاوز عهد الصبى ، وينتقل من مستوى تلميذ الكتاب ، الى مستوى الطالب في حلقات المساجد أو المدارس .

ويمتاز هذا التعليم بلون آخر ذي أهمية كبرى ؛ ذلك هو ان المؤدب كثيراً ما كان يخصَّص له جناح في القصر يعيش فيه ، ليكون اشرافه على الأمير أحكم وأشمل ، قال احمد بن يحيى ابو العباس ثعلب : أقعدني محمد ابن عبدالله ابن طاهر مع ابنه طاهر ، وأفرد لي داراً في داره ، واقام لنا وظيفة ، فكنت اقعد معه الى اربع ساعات من النهار ، ثم انصرف اذا اراد الغداء ، فنما ذلك الى ابيه ، فكسا البهو والاروقة وضاعف ما كان يعد من الالوان فلما حضر وقت الانصراف انصرفت ، فنُمي ذلك اليه ، فقال للخادم الموكل بنا : قد نمى اليَّ انصرافُ احمد بن يحيى فظننت انه يستقل ما يحضر ولم يستطب الموضع فأمرنا بتضعيفه ثم نمى اليَّ انه انصرف فقل له : أبيتك ابرد من بيتنا ؟ او طعامك اطيب من طعامنا ؟... فلما عرفني الخادم ذلك أقمت فكنت على هذه الحال ثلاث عشرة سنة [1] .

وتتضح من وصية عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده الأهداف التي حفزت الوالد ان يمهد لمؤدب ولده ان يعيش معه ، تلك الاهداف التي تتجاوز التعليم لتشمل ان يربِّيَ المؤدبُ عقلَ الولد وقلبه وجسمه . يقول عبد الملك علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفلة فانهم أسوأ الناس رعة [2] ، واقلهم ادباً ، وجنبهم الحشم فانهم لهم مفسدة ، وأحفِ

---

١) ياقوت طبعة فريد رفاعي ٥ : ١٢٥ ـ ١٢٦ .
اما طبعة Margolioth التي اعتمدنا عليها في هذا البحث فغير دقيقة في ذلك الموضع انظر الجزء الثاني منها ص ١٤٤ .

٢) يقال سيىء الرعة اذا كان قليل الورع .

شعورَهم تغلظ رقابهم ، وأطعمهم اللحم يقووا ، وعلمهم الشعر يَمْجُدوا ويَنْجُدُوا ، ومرهم ان يستاكوا عرضا ، ويمصُّوا الماء مصّاً ولا يعبوه عبا ، واذا احتجت الي أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في ستر ، لا يعلم به أحد من الفاشية فيهونوا عليه [1] .

أما منهاج التعليم لهذه الطبقة فانه يلتقي في أسسه العامة بمنهاج التعليم الذي وضع لجميع الصبيان ، مع بعض الحذف او الاضافة استجابة لتوجيه الوالد ، وتمشيا مع الرغبة في اعداد هذا الصبي اعداداً خاصاً يناسب الاهداف والمسئوليات التي ستواجهه في مستقبل حياته ، وفيما يلي امثلة للمناهج والارشادات التي وضعها الآباء بين ايدي المؤدبين ليسيروا في ضوئها وليعملوا على تحقيقها :

١ ـ قال عمرو بن عتبة لمؤدب ولده : ليكن أولَ اصلاحك لولدي اصلاحُك لنفسك ؛ فان عيونهم معقودة بك : فالحسن عندهم ما صنعت والقبيح عندهم ما تركت ؛ علِّمهم كتابَ الله ولا تُملَّهم فيه فيتركوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، روِّهم من الحديث أشرفَه ، ومن الشعر أعفَّه ، ولا تنقلهم من علم الى علم حتى يُحكموه ؛ فان ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم ، وعلمهم سنن الحكماء ، وجنبهم محادثة النساء ، ولا تتكل على عذر مني لك فقد اتكلت على كفاية منك [2] .

---

١) ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢ : ١٦٧

٢) العقد الفريد ١ : ٣٦٣

وردت هذه الوصية في عيون الاخبار لابن قتيبة (٢ : ١٦٦) منسوبة الى عتبة بن ابي سفيان ، وموجهة لعبد الصمد مؤدب ولده ، ومغايرة في بعض أجزائها للنص المنسوب الى عمرو ابن عتبة ، وهاك نصها في عيون الاخبار : ليكن إصلاحك بني إصلاحك نفسك ؛ فإن عيوبهم

٢ ـ قال هشام بن عبد الملك لسليمان الكلبي لما اتخذه مؤدباً لابنه : ان ابني هذا هو جلدة ما بين عيني ، وقد ولّيتك تأديبه ؛ فعليك بتقوى الله ، وأداء الأمانة ، وأولُ مـا اوصيك به ان تأخذه بكتاب الله ، ثم روِّه من الشعر أحسنه ، ثم تخلل بـه في أحياء العرب فخـذ من صالح شعرهم ، وبصِّـرْه طرفاً من الحلال والحرام والخطب والمغازي [١] .

٣ ـ ومن أحسن المناهج التربوية التي قدمهـا الآباء للمؤدبين ذلك المنهج الشامل الذي تقدم بـه الرشيد للأحمر معلم ولده الأمين ولي عهده والخليفة من بعده ، وفيه يقول : يا احمر ، ان امير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصيَّرَ يدَك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك امـير المؤمنين ؛ أقرئه القرآن ، وعرفه الاخبـار ، وروِّه الاشعار ، وعلِّمه السنن ، وبصِّره بمواقـع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك الا في اوقاته ، وخـذه بتعظيم مشايـخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ، ورَفْعِ مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمرَّنَّ بك ساعـة الا وانت مغتنم فائدة تفيده اياهـا من غير ان تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعنْ في مسامحته فيستحـلي الفراغ ويألفه ، وقوِّمه مـا استطعت بالقُرَب والملاينة ، فان اباهما فعليك بالشدة والغلظة [٢] .

وقد خطا الفاطميون في هذا المجال خطواتٍ اوسع فأنشأوا في قصورهم

معقودة بعيبك ، فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح ما استقبحت ، وعلمهم سير الحكماء ،وأخلاق الأدباء ، وتهددهم بي ، وأدبهم دوني ، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء ، ولا تتكل على عذر مني فاني قد اتكلت على كفاية منك .

١) الاصفهاني : محاضرات الادباء ١ : ٢٩ .

٢) المقدمة ٣٩٩ ـ البيهقي : المحاسن والمساوىء ٦١٧ .

مدارس خاصة يلتحق بها اولاد علية القوم وسراتهم ، ويسير المؤدبون في تثقيف هؤلاء الصبيان على منهاج خاص ، يرمي الى اعدادهم لخدمة الخلفاء وشغل المناصب الرئيسية في دولة الخلافة [١] .

وكانت هذه الوظيفة (وظيفة المؤدب) جذابة للغاية ؛ تضع من يشغلها في مكانة عالية وتخلع عليه حلة من الجلال ، ومع هذا فقد اباها بعض العلماء ويروي ابن الانباري ان سليمان بن علي وَجَّه وهو بالاهواز الى الخليل بن احمد لتأديب ولده ، فأخرج الخليل الى رسول سليمان خبزاً يابساً ، وقال : كلْ فما عندي غيره ، وما دمت اجده فلا حاجة لي الى سليمان . فقال له الرسول : فما ابلغه ؟ فأنشأ :

ابلغ سليمان أنّي عنه في سَعَةٍ وفي غنى ، غير اني لست ذا مال
والفقر في النفس لا في المال تعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال [٢]

وقد فعل عبد الله بن ادريس نظير ذلك فلم يقبل أن يخص المأمون بدرس ، وان سعى له المأمون ، وكان جوابه للرشيد وقد رجاه أن يحدث المأمون ان قال :

« ان جاءنا مع الجماعة حدثناه » [٣]

٤ – حوانيت الوراقين

لعل من الممكن ان نربط بين اسواق العرب في الجاهلية : عكاظ ومجنة وذي المجاز ، وبين دكاكين بيع الكتب في الاسلام ، ففي تلك

١) المقريزي ١ : ٤٤٣ – ٤٤٤ .
٢) طبقات الادباء ٥٧ – ٥٨ .
٣) ابن جماعة ص ٢١١ بالهامش .

الاسواق كان العرب يجتمعون للقيام ببعض الصفقات التجارية ، ولكنهم كانوا ينتهزون فرصة هذا الاجتماع ليقوموا بنشاط رائع في الناحية الأدبية ؛ فينشدون الاشعار ، ويعقدون المناظرات ، ويلقون الخطب الرنانة [١] . وحاكتها في ذلك دكاكين بيع الكتب ؛ هذه الدكاكين التي فتحت في الاصل لاعمال تجارية ، ثم اذا هي تصير مسرحاً للثقافة والحوار العلمي ، عندما امها المثقفون والادباء ، واتخذوا منها مكاناً لاجتماعاتهم وابحاثهم .

ولم تكن دكاكين بيع الكتب محاكاة تامة لاسواق العرب في الجاهلية ، ومن ابرز نقط الخلاف بين الاثنين ان الاجتماعات الثقافية كانت يومية في دكاكين بيع الكتب ، على حين كانت سنوية في اسواق العرب .

وقد ظهرت دكاكين بيع الكتب منذ مطلع الدولة العباسية [٢] ، ثم انتشرت بسرعة انتشاراً ملحوظاً في العواصم والبلدان المختلفة بالعالم الاسلامي ، وحفلت كل مدينة بل كل محلة بعدد وافر منها ؛ ذكر اليعقوبي [٣] في جملة كلامه عن ارباض بغداد « . . . ثم ربض وضاح مولى امير المؤمنين . . . . . وبه اكثر من مائة حانوت للوراقين » وكان في مصر في عهد الطولونيين والاخشيديين سوق عظيمة للوراقين تعرض فيها الكتب للبيع وأحياناً تدور في دكاكينها المناظرات [٤] وقد تعرض المقريزي في مواضع كثيرة من كتابه الخطط للحديث عن هذه المحال [٥] .

---

١) انظر الاغاني ٤ : ٣٥ وانظر كذلك ابو الفدا ٢ : ٢٣٠

٢) Hitti : History of the Arabs P. 414.

٣) البلدان ص ١٧ .

٤) ابن زولان : أخبار سيبويه المصري ٣٣ ، ٤٤ خط ١٤٦١ تاريخ تيمور بدار الكتب .

٥) ١ : ٣٦١ ، ٢ : ٩٦ ، ١٠٢ .

ولم يكن بائعو الكتب مجرد تجار ينشدون الربح ، وانما كانوا ـ في اغلب الاحايين ـ ادباء ذوي ثقافة يسعون للذة العقلية من وراء هذه الحرفة التي كانت تتيح لهم القراءة والاطلاع ، وتجذب لدكاكينهم العلماء والادباء . وعلى هذا فقد حفلت قائمة اسماء الوراقين بشخصيات لامعة ؛ كابن النديم صاحب الفهرست [١] ، وعلي بن عيسى المعروف بابن كوجك ، وقد ذكر عنه ياقوت [٢] انه كان وراقاً ، وكان اديباً فاضلا ، وقد ألف عدة كتب ، وكياقوت مؤلف معجم الادباء ومعجم البلدان [٣] .

ولم تكن مهنة الوراقة في عهد الدولة العباسية تقف عند حد الصفقات التجارية وبيع الكتب ، وانما كانت تتعدى ذلك الى مهام ثقافية بالغة الأهمية في ذلك الحين ؛ إذ كان الوراقون هم الذين ينسخون الكتب الهامة ويعرضونها للراغبين فيها ، ويتقاضون على ذلك أجراً متواضعاً متوسطه دينار عن كل كتاب [٤] . وكان الجاحظ ـ كما حدّث بذلك أبو هفان الراوية ـ يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر [٥] ثم ـ وذلك ما

---

١) ياقوت : معجم الادباء : ٦ : ٤٠٨

٢) معجم الادباء ٥ : ١٧٩ .

٣) ابن خلكان : ٢ : ٣١١ ـ ٣١٢ .

ولا تزال حتى الوقت الحاضر نجد في كثير من البلاد العربية علماء أفاضل يشتغلون بهذه المهنة، وقد تحدث السندوبي وهو يقدم كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي عن واحد من هؤلاء فقال: عرفت رجلا يبيع الكتب في خان الخليلي يسمى الشيخ عبد الملك الفشني ، وكان على علم ومعرفة وسعة اطلاع ، وكان يدلني بصدق واخلاص على ما يلزمني من الكتب القيمة والاسفار النافعة،وقد كان يذاكرني في المسائل العلمية والأدبية ، وينبه ذهني الى حقائق الأشياء ، ودقائق الأمور ، ويشير علي بما يجب ان أقرأه من الكتب ، ويدلني على الكيفية التي توصلني الى الانتفاع بها انتفاعاً ناجحاً مثمراً .

٤) Ameer Ali : *A short History of the* Saracens p. 460.

٥) ياقوت ٦ : ٥٦ .

يعنينا أن نوضحه هنا بشيء من التفصيل ـ كانت حوانيت الوراقين مغدًى ومراحاً للطلاب والعلماء ، يتذاكرون فيها ويتناقشون ، وقد مرّ في السطور السابقة اشارةٌ لهذه الحقيقة ، ولكنا نوضحها هنا ببضعة أمثلة قليلة أخرى :

١ ـ كان ياقوت الحموي يتاجر في الكتب ويزور أسواق الوراقين ليعرض تجارته ، وكان متعصباً على علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، وكان قد طالع شيئاً من كتب الخوارج فاشتبك في ذهنه منه طرفٌ قوي ، وتوجه الى دمشق في سنة ٦١٣ ، وقعد في بعض اسواقها ، وناظر بعض من يتعصب لعلي ... ١)

٢ ـ كان من عادة الامامين الشهيرين ابي الفرج الاصفهاني وابي نصر الزجاج أن يلتقيا كثيراً في دكان في سوق الوراقين ، وفي احدى جلساتهما كان ابو الحسن علي بن يوسف الشاعر جالساً عند ابي الفتح بن الحزاز الوراق وهو ينشد أبيات ابراهيم بن العباس الصولي التي يقول فيها :

رأى خَلَّتي من حيث يخفى مكانُها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

فلما بلغ اليه استحسنه وكرره ؛ حدَّث أبو نصر الزجاج قال : قال لي أبو الفرج : قم اليه فقل له : قد اسرفت في استحسان هذا البيت ، وهو كذلك ، فأين موضع الصنعة فيه ؟ فقمت فقلت له ذلك فقال : قولُه « وكانت قذى عينيه » فعدت الى الاصفهاني وعرفته ذلك فقال : عد اليه فقل له اخطأت . الصنعةُ في قوله « من حيث يخفى مكانها » ٢)

---

١) ابن خلكان ٢ : ٣١١ .
٢) ياقوت ٥ : ١٥٧ : ١٥٨

٣ ـ ووصف ابن الجوزي (٥٩٧ هـ) سوق الوراقين ببغداد في زمنه بقوله : انها سوق كبيرة وهي مجالس العلماء والشعراء [١] .

٤ ـ اما سوق الكتبيين بمصر فالمقتبس الحديث عنه من المقريزي [٢] وهاك موجز ما أورده : هذا السوق فيما بين الصاغة والمدرسة الصالحية أُحدِث فيما أظن بعد سنة ٧٠٠ . . . وكان سوق الكتب قبل ذلك تجاه الجانب الشرقي من جامع عمرو . . . وما برح هذا السوق مجمعاً لأهل العلم يترددون عليه وقد أُنشِدت قديماً لبعضهم :

مجالسة السوق مذمومة ... ومنها مجالس قد تُحتَسَب
فلا تقربنْ غيرَ سوق الجياد ... وسوقِ السلاح وسوقِ الكتب
فهاتيك آلة أهل الوغى ... وهاتيك آلة أهل الأدب

وكان لحوانيت الوراقين أثر عقلي ملحوظ ، كثيراً ما تعدى الوراقين الى أسرهم ومن امثلة ذلك زينب وحمدة ابنتا زيد الوراق الذي كان يعيش في وادي الحمى بالقرب من غرناطة فقد برعَتَا في الأداب والعلوم وكانتا على قدم المساواة مع أساتذة العصر [٣] .

ولم يقف النشاط العلمي بالدكاكين على حوانيت الوراقين بل انتقل منها الى غيرها من محال البيع والشراء ؛ فالى الحانوت المتواضع الذي كان ابو العناهية يبيع فيه الجرار والفخار كان يتوافد الأحداث والمتأدبون فينشدهم ابو العتاهية أشعاره ثم يأخذ هؤلاء ما تكسر من الخزف

---

١) ابن الجوزي مناقب بغداد ص ٢٦
٢) الخطط ٢ : ١٠٢
٣) سيد امير علي ٥٦٩ بالهامش .

فيكتبونها فيها [1]. وكان ابو بكر الصبغي المتوفى سنة ٣٤٤ هـ يعمل الصبغ بنفسه ويبيعه في حانوته ، وكان من اعيان فقهاء الشافعية ، كثير السماع والحديث ، وكان حانوته مجمع الحفاظ والمحدثين ، وكان عبد الله بن يعقوب يجلس على باب هذا الحانوت يقرأ للناس [2].

ويروي ابو الحاج عن بعض شيوخه ان رجلاً رحل في طلب العلم الى بغداد ، فقرأ ما شاء الله ثم اراد الانصراف الى وطنه فاكترى دابة يركبها ليخرج من البلدة ، ولكنه وقف ليشتري صاحبُ الدابة بعضَ حاجاته فسمع الطالب نقاشاً علمياً يدور بين اثنين من أصحاب الحوانيت المتجاورة فطلب الطالب من صاحب الدابة اعادته الى بغداد قائلاً : ان بلداً باعته في هذه المنزلة من العلم لا ينبغي ان يُرحل عنه [3].

٥ – منازل العلماء

لم يعدَّ المسلمون المنازل مكاناً صالحاً للتعليم العام ؛ اذ ان السكان والطلاب جميعاً لا يجدون الراحة واليسر في التوفيق بين هدوء المنزل وجلاله ، وبين حلقة الدرس وما تستدعيه من حركة ونشاط . وقد أشار الى ذلك كتاب الله في الآية الكريمة « يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتَ النبي الا ان يُؤذَن لكم الى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن اذا دُعيتم فادخلوا ، فاذا طعِمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين

---

١) الأغاني ٣ : ١٢٩

٢) طبقات الشافعية ٢ : ١٦٨

٣) الألف با للأبا ١٤٧ أ مخطوط .

لحديث ، ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم ، والله لا يستحيي من الحق » [1]

وقد شرح العبدري في كتابه المدخل [2] هذه القضية ذاكراً ان « أفضل مواضع التدريس هو المسجد ؛ لأن الجلوس للتدريس انما فائدته أن تظهر به سنة ، أو تخمد به بدعة ، أو يتعلم به حكم من احكام الله تعالى ، والمسجد يحصل فيه هذا الفرض متوفراً ، لانه موضع لاجتماع الناس ، رفيعهم ووضيعهم ، وعالمهم وجاهلهم ، بخلاف البيت ، فانه محجور على الناس الا من ابيح له ، والبيوتُ تحترم وتهاب حتى لو ابيحت للجميع . » ويقرر العبدري في مكان آخر [3] « ان المنازل مكان للدرس عند الضرورة فقط »

واذاً فاستجابةً لالحاح الضرورة وتحت ضغط أحوال معينة قامت حلقات علمية تعليمية بالمنازل الخاصة على ما يأتي :

جرى التعليم الاسلامي بالمنزل في عهد الاسلام المبكر ، وقبل نشأة المساجد ، فلقد اتخذ الرسول عليه السلام دار الارقم بن ابي الارقم مركزاً يلتقي فيه بأصحابه ومن تبعه ، ليعلمهم مبادىء الدين الجديد ، ويقرئهم ما نزل من آيات الذكر الحكيم ، كما كان الرسول يستقبل في هذا المنزل من جنحوا الى الاسلام ومالوا اليه ، ليغمر الرسولُ قلوبَهم بارشاده وتعليمه ،

---

١) سورة ٣٣ آية ٥٣ وانظر ايضاً تفسير الفخر الرازي لهذه الآية ج ٧ ص ٣٤٧ وتفسير ابي السعود على هامش الفخر الرازي ج ٦ ص ٥٥٢ — ٥٥٣

٢) ١ : ٨٥

٣) ٢ : ٩٧

فيعتنقوا الاسلام وينضموا إلى جماعة المسلمين [1] .

وبالاضافة الى دار الارقم كان الرسول قبل انشاء المساجد أيضاً يجلس بمنزله بمكة ، ويلتف حوله المسلمون ليعلمهم ويزكيهم ، وقد ظلوا كذلك الى ان نزلت بالمدينة الآية الكريمة السابقة وكان نزولها بعد انشاء المساجد ، وقد خفف الله بها عن الرسول ما كان يعاني من تدفق الجموع تدفقاً يكاد يكون متصلاً ، مما لا يدع له وقتاً للراحة والاستجمام .

ومن الواضح ان منزل الرسول فقط هو الذي أشارت اليه الآيةُ الكريمةُ ، وقد فُهِم من هذا عدم الرغبة في اتخاذ البيوت مكاناً للدرس ، غير أن ذلك لم يَرْقَ إلى درجة المنع ؛ فلظروفٍ خاصة ـ على ما سبق ذكره ـ أصبحت بيوت متعددة ملتقى للطلاب والمدرسين ، ومركزاً علمياً هاماً على الرغم من انتشار المساجد .

ومن اهم هذه المنازل منزل الرئيس ابن سينا يقول الجوزجاني صاحبه : « كان يجتمع كل ليلة في دار ابن سينا طلبة العلم ، وكنت أقرأ معه الشفاء ، وكان يقرىء غيري من القانون نوبة ، وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمة للامير (شمس الدولة) ، وقضينا على ذلك زمناً [2] . » وكان ابو سليمان السجستاني (محمد بن طاهر بن بهرام) الذي توفي في العقد الاخير للمائة الرابعة الهجرية ، أعور به وضح ، فكان ذلك سبب انقطاعه عن الناس ولزومه منزله ، فلا يأتيه الا مستفيد وطالب علم ، وكان منزله مقيلا لأهل العلوم القديمة ، تصدى لقراءتها وقصده

---

١) انظر الطبري ٣ : ٢٣٣٥

٢) ابن ابي اصيبعة ٢ : ٤ القفطي ٤٢٠

الرؤساء والاجلاء [١] . وفي ترجمة ابي الحسن عبدالله المنجم يذكر القفطي [٢] ان ابا الحسن كان صديقاً لأبي سليمان وملازماً له ، وكان كثيراً ما يجتمع بمنزل ابي سليمان بجماعة من سادة العلماء ، فيأخذون في المذاكرة والمناظرة في موضوعات شتى ، وكان لأبي سليمان الكلمة الفاصلة . وممن كانوا يحضرون هذا المجلس العلمي الرائع ابو محمد المقدّسي ، وابو الفتح النوشجاني ، وابو زكريا الصيمري ، وابو بكر القومسي ، وغلام زحل ، وابو حيان التوحيدي ، ويذكر ابو حيان التوحيدي [٣] ان كل واحد من هؤلاء كان فريداً في علمه ، وقد سأل الوزير ابن سعدان مرة أبا حيان التوحيدي ان يحدثه بما افاد في يوم معين ، فأخذ ابو حيان ينقل للوزير صورة ما دار في منزل ابي سليمان ، وآراء الاخير في النفس [٤] . وكثيراً ما نقل أبو حيان للوزير صوراً مما كان يدور في هذا المجلس في موضوعات شتى [٥] ؛ فقد كانوا يتعرضون كثيراً الى آراء القدماء من الفلاسفة بالبحث والنقاش والشرح والتعليق فيتفقون معهم أو يختلفون عنهم [٦] ؛ فاذا قال سقراط : « الكلام اللطيف ينبو عن الفهم الكثيف » وافق ابو سليمان على ذات وزاده شرحاً بما ينقله عن فيلسوف آخر من ان المريض يفرح بالطبيب ويقبل نصيحته لأنه عالم بما عنده اما الجاهل فلا

---

١) القفطي : اخبار الحكماء ٢٨٢ ـ ٢٨٣
٢) المصدر نفسه ص ٢٢٤ ، ٢٢٥
٣) المقابسات ١٢٠
٤) الامتاع والمؤانسة ١ : ٤٠
٥) انظر الجزء الثاني ١٨ – ٢٣ – ٢٤ – ٤٣ – والجزء الثالث ٩٩ – ١٢٤ – ١٢٥
٦) انظر الامتاع والمؤانسة ج ٢ : ٤٣ : ٤٩

يفعل هذا مع العالم لعدم علمه بما عنده [1] واذا روى قول افلاطون : « العلم مصباح النفس » قال ابو سليمان : ما احسن المصباح اذا كان زجاجه نقياً [2] ، واذا قال افلاطون : « من يصحب السلطان فلا يجزع من قسوته ، كما لا يجزع الغواص من ملوحة البحر » قال ابو سليمان : هذا كلام ضره اكثر من نفعه ، قواه صاحبه بالمثل ، والمثل يستجيب للحق كما يستجيب للباطل ، ولا يُبْعَد عن السلطان الا اذا جار [3] .

وكما حفلت الامتاع والمؤانسة بما دار في هذه الجلسات الغنية ، فقد حفلت بها كذلك المقابسات [4] .

ومن الدور الهامة التي كان يلجأ اليها الطلاب والمدرسون فيستفيدون منها استفادة بالغة ، دار الامام الغزالي (٥٠٤ هـ) التي كان يستقبل فيها تلاميذه بعد ان اعتزل العمل بنظامية نيسابور على أثر رحلته التي قام بها للحج والاعتكاف بالجامع الأموي بدمشق حيث كتب كتابه الشهير « احياء علوم الدين » [5] .

ولما اتهم علي بن محمد الفصيحي (٥١٦ هـ) بالتشيع ، وسئل عن ذلك الاتهام لم ينكره ، مما أدى الى فصله من النظامية حيث كان من مشاهير مدرسيها ولكن أفواجاً من المتعلمين كانوا يقصدونه في داره ليواصلوا القراءة

---

١) ٢ : ٤٤ .
٢) ٢ : ٤٥ .
٣) ٢ : ٤٧ ـ ٤٨ .
٤) انظر مثلا هذه الصفحات : ١٢٠ ـ ١٣٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ـ ٣٠١ ، ٣١٩ ـ ٣٢٧ ، ٣٥٥ ـ ٣٥٨ .
٥) انظر ترجمته في صدر كتابه هذا ص ٣

عليه [1] .

وكان يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي على معرفة واسعة بالمذهب الاسماعيلي ، وقد كتب في فقه الاسماعيلية كتاباً كبيراً ضمنه كل ما سمعه من المعز والعزيز ، وكان منزله كل يوم جمعة مأوى للعلماء والطلاب ليقرأ لهم من هذا الكتاب ومن سواه [2] .

وكان السلفي احمد بن محمد ابو طاهر (٥٧٦ هـ) من العلماء الفقراء ، وطاف البلاد حتى وصل الى الاسكندرية ، فتزوج امرأة ذات مال واتخذ من بيته بالاسكندرية مكاناً للتعليم ، وفي الجزء الثالث من منتخباته من أصول سماعات ابي الحسن علي بن المشرف يقول : « بلغت من اوله قراءة وسماعا ومعي اسحق وحَمَد ابنا احمد بن موسى المروزاني ، وصح لنا ذلك في منزلي بالاسكندرية [3] .

تلك أمثلة قليلة تعد نماذج فقط لسواها مما حفلت به كتب الادب والتاريخ وهي تبين بوضوح أن منازل العلماء أسهمت بنصيب كبير في نشر الثقافة وبخاصة قبل انتشار المدارس ، ولما كان البيت مكاناً خاصاً يحس زواره بالوحشة والانقباض كان على صاحب البيت ـ وقد جعل منه ملتقى للطلاب ـ ان يقابلهم ببشاشة وترحيب ، ويسري عنهم ، والا فقد يتسبب عن ذلك انقطاعهم عن الحضور [4] مما يجعل الدرس قليل الجدوى محدود الفائدة .

---

١) ياقوت ٥ : ٤١٥

٢) الخطط ٢ : ٣٤١

٣) ورقة رقم ٩ مخطوطة بمكتبة *Prof . Arberry* انظر ايضاً تذكرة الحفاظ ٤ : ٩٣

٤) العبدري ٢ : ٩٧ ـ ٩٨

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

٦ ـ الصالونات الادبية

يبدو لي ان الصالونات التي ظهرت ساذجة في العصر الاموي ، وانتشرت رائعة غنية في العصر العباسي ، ان هي الا تطور لمجالس الخلفاء الراشدين ؛ فالخليفة في الاسلام ينظم اعمال الدنيا ويفتي في شؤون الدين ، ومن اجل هذا كان من اهم شروطه العلم المؤدي الى الاجتهاد [١] .

وعلى ذلك كان الخلفاء الراشدون ـ وهم الذين اختيروا اختياراً شرعياً ـ يجلسون الى الناس في المسجد او خارجه ليفتوهم فيما يعنّ لهم من مشكلات ، فاذا لم يستطع الخليفة ان يهتدي بنفسه الى الحل استدعى الصحابة ليشاورهم في الأمر ، وليستعينَ بهم وبآرائهم للحصول على جواب سديد .

وهكذا تلتقي مجالس الخلفاء الراشدين مع الصالونات الأدبية في ان كلا منهما خدم التطور الثقافي وعمل على نشر المعرفة . وفيما عدا ذلك تظهر فوارق شاسعة بين تلك المجالس وهذه الصالونات ؛ ففي المجالس كان لكل واحد الحرية الكاملة في ان ينضم الى المجلس او يدعه وقتما يشاء تبعاً لرغبته ، وكان الخليفة ينادَى باسمه الخالص او بعبارة « يا خليفة رسول الله » التي استبدل بها فيما بعد عبارة « يا امير المؤمنين » وكان الحشد يجلس على سجادة متواضعة ، او على حصير ، وأحياناً على الارض الجرداء [٢] .

---

١) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٥ ، الفخري ٢٠ ـ ٢١ .
٢) انظر التمدن الاسلامي ٥ : ١٣١ .

اما الصالونات الادبية فقد وضحت فيها التقاليد والحضارات الاجنبية التي اقتبسها الخلفاء العرب من الممالك العظيمة التي خضعت لسلطانهم ؛ فأصبح الصالون يُؤثّثُ أثاثاً رائعاً ، تحدث عنه ابن عبد ربه [١] ، والمقري [٢] ، والمقريزي [٣] . ولم يكن الصالون يستقبل كل الراغبين ، وانما كان يُسمح لطبقة معينة من الناس بالدخول [٤] ، ولم يكن الحضور أحراراً في اختيار الموعد الذي يحضرون فيه أو ينصرفون عنده ، وانما كانوا يحضرون في موعد محدد ، وينصرفون عند اشارة خاصة يشير بها الخليفة . وقد اتخذ كل خليفة اشارة عرف بها ؛ فكان معاوية اذا قال « ذهب الليل » قام سماره ومن حضره ، وكان عبد الملك اذا القى المخصرة قام من حضره ، وكان الوليد اذا قال « أستودعكم الله » قام من حضره ، وكان الهادي اذا قال « سلام عليكم » قام من حضره ، وكان الرشيد اذا قال « سبحانك اللهم وبحمدك » قام سماره ، وكان المعتصم اذا نظر الى صاحب النعل قام من حضره ، وكان الواثق اذا مس عارضيه وتثاءب قام من حضره .. [٥] وكان الخليفة ولا أحد سواه يفتتح النقاش في الصالونات [٦] ، ويروي ابن خلكان [٧] أن احمد بن أبي داود كان اول من افتتح الكلام مع

١) العقد الفريد ٤ : ١٠١ ، ١٠٨ .
٢) نفح الطيب ٢ : ١١٢٨ .
٣) الخطط ١ : ٣٨٥ ـ ٣٨٦ .
٤) التاج للجاحظ ص ٢١ .
٥) التاج ١١٩ ـ ١٢٠
٦) التاج ٤٩ ـ ٥٠
٧) الوفيات ١ : ٣١

الخلفاء ، وكان لا يبدؤهم أحد حتى يبدأوه ، وأخيراً فان الموضوعات التي تعرض للبحث والنقاش والمناظرة في الصالونات الأدبية كانت اوسع واعمق من تلك التي كانت تُعرض في مجالس الخلفاء الراشدين .

وللصالونات الادبية آداب خاصة ، وتقاليد معينة ، يجب أن يرعاها اولئك الذين كان يسمح لهم بحضورها وقد سجلها مفصلة الصابي في كتابه « رسوم دار الخلافة » (مخطوط) وكشاجم في كتابه « أدب النديم » ونحن نقتبس منهما طرفاً يتحتم ايراده في هذا المقام :

فالداخل الى حضرة الخليفة ، او الى مجلس سمره ، يجب ان يكون نظيفاً في بزته وهيئته وقوراً في خطوه ومشيته متبخراً بالبخور الذي تفوح روائحه . . . وان يتجنب منه ما يعلم ان السلطان يكرهه [1] . فاذا دخل الداخل الى حضرة الخليفة قال : السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . . . وربما تقدم الداخل اذا كان وزيراً او كبيراً فأعطاه الخليفة يده مغشاة بكمه اكراماً له بتقبيلها ، واما ولاة العهود والأهل من بني هاشم والقضاة والفقهاء فلا يقبلون يد الخليفة ويقتصرون على السلام [2] ، ويأخذ الداخل مكانه المناسب لترتيبه من غير ان يتجاوزه الا استجابة لدعاء الخليفة ، وعلى الجالس ان يُقل الالتفات الى جانبيه ووراءه ، والتحريك ليده او شيء من أعضائه ، وان يغض طرفه عن كل مرئي الا شخص الخليفة وحده ، وألا يسارَّ أحداً في مجلسه ولا يشير اليه ، ولا يقرأ رقعة ولا كتاباً بين يدي الخليفة الا ما احتاج الخليفة الى قراءته

---

١) الصابي ٤٦ ، ٤٧ .

٢) ملخص من صفحتي ٤٥ ، ٤٦ من رسوم دار الخلافة .

وأذن له فيه ، ولا يخاطب من يخاطبه في تعرُّف أمر منه او اقامة حجة عليه الا بأخف الالفاظ وأشد الاستيفاء ، وأن يمتنع من الضحك وان جرى ما يوجبه . . . وليعلم ان اجل ما يكون الانسان في عين صاحبه اذا كان شخصاً صمتاً ، وجسماً صلداً ، لا يخرج منه شيء كالبصاق والمخاط ، ولا يدخل اليه شيء كالطعام والشراب ، على ان الثانية تجوز مع الاخوان والجلساء ، وتحرم مع الرؤساء ، واما الاولى فتقبح مع الجميع [1] .

وليس لحاضر مجلس الخليفة ان يذكر شيئاً الا ما يُسأل عنه ، او يورد قولا اختياراً او مطالعة الا ما استأذن فيه ، وسبيله ان يخفض صوته في حديثه ومحاورته ، ولا يرفعه الا بقدر السماع الذي لا يحتاج معه الى استفهامه واستعادته [2] وان يتجنب ايراد حكاية تستمحل او لفظ يسترذل وليصغ الجالس الى الخليفة اذا تحدث حتى يفهم قوله دون ان يستعيده فاستعادة الخليفة ليست من الآداب اللائقة [3] .

ويوصي كشاجم [4] الجليس ان يتعلم حسن الاستماع كما يتعلم حسن الكلام ، وحسنُ الاستماع إمهال المحدث حتى ينقضي حديثه ، والاقبال عليه بالوجه والنظر ، والوعي لما يقول ، فلا يشغل السامع طرفه عن المتحدث بنظر ، ولا أطرافه بعمل ، ولا قلبه بفكر ، ولا يسابقه الى حديث يبدأ به ، لمعرفة السامع بذلك الحديث بل يريه من الارتياح له ،

---

١) رسوم دار الخلافة ملخص من صفحة ٥٠ ـ ٥١ ـ ٥٢ .
٢) المرجع السابق ص ٤٩ .
٣) المرجع السابق ص ٥٣ .
٤) أدب النديم ٣٢ ـ ٣٥ .

والتعجب منه ، ما يوهمه أنه لم يخطر بباله ، ولا وقر في سمعه . ويضيف كشاجم [1] قوله : ومن أدب الحديث ألا يُقتَضب اقتضاباً ، ولا يُهجَم عليه ، وان يتوصل الى اجتراره بما يشاكله ، ويُسبِّب له ما يحسن ان يجري معه في غرضه . . . وأحلى للحديث واحسن لموقعه ان يتنكب منه الطوال ، ذوات المعاني القلقة والألفاظ الوحشية ، فانهم لم يزالوا يمدحون الأحاديث بالقصر قال عبدالله بن المعتز :

بين أقداحهم حديث قصير هو سحر وما سواه كلام [2]

وقال آخر

اذا هن حدثن الحديثَ قَضَيْنَه ومنيننا أن الحديث يعادُ

ومن أدب الحديث ألا يكثر المحدث التبسم والقهقهة ؛ قال نجاح بن سلمة للمتوكل لما دعاه الى منادمته : فيَّ خصال لا تصلح معها منادمة الخلفاء . قال : وما هي ؟ قال : سلس البول ، وأبتسم اذا حدثت ، ولا أقدر من الشرب على أكثر من رطلين . فقال له : من حق صدقك ان نسامحك فيها [3] .

---

١) أدب النديم ٣٣ ـ ٣٤ .

٢) هذا البيت من قصيدة عبدالله بن المعتز التي يقول فيها :

قد نهاني الامام عن سفه الكأ س فردت على السقام الملام
عفتها مكرهاً ولذات عيش قام بيني وبينهن الامام
ولقد حث بالمدامة كفي غصن بان عليه بدر تمام
عجباً ينهب العيون ويشتا ق اليه التقبيل والالتزام
ونداماي في شباب وحسن اتلفت ما بهم نفوس كرام
بين اقداحهم حديث قصير هو سحر وما سواه كلام

ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٣ .

٣) كشاجم : أدب النديم ص ٣٥

وكان الخلفاء يعدُّون أنفسهم حماة للعلم ، ويرون أن قصورهم يجب ان تكون مركزاً تشع منه الثقافة والعرفان ، ومثابة يلتقي فيها العلماء والادباء . ومن اجل هذا نجد أن المعتضد بالله لما اراد بناء قصره (الشماسية) ببغداد استزاد في الذرع بعد ان فرغ من تقدير ما اراد ، فسئل عن ذلك ، فذكر أنه يريده ليبني فيه دوراً ومساكن ومقاصير ، يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ، ويجري عليهم الارزاق السنية ، ليقصد كل من اختار علماً او صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه [1] . وعلى هذا اصبح تاريخ الصالونات الادبية مرتبطاً بتاريخ القصور ، وبخاصة قصور الخلفاء ، فبدأت الصالونات منذ تربع في قصر شاهق معاوية الخليفة الأموي الأول : روى المسعودي [2] ان عبد الله بن هاشم حضر ذات يوم مجلس معاوية ، فقال معاوية : من يخبرني عن الجود والنجدة والمروءة ؟ فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين ؛ أما الجود فابتذال المال والعطية قبل السؤال ، وأما النجدة فالجراءة على الإقدام والصبر عند ازورار الأقدام ، وأما المروءة فالصلاح في الدين والاصلاح للحال والمحاماة عن الجار . وكان معاوية يستدعي الى مجلسه بعض العلماء والادباء وأرباب السير ليقرأوا له ويحدثوه عن تاريخ العرب ، ومواقعهم الشهيرة ، وعن تاريخ ملوك الفرس ، ونظم حكوماتهم واداراتهم وسير

---

١) المقريزي ٢ : ٣٦٢ ـ ٣٦٣

٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٩

الأمور في ممالكهم [1] .

ويحكي العاملي [2] أن عبد الملك بن مروان جلس يوماً وعنده جماعة من خواصه ، وأهل مسامرته ، فقال : أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه مرتبة وله عليّ ما يتمناه ؟ فقام اليه سويد بن غفلة فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين . فقال : هات . فقال سويد : أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلق خد دماغ ..... فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال : يا امير المؤمنين ، انا اقولها في جسد الانسان مرتين . فقال سويد : انا اقولها ثلاثاً . وانشأ : أنف أسنان أذن .... فأجازه عبد الملك ، وانعم عليه ، وبالغ في الاحسان اليه [3] .

---

١) نفس المصدر ج ٥ : ٧٧ ـ ٧٨ Ed : Barbier De Meynard.

كان يغلب على مجالس الخلفاء ان تكون مسرحاً للمناظرات العلمية والأدبية وكان المقصود بها خدمة الثقافة بالاضافة الى الترويح والترفيه ، ولكن الدهاة من الخلفاء كانوا ينحرفون في بعض الاوقات بهذه المجالس إلى دراسة التاريخ ، وأعمال القواد ، وأشهر الوقائع وحوادث الشجاعة ، ليستعينوا بذلك على مقابلة مشكلات خاصة كانت تواجههم ، وقد فعل ذلك معاوية كما ذكر أعلاه ، وفعله أيضا مروان بن محمد الذى كانت تقرأ في مجلسه سير الملوك وأخبارها ، ولم ينقطع عن ذلك حتى في أشد الاوقات حرجا ، يوم كان أبو مسلم الخراساني على وشك السيطرة على خراسان (المسعودي ٢ : ٢٠٢) وسار أبو جعفر المنصور هذه السيرة إذ كان أيضا المؤسس الحقيقي لدولة العباسيين وكان في حاجة الى ثقافة من هذا اللون .

ولعل السبب في توجيه المجالس الأدبية هذا الاتجاه هو ـ كما مر ـ رغبة الخلفاء في الاستفادة بخبرة السابقين ، ثم إنه كان من عادة الخلفاء الدهاة أن يوقفوا في الظروف الحالكة كل مظاهر الترف والترفيه ، وأن يتجهوا بكل مرافق الدولة الى الجد والحزم ، ومما يدل على ذلك أنهم في هذه الظروف كانوا يعتزلون النساء والطيب ، كما فعل عبد الملك بن مروان حينما كان الحجاج يحارب الأشعث وكما فعل مروان بن محمد أيام انقضاض خراسان وأنشد عبد الملك في ذلك :

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

(المسعودي ٢ : ٢٠٢ ـ ٢٠٣)

٢) الكشكول ١٥٥ .

٣) القصة كاملة في الكشكول .

ويروي ابو الفرج الاصفهاني[1] أن أعرابياً حضر مجلس عبد الملك بن مروان أيضاً وكان جرير حاضراً فسأل عبد الملك الأعرابي : من انت ؟ قال : انا رجل جانَبَتْني عنعنة تميم وأسد ، وكسكسة ربيعة وحوشي اهل اليمن وان كنتُ منهم . فقال : من ايهم انت ؟ قال : من اخوالك من عذرة . قال : اولئك نصحاء الناس ، فهل لك علم بالشعر ؟ قال : سلني عما بدا لك يا امير المؤمنين . قال : اي بيت قالته العرب أمدح ؟ قال : قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطونَ راح

فرفع جرير رأسه وتطاول ، ثم قال عبد الملك : فأي بيت قالته العرب أفخر ؟ قال : قول جرير :

اذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلَّهم غضابا

فتحرك جرير ، ثم قال عبد الملك : فأي بيت أهجى ؟ قال : قول جرير :

فغضَّ الطرف انك من نُمَيرٍ فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فاستشرف جرير لذلك ، ثم قال عبد الملك : فأي بيت أغزل ؟ قال : قول جرير :

ان العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فاهتز جرير وطرب ، ثم قال عبد الملك : فأي بيت أحسن تشبيهاً ؟ قال : قول جرير :

---

١) الأغاني ٧ : ٥٤ ـ ٥٥

سرى نحوهم ليلٌ كأن نجومَه قناديلُ فيهن الذُّبال المفتَّلُ

فقال جرير : جائزتي للعذري يا امير المؤمنين . فقال له عبد الملك : وله مثلها من بيت المال ، ولك جائزتك يا جرير لا ننتقص منها شيئاً . وكانت جائزة جرير ٤٠،٠٠٠ درهم وتوابعها من الحملان والكسوة . فخرج العذري وفي يده اليمنى ثمانية آلاف درهم وفي اليسرى رزمة ثياب .

واجتمع جرير والفرزدق عند بشر بن مروان ، فقال لهما بشر : انكما قد تقارضتما الاشعار ، وتقاولتما الفخر ، وتهاجيتما ، فأمـا الهجاء فليس بي اليه حاجة ، فجدِّدا بين يديَّ فخراً ودعاني مما مضى . فقال الفرزدق :

نحن السَّنام والمناسِمُ غيرُنا فمن ذا يساوي بالسنام المناسما [١]

فقال جرير :

وأنبأتمونا أنكم هـام قومكم ولا هـامَ الا تابـع للخراطم

فقال الفرزدق :

فنحن الزِّمام القائدُ المقتدَى بـه من الناس ، ما زلنا ، ولسنا لهازما [٢]

فقال جرير :

فنحن بني زيد قطعنا زمامهـا فتاهت، كسارٍ طائش الرأس عارمِ

فقال بشر : غلبته يا جرير بقطع الزمام وذهابك بالناقة وأحسن الجائزة لهما ، وفضل جريراً [٣] .

وكان عَديُّ بن الرِّقاع شاعراً مقدَّماً عند بني امية ، مدَّاحاً لهم ،

---

١) المناسم جمع منسم وهو طرف خف البعير .
٢) اللهازم أوساط الناس لا أشرافهم كما في تاج العروس .
٣) الأغاني ٧ : ٥٢ ، ٥٣ .

خاصاً بالوليد بن عبد الملك ، وله بنت شاعرة يقال لها سلمى ، فأتاه ناس من الشعراء مرة ليعارضوه في الشعر ، وكان غائباً ، فعرفت سلمى ذلك فخرجت اليهم وانشأت تقول :

تجمعتم من كل أوْبٍ وبلدة على واحد ، لا زلتُم قِرْن واحد

فافحمتهم . وقد حدثت لعدي احداث طريفة في مجلس الوليد بن عبد الملك ، فلقد اجتمع مرة عند الوليد عديّ وجرير ، فقال الوليد لجرير : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، يا امير المؤمنين . فقال الوليد : هذا عدي بن الرِّقاع . فقال جرير : فشرُّ الثياب الرقاع ، فممن هو ؟ قال : من عاملة . قال جرير : من التي قال الله تعالى فيها : (عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية [1]) !!

وجمعه مجلس الوليد مرة مع كثيِّر ، وقد كان يبلغه عن عدي انه يطعن على شعره ، فأخذ عدي ينشد الخليفة قصيدة مدح حتى أتى على قوله :

وقصيدة قد بتُّ أجمع بينها حتى أقوِّم ميلها وسِنادها

فقال له كثير : لو كنت مطبوعاً او فصيحاً أو عالماً لم تأت فيها بميل ولا سناد فتحتاج الى ان تقوِّمها . ثم انشد :

نظر المثقِّف في كُعوب قَناته حتى يقيم ثِقافُه مُنآدها

فقال له كثير : لا جرم أن الايام اذا تطاولت عليها عادت عوجاء ، ولأن تكون مستقيمة لا تحتاج الى ثِقاف أجود بها . ثم أنشد :

---

١) سورة ٨٨ آية ٣ .

وعلمت حتى ما أسائل واحدا عن علم واحدةٍ لكي ازدادها

فقال كثير : كذبت ورب البيت الحرام . . . ما كنت قط أحمق منك الآن حتى تظن هذا بنفسك . فضحك الوليد ومن حضر وقُطِع بعدي حتى ما نطق [1] .

هذه صور خاطفة لمجالس الادب في العهد الاموي ، وهي كما يبدو ساذجة باهتة ، فلما قامت الدولة العباسية واستقرت ، بدت الصالونات الأدبية بمعناها الصحيح تظهر في العالم الاسلامي ، واتخذت هذه الصالونات اهبتها العلمية ، لتناسب ذلك العصر الذي وضحت فيه الحضارة الاجنبية ، وبخاصة مدنيَّة الفرس . وأصبحت هذه الصالونات تعقد في اوقات منتظمة ، وشملت مع قصور الخلفاء قصور الامراء والعظماء ، واتُّخِذ لها الاثاث الفاخر والرياش لتناسب السعة والرفاهية اللتين نعمت بهما الدولة في ذلك الحين ، ثم تنوعت الصالونات فأصبحت للآداب أو العلوم او الفنون (ومنها الغناء والموسيقى) لتناسب الحياة الثقافية المتنوعة الاطراف في ذلك الحين ، ولكن مجالس العلم والأدب ظلت ارفع هذه المجالس قدراً ، واعظمها قيمة ؛ يدل على ذلك ما ورد في الاغاني [2] أن اسحق الموصلي سأل المأمون ان يكون دخوله اليه مع اهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنين ، فاذا اراده للغناء غنَّاه . فأجابه الى ذلك ، ثم سأله بعد حين ان يأذن له في الدخول مع الفقهاء ، فأذن له .

وقد بدأ النشاط الواسع يظهر في عهد الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ) اذ

---

١) انظر ترجمة عدي في الأغاني ٨ : ١٧٩ وما بعدها .

٢) ج ٥ ص ٦٠ .

كان الخليفة نفسه في درجة عالية من الثقافة والمعرفة ثم كانت الدولة قد وصلت الى حياة الاستقرار بعد ان اجتازت مرحلة الخطورة التي تواجه الدول عند قيامها . ففي مجلس الرشيد كانت تعقد مناظرات بين الشعراء ومناقشات بين الفقهاء ومساجلات بين اهل الفنون والادباء .

وكانت هالة الرشيد في بغداد تتكون من اسماء لامعة ، جمعها الرشيد حوله ممن لهم باع طويل في كل ناحية من نواحي الثقافة ، ومن هؤلاء ، من الشعراء : ابو نواس ، وابو العتاهية ، ودعبل ، ومسلم بن الوليد ، والعباس بن الاحنف ، ومن الموسيقيين : ابراهيم الموصلي ، وابنه اسحق ، ومن اللغويين : ابو عبيدة ، والاصمعي ، والكسائي ، ثم ابن السمان الواعظ ، والواقدي المؤرخ ، وكثير غير هؤلاء [١] .

ومن اهم المناظرات التي حدثت في مجلس الرشيد تلك المناظرة اللغوية الشهيرة التي حدثت بين سيبويه والكسائي والتي زعم الكسائي فيها ان العرب تقول : كنت اظن الزنبور أشد لسعاً من النحلة فاذا هو إياها ، فقال سيبويه : بل الصحيح فاذا هو هي ، فتشاجرا طويلاً واتفقا على مراجعة عربي خالص لا يشوب كلامه شيءٌ من كلام اهل الحضر . وكان الأمير شديد العناية بالكسائي لكونه معلمه ، فاستدعى عربياً وسأله ، فقال كما قال سيبويه . فقال له : نريد ان تقول كما قال الكسائي . فقال : ان لساني لا يطاوعني على ذلك ، فانه ما يسبق الا الى الصواب . فقرروا معه ان شخصا يقول : قال سيبويه كذا وقال الكسائي كذا فالصواب مع

---

١) Nicholson : A Literary History of the Arabs p. 261

من فيهما ، فيقول العربي : مع الكسائي . فقال العربي « هذا يمكن » ثم عقد لهما المجلس ، واجتمع أئمة هذا الشأن ، وحضر العربي وقيل له ذلك ، فقال : الصواب مع الكسائي وهو كلام العرب : فعلم سيبويه انهم تحاملوا عليه وتعصبوا للكسائي فخرج من بغداد [1] .

ومن المناظرات الطريفة التي حدثت في مجلس الرشيد ، تلك المناظرة التي جرت بين الفقيه ابي يوسف والكسائي النحوي ؛ اذ ادعى ابو يوسف ان الكسائي انما يحسن شيئاً من كلام العرب . وقال الكسائي : من تبحر في علم اهتدى به الى جميع العلوم . فقال له محمد : ما تقول فيمن سها في سجود السهو ، هل يسجد مرة أخرى ؟ قال الكسائي : لا . فسأله محمد : لماذا ؟ فأجاب الكسائي : لأن النحاة تقول : المصغر لا يصغر [2] .

وفي نفس الوقت كان يحيى بن خالد ذا بحث ونظر ، وله مجلس يجتمع فيه اهل الكلام من اهل الاسلام وغيرهم من اهل النحل ، ويبدو ان هذا المجلس كان مجلساً خصباً للغاية ، يتناول علوماً شتى ، يدل على ذلك ما رواه المسعودي من ان يحيى قال لهم مرة : قد اكثرتم الكلام في الكون والظهور ، والقدم والحدوث ، والاثبات والنفي ، والحركة والسكون ، والمماسة والمباسة ، والوجود والعدم ، والأجسام والاعراض ، والتعديل والتحرير ، والكمية والكيفية ، والأمامة أنص هي أم اختيار ، وسائر ما نورده من الكلام في الاصول والفروع ، فقولوا الآن في العشق ، فقال علي ابن الهيثم : ايها الوزير ؛ العشق ثمر المشاكلة وهو دليل على تمازج

---

١) ابن خلكان ١ : ٥٤٩ ، مجالس أبي مسلم مخطوط ٢ ب ، ٣ أ .
٢) ابن خلكان ١ : ٤٦٩ ، وانظر كذلك ابن الانباري ٩١ ـ ٩٢ .

الروحين .... وقال ابو مالك الحضرمي وهو خارجي المذهب : العشق نفث السحر ، وهو أخفى واحر من الجمر [١] .

اما عهد المأمون فكان كما يصفه Hughes [٢] أزهر فترة في تاريخ النهضة بالعالم الاسلامي ؛ اذ كان الخليفة نفسه عالماً من اساطين العلماء ، واختار اصحابه ورجال دولته من الصفوة الأفذاذ في الشرق والغرب ، هذا الى جانب الاساتذة والمشيرين والمترجمين والمفكرين الذين حلّى بهم بلاطه وزين ملكه . ويضيف سيد امير علي [٣] : ان بلاط المأمون كان يموج بجمهرة عظيمة من رجال العلم والأدب ، والشعراء والاطباء والفلاسفة ، الذين استدعاهم المأمون من جهات متعددة من العالم المتمدين ، وشملهم جميعاً بعنايته ، مهما اختلفت مشاربهم او جنسياتهم .

وكثيراً ما اخذ المأمون نفسه دوراً رئيساً في المناظرات التي كانت تدور في مجلسه ؛ فقد روي انه قال مرة لمن حضره من جلسائه : انشدوني بيتاً لملكٍ ، يدل البيت وان لم يُعرف قائله انه شعر ملك ؛ فانشده بعضهم قول امرىء القيس :

أمن أجل أعرابية حل أهلها جنوب الملا عيناك تبتدران [٤]

قال : وما في هذا مما يدل على الملك ؟ قد يجوز ان يقول هذا سوقة من اهل الحضر . فكأنه يؤنب نفسه على التعلق بأعرابية : ثم اجاب

---

١) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .
٢) Dictionary of Islam 295 - 296.
٣) A Short History of the Saracens, p. 278
٤) الملا : موضع .

المأمون نفسه عن السؤال بقوله : الشعر الذي يدل على ان قائله ملك قول الوليـد :

لي المحض من ودِّهم واليهـم نـائـلي

فهذا قول من يقدر بالملك على المنح الغامر ، ولا يَطلُب من الممنوح اليهم الا الولاء ومحض الود [1] .

وفي مجلس آخر كان الحوار مذهبياً ، فسأل المأمون علياً الرضى : بم تدَّعون هذا الامر ؟ قال : بقرابة عليٍّ من النبي صلى الله عليه وسلم و بقرابة فاطمة رضي الله عنها . فقال المأمون : إن لم يكن ها هنا شيء الا القرابـة ففي خلف رسول الله من اهل بيته من هو اقرب اليه من عليّ ، ومن هو في القرابة مثله ، وان كان بقرابة فاطمة من رسول الله فان الحق بعد فاطمـة للحسن والحسين ، وليس لعلي في هذا الامر حق وهما حيان ، واذا كان الأمر على ذلك فان علياً قد ابتزهما جميعاً وهما حيـان صحيحان واستولى عليٌّ على ما لا يجب له ، فما أحار علي بن موسى نطقاً [2] .

واستفادت هذه المجالس استفادة واضحـة من التطور العلمي والترجمـة اللذين كانا طابع ذلك العهـد ، ووجدَت هذه العلوم طريقَها الى مجالس المأمون فازدهرت ونمت نمواً واضحاً ، شأنها في ذلك شأن العلوم الدينيـة واللسانية .

واعتنق المأمون مذهب المعتزلة وهم أرباب النظر دون جميع الناس ،

---

١) الأغاني ج ٧ ص ١١٥ طبعة الساسي .
٢) عيون الأخبار : الكتاب الثاني ١٤٠ ـ ١٤١ .

والكلام لهم دون سواهم [1] . فكان انضمام المأمون لهم فاتحة عهد جديد لمذهبهم ، حتى اصبحت الدولة دولتهم ، والكلمة كلمتهم ، وكانوا لا يعتمدون على السلطان بقدر ما كانوا يعتمدون على المنطق ، وقوة الجدل ، وسلامة الحجة ، فاذا أفلس مناظرهم ولم يعتنق رأيهم بعد عجزه عن الاستمرار في المناظرة فقد حقت عليه كلمة العذاب ؛ اذ كان مذهب المأمون : من لم يردعه المنطق والبيان ، فليردعه بطش السلطان . ولما كانت المناظرة والجدل من اهم ما كان يعتمد عليه المعتزلة في نشر آرائهم فقد وضعوا أسساً تعتبر بحق قواعد علم البحث والمناظرة فقد رُوي « انه اجتمع متكلمان فقال احدهما : هل لك في المناظرة ؟ فقال على شرائط : ألا تغضب ، ولا تعجب ، ولا تشغب ، ولا تحكم ، ولا تُقبل على غيري وانا اكلمك ، ولا تجعل الدعوى دليلا ، ولا تجوّزْ لنفسك تأويل آية على مذهبك الا جوزتَ لي تأويل مثلها على مذهبي ، وعلى ان تؤثر التصادق ، وتنقاد للتعارف ، وعلى ان كلاً منا يبغي مناظرته على ان الحق ضالته والرشد غايته [2] » وكان عهد المأمون سلسلة انتصارات للمعتزلة في مجالس البحث والمناظرة الكثيرة التي عقدوها مع الشيعة ، والملحدين من الدهرية ، والثنوية ، وسواهم فقد ناظر ابو الهذيل العلاف صالح بن عبد القدوس لما قال في العالم انه من اصلين قديمين : نور وظلمة ، وكانا متباينين فامتزجا . فقال ابو الهزيل : فامتزاجهما أهو هما ام غيرهما ؟ قال : بل أقول : هو هما فألزمه ان يكونا ممتزجين متباينين اذا لم يكن

---

١) الخياط المعتزلي : الانتصار والرد على ابن الروندي ص ٧٢ .
٢) محاضرات الادباء للاصفهاني ١ : ٤٥ .

هناك معنى غيرهما ، ولم يرجع ذلك الا اليهما فانقطع وانشأ يقول :

أبا الهذيل جزاك الله من رجل فأنت حقاً لعمري مفصل جدِل

ومات لصالح هذا ابن فمضى اليه ابو الهذيل ومعه النظام وهو غلام حدث ، فرآه حزيناً فقال له : لا اعرف لجزعك وجها الا اذا كان الانسان عندك كالزرع . (حصاده في وقت معين) فقال : انما اجزع لانه لم يقرأ كتاب الشكوك . قال ابو الهزيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعته من قرأ فيه شك فيما كان حتى يتوهم انه لم يكن ، و (شكّ) فيما لم يكن حتى يظن انه قد كان . قال ابو الهذيل : فشُكّ انت في موت ابنك ، واعمل على انه لم يمت وان كان قد مات ، وشكّ انه قد قرأ ذلك الكتاب وان كان لم يقرأه [1] .

ويحفل كتابه الانتصار والرد على ابن الروندي بمجالس ومناظرات رائعة كان النصر فيها دائماً لأئمة المعتزلة [2] .

وقد اتصل كثير من المعتزلة بالفلسفة اليونانية ، وتزودوا منها بما يساعدهم ، ويضمن انتصاراتهم ، كما فعل ابو الهذيل العلاف ، وابراهيم النظام [3] . ودرسوا كذلك المذاهب الاخرى ليتعرفوا مواطن الضعف فيها وليُعِدُّوا أنفسهم للرد عليها . ومن اشهر هؤلاء واصل بن عطاء الذي يقول عنه عمرو بن عبيد : ليس احد أعلم بكلام غالية الشيعة ، ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة ، والدهرية ، والمرجئة ، وسائر المخالفين والرد

---

١) احمد بن يحيى المرتضى : المنية والأمل ص ٢٧ .
٢) انظر مثلا : ٣٠ ـ ٣٦ ، ١٤٤ ـ ١٥٢.
٣) انظر المنية والأمل ص ٢٦ .

عليهم منه [1] .

وكانت مسألة خلق القرآن أهم موضوع جدلي أثير في عهد المأمون ، وقد اعتنق المأمون رأي المعتزلة فيه ، ولم يدع للناس حرية ما يعتقدون في هذه المسألة ، بل رأى ان من لم يقل بخلق القرآن فهو مطعون في دينه ، وكانت وسيلته الاولى الاقناع والمناظرة ، ومن ثم حفلت المجالس بالقول والجدل في هذا الموضوع الخطير ، وقد دوّنت كتب الأدب والتاريخ صوراً من هذه المناظرات [2] التي عاشت بعد المأمون طيلة عهدي المعتصم والواثق وصدرا من عهد المتوكل [3] .

ولندع الآن عهد المأمون الزاخر بالعلم والمعرفة ، ولنسر الى العهود التالية له :

في مجلس من مجالس الأدب والمناظرة التي عقدت في قصر الواثق تلاحى مخارق وحسين بن الضحاك في أبي العتاهية وأبي نواس أيهما أشعر ، وكانت الملاحاة على مال ، فاتفقا على اختيار شعر من شعريهما يتناظران فيه ، فاختار الحسين بن الضحاك شيئاً من شعر أبي نواس جيداً قوياً لمعرفته بذلك ، واختار مخارق شيئاً من شعر أبي العتاهية ضعيفاً غزلا لا لشيء عرفه منه الا لأنه استملحه وغنى فيه ، واختار الواثق أبا محلم ليتحاكما اليه بالشعرين ، فحكم ابو محلم لحسين بن الضحاك . فقال مخارق : لم أحسن الاختيار للشعر ، ولأبي العتاهية خير مما اخترت وقد اختار حسين

---

١) انظر المنية والامل ص ١٨ .

٢) انظر طبقات الشافعية ١ : ٢٠٥ ـ ٢١٥ .

٣) ابتدأت محنة خلق القرآن ـ كما اصطلح على تسميتها ـ سنة ٢١٨ هـ وظلت حتى سنة ٢٣٤ هـ .

أجود ما قدر عليه لأبي نواس لأنه أعلم مني بالشعر ولكنا نتناظر بالشاعرين ففيهما وقع الجدال فحكم ابو محلم لأبي نواس وقال : هو أشعر ، وأذهب في فنون الشعر ، وأكثر إحساناً في جميع تصرفه . فأمر الواثق بدفع المال الى الحسين بن الضحاك وانكسر مخارق ١) .

وبموت الواثق انتهى عهد الخلفاء الأقوياء ، ذوي الهيبة والجلال ، وبدأ عهد الانحلال السياسي ، ولكن بعد ان أُشرِب القادةُ والأمراءُ حبَّ العلم والأدب ، وأصبحوا يجدون متعة ولذة في حماية العلم ، وتكوين مجالس له على غرار تلك التي كان يعقدها الخلفاء . وعلى هذا فالتدهور السياسي صحبته نهضة علمية ، وضعف العاصمة واضمحلالها نشأ عنه عدة عواصم كل منها مثلت دور بغداد بنجاح عظيم ، يقول Khuda Bukhsh ٢) :

« وفي الممالك المستقلة او شبه المستقلة التي انقسم لها العالم الاسلامي ، قامت أسر حاكمة ، وكانت هذه ينافس بعضها بعضاً في حماية العلم والمتعلمين ، فأصبحت القصور الجديدة في العواصم المتعددة مراكز ثقافية خصبة » . « وكانت تلك القصور وما فيها من مجالس في ذلك العهد تقوم مقام الجامعات اليوم » ٣) .

ولا يتسع المقام هنا بطبيعة الحال ان نُلمَّ بهذه العواصم جميعاً ، وان نتتبع كل قصر من هذه القصور لنرى ما أسداه للعلم والتعليم من فضل ، وعلى هذا فسنجتزىء الموضوع باعطاء أمثلة قليلة :

---

١) الاغاني ٦ : ١٨٦ .

٢) Contribution to the History of Islamic Civilization p. 184.

٣) ظهر الاسلام ٢٨٧ .

ذكر ابو حيان التوحيدي في الامتاع والمؤانسة [1] ان مجلس الوزير ابن الفرات (ابو الفضل جعفر) انعقد مرة سنة ٣٢٦ ، وفيه ابو سعيد السيرافي ، والخالدي ، وابن الاخشاد ، والكتبي ، وابن ابي بشر ، وابن رباح ، وابن كعب ، وقدامة بن جعفر ، والزهدي ، وعلي بن عيسى الجراح ، وابن فراس ، وابن رشيد ، وابن عبد العزيز الهاشمي ، وابن يحيى العلوي ، وابو بشر متّى ، ورسول ابن طغج من مصر ، والمرزباني صاحب آل سامان . فقال الوزير : ألا يُنتدب منكم انسان لمناظرة متّى في حديث المنطق ؟ فانه يقول : لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل ، والصدق من الكذب ، والخير من الشر ، والحجة من الشبهة ، والشك من التعيين ، الا بما حويناه من المنطق .... فأحجم القوم . فقال ابن الفرات : والله ان فيكم لمن يفي بكلامه ومناظرته ، فاني لأعدكم في العلم بحاراً .... فقال السيرافي : اعذر ايها الوزير ؛ فان العلم المصون في الصدر ، غير العلم المعروض في هذا المجلس على الاسماع المصيخة والعقول الحادة .... فقال ابن الفرات : انت لها يا ابا سعيد ، فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك ، والانتصار لنفسك راجع الى الجماعة بفضلك ، فقبل ابو سعيد ودارت مناقشة طريفة ممتعة ذكرها كلّها ابو حيان التوحيدي . نورد هنا منها مسألة فرعية وصلت لها المناقشة :

قال ابو سعيد : ما تقول في قول القائل : زيد أفضل الأخوة ؟

قال متى : صحيح .

قال ابو سعيد : فما تقول إن قال : زيد افضل إخوته ؟

---

١) ج ١ من ص ١٠٨ إلى ص ١٢٨ .

قال متى : صحيح ايضاً .

قال ابو سعيد : فما الفرق بينهما مع الصحة ؟ فغُصَّ متّى بريقه ولم يجب .

فقال ابو سعيد : أفتيت على غير بصيرة ولا استبانة ؛ المسألة الاولى جوابك عنها صحيح وان كنت غافلا عن وجه صحتها ، والمسألة الثانية جوابك عنها غير صحيح وان كنت ايضاً ذاهلا عن وجه بطلانها .

قال متى : بين لي ما هذا .

قال ابو سعيد : ليس هذا مكان التدريس ، اذا حضرت الحلقة استفدت .

قال ابن الفرات : تمم لنا كلامك في شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرة للمجلس .

قال ابو سعيد : زيد أفضل الأخوة صحيح لأن زيداً بعض الأخوة وأحدُهم ، فكأنك تقول حمارك أفره الحمير ، وأما زيد افضل اخوته فخطأ لأن زيداً ليس بعض إخوته اذ أن إخوته غيره فكأنك قلت حمارك أفره البغال .

وهناك مجلس آخر ذو شأن كبير في تاريخ الصالونات الادبية ، ذلك هو مجلس ابي عبدالله الحسين بن سعدان (٣٧٥ هـ) وزير صمصام الدولة ، فقد سأل ابن السعدان أبا حيان التوحيدي الاديب الكبير ان يمضي امسياته في مجلسه ، وقد استجاب ابو حيان لدعوة الوزير ، فكانا يناقشان موضوعات فلسفية بالغة الاهمية كحياة الانسان ، وطبيعة الروح ، ومميزات

ذوي الشأن من المعاصرين ، ومواهب العرب البارزة موازَنَةً بمواهب غير العرب من الجنسيات الاخرى ، وايهما افيد للحاكم وادعم لملكه : كتبة الحسابات ام كتبة الرسائل ، وامتياز علوم اللغة وقواعدها على المنطق [١] .

وكان مجلس هذا الوزير حافلا بجلة العلماء والادباء في ذلك العصر منهم - مع ابي حيان - ابو زرعة الفيلسوف النصراني ، وابن مسكويه صاحب تهذيب الاخلاق وتجارب الامم ، وابو الوفاء المهندس ، وغيرهم ، وكان هذا الوزير يباهي بمجلسه ويفخر به على مجالس الامراء المعاصرين له : مثل المهلبي ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، فيقول عن مجالسيه « ما لهذه الجماعة شكل ولا نظير ، وان جميع ندماء المهلبي لا يفون بواحد من هؤلاء ، وان جميع اصحاب ابن العميد يشتهون أقل من فيهم ، وان ابن عباد ليس عنده الا اصحاب الجدل الذين يشغبون ويتصايحون [٢] .

وقد طلب ابو الوفاء المهندس من ابي حيان ان يجمع له هذه المجالس على ما فيها من هزل وجد ، وخير وشر ، وبادٍ ومكتوم ، فاستجاب له ابو حيان [٣] فكان من ذلك كتاب الامتاع والمؤانسة ؛ هذا العرض الرائع لهذه المناقشات الرائعة ، وهي كما يرى من يطالعها اما افكار جدّت في ذلك المجلس ، او حكاية مناظرات حدثت من قبل كالمناظرة التي حدثت في مجلس الوزير ابن الفرات بين ابي سعيد السيرافي ومتى المنطقي وقد سبق ايرادها .

---

١ (Von Grunebaum : The Journal of Genera Education vol,IV October 1949).

٢) رسالة الصداقة والصديق ص ٣٣ .

٣) الامتاع والمؤانسة ص ٧ .

وهناك قصر آخر لو لم يحظ بغير المتنبي يغرِّد فيه لكفى لتخليده ورَفْع شأنه ؛ ذلك هو قصر سيف الدولة الحمداني الذي يحدثنا عنه Professor Gibb ١) فيقول : وانتقل تيار الادب العربي لمدة بضع سنين الى شمال سوريا واتخذ مقراً له مدينة حلب عاصمة الدولة الحمدانية الشيعية المذهب ، وقد استطاع سيف الدولة ان يجمع حوله في مملكته الصغيرة جماعة قلَّ ان تضارع ؛ اذ كانت متعددة النواحي في العبقرية ، وقد كان كرمه الفائق سبباً في ان ينجذب نحوه ذوو الرياسة من ادباء العصر وعلمائه فأحاطوا اسمه باطار من السمعة الخالدة .

ويقول Nicholson ٢) عن قصر الغزنويين : ان محمود الغزنوي كان شديد الرغبة والحماس في ان ينال العظمة التي يستحقها ملك جعل من بلاطه ملتقى تدور فيه فنون من المناقشات في الآداب والعلوم التي وصل لها اساطين العلماء في ذلك العهد . ويعد فيليب حتي ٣) بعض جلساء محمود الغزنوي بقوله : ان مجلس العباقرة ببلاط محمود الغزنوي كان يزدان بالعتبي المؤرخ العربي ، والبيروني المؤلف والعالم الشهير ، كما سطع فيه الفردوسي الشاعر الفارس اللامع . ويقول العيني ٤) : وكان السلطان محمود يحب العلم والعلماء ، ويكرمهم ويجالسهم ، ويحسن اليهم ، وكانت تعقد مناظرات طويلة بين يديه .

---

١) Arabic Literature p. 61.

٢) A Literary History of the Arabs p. 269.

٣) History of the Arabs p. 465.

٤) عقد الجمان ١٦ : ٢٩٧ مخطوط .

وحينما استولى السلاجقة على بغداد وعلى اغلب العالم الاسلامي ، ظهر اسم الوزير نظام الملك الذي كان السلطان الحقيقيّ لدولة السلاجقة الاولى ، وكان هو نفسه فقيهاً وعالماً [١] ، فكانت تعقد المناظرات في حضرته ، وقد خرج له الغزالي مرة وناظر الأئمة والعلماء في مجلسه ، وقهر الخصوم ، وظهر كلامه على الجميع ... فولاه نظام الملك التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد [٢] . وطالما جرت مناظرات بين ابي اسحق الشيرازي وإمام الحرمين ابي المعالي الجويني بحضرة نظام الملك [٣] .

وعند قيام امارات الأتابك والشاهات على انقاض السلاجقة ، كان لنور الدين زنكي الذي اصبح ملكاً لسورية شغف كبير برعاية الثقافة ، وكان لأهل العلم عنده مجلس عظيم ، وكان يجمعهم عنده للبحث والنظر ، واستقدمهم اليه من البلاد الشاسعة [٤] .

ولنعرج الآن على مصر لنخصص للحديث عنها مساحة محدودة بقدر ما يسمح المقام ؛ فقد بدأت الصالونات الادبية في القصور المصرية منذ ظهرت الدولة الطولونية ، وهي اول دولة استقلت بمصر منذ فتحها العرب ، ويروي ابن زولامة [٥] « انه في عهد الطولونيين والأخشيديين لم تكن هناك مدارس ، فكانت الدروس تلقى في قصور الامراء والوزراء وفي منازل العلماء » . وفي بلاط الاخشيد كانت تلقى أبحاث تاريخية كل مساء ،

---

١) انظر طبقات الشافعية ٣ : ١٣٥ ـ ١٤٥.
٢) الأحياء ١ : ٣ .
٣) ابن الأثير ١٠ : ٨١ .
٤) مفرج الكروب ١٦٥ مخطوط.
٥) أخبار سيبويه المصري ١٩ .

وقد تربى كافور في هذا البلاط وترقى الى ان جعله الاخشيد اتابك ولديه ومعلمهما [1] ، فلما تسلم كافور الامر أدنى الشعراء وأجازهم ، وكانت تقرأ عنده في كل ليلة السيرُ واخبار الدولة الاموية والعباسية [2] ، وأصبح كافور حامياً للعلم والعلماء ، وامتاز صالونه بأن ازدهى بوجود المتنبي بين جماعته ينشد من شعره الخالد :

ولكن بالفسطاط بحرا أزرْتُه ... حياتي، ونصحي،والهوى،والقوافيا
وجرداً مددنا بين آذانها القنا ... فبتن خفافاً يتبعن القواليا
تجاذب فُرسان الصباح أعنَّة ... كأن على الاعناق منها افاعيا
بعزم يسير الجسمُ في السرج راكباً ... به ، ويسير القلب في الجسم ماشياً
قواصدَ كافور ، توارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا انسان عينِ زمانه ... وخلَّت بياضا خلفها ومآقيا
نجوز عليها المحسنين الى الذي ... نرى عندهم إحسانه والأياديا
فتى ما سرينا في ظهور جدودنا ... الى عصره، إلا نرجِّي التلاقيا [3]

وعلى كل حال فان مجالس الطولونيين والاخشيديين لتذبل وتتضاءل بالقياس الى صالونات الفاطميين الباهرة ، فلقد سار الفاطميون ، كما يقول سيد امير علي [4] على ان يعقدوا مجالس علمية صاخبة من حين الى آخر ، وقوامُ هذه المجالس أساتذة بيت الحكمة الذين كانوا ينقسمون الى جماعات تبعاً لمواد دراستهم وتخصصهم ، فكان يجتمع هنا اساتذة المنطق والجدل ،

---

١) ابن خلكان ١ : ٦١٤ .
٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٤ : ٦.
٣) ديوان المتنبي شرح العكبري ٤ : ٢٨٥ ـ ٢٨٨.
٤) A Short History of the Saracens p. 614.

وهناك الفقهاء والمحدثون ، وفي مكان ثالث علماء الرياضة ، ويشغل الأطباء مكاناً رابعاً ، وهكذا ، وكل واحد من هؤلاء يرتدي الخلعة الجامعية التي تشبه (الروب) الذي يرتديه حملة الدرجات العلمية العليا في العهد الحاضر .

ورتب يعقوب بن كلس مجلساً في داره في يوم الثلاثاء من كل اسبوع ، يجتمع فيه العلماء والادباء والفقهاء والقضاة ، وتجري بينهم المناظرات وتصرف المنح والارزاق [1] .

وفي سنة ٤٠٣ هـ أُحضِر جماعة من دار العلم من اهل الحساب والمنطق ، وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغني بن سعيد ، وجماعة من الاطباء ، الى حضرة الحاكم بأمر الله ، وكانت كل طائفة تحضر على انفرادها للمناظرة بين يديه ، ثم خلع على الجميع ووصلهم [2] .

وعندما انتقلت السلطة الفعلية من الخلفاء الفاطميين الى الوزراء العظام ، لم يكن هؤلاء اقل حماسة من الخلفاء ؛ فقد اجتمع في بلاط الملك الصالح طلائع بن رزبك اكبر اعيان اهل الادب ، مثل القاضي الجليس ابو المعالي عبد العزيز بن الحباب ، والموفق بن الحلال ، وابن قادوس ، والمهذب بن الزبير ، وغيرهم ، الذين وصفهم عمارة اليمني بقوله [3] : وما من هذه الحلبة احد إلا ويضرب في الفضائل النفسانية والرياسة الانسانية بأوفر نصيب ، وما زلت احذو على طرائقهم ، واعرض خبرتي في سوابقهم ،

---

١ المقريزي الخطط : ٢ : ٣٤١

٢) الخطط ١ : ٤٥٩

٣) النكت العصرية ص ٣٥

حتى اثبتوني في جرائدهم . ويقول ابن تغري بردي [1] : « ان الصالح جعل له مجلساً في اكثر الليالي بحضرة اهل الادب ، ونظم هو شعراً ودوّنه ، وكان الناس يُهرَعون الى نقل شعره » وفي احد مجالسه انشد احد جلسائه بيتاً من الاوزان التي يسميها المصريون الزكالش ، ويسميها العراقيون كانْ وكانْ :

النار بين ضلوعي ونا غريقْ في دموعي
كَنّي فتيلةْ قنديل أموتْ غريقْ وحريق

فتقدم الصالح الى جلسائه ، ان يضعوا المعنى في شعر عربي فصيح ، فقال الجليس ابو المعاني عبد العزيز ابن الحباب :

وله من الزفرات لفحُ صواعقٍ وله من العَبَرات لُجٌّ بحار
كذُبالة القِنديل قُدِّر هُلْكُها ما بين ماء في الزجاج ونار

وصنع القاضي المهذب ابن الزبير :

كأني وقد سالت سيولُ مدامعي فأذكت حريقاً في الحَشا والترائبِ
زبالةُ قِنديل تعوم بمائها وتُشعَلُ فيها النارُ من كل جانبِ

وصنع الصالح نفسه :

واذا تُشَبُّ النار بين اضالعي قابلتها من عَبرتي بسيول
فأنا الحريق بل الغريق اموت في هذا وذا ، كذُبالة القنديل [2]

وكان بين سلاطين الايوبيين ووزرائهم سادة نجب ، واعلام افذاذ ،

---

١) النجوم الزاهرة ٥ : ٣١٣
٢) علي بن ظافر : بدائع البدائه ص ١٣٣

لهم قدم راسخة في العلم والفضل ، من امثال الملك المعظم عيسى ملك دمشق وفلسطين ، ومن امثال القاضي الفاضل الوزير الشهير ، فلا غرو ان يُعنى امثال هؤلاء بالصالونات والمجالس الادبية ، وكان مجلس القاضي الفاضل يلتقي فيه عليـة القوم ؛ كتاج الدين الكندي ، وفرخشاه بن شاهنشاه ، وفي احدى الجلسات أعجب فرخشاه بتاج الدين فقبض على يده ، وأصرَّ ان يأخذه لبيته ليكون زينة صالونه [١] .

وقد ظل نشاط الصالونات الادبية واضحاً في عهد المماليك ، وليس لي ان أتتبعه بعد ذلك لأعطي نماذج منه ، وحسبي ان اذكر ان الدكتور عبد الوهاب عزام جمع نخبة ونشرها من « مجالس السلطان الغوري » [٢] .

٧ – البـــادية

تركزت ثقافة العرب في العهد الجاهلي في الأدب العربي من شعر ونثر وخطابة ؛ فكان الرجل يُعَدُّ مثقفا ما كان شاعرا جزلا ، أو ناثراً حكيما ، أو خطيباً مفوها ، وكانت عواطف الجماهير تتأثر بالأدب تأثراً عميقـا فهي تنقاد للحرب بقصيدة حماسية ، أو خطبة ملتهبة ، كما تجنح الى السلم بأبيات للموادعة ، وعبارات للصفح والاخاء . واعجابُ العرب في العهـد الجاهلي بلغتهم ، وتقديرهم لهـا ، استمر بل زاد بظهور الاسلام ؛ اذ كان الرسول نفسه عربيـا مفتنّاً في القول ، ثم كان القرآن الكريم في أرقى درجات البلاغة العربية .

---

١) محمود دهان . المقصورة الناجية ص ١١ .
٢) مطبعة لجنة التأليف بالقاهرة ١٩٤١ .

وكانت اللغة العربية حتى عصر صدر الاسلام فصيحة سليمة ، الا أن اتصال العرب بغيرهم عن طريق التجارة سبب وجود لحن قليل بينهم ، وكان ارتكاب ذلك اللحن عاراً لا يغتفر وزلة لا تمحى ؛ فلقد رُوِي أن رجلا لحن في حضرة النبي (ص) فقال الرسول لأصحابه : أرشدوا أخاكم فقد ضل .

ومنذ عهد عمر زاد الاختلاط بين العرب والأعاجم ؛ اذ انتشر الاسلام واقتحم بلادَ الفرس و بلادَ الروم ، وكانت اللغة العربية تسير مع جيوش المسلمين ، فكان انتصار الجيش يتبعه انتصار اللغة ، ثم أصبحت عواصم الامبراطورية الاسلامية (المدينة فدمشق ثم بغداد) مدنا عامة يُهرَع الناس لها من كل فج ، مهما اختلفت لغاتهم وجنسياتهم ، وحفلت مدنٌ أخرى كالكوفة والبصرة بعدد كبير من الأجانب ، وبخاصة جماهير الايرانيين الذين كانوا أسرى حرب ، ثم اعتنقوا الاسلام [1] ، وأقبل العرب على التزوج من الاجنبيات اقبالا ملحوظا ، ثم كانت الأمكنة المقدسة التي يجتمع فيها من اعتنقوا الاسلام من العرب وغيرهم في موسم الحج ، حيث يقضون بضعة أسابيع ، وكانت اللغة العربية هي لغة التفاهم بطبيعة الحال سواء في البيوت والقرى أو في المدن والعواصم أو في موسم الحج . ولكن غير العرب لم يستطيعوا أن يسيطروا على القوانين المعقدة للغة العربية ، ولم يستطيعوا ان ينطقوا بها معربة اعرابا صحيحا ، ففسد اللسان العربي وظهرت لغة يسميها الجاحظ لغة المولَّدين او البلديين [2] . ولم يقف الخطأ عند غير

---

١) Wellhausen : Arab Kingdom and its Fall P. 71.

٢) البيان ١ : ٦٨

العرب ، بل تعداهم الى العرب أنفسهم ، الذين ظهر هذا اللحن بينهم وفشا .

وكان اللحن ـ حتى بعد انتشاره ـ يُنظر اليه على أنه شيء مستهجن ، يدعو الى النفور والامتهان ؛ روي أن كاتبا لأبي موسى الاشعرى كتب الى عمر : « من أبو موسى ... » فكتب عمر الى أبي موسى : عزمت عليك لمّا ضربت كاتبك سوطا [١] . ودخل اعرابي السوق مرة فسمع الناس يلحنون فقال : سبحان الله ! يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح [٢] . وهناك حكايات كثيرة من هذا اللون نمسك عن ذكرها تحاشيا للاستطراد [٣] . ولكن الموقف زاد خطورة عندما تعدى اللحن عامة الناس الى خاصتهم ، فوقع فيه الوليد بن عبد الملك ، والحجاج بن يوسف ، وابو حنيفة النعمان ، وبشر المريسي ، وشبيب بن شيبة ؛ وغيرهم من الخلفاء والعظماء [٤] . ثم كان اللحن اكثر خطرا وأوعى لاشمئزاز النفس عندما وقع في القرآن فغيّر المعنى تغييراً يؤدي بصاحبه الى الكفر لو كان مقصودا ، كاللحن الذي وقع في الآية الكريمة « هو الله الخالق البارىء المصوِّر [٥] » اذ قرأها قارىء المصوَّر بفتح الواو ؛ وكالأعرابي الذي أقرأه رجل سورة براءة ولحن في تعليمه الآية الكريمة « ان الله بريء من المشركين ورسولَه [٦] . » فأقرأها له « ان الله بريء من المشركين ورسولِه » بكسر

---

١) البيان م : ٤ طبعة سنة ١٣١١ هـ

٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١٥٩ ، ابن عبد البر أدب المجالسة مخطوط ٥٥

٣) انظر البيان ٢ : ٥ ، ٦ ابن قتيبة عيون الأخبار ٢ : ١٥٨ ابن عبد البر : أدب المجالسة ٥٥ أ العقد الفريد ٢ : ١٨

٤) العقد الفريد ٢ : ١٨ ـ ٢٠ ، ابن قتيبة ٢ : ١٥٩ البيان ٢ : ٣ ـ ٥

٥) ٥٩ : ٢٤ .

٦) ٩ : ٣

اللام فقال الأعرابي : ان يكن الله بريئاً من رسوله فأنا أبرأ منه أيضا [1] .

ويقول ابن خلدون [2] متحدثاً عن تاريخ اللحن في اللغة العربية ما يلي : واللغة ملكة في ألسنة القوم ، يأخذها الآخر من الاول ، كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا ، فلما جاء الاسلام ، وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الامم والدول ، وخالطوا العجم ، تغيرت تلك الملكة بما ألقى اليها السمع من المخالفات التي للمتعربين ، والسمعُ ابو الملكات اللسانية ، ففسدت بما ألقي اليها مما يغايرها لجنوحها اليه باعتبار السمع .

وبينما كان اللحن يفشو في الحضر حيث اختلط العرب بالاعاجم ، بقيت اللغة سليمة تماماً في الصحراء التي لم تجذب اليها الاعاجم ولا من فسدت لغتهم ، وقد سبق ايراد قصة البدوي الذي جيء به ليكون حكما فاصلاً بين سيبويه والكسائي في الخلاف اللغوي الذي نجم بين الاثنين حول صحة النطق بجملة معينة ، وقد أغوى الأمينُ البدويَّ أن ينصر الكسائي ، وقَبِل البدوي فكرةَ التحيُّز ، ولكنه قال : إن لساني لا يطاوعني على ذلك ، فانه لا يسبق الا للصواب [3] . وعلى هذا أصبح البدو هم الذين تؤخذ عنهم اللغة الصحيحة ، وانتهز البدو هذه الفرصة فوفدوا على القرى والمدن وجلسوا يعلمون الناس . ويعطينا ابن النديم فكرة واضحة عن البدو الذين جاءوا الى الحضر ، واتخذوا التعليم مهنة لهم ، ومن هؤلاء أبو البيدا الرياحي [4] وابو جاموس ثور بن يزيد الذي تعلم

---

١) طبقات الأدباء ص ٨ .
٢) المقدمة ص ٤٠٣ .
٣) ابن خلكان ١ : ٥٤٩ .
٤) الفهرست ص ٦٦ .

الفصاحةَ منه عبدُ الله بن المقفع [١] ، وأبو العيثل عبد الله خليد [٢] ، وعبد الله بن عمرو بن أبي صبح [٣] .

وبينما قنع بعض الناس بالجلوس الى البدو في القرى والمدن ليتعلموا منهم ، نجد آخرين لا يكتفون بذلك وانما يهجرون الحضر ويضربون في البادية ليتعلموا اللغة في منبعها الاصيل ، وليتحاشوا سماع لغة المولدين والبلديين ، وعلى هذا نجد البادية في القرنين الاولين للهجرة تقوم بدور المدرسة في الوقت الحاضر [٤] ويقول حتي Hitti في ذلك [٥] : ان صحراء سورية كانت مدرسة الامراء الامويين ، فاليها أُوفِد هؤلاء ليتعلموا اللغة الفصيحة النقية ، وليتذوقوا فنون الشعر والأدب ، وقد أرسل معاوية اليها ابنه وولي عهده يزيد . ولما كان الوليد بن عبد الملك لم يرسل للبادية إيثاراً لراحته وهناءة عيشه فانه لم يتقن اللغة وقواعدها ، وكان كثير الاخطاء فيها [٦] ، ومن اجل هذا أُثر عن ابيه انه كان يقول : أضرَّ بنا حبُّنا للوليد فلم نرسله للبادية [٧] . ولم تقتصر هذه السُّنَّة على الامراء الامويين فان المعتصم بن هرون الرشيد أرسل ايضاً الى البادية للغرض نفسه [٨] .

ولم تكن الصحراء مدرسة الامراء فحسب وانما قصدها عدد كبير من

---

١) الفهرست ص ٦٧ .
٢) المصدر نفسه ص ٧٢ .
٣) المصدر نفسه ص ٧٣ .
٤) Encyclopaedia of Education 3 : 1112.
٥) History of the Arabs p. 253.
٦) العقد الفريد ٢ : ١٨ .
٧) العقد الفريد ٢ : ١٩ .
٨) العقد الفريد ١ : ٣٦٥ .

العلماء الأعلام نذكر منهم :

الخليل بن احمد (١٦٠ هـ) الذي سأله الكسائي مرة : من اين علمك هذا ؟ فقال : من بوادي الحجاز ونجد وتهامة [١] .

بشار بن برد (١٦٧ هـ) وقد قيل له مرة : « ليس لأحد من شعراء العرب شعر الا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من ألفاظهم وشُكَّ فيه ، وانه ليس في شعرك ما يُشَك فيه » قال : « ومن اين يأتيني الخطأ ؟ ولدت ههنا ، ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم احد يعرف كلمة من الخطأ ، وان دخلتُ الى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت الى ان أدركت ، فمن اين يأتيني الخطأ [٢] ؟ »

الكسائي (١٨٢ هـ) خرج الى البادية وأنفد خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب سوى ما حفظه [٣] .

الشافعي (٢٠٤ هـ) وهو يقول في وصف حياته الاولى : « ثم اني خرجت عن مكة فلزمت هذيلاً في البادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها ، وكانت افصح العرب فبقيت فيهم سبع عشرة سنة ، أرحل برحيلهم وانزل بنزولهم ، فلما رجعت الى مكة جعلت أنشد الاشعار ، واذكر الآداب والاخبار ، وايام العرب [٤] .

---

١) ابن الانباري ص ٨٣ .
٢) الأغاني ٣ : ٢٦ .
٣) ابن الانباري ٨٣ ـ ٨٤ .
٤) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٣٦٩ .

الرياشي أبو الفضل العباس بن الفرج (٢٥٧ هـ) وكان يفخر بأنه : « أخذ اللغة من حَرَشَة الضباب ، وأكلة اليرابيع وأخذها كثيرون غيره من اهل السواد أكلة الكواميخ والشواريز [١] .

وكان الذين يفدون الى البادية يتعلمون من جمهرة الناس ؛ إذ ان اللغة الفصحى كانت وحدها اللغة المستعملة في هذه البقاع ، وبالاضافة الى ذلك فانهم انضموا الى الحلقات العلمية التي كان يعقدها كثير من مثقفي البدو وافذاذهم ليرووا فيها أجود الشعر ويقرأوا سيرة العرب وتاريخ وقائعهم وحياة ابطالهم السابقين ، وكان من هؤلاء ابو ملك عمر بن كركرة ، وابو ثروان العكلي ، وابو هندام كلاب بن حمرة [٢] .

٨ - المسجد

تاريخ التربية الاسلامية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمسجد ، ولهذا فالحديث عنه حديث عن المكان الرئيسي لنشر الثقافة الاسلامية ، وقد قامت حلقات الدراسة في المسجد منذ نشأ ، واستمرت كذلك على مرّ السنين والقرون ، وفي مختلف البلاد الاسلامية دون انقطاع . ولعل السبب في جعل المسجد مركزاً ثقافياً هو ان الدراسات في سني الاسلام الأولى كانت دراسات دينية تشرح تعاليم الدين الجديد وتوضح أسسه وأحكامه وأهدافه ، وهذه تتصل بالمسجد اوثق اتصال ، ثم ان المسلمين في عصورهم الاولى توسعوا في فهم مهمة المسجد ، فاتخذوه مكاناً للعبادة ، ومعهداً للتعليم ، وداراً للقضاء ،

---

١) الفهرست ص ٨٦ .

٢) الفهرست ٦٦ ، ٦٩ ، ١٢٢ بالترتيب .

وساحة تتجمع فيها الجيوش ، ومنزلا لاستقبال السفراء [1] .

والذي دعا المسلمين الى التبكير بانشاء المسجد هو احساسهم بان البيوت الخاصة تضيق بهم ، ولا تمنحهم حرية العبادة واللقاء كما يشتهون ، ومن هنا ـ فيما يبدو ـ أسسوا المسجد واطلقوا عليه « بيت الله » ، اشارة الى انه لا يحتاج الداخل فيه الى استئناس ولا استئذان ، وربما جارى المسلمون جيرانهم من اليهود والنصارى ، فقد كان لأولئك وهؤلاء بيع وكنائس يذكر فيها اسم الله ويُتعبد فيها ، بل لماذا لا نقول ان العرب المسلمين قلدوا العرب قبل الاسلام فقد كان لهؤلاء متعبَّدهم المقدس (البيت الحرام) الذي رفع قواعدَه ابراهيمُ واسماعيلُ قبل الاسلام بزمن طويل ، والذي كان عند قيام الاسلام كعبة يحج لها العرب من كل أصقاع الجزيرة العربية ، ويتعبدون فيها [2] اذ جعله الله « سواء للطائفين والقائمين والركَّع السجود [3] » . وعلى هذا فقد كان عبدة الاصنام يضعون فيه أصنامهم ، وكان الموحدون يؤدون فيه عباداتهم ، فلما جاء الاسلام عظَّمه المسلمون ايضاً واجلُّوه ، حتى قبل ان تزول منه الاصنام ، فقد اتخذ الرسول مصلاه فيه بين الركنين الركن الأسود والركن اليماني [4] .

فلما أرغم على الهجرة وقف ونظر الى البيت وقال : والله انك لأحب أرض الله اليَّ ، وانك لأحب ارض الله الى الله ، ولولا ان اهلك

---

١) انظر مادة مسجد في دائرة المعارف الاسلامية .

٢) انظر الشهرستاني : الملل والنحل ٤٤٢ ـ ٤٤٣ .

٣) سورة رقم ٢٢ آية رقم ٢٥ .

٤) ابن هشام ١ : ٢١٨ .

اخرجوني ما خرجت [1] .

اما وقد أُبعد المسلمون عن مكة ، وحرموا الالتقاء والعبادة في البيت الحرام ، فليفكروا سريعاً في ان يعتاضوا به مكاناً آخر ، وقد كان ، فان الرسول وهو في طريقه الى المدينة مهاجراً أقام بقباء بضعة ايام ، أسس فيها مسجد قباء ، وهو اول مسجد بني في الاسلام ، ويقال إن فيه نزلت الآية الكريمة (لمسجد أسس على التقوى من اول يوم أحق ان تقوم فيه ، فيه رجال يحبون ان يتطهروا [2]) ويروي البلاذري [3] ان هذا المسجد أسسه الذين هاجروا الى المدينة قبل رسول الله . ثم ان الرسول لما دخل المدينة بنى مسجده بالمربد ، وعمل فيه بنفسه ، ليشجع المهاجرين والانصار على النشاط والسرعة في العمل [4] . ويروي البلاذري وابن هشام روايات اخرى تفيد ان الآية السابقة نزلت في هذا المسجد لا في مسجد قباء . وكانت تعقد حلقات العلم في مسجد قباء [5] كما كان من عادة الرسول ان يجلس في مسجده بالمدينة ليعلم اصحابه دينهم ودنياهم [6] .

وكثرت بعد ذلك المساجد وزاد انتشارها بتوسع الاسلام ، واصبح من المتبع ان يُبنى مسجد او اكثر في كل مكان فتحه المسلمون ، او في كل قرية او مدينة أسسوها ، فلقد روي ان عمر لما فتح البلدان كتب الى

---

١) الروض الأنف للسهيلي ٢ : ٣ .
٢) سورة ٩ آية ١٠٩ وانظر في ذلك ابن هشام ٢ : ١١ ، الطبري ١ : ٣ : ١٢٥٩ .
٣) فتوح البلدان ص ١٧ .
٤) ابن هشام ٢ : ١٢ ـ الطبري ١ : ٣ : ١٢٥٩ ـ البلاذري ٢٠ وفتوح البلدان ص١٧ .
٥) الاحياء : ١ : ٥٢ .
٦) البخاري : باب الصلاة .

ابي موسى وهو على البصرة يأمره ان يتخذ مسجداً للجماعة ، ويتخذ للقبائل مساجد ، فاذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد الجماعة ، وكَتَبَ الى سعد بن ابي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك ، وكتب الى عمرو ابن العاص وهو على مصر بمثل ذلك [1] . . . .

وبمرور الزمن زاد عدد المساجد زيادة كبيرة مطردة وبخاصة في العاصمة ، فما ان جاء القرن الثالث حتى كانت بغداد تغص بالمساجد ، اذ يحكي اليعقوبي [2] أنه عدَّ فيها ٣٠٠٠٠٠ مسجد [3] .

ولم يختلف الحال في مصر اختلافا بينا عنه في بغداد ، الا أنه يبدو ان الجوامع في مصر كانت بطيئة الانتشار ، وأول جوامع القاهرة هو جامع عمرو بن العاص الذي يحمل اسمه حتى الآن ، وقد بناه عقب فتح مصر . وحتى سنة ١٣٣ هـ لم يكن بالفسطاط جامع غير جامع عمرو ، وفي هذه السنة قدم عبد الله بن علي يقود فيلقا من جيش العباسيين ليقضي على مروان بن محمد الخليفة الأموي الأخير الذي هرب الى مصر عقب انتصار العباسيين ، وقد عسكر عبد الله بن علي بجيشه شمال الفسطاط حيث أنشئت مساكن عديدة ، ومنشآت كثيرة ، من بينها جامع العسكر . وفي سنة ٢٦٥ هـ أسس احمد بن طولون جامعه بالقطائع ، فانتقلت اليه صلاة الجمعة التي كانت تقام في جامع العسكر منذ انشائه [4] .

---

١) الخطط ٢ : ٢٤٦ ـ حسن المحاضرة ٢ : ١٤٩ .

٢) البلدان ص ٢٥٠

٣) لا يتهم القارىء اليعقوبي بالمبالغة ؛ اذ كان المسجد منتشرا جداً بخلاف الجامع ، حتى انه يقال ان كل بيت كانت تعد به حجرة للصلاة يطلق عليها المسجد .

٤) انظر تاريخ الجامع الطولوني لمحمد عكوش

وفي سنة ٣٦٠ هـ بنى جوهر الصقلي الجامع الأزهر ، ولكنه خصص منذ سنة ٣٧٨ هـ للدراسات والأبحاث العلمية ، وظل من ذلك التاريخ حتى العهد الحاضر جامعة من الجامعات الأولى في العالم الاسلامي [١] . وقد بدأ العزيز بالله يبني جامعاً آخر ، ولكنه مات قبل ان يتمه ، فأكمله ابنه الحاكم ، ومن ثم اصبح يطلق عليه جامع الحاكم ، وقد بنى الحاكم ايضاً جامع المقس وجامع رشيدة ، وتوقف انشاء الجوامع الى ان جاء الأيوبيون فكان بمصر هذه الجوامع الست فقط [٢] .

هذا من حيث الجوامع التي كانت تقام فيها صلاة الجمعة ، اما المساجد وهي التي كانت تستعمل لتأدية الصلوات الخمس فقد كانت في مصر ـ كالحال في بغداد ـ كثيرة الانتشار ، فمثلا يتحدث ابن جبير [٣] عن مساجد الاسكندرية بقوله : « وهي اكثر بلاد الله مساجد ، حتى ان منهم من يقول ان مساجدها ١٢،٠٠٠ وبالجملة فهي كثيرة جداً ؛ تكون منها الاربعة والخمسة في موضع » .

وسنتحدث فيما يلي عن التعليم في الجوامع فنختار ثلاثة منها [٤] لنعطي فكرة سريعة عن التعليم فيها ولنصف بايجاز حلقات العلم التي تكونت بها :

جامع المنصور : اتخذ المنصور اهبته لبناء عاصمة جديدة للعالم الاسلامي ، وقد بدأ العمل سنة ١٤٥ هـ لتشييد بغداد تزدان بقصر الذهب وجامع

---

١) Lane — Poole : Cairo : 123 — 124.

٢) المقريزي الخطط ٢ : ٢٤٤ـ٢٤٥ . السيوطي : حسن المحاضرة : ٢ : ١٤٨ .

٣) الرحلة ص ٤٣ .

٤) لن ترتب هذه الجوامع تبعاً لتاريخ انشائها ، وانما سترتب ترتيباً يناسب الفكرة التي اتبعت بقدر الامكان في تأليف هذا الكتاب وهي الحديث عن بغداد فدمشق فالقاهرة .

المنصور [١] ، وقد كلفه ذلك نقلاً عن ياقوت [٢] ثمانية عشر مليوناً من الدنانير . وقد جُدِّد ذلك الجامع في عهد الرشيد ، كما زيد فيه وناله كثير من الاصلاح والتعمير بعد ذلك [٣] .

وقد كان ذلك المسجد قبلة أنظار الاساتذة والطلاب في ذلك العهد ، ومما يدلنا على أنه كان يحتل مكانة سامية في نفوس العلماء ان الخطيب البغدادي لما حج شرب من ماء زمزم وسأل الله ان يحقق له ثلاث حاجات كان من بينها ان يتاح له ان يملي الحديث بجامع المنصور [٤] . ويبدو ان الحنابلة كانت لهم السيطرة على هذا الجامع في منتصف القرن الخامس الهجري حتى انهم اعتدوا سنة ٤٥١ على الخطيب البغدادي وآذوه وهو يدرس فيه [٥] . وكان الكسائي يجلس في مسجد المنصور ليقرأ في علوم اللغة ، وكان الفراء والأحمر وابن السعدان بعض تلاميذه [٦] ؛ كما كان أبو العتاهية يملي في ذلك المسجد من شعره ؛ حدث شيخ من اهل الكوفة انه دخل ذلك المسجد فاذا شيخ عليه جماعة وهو ينشد :

لهفي على وَرَق الشبابِ وغصونه الخُضْر الرِّطابِ
ذهب الشباب وبان عني غيرَ منتَظَر الإيابِ
فلأبكينَّ على الشبا ب وطيبِ أيام التصابي

---

١) معجم البلدان ٢ : ٢٣٢ .
٢) المرجع نفسه ٢ : ٢٣٥ .
٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١ : ١٠٨ .
٤، ٥) ياقوت : معجم الأدباء ١ : ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .
٦) معجم الأدباء ٤ : ٢٤٣ .

ولأبكينَّ من البلى ولأبكينَّ من الخضابِ

وكان ينشدها ودموعه تسيل على خديه ، فلما رأى الكوفي ذلك انضم الى الحلقة وكتب الأبيات ، وسأل عن الشيخ فعرف انه أبو العتاهية [1] . وفي مسجد المنصور أملى ابو عمر الزاهد كتابه الياقوت ، وقد بدأ يحاضر في موضوع ذلك الكتاب في شهر المحرم سنة ٣٢٦ هـ ، ولما أتمه استعاد قراءته فهذبه وزاد عليه [2] .

جامع دمشق : كان مسجد دمشق كما يحكي ابن الفقيه [3] يعد واحداً من عجائب الدنيا الاربع في ذلك العهد ، ولنقتطف بعض النصوص التي اوحت الى الناس ان يضعوا هذا الجامع في ذلك الوضع :

أنْفَقَ الوليد بن عبد الملك على بناء هذا المسجد خراج المملكة سبع سنين ، وحُمل للوليد حساب النفقات على ثمانية عشر بعيراً .

ظل العمل يجري في بناء هذا المسجد مدة ثمانية اعوام ، حتى بلغ ثمن البقل الذي اكله الصناع في مدة ايام العمل ٦٠٠٠ دينار .

فيه ٦٠٠ سلسلة ذهب للقناديل .

قالوا ان من عجائب مسجد دمشق انه لو بقي الرجل فيه مائة سنة لرأى في كل وقت أعجوبة لم يرها من قبل [4] .

ولا يزال هذا البناء الشامخ يبعث الاعجاب في النفس وينبىء عما

---

١) الاغاني ٣ : ١٤٣ .
٢) الفهرست ١١٣ .
٣) كتاب البلدان ص ١٠٦ .
٤) المرجع السابق ١٠٧ ـ ١٠٨ وانظر ايضاً معجم البلدان ٤ : ٧٦ ـ ٧٧ .



شكل رقم (١) منظر للجامع الاموي بدمشق



شكل رقم (٢) منظر آخر للجامع الاموي بدمشق

كان له من جلال وعظمة في تلك الازمان الخالية ، وقد التقطتُ له بعض الصور إبان زيارتي لمدينة دمشق عام ١٩٥٠ أثبت فيما يلي بعضها [١] :

وقد كان ذلك المسجد مركزا هاما من مراكز الثقافة في العالم الاسلامي ؛ يحدثنا ابن جبير عنه فيقول [٢] :

وفيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها اجراء واسع ، وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي يجتمع فيها طلبة المغاربة ولهم اجراء معلوم ، ومرافق هذا الجامع للغرباء واهل الطلب كثيرةٌ واسعة ، واغرب ما به ان سارية من سواريه وهي بين المقصورتين القديمة والحديثة ، لها وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة والتدريس .... وعن يمين الخارج من باب البريد مدرسة للشافعية في وسطها صهريج يجري الماء فيه .

وفي الجانب الغربي بازاء الجدار مقصورة برسم الحنفية يجتمعون فيها للتدريس وبها يصلون .....

وفي الجامع عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس وهي من جملة مرافق الطلبة .

وكان للخطيب البغدادي بهذا المسجد حلقة كبيرة سنة ٤٥٦ وكان الناس يجتمعون اليه في بكرة كل يوم فيقرأ لهم .... وكان اذا قرأ الحديث في جامع دمشق سمع صوته في آخر الجامع [٣] .

جامع عمرو : بناه عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ ثم جُدِّد وزيد عليه بعد

---

١) الصورتان رقم ١ ، ٢ .

٢) الرحلة من صفحة ٢٦٦ الى صفحة ٢٧٢ بتقديم وتأخير .

٣) ياقوت : معجم الادباء ١ : ٢٥٥ .

ذلك عدة مرات [1] ، وفي عهد مبكر جداً جلس فيه سليمان ابن عتر التجيبي ليعظ الناس عن طريق ذكر القصص ، وكان قد جمع له القضاء والقصص ثم عزل عن القضاء وأفرد بالقصص ، وقد بدأ عمله سنة ٣٨ هـ ومنذ ذلك التاريخ ظل هذا المسجد مركزا ثقافياً ومحكمة للقضاء . وقد أدرك به محمد بن عبد الرحمن الحنفي قبل وباء سنة ٧٤٩ بضعا وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه [2] . وقد سجل لنا المقريزي [3] بعض التفاصيل من زوايا ثمانٍ كانت تدرس فيها شتى العلوم بهذا الجامع ، وفيما يلي مقتطفات قصيرة عن ثلاث منها :

زاوية الامام الشافعي : يقال انه درس بها الشافعي فعرفت به ، وعليها ارض بناحية سنديس وقفها السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين ، ولم يزل يتولى تدريسها اعيانُ الفقهاء وجلة العلماء .

الزاوية المجدية : بصدر الجامع ، رتبها مجد الدين ابو الأشبال وزير الملك الاشرف ، وقرر في تدريسها قريبه قاضي القضاة عبد الوهاب البهنسي ، وعمل على هذه الزاوية عدة اوقاف بمصر والقاهرة ويُعَدُّ تدريسها من المناصب الجليلة .

الزاوية الصاحبية : رتبها الصاحب محمد بن فخر الدين ، وجعل لها مدرسين : احدهما مالكي والآخر شافعي وجعل عليها وقفاً بظاهر القاهرة . ولما وفد محمد بن جرير الطبري على مصر بان فضله في القرآن والفقه

---

١) المقريزي : الخطط ٢ : ٢٤٦ ، ٢٥٦ .
٢) المرجع نفسه ٢ : ٢٥٦ .
٣) المرجع نفسه ٢ : ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

والحديث واللغة والنحو والشعر ، فلقيه ابو الحسن بن سراج فوجده فاضلاً في كل ما يذاكره به من العلم ، ويجيب في كل ما يسأله عنه ، حتى سأله عن الشعر فرآه فاضلاً بارعاً فيه ، فسأله عن شعر الطرماح فاذا به يحفظه ، فسئل ان يمليه ، فاستجاب وجلس بجامع عمرو لاملائه [١] .

ويتضح من الامثلة السابقة ان الحلقات العلمية بالمساجد لم تكن مقصورة على الدراسات الدينية ، وانما تعدتها الى سواها من معارف ذلك العصر ، ولا نزاع ان الدراسات الدينية كانت اهم ما يجذب الطلاب ويُعنى به المدرسون ، ولكن مع هذا فان النصوص التي امامنا تدل على ان المسجد اتسع للعلوم الدينية ولسواها ، وسنشير فيما يلي الى غير العلوم الدينية من المواد التي كانت تدرس بالمساجد :

اعتزل واصل بن عطاء حلقةَ الحسن البصري ، وكان يُعنى هو واتباعه عناية كبيرة بعلم الكلام ، وقالوا إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن وليس بكافر ، وانما هو في منزلة بين المنزلتين ، فكان واصل يجلس لأتباعه في مسجد البصرة ليدرس لهم مبادىء علم الكلام الذي كان حديث الظهور في ذلك الحين [٢] .

وكانت الدراسات اللغوية والأدبية تجد طريقها الى المسجد ؛ وقد تحدثنا فيما سبق عن ابي عمر الزاهد وأبي العتاهية ، ونضيف اليهما مجلس نفطويه في مسجد الانباريين [٣] ، ومجلساً آخر في جامع قرطبة كان لغوي شهير

---

١) ياقوت : معجم الادباء ٦ : ٤٣٢ .
٢) ابن خلكان ٢ : ٢٥٢ .
٣) الفهرست ١٢١ .

(لم يذكر المقري اسمه) يجلس فيه ليدرس قواعد اللغة العربية الى جمهور كبير من التلاميذ ١) . وكان الكميت بن زيد وحماد الراوية يلتقيان في مسجد الكوفة فيتذاكران أشعار العرب وأيامها ، فاختلفا مرة في شيء فقال الكميت لحماد : أتظن أنك أعلم مني بأيام العرب وأشعارها ؟ فقال حماد : هذا والله هو اليقين . فغضب الكميت ، وما زال يناقشه ويسأله حتى أفحمه ٢) .

وفي مسجد البصرة كان يجلس مسلم بن الوليد ليملي من شعره ، وفي احدى الجلسات كان يملي قصيدته الدالية :

لا تدع بي الشوق اني غير معمود .

اذ اقبل ابو نواس ، فاستشرف له القوم ، فدنا فسلّم ، فقطع مسلم الاملاء ، ورفعه في المجلس ، وأقبل عليه يسأله ان ينشده من شعره ، وابو نواس يأبى ذلك ، ثم سأله ابو نواس ان يبتدىء القصيدة من أولها فقبل . . . . . ٣) .

وكان العروض ايضاً يدرس بالمسجد ؛ روي ان اعرابيا دخل مسجد البصرة فانتهى الى حلقة يتذاكرون فيها الاشعار والاخبار ، فجلس وهو يستطيب كلامهم ، ثم اخذوا في العروض ، فلما سمع المفاعل والفعول ظن انهم يأتمرون به ، فخرج مسرعاً وهو يقول :

قد كان اخذهم في الشعر يعجبني حتى تعاطوا كلام الزنج والروم

---

١) نفح الطيب ٢: ٢٥٤.
٢) الأغاني ١٥ : ١١٣ ـ ١١٤ .
٣) المرزباني : الموشح ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

لما سمعت كلاما لست اعرفه كأنه زجل الغربان والبوم
ولّيت منفلتا والله يعصمني من التقحم في تلك الجراثيم[1]

ودُرِس في المساجد الطب والميقات ؛ يروي السيوطي[2] ان دروسا مختلفة رتبت في الجامع الطولوني ، وقد شملت التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة والقراءات والطب والميقات . ويقول عبد اللطيف البغدادي ان درسا في الطب كان يلقى في الأزهر في منتصف النهار من كل يوم[3] .

---

١) الاصفهاني : محاضرات الأدباء ١ : ٢٠ .
٢) حسن المحاضرة ٢ : ١٣٨ .
٣) ابن ابي أصيبعة : عيون الأنباء ٢: ٢٠٧.

ثانيا ـ المدارس

مقدمـــة

قبل ان نتحدث عن المدارس يجدر بنـا ان نناقش بضعة أسئلة وثيقة الصلة بها :

١ ـ لماذا انتقل التعليم من المساجد الى المدارس ؟

رغب الناس في الدراسات الاسلامية منذ ظهور الاسلام ، وكلما مرت السنون ازداد الناس اقبالا على حلقات العلم ، حتى حفل كثير من المساجد بعدَّة حلقات دراسية لا حلقة واحدة ، وكان ينبعث من كل حلقـة من هذه الحلقات صـوت المدرس يلقي الدرس واصوات الطلاب يسألون ويناقشون ، وكانت تتلاقى الاصوات المتصاعدة من الحلقـات المختلفة ، فتحدث في المسجد شيئاً قليلاً او كثيراً من الضجيج يمنع الصلاة والعبادة من ان تـؤدَّى على وجهها . فاتضحت صعوبة احتمال المسجـد للصلاة والتدريس معاً ولهذا نجد ان الأزهر يترك للتدريس ولا يُقام به الا صلاة الجمعة ، غير ان هذا لم يكن حلاً طبيعياً للمشكلة ؛ اذ ان مهمة المساجد الأولى هي ان يصلي فيها الناس ويتعبدوا ، ولا يجوز ان تعطـل الصلاة في المساجد مهما كانت الاسباب .

وشيء آخر ، هو ان العلوم تطورت بتطور الزمن وتقـدم المعارف ، واصبحت هناك مواد تستدعي دراستُها كثيراً من الحوار والنقاش والجدل ، كعلم الكلام وعلم الجدل والمناظرة ، ومثل هذه المواد تتنافى طبيعة تدريسها مع ما يجب ان يكون عليه رواد المساجد من هدوء وجلال .

ثم ـ تبعاً لرأي Von Kremer ـ ان هناك جماعة شَغَلوا بالتعليم معظم وقتهم ، وحاولوا ان يرتزقوا عن طريق حرف بسيطة كانوا يقومون بها مع التدريس ، ولكنهم فشلوا في الحصول على مستوى مناسب من العيش ، فلم يكن بد حينئذ من انشاء المدارس لتضمن لهم جرايات تقوم بحاجاتهم [١] .

٢ ـ ماذا كان الفرق بين المساجد والمدارس ؟

الحق ان التمييز بين الاثنين يكتنفه عند النظرة السريعة شيء غير قليل من الغموض ، ومرجع ذلك اننا نجد مسجداً يُعيَّن به مدرس [٢] ، كما نجد بعض المدارس يُعيَّن بها مؤذنون [٣] ، او يقام بها منابر للخطابة [٤] . ولكن النظرة الفاحصة ترينا ان هناك خواص للمدرسة لا تتخلف ، وأهم هذه الخواص هو الايوان ، وهو الاسم الذي يرادف (قاعة المحاضرات) في التعبير الحديث ، وما كانت المدرسة تخلو منه ، فهو ابرز مرافقها واهمها . ومن خواص المدرسة ايضاً المساكن التي تبنى فيها ليعيش بها الطلاب والمدرسون الذين ينتسبون اليها ، وقد حفلت اغلب مدارس المسلمين بهذه المساكن وبما يتبعها من المرافق كالمطبخ وحجرة الطعام وما شابهها ، ويقول ابن العجمي [٥] : لما ملك نور الدين مدينة حلب وحوَّل مسجد السراجين الى مدرسة جدد فيه مساكن يأوي اليها الفقهاء وايواناً . ثم ـ بالاضافة الى هذا ـ كان المدرس بالمدرسة معيناً من قِبَل صاحبها ليعلِّم بها ،

---

١) Khuda Bukhsh : Islamic civilization p. 285

٢) الروضتين ١ : ١٨٩ .

٣) الخطط ٢ : ٣٧٤ ، ٤٠٠ .

٤) ابن جبير ٢١٩ .

٥) كنوز الذهب في تاريخ حلب ٥٩ أ مخطوط بروما .

بخلاف المسجد الذي طالما جلس به مدرسون دون ان يعينوا للتعليم فيه ، ومن جهة التلاميذ فقد كان عددهم محدوداً غالباً في المدارس دون المساجد ، كما كان ينالهم دائماً نصيب من الاوقاف التي توقف على المدارس .

٣ ـ لماذا عُنيت مدارس المسلمين بالعلوم الدينية اكثر من سواها ؟

هذه حقيقة يدركها الباحث بسهولة ، فلقد كانت العلوم الدينية هي الشغل الشاغل لمدارس المسلمين ، وقد استنفدت هذه العلوم طاقة النشاط او اكثرها في هذه المدارس ، فلم تستفد بها العلوم الدنيوية التي كان للمسلمين فيها فضل كبير في العهود التي سبقت نشأة المدارس ، وكانت كل مدرسة من هذه المدارس تدرس العلوم الدينية وبخاصة الفقه على مذهب من المذاهب الاربعة الشهيرة وهي مذهب ابي حنيفة ومالك والشافعي واحمد بن حنبل .

ولكن هذا الاتجاه كان استجابة لروح العصر الذي أنشئت فيه هذه المدارس ؛ فان العراق وسورية ومصر كانت قبل نشأة المدارس يحكمها البويهيون والفاطميون ، وكلا الاسرتين ذات مذهب شيعي ، بل إنهما بذلا وسعهما لنشر المذهب الشيعي بين رعاياهما ؛ اما بطريق الدعاية ، او بطريق القهر في بعض الأحيان [١] .

وقام على انقاض البويهيين والفاطميين أسرتان كبيرتان تتبعان مذهب اهل السنة وهما السلاجقة والأيوبيون ؛ وقد أنشأت هاتان الاسرتان المدارس لتقاوما بها ما غرسه الشيعة في نفوس الناس من عقائد يراها اهل السنة

---

١) انظر الذهبي : دول الاسلام ١ : ١٧١ .

زائفة باطلة ، ثم لينشروا بمساعدة هذه المدارس عقائد اهل السنة التي يرونها تطبيقا للدين الصحيح .

ومن هنا يظهر ان اتجاه المدارس الى خدمة العلوم الدينية كان طبعيا ، بل انها ربما أنشئت لهذا الغرض على ما سيأتي .

وبعد ان هدأت حركة التشيع وتغلبت عليها السنة بدأنا نرى علم الطب تظهر العناية به من جديد ، وينال نصيبه من الرعاية في المدارس ؛ فقد أمر المستنصر ان يعيّن طبيب حاذق بمدرسة (المستنصرية) يثبت عنده عشرة طلاب من المسلمين يشتغلون عليه في علم الطب ويُوَصَّل الى الجميع ما يوصَّل الى الفقهاء والمحدِّثين من أجور [1] .

نشاة المدارس في العالم الاسلامي

يعتبر فتح السلاجقة للعراق ودخولهم بغداد في ٢٥ محرم سنة ٤٤٧ بَدْء انتصار اهل السنة على الشيعيين ، فقد توقفت منذ ذلك الحين سبل النشاط التي كان البويهيون يبذلونها لنشر التشيع بين الناس او فرضه عليهم فرضاً ، ووجد السلاجقة انه لا مناص من القيام بعمل مضاد ، ليحرروا عقول الناس مما علق بها مما يعدونه ضلالا ومروقاً ، ورأوا ان نشر العلم خير طريق لذلك ، فاذا اتيح للناس ان يتعلموا الدين الصحيح فهم لا شك سيعرفون الهدى من الضلال ، والخير من الشر ، ونشأت المدارس لهذا الغرض ، وكان ذلك على يد الوزير العظيم نظام الملك الذي

---

١) المدرسة المستنصرية لناجي معروف ص ٤٦ .

وزر لألب أرسلان ولملك شاه ، ونُسِبَت هذه المدارس الى منشئها نظام الملك ، فعرفت باسم « المدارس النظامية » وكانت غايةً في الجلال والعظمة ، ثم كانت كثيرة العدد حفلت بواحدة منها كل مدينة بل كل قرية ، على ما سيأتي في ترجمة ذلك الوزير .

ولم يتوقف انشاء المدارس لنفس الغرض منذ ذلك الحين ، اذ سار على ذلك السلاجقة الذين جاؤوا بعد عهد نظام الملك ، كما اقتفى أثرهم الشاهاتُ والاتابك الذين اقاموا إمارات على انقاض السلاجقة ، ولكن احداً من هؤلاء واولئك لا يمكن ان يقارن بالبطل نور الدين زنكي الذي آلت اليه سورية ثم مصر بعد ذلك ، فلقد كان نور الدين اول من بنى مدرسة في دمشق [1] ثم كان عهده كله مملوءاً بالنشاط في نواح متعددة ومنها انشاء المدارس في مدن مملكته وقراها .

ووضع الأيوبيون حدا للحكم الشيعي في مصر ، وأعادوا مصر الى المذهب السني ، والى الاعتراف بخليفة بغداد ، ثم لم يكتفوا بذلك ، بل اتجهوا الى عقول الناس فأنشأوا المدارس لأول مرة في مصر وكانت كثيرة العدد بحيث تمكنت من اشاعة السنة في نفوس الاهلين في وقت قصير ، ويمتاز هذا العهد بأن الأمراء والاميرات والتجار وغيرهم من الأهلين حتى الخدم أسهموا في انشاء المدارس وفي رعاية العلم ، وفيما يلي ذكر لأهم المدارس التي أنشأها كل من نظام الملك ـ نور الدين ـ الايوبيين [2] .

---

١) مقال للشيخ الطباخ بمجلة الجامعة الاسلامية السنة ١٨ العدد : ٢٢٤ ص ٤٠ .

٢) لم تتوقف حركة انشاء المدارس بسقوط الأيوبيين وقيام المماليك ، فان هؤلاء ساروا سيرة سادتهم في هذا الشأن ، بل بحماسة أشد في بعض الحالات ، فأكثروا من انشاء المدارس في مصر

مدارس نظام الملك *

يقول ابو شامة [1] : ومدارس نظام الملك في العالم مشهورة ، لم تخلُ بلد من شيء منها ، حتى جزيرة ابن عمر التي هي في زاوية من الارض لا يؤتى لها بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة ، وهي التي تعرف الآن (زمن ابي شامة) بمدرسة رضي الدين . ويقول عماد الدين الاصفهاني [2] : ومن وَجَدَ في بلدة قد تميز وتبحر في العلم بنى له مدرسة ، ووقف عليها وقفاً ، وجعل فيها دار كتب .

وفي ابن الاثير وابن الجوزي نصوص مشابهة وكلها تدل بوضوح على العدد الضخم من المدارس التي بناها نظام الملك وأمدها بالاساتذة والاموال والكتب ، وكان السبكي المصدر الوحيد الذي لم يكتف بهذه العبارات العامة ، بل حدَّد بلاداً ذكر ان نظام الملك أنشأ في كل منها مدرسة عظيمة وتلك البلاد هي : بغداد ـ بلخ ـ نيشابور ـ هرات ـ اصفهان ـ

وسورية ، ويكفينا أن نذكر مدارس الأيوبيين مشيرين الى أن كثيراً من المراجع تحفل بمدارس المماليك ، وأهم هذه المراجع هي خطط المقريزي ، وحسن المحاضرة للسيوطي ، وابن دقماق ، والنعيمي ، ومجير الدين .

* تحتل المدارس النظامية ـ وبخاصة نظامية بغداد ـ مكانة عظيمة في نفوس المسلمين ، وقد لمست شغف كثير من الاساتذة والطلاب ان يحصلوا على معلومات وافية عنها ، ومن اجل ذلك حشدت في هذا الكتاب كل ما وصلت له يدي من مادة تتصل بها ، وكنت على وشك ان اجمع هذه المادة في مكان واحد وان اتحدث عن نظامية بغداد مفصلا القول عن انها انموذج لمدارس المسلمين في العصور الوسطى ، ولكن حال دون ذلك فناء المدرسة وضياع معالمها مما يجعل تخطيطها مجرد ظن وتخمين ، ومن هنا اخترت المدرسة النورية الكبرى مثالا ، اما المدارس النظامية فقد اوردت الحديث عنها في مظانه المختلفة على حسب فصول هذا الكتاب وأقسامه ، فالحديث عن مدرسيها جاء في فصل المدرسين ، وعن اوقافها ورد عند الكلام عن الاوقاف ، وهكذا ، وهي في مجموعها تعطي صورة واضحة عن هذه المدرسة الشهيرة .

١) الروضتين ١ : ٢٥ .

٢) تاريخ آل سلجوق ص ٥٧ .

البصرة ـ مرو ـ آمـل ـ الموصل . ويختم السبكي حديثه بعبارة مشابهة لعبارات المؤرخين الآخرين حيث يقول : ويقال ان له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة [1] .

وقد كانت نظامية بغداد أولى المدارس النظامية وأهمها ، وقد بدأ العمل فيهـا سنة ٤٥٧ هـ ، وكانت على شاطىء دجـلة ، وكان بنّاؤها أبا سعيد الصوفي ، وفي سنة ٤٥٩ هـ استتم بِنَـاؤُها ، وانتظمت أحوالها ، وسكنها من حملة الشريعة رجالها ، ودرس فيها الشيخ أبو اسحق الشيرازي (رحمه الله) فأحيا من العلم ما درس ، وكشف من الحق ما التبس ، وشرح الأصول وفرّعها ، وأوضح الأدلة ونوعها [2] .

مدارس نور الدين زنكي

سبق ان ذكرنا ان نور الدين اول من أنشأ مدرسة في دمشق ، ونضيف ان مدارسه كانت كثيرة ، منتشرة في مدن سورية وقُراها [3] . وقد سجلت النصوص بعضاً من هذه المدارس نذكرها فيما يلي :

اسم المدرسة		مرجعهـا	
في دمشق : دار الحديث النورية	النعيمي :	تاريخ المدارس :	١ : ٩٩
الصلاحية	«	«	١ : ٣٣١
العمادية	«	«	١ : ٤٠٧
الكلاسة	«	«	١ : ٤٤٧
النورية الكبرى	«	«	١ : ٦٠٦

١) طبقات الشافعية الكبرى ٣ : ١٣٧ .
٢) تاريخ آل سلجوق ص ٣٣ .
٣) انظر الروضتين ١ : ١٤ .

وسنفرد دراسة مفصلة عن هذه المدرسة عقب الانتهاء من قائمة المدارس

النورية الصغرى النعيمي : تاريخ المدارس : ١ : ٦٤٨

في حلب : الحلوية اعلام النبلاء ٢ : ٧١ الدر المنتخب ١١٥

العصرونية « ٢ : ٧٥ « ١١٠

النورية « ٢ : ٧٦ « ١١١

الشعيبية « ٢ : ٧٦

في امكنة اخرى : مدرستان بحماة مفرج الكروب ص ١٦٥ مخطوط بكمبردج

مدرستان بحمص « «

مدرسة ببعلبك النعيمي ١ : ٤٠١

مدارس العهد الأيوبي

أ – مدارس أنشأها السلاطين :

المدرسة	منشئها	مرجعها	
١ – في مصر			
الناصرية بجوار الجامع العتيق	صلاح الدين	الخطط ٢ : ٣٦٣	ابن دقاق ٤ : ٩٣
القمحية	«	« ٢ : ٣٦٤	« ٤ : ٩٥
السيوفية	«	« ٢ : ٣٦٥	
الناصرية بالقرافة	«	« ٢ : ٤٠٠	حسن المحاضرة ٢ : ١٥٧
الملك العادل	العادل	« ٢ : ٣٦٥	
الكاملية	الكامل	« ٢ : ٣٧٥	حسن المحاضرة ٢ : ١٥٩
الصالحية	الصالح نجم الدين ايوب	« ٢ : ٣٧٤	« ٢ : ١٥٩
٢ – في بيت المقدس			
الصلاحية	صلاح الدين	الأنس الجليل ٢ : ٣٩٣	
الأفضلية	الأفضل بن صلاح الدين	« ٢ : ٣٩٧	
النحوية	المعظم عيسى	« ٢ : ٣٨٦	
٣ – في دمشق			
الصلاحية	صلاح الدين	النعيمي ٢ : ١٠	
العزيزية	العزيز بن صلاح الدين	« ١ : ٣٨٢	
الظاهرية البرانية	الظاهر بن صلاح الدين	« ١ : ٤٣٠	
العادلية الكبرى	العادل	« ١ : ٣٥٩	
المعظمية	المعظم عيسى	« ١ : ٥٧٩	ابن طولون ١٤٣
دار الحديث الاشرفية البرانية	موسى بن العادل	« ١ : ٤٧	
العزيزية	العزيز بن العادل	« ١ : ٥٤٩	

ب – مدارس أنشأها الامراء والعظماء من ذوي النفوذ (كلمة امير في العهد الأيوبي لم تكن مقصورة على أعضاء البيت المالك بل استعملت أيضاً لقباً للقادة وذوى المناصب العليا في الدولة وللفرق بينهما سنطلق على أعضاء البيت المالك لقب « أمير أيوبي » .

المدرسة	منشئها	تعريف به	المرجع	
١ - في مصر				
القطبية	قطب الدين خسرو	أمير	الخطط ٢ : ٣٦٥	
منازل العز	تقي الدين عمر	امير ايوبي	« ٢ : ٣٦٤	ابن دقماق ٤ : ٩٣
مدرستان بالفيوم	«	«	«	
الفاضلية	القاضي الفاضل	وزير	« ٢ : ٣٦٦	
الأزكشية	سيف الدين أياز كوج	امير	« ٢ : ٣٦٧	ابن دقماق ٤ : ٩٤-٩٥
السيفية	سيف الدين بن ايوب	امير ايوبي	« ٢ : ٣٦٨	
العاشورية	عاشوراء بنت ساروخ	زوجة امير	« ٢ : ٣٦٨	
القطبية	عصمت الدين بنت العادل	اميرة ايوبية	« ٢ : ٣٩١	
الشريفية	الشريف فخر الدين	مير	« ٢ : ٣٧٤	
الصاحبية	عبدالله بن علي	وزير	« ٢ : ٣٧١	
الفخرية	فخر الدين الياروسي	استادار الكامل	« ٢ : ٣٦٧	
الصيرمية	جمال الدين بن صيرم	امير	« ٢ : ٣٦٨	
الفائزية	شرف الدين هبة الله	وزير	« ٢ : ٣٦٥	ابن دقاق ٤ : ٩٢
٢ - في بيت المقدس				
الميمونية	ميمون بن عبدالله	امير	الانس الجليل ٢ : ٣٩٩	
البدرية	بدرالدين بن ابي القاسم	«	« ٢ : ٣٩٨	
٣ - في دمشق				
الصاحبية	ربيعة بنت نجم الدين	اميرة ايوبية	النعيمي ٢ : ٧٩	
الفروخشاهية	فروخشاه بن شاهنشاه	امير ايوبي	« ١ : ٥٦١	
العذروية	عذراء بنت نور الدولة	اميرة ايوبية	« ١ : ٣٧٣	
التقوية	تقي الدين بن شاهنشاه	امير ايوبي	« ١ : ٢١٦	
الشامية البرانية	ست الشام بنت نجم الدين	اميرة ايوبية	« ١ : ٢٧٧	
الشامية الجوانية	« « «	« «	« ١ : ٣٠١	
المروانية	خاتون عزيزة	زوجة المعظم	« ١ : ٥٩٢	
البهنسية	مجد الدين البهنسي	وزير	« ١ : ٢١٥	القلائد الجوهرية ص ١٠٢
الأتابكية	خاتون بنت عز الدين	زوجة الاشرف	« ١ : ١٢٩	القلائد ١٠٢
العزية البرانية	عز الدين الاعظمي	نائب الملك بصرخد	النعيمي ١ : ٥٥٠	

المدرسة	منشئها	تعريف به	المرجع	
العزية الجوانية	عز الدين الاعظمي	نائب الملك في صرخد	النعيمي	١ : ٥٥٠
« الحنفية	« «	« «	«	١ : ٥٥٧

حـ ـ مدارس انشأها افراد من العامة :

١ ـ في مصر				
ابن الارسوفي	عبدالله بن الارسوفي	تاجر	الخطط	٢ : ٣٦٤
المسرورية	مسرور الصفدي	خادم	«	٢ : ٣٧٨
الغزنوية	حسام الدين قايماز	عتيق	«	٢ . ٣٩٠
ابن رشيق	حجاج تكرور		«	٢ : ٣٦٥
٢ ـ في دمشق				
العصرونية	شرف الدين بن عصرون	قاضي القضاة	النعيمي	١ : ٣٩٨
الفلكية	فلك الدين سليمان	اخو الملك العادل لأمه	«	١ : ٤٣١
لا قبالية	جمال الدين اقبال	عتيق	«	١ : ١٥٨
المسرورية	شبل الدين كافور	خادم	«	١ : ٤٥٥
العمرية	ابو عمر المقدسي	قاضي القضاة	«	٢ : ١٠٠
دارالحديث العروية	شرف الدين بن عروة	فقيه	«	١ : ٨٢
الرواحية	زكي الدين بن رواحة	تاجر	«	١ : ٢٦٥
الصارمية	صارم الدين بن ازبك	عتيق	«	١ : ٣٢٦
الشبلية البرانية	شبل الدين كافور	خادم	«	١ : ٥٣٠*
الركنية	ركن الدين منكورس	عتيق	«	١ : ٢٥٣
الدولعية	جمال الدين الدولعي	فقيه	«	١ : ٢٤٢
الدماغية	زوجة شجاع الدين بن الدماغ	«	«	١ : ٢٣٦

*) مات شبل سنة ٦٢٣ هـ ، ولكن هذه المدرسة انشئت بعده (سنة ٦٢٦) هـ ، تنفيذاً لوصيته ولذلك حملت اسمه .

مـــدارس طب

المدرسة	منشئهـــا	تعريف به	المرجـــع
الدخورية	مهذب الدين دخور	طبيب	النعيمي ٢ : ١٢٧
الدنيسرية	عماد الدين الدنيسري	«	« ٢ : ١٣٣

ملاحظتان :

١ ـ تبدو مدارس الطب قليلة قلة ظاهرة ، ومرجع ذلك ان الطب كان لا يدرس في مدارس خاصة الا قليلا ، والغالب ان يدرس الطب في المستشفيات ليمكن التطبيق العملي للنظريات العلمية الطبية التي يلقيها الأساتذة على الطلاب ، وعلى هذا كان بالمستشفى ايوان (قاعة محاضرات) ليستمع فيه الطلاب الى الدرس ثم ينسابون بين المرضى ليروا الامراض وليعالجوها باشراف أساتذتهم ، ويروي ابن ابي اصيبعة [١] ان الطبيب أبا المجد بن ابي الحكم المتوفى سنة ... وخمسمائة (هكذا) كان يتردد الى البيمارستان الكبير الذي انشأه الملك العادل نور الدين محمود في دمشق ، فيأتي ويجلس في الايوان الكبير الذي للبيمارستان ، ويحضر كتب الاشتغال ... وكان جماعة من الاطباء والمشتغلين يأتون اليه ، ويقعدون بين يديه ، ثم تجري مباحثات طبية ويقرىء التلاميذ ، ولا يزال في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات . ومثل ذلك حصل في المارستان المنصوري بالقاهرة حيث كان يجلس رئيس الاطباء في مكان معين ليحاضر في الطب [٢] .

وقد انتشرت المستشفيات في العالم الاسلامي انتشاراً كبيراً في هذه

---

١) عيون الانباء ٢ : ١٥٥

٢) المقريزي : الخطط ٢ : ٤٠٦ .

العصور [1] ؛ وقد ترتب على ذلك نهضة ذات شأن في الدراسات الطبية .

٢ ـ اخترت المدرسه النورية بدمشق لتكون نموذجاً لمدارس المسلمين في تلك العصور وقد زرتها في سبتمبر سنة ١٩٥٠ وقمت بدراستي عنها فيها ، وفيما يلي رسم تخطيطي للمدرسة أتبعه بالحديث عنها .

المدرسة النورية الكبرى

زار ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ هـ المدرسة النورية الكبرى بعد افتتاحها بسنوات معدودة ، وقد وصفها وصفاً يدل على مكانتها السامية في تلك الأزمان ، ونحن نقتبس منه العبارة التالية : من أحسن مدارس الدنيا مظهرا مدرسة نور الدين رحمه الله ، وهي قصر من القصور الأنيقة ينصب فيه الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى ان يقع في صهريج كبير وسط الدار ، فتحار الابصار في حسن ذلك المنظر [2] . وقد طافت الاحداث والسنون بهذا المعهد العظيم ، فغيرت منه وقلّلت من بهائه ، ولكنه لا يزال يحتفظ بطابع الجلال ، ولا يزال يوحي بأنه كان في عهده قريباً الى الكمال ، شاملا كلّ ما يحتاجه معهد علمي للدراسة العليا ، مزودا بقسم داخلي مكتمل المرافق والحاجيات .

وقد ذكر ابو شامة [3] المتوفى سنة ٦٦٥ هـ وابن شداد [4] المتوفى

---

١) انظر ابن العبري وابن جبير وخطط المقريزي .
٢) رحلة ابن جبير ص ٢٨٤ .
٣) الروضتين ١ : ٢٢٩ .
٤) الأعلاق الخطيرة ص ٤٤ مخطوط .

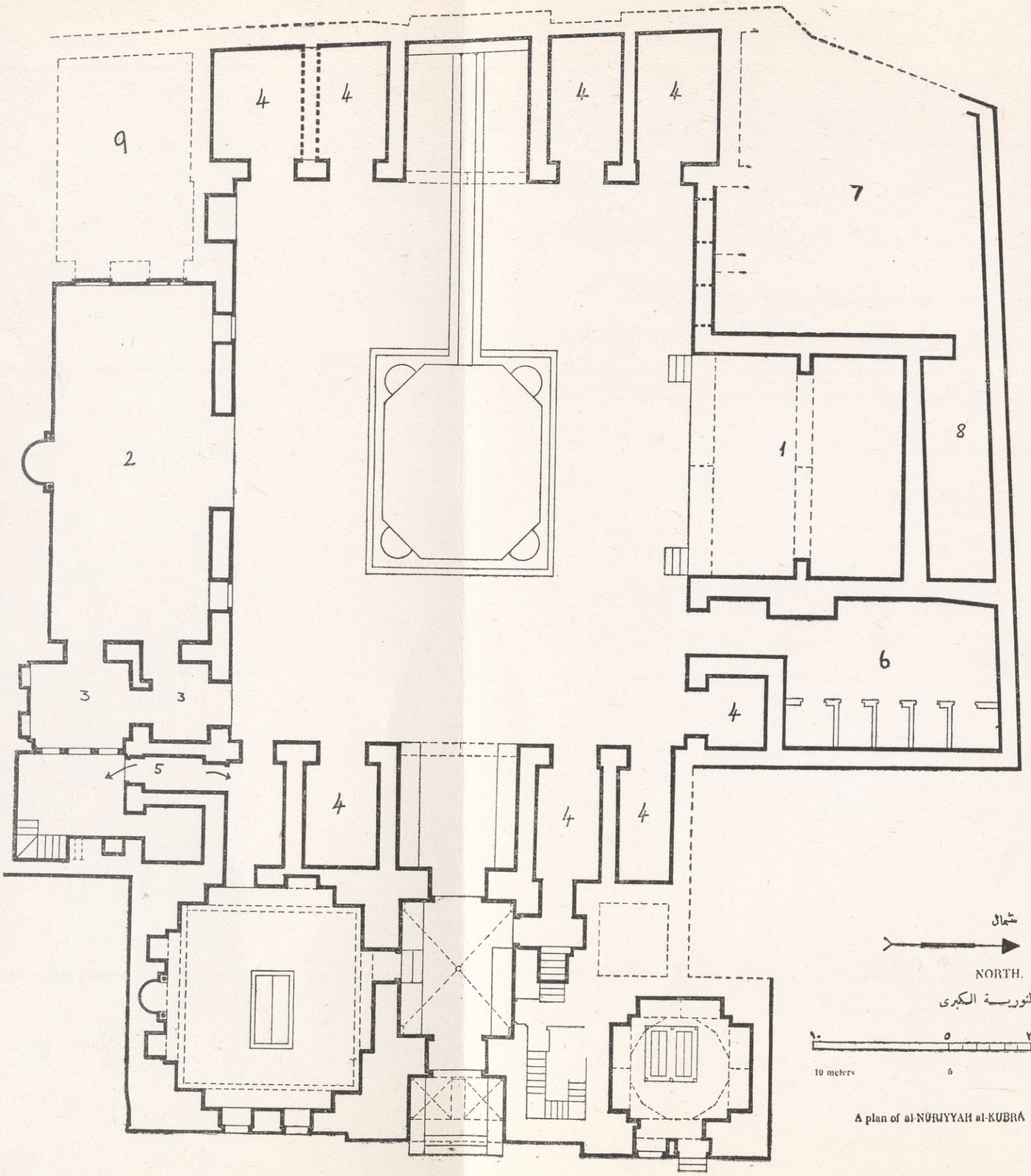

A plan of al-NŪRIYYAH al-KUBRĀ

سنة ٦٨٤ هـ ان الذي أنشأ هـذا المعهد هو نور الدين محمود زنكي سنة ٥٦٣ هـ ولكن النعيمي (٩٢٧ هـ) الذي يعتمد في أغلب ما كتب على ابن شداد ، ويقتبس منه اكثر مادته ، يختلف معه هنا ؛ فيقرر ان الذي أنشأ هذه المدرسة هو اسماعيل بن نور الدين [١] . ولم يذكر النعيمي سببا هاماً حدا به الى هذا الادعاء ، وكل ما يشير اليه هو ان جثمان نور الدين لم يدفن عقب وفاته في ضريحه بالمدرسة ، وانما دُفِن في مكان آخر ، ثم نُقل في عهد اسماعيل الى مكانه الحالي بالمدرسة . وهـذا لا يستدعي ـ فيما يبدو ـ ان تكون المدرسة قـد أنشئت في عهد اسماعيل ؛ اذ من اليسير ان تكون المدرسة قد تمّت وافتتحت في عهد نور الدين ، ولكن الضريح لم يكن قد أُعِدَّ بعدُ ، اذ انه شيء يلحق بها وليس من مرافقها اللازمة لها ، ومن أجل هذا كان الضريح دائماً آخر ما يشيد بالمدرسة ، فلما مات نور الدين في هذه الأثناء دُفن في مكان مؤقت ريثما أُعِدَّ الضريح ، ثم نُقل له الجثمان . ومما يؤكّد ان نور الدين هو الذي بنى هذه المدرسة ، تلك الكتابة التي نُقشت على الحجر الضخم الذي يكوِّن العتبة العليا للمدخل ، وهـذه الكتابة قديمة تاريخها ٥٦٧ هـ أي كتبت في حيـاة نور الدين الذي توفي بعد ذلك بسنتين ، وقد ورد في هذه الكتابة ان نور الدين هو منشئها ، ويبدو ان النعيمي لم يرَ هذه الكتابة ، وسنورد نصها فيما بعد .

وتقع هذه المدرسة بخط الخواصين ، وهو الحي الذي يسميه أهل دمشق

---

١) الدارس في تاريخ المدارس ١ : ٦٠٧ .

في الوقت الحاضر « الخياطين » ، وهي في الجنوب الغربي بالنسبة للجامع الأموي ، وتبعد عنه بما يقرب من نصف ميل .

وقد أسِّست هذه المدرسة على مساحة مقدارها ١٥٠٠ متر مربع تقريباً ، ولكن المساحة الحالية تنقص عن ذلك بحوالي ١٥٠ متراً سلبها جيرانها من الجهة الغربية ، وقد هُدِم البناء الأصلي وتجدد بناؤه ، ولم يبق من البناء القديم الا الباب والبهو والقبة ومخطط الصحن [١] ولكن لوحظ في البناء الحالي ان يكون قريب الشبه الى حد كبير بالبناء القديم .

وتقوم مباني المدرسة في جوانب المساحة ، اما الوسط فصحن مربع تقريباً مساحته ٣٤٠ متراً ، نمت به بعض الأشجار ، ويقع في وسطه بحيرة طولها ٧٫٨ من الامتار وعرضها ٦٫٥ من الامتار ، يُمدُّها بالماء مجرى صغير ينساب فيه الماء من حنفيات ونافورة في الجانب المقابل للباب (شكل رقم ٣) . وقد بني هذا المجرى موضع قناة صغيرة كانت تجلب الماء لهذه البحيرة من نهر قنوات أحد أنهار دمشق السبعة [٢] .

وباب المدرسة الحالي هو بابها القديم ـ كما سبق ـ وهو باب ضخم دقيق الصنع ، عتبته العليا عبارة عن حجر كبير كتب عليه بطريق الحفر وبخط الثلث اسم منشىء المدرسة ، وتاريخ انشائها ، والاوقاف عليها (شكل رقم ٤) ويفضي الباب الى ممر مستطيل ، وفي منتصف الممر مدخل آخر لا باب له ، وهذا الممر يقود الى صحن المدرسة .

والسائر في الممر سالف الذكر يجد الى يمينه ضريح الشيخ محمد دقيق

---

١) أسعد طلس : ذيل ثمار المقاصد ص ٢٥٨ .

٢) انظر خطط دمشق لصلاح الدين المنجد ص ٣٣ .

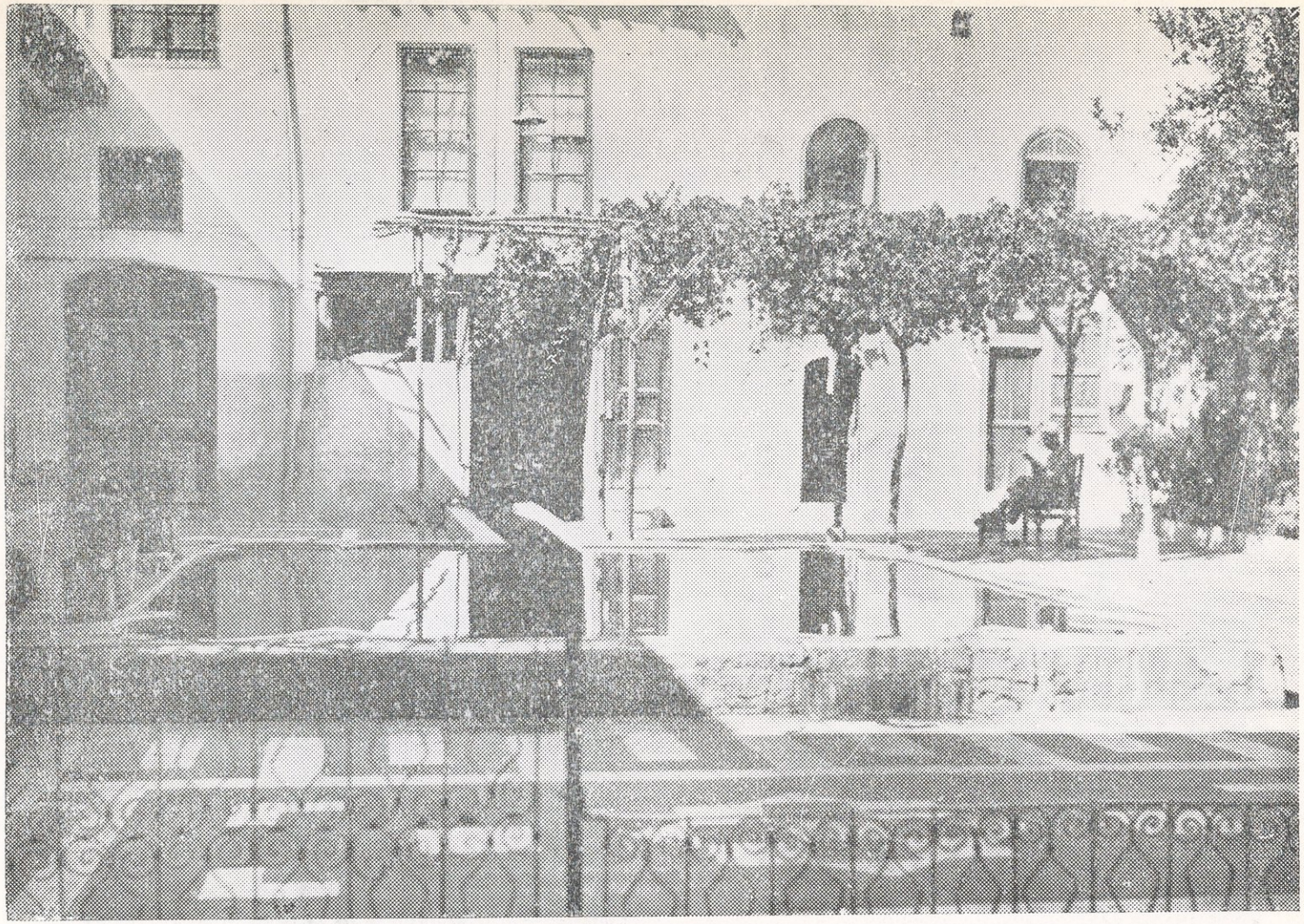

شكل رقم (٣) صحن المدرسة النورية الكبرى



شكل رقم (٤) مدخل المدرسة النورية الكبرى وقد سجلت على عتبته العليا الاوقاف على المدرسة

العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هـ ، وباب الضريح في الشارع الذي به باب المدرسة ، وعلى يسار الداخل يقع ضريح نور الدين منشىء المدرسة ، ولهذا الضريح قبة ضخمة عجيبة الصنع ، (شكل رقم ٥) وهي من طراز القبة الموجودة بالمارستان النوري ، وليس بدمشق قباب أخرى من ذلك الطراز . وبعد ان يتجاوز السائر في الممر محاذاة ضريح الشيخ دقيق العيد ، يجد بابا يؤدي الى حجرة السلم ، ويقوده السلمُ الى المسكن الخاص لمدرس المدرسة ، وكان يشغل هذا المسكنَ أبان زيارتي للمدرسة الشيخُ صالح العقاد . ولهذا السلم فرع آخر يبدأ من منتصفه ويتجه اتجاها آخر ، فيدور حول قاعدة ارتفاعها ٦ امتار ، وهي قاعدة مئذنة أو منارة ليس لدينا مادة عنها ، وينتهي هذا الفرع بالصاعد به الى سطح المدرسة .

وسنستمر في كلامنا عن هـذه المدرسة ومرافقها متتبعين الارقام المثبتة على التخطيط :

١ ـ الايوان : هو أهم مكان في المدرسة على ما سبق ، لأنه يرادف التعبير الحديث (قاعة المحاضرات) ، وايوان المدرسة النورية الكبرى يتسع لحلقة كبيرة للدرس ؛ فطوله ثمانية أمتار وربع ، وعرضه يقل قليلا عن ثمانية امتار . وليس لهذا الايوان باب ، وانما هو مفتوح على امتداد طولِه مع سلمين في نهايتي الامتداد يصعد عليهما الطلاب ؛ اذ ان الايوان يرتفع عن الصحن بمتر تقريباً (شكل رقم ٦) .

٢ ـ المسجد : يقع الايوان يمين الصحن بالنسبة للداخل ، ويقابله على اليسار المسجد ، والمسجد هو المكان التالي للايوان في الاهمية ، ولم يكن

المسجد خاصا بالطلاب ، وانما كان مفتوحاً لمن أراد العبادة ، ومن اجل هذا وضع في أقصى مكان من الايوان ، حتى لا يتأثر المصلون والعابدون بما قد يثار في الحلقة من ضجيج المناقشات والجدل ؛ ولمسجد النورية محراب قديم ، ويتصل هذا المسجد بالصحن بواسطة فتحات ثلاثة ذات عقود ولا أبواب لها ، والأوسط من بينها أكبر الجميع .

٣ ـ استراحة المدرس : يتصل الجانب الشرقي للمسجد بحجرتين صغيرتين لكل منهما باب الى المسجد ، وهناك باب داخلي يصل كلا من الحجرتين بالأخرى ، وهاتان الحجرتان أعدتا لاستراحة المدرس ، ولا تزالان حتى الوقت الحاضر تستعملان لنفس الغرض ، وذلك بخلاف مسكن المدرس الذي سبق الحديث عنه والذي أُعد ليعيش فيه .

٤ ـ مساكن للطلاب : هذه المساكن مخصصة لطلاب القسم الداخلي ، وهي تنقسم الى وحدات كل وحدة عبارة عن حجرتين احداهما فوق الأخرى ويصلهما سلم داخلي ، ولا تزال هذه المساكن تستعمل لنفس الغرض الذي بنيت من أجله ، ويعيش الآن بها طلاب يلتحقون بمعاهد علمية مختلفة بدمشق .

٥ ـ مسكن خادم المدرسة : يشمل هذا المسكن الحجرات والمرافق الضرورية التي تلزم مسكنا مستقلا كما يظهر في الرسم ، وقد كان هذا المسكن مشغولاً ابان زيارتي لهذه المدرسة بالحاج محمود جوهر .

٦ ـ المراحيض : ولا تزال حتى الوقت الحاضر تستعمل لنفس الغرض الذي بنيت من أجله .



شكل رقم (٥) منظر خارجي لقبة ضريح نور الدين

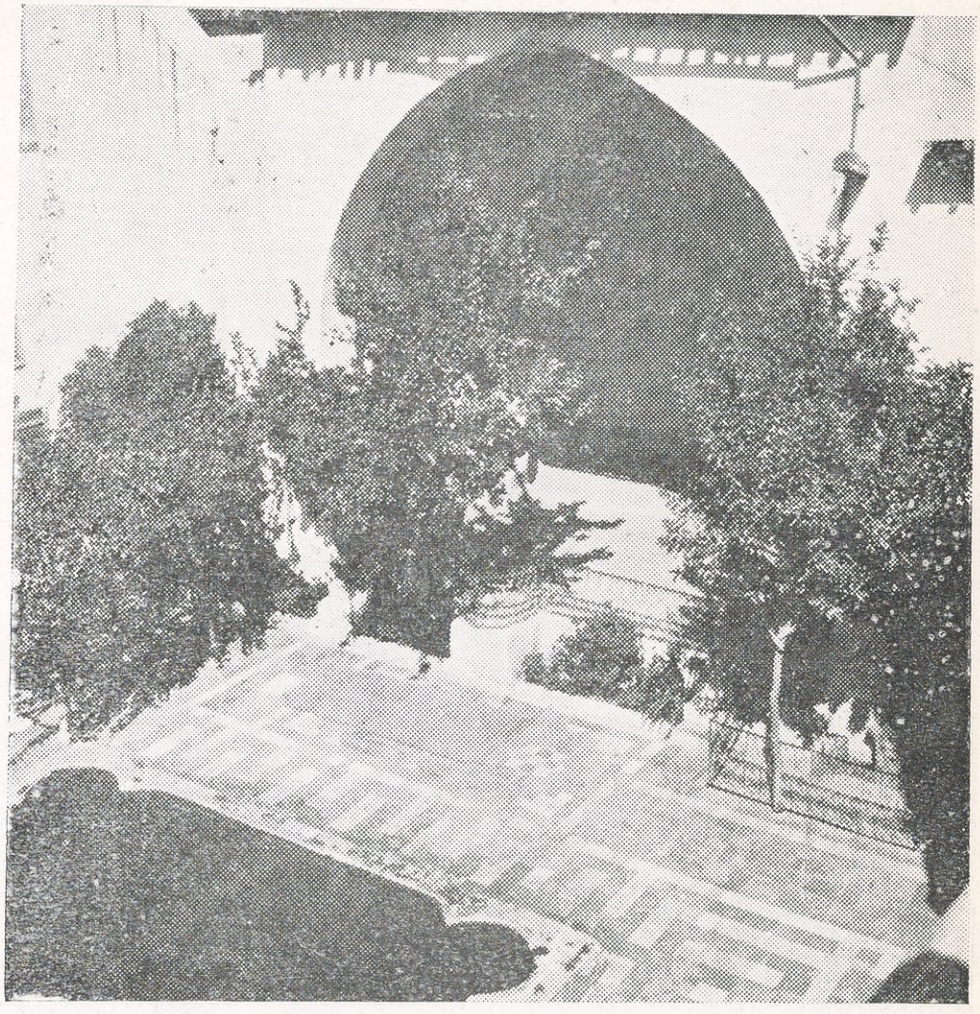

شكل رقم (٦) إيوان المدرسة النورية (قاعة المحاضرات)

٧ ـ هذه المساحة ليست تابعة للمدرسة الآن اذ اغتصبها الجيران منذ حوالي خمسين سنة كما يروي ذلك الرجل المسن الحاج محمود جوهر خادم المدرسة ، ويُعتقد ان هذه المساحة كانت مطبخا وقاعة للطعام .

٨ ـ اغتصبت هذه المساحة ايضاً حوالى نفس التاريخ السابق ، ويُعتقد أنها كانت مخزنا للبقول ومواد الطعام المختلفة .

٩ ـ كانت هذه المساحة مخصصة لتكون مخزنا عاماً للمدرسة ، يحتفظ فيها بأدوات التنظيف والمصابيح الزائدة عن الحاجة والفرش وما شابه ذلك ، وقد اغتصبت هذه المساحة منذ حوالى اربعين عاما كما يروي ذلك الحاج محمود جوهر الذي يضيف ان هذه المساحة نالها شيء من الاهمال ، فقام جيرانها ليقتطعوها من المدرسة ، ولكن المدرس تصدى لهم في ذلك الحين ، وحاول منعهم ولكنه فشل ، غير أنه لم يفقد الامل في استرداد هذه المساحة في وقت من الاوقات فترك بابي هذا المخزن مكانهما على الرغم من الحائط الذي شُيِّد خلف البابين ، وقد فعل ذلك ليكون البابان دليلا على ان المساحة الواقعة خلفهما كانت تابعة للمدرسة .

مدرسو النورية الكبرى :

كانت النورية الكبرى مخصصة لدراسة العلوم الشرعية على مذهب الامام أبى حنيفة النعمان ، وعلى هذا خُصِّص للتدريس فيها نخبة ممتازة من علماء الاحناف نذكر منهم :

بهاء الدين بن العقادة وقد درس بها الى ان توفي سنة ٥٩٦ هـ .

برهان الدين مسعود وقد درس بها الى ان توفي سنة ٥٩٩ هـ .

الشرف داود وقد عمل بها حتى سنة ٦٢٣ هـ ثم اعتزل العمل ليتولاه عالم مشهور بالدين والعلم وانتماء العلماء اليه وتلمذتهم عليه هو :

جمال الدين محمود بن احمد الحصيري ، وقد ظل يعمل بها الى ان توفي سنة ٦٣٦ هـ .

صدر الدين ابرهيم بالنيابة عن قوام الدين محمد بن جمال الدين الحصيري ، وقد ظل صدر الدين يعلّم فيها حتى شبّ قوام الدين وأصبحت ثقافته تساعده على تأدية ذلك العمل فتولاه ، وظل يؤديه حتي توفي سنة ٦٦٥ هـ .

نظام الدين الحصيري وقد تولى بعد أخيه قوام الدين وظل يعمل بها حتى توفي سنة ٦٩٨ هـ .

صدر الدين البصراوي وقد درّس بها حتى توفي سنة ٧٢٧ هـ .

عماد الدين بن الطرسوسي وقد درّس بها حتى توفي سنة ٧٤٨ هـ [١] .

الأوقاف على النورية :

سُجِّلت هذه الاوقاف على الحجر الذي يكوِّن العتبة العليا لباب المدرسة ، وقد سبق ايراد صورة هذه الوثيقة الهامة (شكل ٤) والكتابة الموجودة عليها واضحة جداً ونصها كالآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بانشاء هذه المدرسة الملك العادل الزاهد نور الدين ابو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ضاعف الله ثوابه ، ووقفها على أصحاب الامام سراج الامة أبي حنيفة رضي الله عنه ، ووقف عليها وعلى الفقهاء والمتفقهة بها جميع الحمام المستجد بسوق القمح ، والحمامين

---

١) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة ص ٤٤، ٤٥ (مخطوط)، النعيمي: الدارس ج١ ص ٦١٨-٦١٩.

المستجدين بالوراقة خارج باب السلامة ، والدار المجاورة لها ، والوراقة بعونية الحمى . وجنينة الوزير ، والنصف والربع من بستان الجورة بالأرزة ، والاحد عشر حانوتا خارج باب الجابية ، والساحة الملاصقة لها من الشرق ، والتسعة الحقول بداريا على ما نُصَّ وشُرِط في كتب الوقف رغبة في الأجر والثواب وتقدمة بين يديه يوم الحساب ، فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدّلونه ان الله سميع عليم ، وذلك في مدة آخرها شعبان سنة سبع وستين وخمسمائة ١) .

١) معنى الفقرة الأخيرة هو ان هذه الاوقاف تسلم الى المدرسة في خلال مدة آخرها الشهر المذكور .

الفصل الثاني

المكتبات

المكتبات والتعليم

ربما يسأل سائل : لماذا نُعنى بالمكتبات ونحن نتحدث عن تاريخ التربية ؟ وما علاقة هذه بتلك ؟

وللإجابة عن هـذا السؤال نوضح ان المكتبات كانت طريقة القدماء في نشر العلم ، ولما كان يتعذر على غير الاغنياء اقتناء الكتب نظراً لأنها كانت مخطوطات غالية الثمن ، لجأ من أحب تعليم الناس الى انشاء مكتبة يجمع فيها الكتب ويفتح ابوابها لهم ، كما فعـل البطالسة في مكتبة الاسكندرية والعباسيون في بيت الحكمة [1] .

ثم كانت الكتب نواة الجامعات الاسلامية المبكرة ، كبيت الحكمة في بغداد ودار الحكمة في القاهرة ، وقـد كان ذلك داعيـاً الى اختلاف المؤرخين في طبيعة هذه المؤسسات ؛ ومـا اذا كانت تعـدُّ مدارس او مكتبات ، ثم اصبحت هذه نماذج لهذا النوع من المنشآت سواء شيدتهـا الدولة او أسسها الافراد ، وعلى هذا اصبحت المكتبات في العالم الاسلامي في تلك العصور تقوم بمهمة المعاهد العلمية في العصر الحديث بالاضافة الى ما تؤديه دور الكتب في الوقت الحاضر من خدمات .

وسيجيء الحديث فيما بعد عن المؤسسات التي شيدتهـا الدولة لهذه لمهمة ، وفيما يلي نماذج قليـلة لمكتبات أنشأها الافراد وكانت بدور العلم الحديثة أشبه :

حدث ياقوت [2] قال : كان بكَرْكَر من نواحي القُفْص (قرية

---

١) جورجي زيدان : التمدن الاسلامي ٣ : ٢١٠ .

٢) معجم الادباء ٥ : ٤٦٧ .

قريبة من بغداد) ضيعة نفيسة لعلي بن يحيى بن المنجم ، وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة ؛ يقصدها الناس من كل بلد ، فيقيمون فيها ، ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتبُ مبذولة في ذلك لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى . فهذه مكتبة فيها مساكن لطلاب العلم وفيها طعام لهم ونفقة ، أليست اذاً بالمدارس أشبه ؟ انها لا ينقصها الا المعلِّم لتكون مدرسة بها مكتبة ، بل ان المعلم ايضاً وجد في بعض المكتبات ، ولكنها ظلت تعد مكتبة لسبب من الاسباب كأن يكون المعلم لا ينتظم جلوسه للطلاب لأنه يتخذ التدريس وظيفته الأولى ، او تكون المؤسسة غنية بالكتب في موضوعات متعددة فتستهوي الكتبُ الناسَ أكثر مما يستهويهم الاستماع للمدرس وهكذا . ومن هذا النوع دار العلم التي أنشأها بالموصل ابو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي ، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب لعلم ، لا يُمنع احد من دخولها ، واذا جاءها غريب يطلب الأدب وكان معسراً أعطاه وَرَقاً وورِقاً ، وكانت تفتح في كل يوم ، ويجلس فيها اذا عاد من ركوبه ، ويجتمع اليه الناس ، ويملي عليهم من شعره وشعر غيره [1]) . . . .

وفي كلام المقدسي عن مدينة « رام هرمز » يتحدث عن داري كتب هامتين فيقول [2] : وبها دار كتب كالتي بالبصرة ، والداران جميعاً اتخذهما ابن سوار ، وفيهما اجراء على من قصدهما ولزم القراءة والنسخ ، الا ان

---

١) ياقوت : معجم الادباء ٢ : ٤٢٠ .

٢) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ٤١٣ .

خزانة البصرة أكبر وأعمر وأكثر كتباً ، وفي هذه ابداً شيخ يُدرَس عليه الكلام على مذهب المعتزلة .

وكانت خزانة سابور بن اردشير المتوفى سنة ٤١٦ هـ ملتقى للباحثين والقراء ، وكثيراً ما كان يجتمع فيها جلة من العلماء الذين يتباحثون ويتناظرون ، ومن هؤلاء ابو العلاء المعري الذي أحبها وآثر الاقامة بها حين كان ببغداد ، وسيأتي مزيد من القول عن هذه المكتبة [١] .

ويتضح من هذا جلياً ان المكتبات كانت وثيقة الصلة بالتربية الاسلامية ، وانه لا مناص ان يتحدث عنها الباحث في تاريخ هذه التربية ، وقد كان من الممكن ان تندمج في الفصل الأول كمكان من أمكنة التعليم ، غير أنه لما كانت للمكتبات أهمية خاصة ، وتفصيلات مفيدة جميلة ، كان من الأوفق ان يكون الحديث عنها في فصل مستقل .

القيمة الأدبية للكتاب

يُكِنُّ العرب للكتب كل تقدير واجلال ، ويكثر ان يتحدث العربيُّ عن الكتاب فيَخدعَ القارىء حتى تظُنَّ ان العربي يتحدث عن صديق نما ودُّه وزاد اخلاصه ، او حبيب طال بعده وكثر الشوق اليه ، او رائد يقود المتكلم للطريق المستقيم ويأخذ بيده الى الغاية الرشيدة :

أرسل بعض الخلفاء في طلب بعض العلماء ليسامره ، فلما جاء الخادم اليه وجده جالساً وحواليه كتب ، وهو يطالع فيها . فقال له : ان أمير

---

[١] Margolioth's Introduction to Rasā'il Abi al 'Alā.

المؤمنين يستدعيك . قال : قل له : عندي قوم من الحكماء أحادثهم ، فاذا فرغت منهم حضرت . فلما عاد الخادم الى الخليفة وأخبره بذلك ، قال له : ويحك ؛ من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده ؟ قال : والله يا امير المؤمنين ما كان عنده احد . قال : فأحضره الساعة كيف كان . فلما حضر ذلك العالمُ قال له الخليفة : من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك ؟ قال : يا أمير المؤمنين :

هم جلساء ما نَمَلٌ حديثَهم ... أمينون مأمونون غَيْباً ومَشْهدا
اذا ما خلونا كان خيرُ حديثهم ... مُعيناً على نفي الهموم مؤيِّداً
يفيدوننا من علمهم علمَ ما مضى ... وعقلاً وتأديبا ورأيا وسُؤدَدَا
فلا ريبةٌ تُخشَى ولا سوء عشرة ... ولا نَتَّقي منهم لسانا ولا يدا
فان قلتَ : أمواتٌ فلست بكاذب ... وان قلتَ : أحياءٌ فلست مفنَّدا

فعلم الخليفة انه يشير بذلك الى الكتب ولم ينكر عليه تأخره [1] .

ومن الحق ان نذكر ان الفضل في تقدير الكتب يرجع الى الجاحظ ؛ فانه الذي وجَّه الناس الى الكتاب وقيمته ، والنثر وفائدته ، وكان الاتجاه العام قبله ينحاز للشعر ودواوين الشعراء ، فلما جاء الجاحظ وتسنم ذروة المجد وجه أنظار الناس الى الكتابة والكتب مبيناً ما فيها من علم ، وما تحوي من معرفة . ومن عباراته في ذلك قوله : لا أعلم ما جاء في حداثة سنِّه ، ولا قرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وامكان وجوده ، يجمع بين السير العجيبة والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، والتجارب الحكيمة ،

---

١) ابن طباطبا ص ١٠ ومحاضرة الأبرار ٣ ب مخطوط .

والاخبار عن القرون الماضية ، والبلاد النازحة ما يجمعه كتاب . ومن لك بزائر ان شئت كانت زيارته غِبّاً ، وان شئت لزمك لزوم الظل وكان منك كما كان بعضك [1] .

والكتاب صامت ما أسكتَّه ، وبليغ ما استنطقته ، مسامر لا يبتديك في حال شغلك ، ويدعوك في أوقات نشاطك ، ولا يحوجك الى التجمل له والتذمم منه ، وهو جليس لا يطريك ، وصديق لا يغريك ، ورفيق لا يملُّك ولا يخدعك بالنفاق ، ولا يحتال لك بالكذب [2] .

ومما حكي عن الجاحظ أيضاً انه قال : دخلت على محمد بن اسحاق أمير بغداد ، في ايام ولايته ، وهو جالس في الديوان ، والناس مثول بين يديه ، كأن على رؤوسهم الطير ، ثم دخلت اليه بعد مدة وهو معزول ، وهو جالس في خزانة كتبه وحواليه الكتب والدفاتر والمحابر والمساطر ، فما رأيته أهيب منه في تلك الحال [3] .

وقد استجاب الناس لنداء الجاحظ وفكرته ، فأقبلوا على الكتب وقدروها حق قدرها ، فهذا محمد بن عبد الملك الزيات يعتكف عن الجماهير فترة من الزمن ، وينوي الجاحظ ان يزوره في منزله ، ويفكر في شيء يهديه اليه ، فلم يرقه شيء مثلما راقه كتاب سيبويه ، ويتسلم ابن الزيات الهدية قائلاً للجاحظ : والله ما أهديتَ لي شيئاً أحبَّ اليَّ منه [4] .

---

١) المحاسن والأضداد ص ٢ .
٢) الحيوان ١ : ٥٠ – ٥١ .
٣) ابن طباطبا ص ١٠ – ١١ .
٤) معجم الادباء ٦ : ٨٥ – ٨٦ .

ولكن الكتب التي أبرز الجاحظ قيمتها وأعلى من قدرها لم تبرَّ به ، بل قست عليه ، وكان بها حتفه ؛ فقد روي ان موته كان بوقوع مجلدات عليه ، وكان من عادته ان يَصُفَّها قائمة كالحائط محيطة بـه وهو جالس اليها ، وكان عليلا فسقطت عليه فقتلته ١) .

ولكن الجاحظ مات بعد ان نجح نجاحا تاما فيما قصد اليه ، وبعد ان ذاعت بين الناس أفكاره ، وعمقت مبادئه . يروي محيي الدين بن العربي ٢) . عن أحد العلماء انه قال : ما رأيت بستانا يُحمَل في رُدْن ، وروضةً تُنقل [في] حجر ، ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء من [لعلها : مثل] الكتاب . فمن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ؟ ولا ينطق الا بما تهوى ؟ أكتَمُ للسر من صاحب السر واحفظ للوديعة من أرباب الوديعة . ولا أعلم جاراً أبرَّ ، ولا خليلا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا معلما أخضع ، ولا صاحبا أظهر كفاية وعناية ولا أقل املالا وابراما ، ولا أترك لشغب ، ولا أزهد في جدال ، ولا أكف عن قتال من كتاب ٣) .

وكان الوزراء الذين وضعوا أيديهم على السلطـة في فترات كثيرة من التاريخ الاسلامي يدركون ما للكتب من قدرة على تثقيف العقول وتكوين الاخلاق والبطولة ، ومن اجل هذا كانوا لا يقدمونها الى الخلفاء الضعفاء حتى لا يُحيُوا نفوسَهم ويكوِّنوا شخصياتهم . رُوي ان المكتفي طلب من وزيره مرة كتباً يقطع بمطالعتهـا زمانه ، فتقدم الوزير الى النواب

---

١) ابو الفدا ٢ : ٤٧ .
٢) ابن العربي المسامرات ٢ ب مخطوط .
٣) رويت هذه القطعة في المحاسن والأضداد ص ٣ منسوبة للجاحظ .

بتحصيل ذلك ، وعَرْضِه عليه قبل حمله الى الخليفة . فحصّلوا شيئاً من كتب التاريخ وفيها شيء مما جرى في الأيام السالفة من وقائع الملوك وأخبار الوزراء ومعرفة التحيُّل في استخراج الاموال .... فلما رأى الوزير هذه الكتب قال لنوابه : والله إنكم اشد الناس عداوةً لي ؛ فقد حصّلتم له ما يعرِّفه مصارعَ الوزراء ، ويوجده الطريق الى استخراج الأموال ، ويعرِّفه خراب البلاد من عمارتها . ردوها وحصلوا له كتباً فيها حكايات تلهيه وأشعار تطربه [1] .

ولنختم هذا القسم بقول المتنبي الشاعر العربي الشهير :

أعز مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب [2]

وقول عبدالله بن احمد بن الخشاب :

وذي أوجه لكنه غيرُ بائح بسرٍّ ، وذو الوجهين للسرِّ مظهر
تناجيك بالاسرار أسرارُ وجهه فتفهمها ما دمت بالعين تنظر [3]

النهضة الأدبية للمكتبات

انتهينا آنفاً من الحديث عن تقدير المسلمين للكتب واعجابهم بها ، وقد ترتب على ذلك التقدير وهذا الاعجاب اهتمامهم بالمكتبات واقبالهم على تكوينها ، وليس هذا فحسب وانما بذلوا للمكتبات ما بذلوه من قبل للكتب من حب وحرص وتقدير ، والأدب العربي حافل بصور تدل على

---

١) ابن طباطبا ص ١١ .
٢) ديوان المتنبي شرح العكبري ١ : ١٢٣ .
٣) ياقوت : معجم الادباء ٤ : ٢٨٧ .

هذا الاتجاه الرائع المثير :

هجم الجنود الخراسانية على دار ابن العميد بعد ان انتصروا على غلمانه وحراسه ، وفر ابن العميد الى دار الامارة ، تاركاً لهم بيته وما فيه ، فلما جاء الليل وانصرف الجنود الخراسانية ، عاد ابن العميد الى داره ، فوجد ان اصطبلاته وخزائنه جميعاً قد نهبت ، حتى انه لم يجد في منزله ما يجلس عليه ولا كوزاً واحداً يشرب فيه ماء فأنفذ اليه ابو حمزة العلوي فرشاً وآلة ، واشتغل قلبه بدفاتره ولم يكن شيء اعز عليه منها ، وكانت كثيرة تشمل جميع العلوم ، وكلُّ نوع من انواع الحِكَم والآداب يُحمل على مائة وقر وزيادة ، فلما رأى ابنُ العميد ابنَ مسكويه خازن كتبه سأله عنها فأجاب : هي بحالها لم تمسها يد . فسُرِّي عن ابن العميد وقال لخازنه : أشهد أنك ميمون النقيبة ، اما سائر الخزائن فيوجد عنها عوض ، وهذه الخزانة هي التي لا عوض لها [1] .

وفضَّل الصاحب بن عباد ان يبقى بجانب مكتبته العامرة على ان يتولى أعظم المناصب في بلاط نوح بن منصور الساماني ، فقد ارسل له هذا يستدعيه الى حضرته ، ويرغِّبه في خدمته ، ويبذل له البذول السنية . فكانت مكتبته الغنية من جملة ما اعتذر به فلا هو استطاع الذهاب بدونها ، ولا كان من اليسير حملها معه فآثر ان يبقى بجانبها [2] .

واهتم بنو عمار الذين كانوا يقطنون طرابلس الشام اهتماماً كبيراً بمكتباتهم ، وحشدوا فيها مجموعات ثمينة من الكتب في الفنون المختلفة ،

---

١) ابن مسكويه : تجارب الأمم ٦ : ٢٢٤ - ٢٢٥ .
٢) ياقوت : معجم الادباء ٢ : ٣١٥ .

وحرصوا على ان يزودوها بكل نادر وكل جديد ، ومن أجل ذلك وظفوا اخصائيين وتجاراً ليجوبوا البلاد ويحرزوا لهم الكتب المفيدة من البلدان النائية والاقطار الاجنبية [١] .

وحكى ابن صورة الكتبي القصة الآتية : إلتمس ابن القاضي الفاضل مني ان اطلب له نسخة من الحماسة ليقرأها . فأعلمت القاضي الفاضل ، فاستحضر من الخادم الحماسات فأحضر له خمساً وثلاثين نسخة ، فأخذ ينفض نسخة نسخة ويقول : هذه بخط فلان ، وهذه عليها خط فلان ، حتى اتى على الجميع ، ثم قال : ليس فيها ما يصلح للصبيان . وأمرني ان اشتري له نسخة بدينار [٢] .

واذا سرنا الى الأندلس وجدنا نشاطاً يثير العجب في تكوين المكتبات وحبها وتقديرها ، فان الحكم صاحب الاندلس كان يبعث في شراء الكتب الى الاقطار رجالاً من التجار ، ويرسل اليهم الاموال لشرائها حتى جلب منها الى الاندلس ما لم يعهدوه ، وعندما سمع بكتاب الاغاني أرسل لمصنفه ابي الفرج الأصفهاني ألف دينار من الذهب العين ، فبعث اليه بنسخة منه قبل ان يخرجه في العراق ، وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري (توفي سنة ٣٧٥) في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم [٣] .

ولم يقف حب المكتبات وتقديرها والحرص عليها عند العلماء والباحثين وانما تعداهم الى سواهم من عامة للناس ، واصبح وجود مكتبة بالمنزل من

---

١) Islamic Culture 1929, P. 231. ، وانظر كرد علي : خطط الشام ٦ : ١٩١ .
٢) الخطط ٢ : ٣٦٧ .
٣) ابن خلدون : العبر ٤ : ١٤٦ ، والمقري ١ ، ١٨٢ .

تمام زينته وتأثيثه ، حتى ولو لم يكن صاحب المنزل مؤهلا الاطلاع والاستفادة من ذخائرها ، فهي على كل حال تضفي على المنزل جمالا وعلى صاحبه كمالا وجلالا . روى المقري [1] عن الحضرمي احد علماء الأندلس انه قال : أقمت مدة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة اترقب فيه وقوع كتاب ، لي بطلبه اعتناء ، الى ان وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ، ففرحت به اشد الفرح فجعلت ازيد في ثمنه ، فيُرجَع الى المنادي بالزيادة عليّ الى ان بلغ فوق حده ، فقلت للمنادي : أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه الى ما لا يساوي ! فأراني شخصاً عليه لباس رياسة ، فدنوت منه فقلت له : أعز الله مولانا الفقيه ، ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت فيه الزيادة بيننا فوق حده . فقال لي : لست بفقيه ، ولا ادري ما فيه ، ولكني أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه [2] .

ابنية المكتبات ونظمها

يقول Olga Pinto في مقال له عن المكتبات الاسلامية [3] : ان

---

١) نفح الطيب ١ : ٢١٨ .

٢) لهذه القصة نظير وقع في العصر الحديث فان ثرياً أمريكيا بنى منزلا فخما في حي من أعظم أحياء نيويورك ، واختار له أرقى أثاث ، ثم أرسل خطابا لمدير محل كبير لبيع الكتب بلندن يطلب منه إرسال مجموعة من الكتب . وقد جاء في الخطاب تفاصيل دقيقة فيما يختص بنوع التجليد، وحجم الكتب ، والمساحة التي يراد شغلها بها . أما عن موضوعات الكتب وعناوينها فقد تركت لاختيار محل بيع الكتب اذ كان المقصود بالكتب الزينة والمظهر دون أن يراد منها الثقافة والعلم .
(Islamic Culture 1938 Vol 12 P. 165)

٣) Islamic Culture 1829, 111 p· 227.

المسلمين اهتموا اهتماماً عظيماً بأبنية المكتبات العامة ، التي كانت تُعدُّ لاستقبال الجماهير ، وقد شُيِّد بناء خاص على طراز معين لمكتبات شيراز وقرطبة والقاهرة وما ماثلها ، وكان البناء مزوَّداً بحجرات متعددة يربط بينها أروقة فسيحة ، وكانت الرفوف تثبت بجوار الجدران لتوضع فيها الكتب . وبعض الأروقة كان يخصص للاطلاع ، كما كانت تُخصص بعض الحجرات للنسخ ، وبعضها لحلقات الدراسة ، وانتظمت بعضُ المكتبات كذلك حجراتٍ للموسيقى يلجأ اليها المطالعون للترفيه وتجديد النشاط ، وكانت جميع الحجرات مؤثثة تأثيثاً فخماً ومريحاً ، وقد فرشت ارضها بالبسط والحصير لتلائم أذواق الشرقيين الذين كانوا يميلون الى الجلوس على الارض متقاطعة أرجلهم للقراءة والكتابة . . . . .

وكان للنوافذ والابواب ستائر جميلة ، اما مدخل المكتبة فقد كانت له ستارة سميكة تحول دون دخول الهواء البارد في الشتاء الى داخل الحجرات . ويقول المقريزي [1] إن دار الحكمة بالقاهرة لم تفتح ابوابها للجماهير الا بعد ان فرشت وزخرفت وعلقت على جميع ابوابها وممراتها الستور ، وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم رسموا بخدمتها .

وكان البناء المخصص لمكتبة الفاطميين عظيماً جداً ؛ اذ كانت عدة الخزائن التي برسم الكتب في سائر العلوم أربعين خزانة ، تتسع الواحدة منها لأن يوضع بها ١٨،٠٠٠ كتاب [2] .

ويعطينا المقدسي [3] وصفاً دقيقاً لمكتبة عضد الدولة في شيراز وفيما يلي

---

١) الخطط ١ : ٤٥٨ .
٢) انظر المقريزي ١ : ٤٠٨ .
٣) احسن التقاسيم ٤٤٩ .

من كلامه ما يتصل بأبنية المكتبات ونظمها :

والمكتبة (أزج) طويل في صفة كبيرة فيه خزائن من كل وجه ، وقد أُلصقت الى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوت طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوّق عليها ابواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منضدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت .

وقد اتضح من عجز هذا الاقتباس ان الكتب في هذه المكتبة كانت موزعة في الحجرات على حسب موضوعاتها ، وهو نظام اتُّبع في جميع المكتبات الاسلامية تقريباً ؛ فابن سينا الذي انتفع بمكتبة السامانيين في عهد نوح بن منصور كتب يصف هذه المكتبة بقوله : دخلت داراً ذات بيوت كثيرة ، في كل بيت صناديق كتبٍ منضدة بعضها فوق بعض ؛ في بيت منها كتب العربية والشعر ، وفي آخر الفقه وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد [١] .

ولم يعرف المسلمون في القرون الوسطى الطريقة الحديثة في وضع الكتب على الأرفف بل كانوا يضعونها مستلقية الواحد فوق الآخر [٢] . وعلى هذا نُصح من يقوم بترتيب الكتب ألا يضع ذوات القطع الكبير فوق ذوات

---

١) ابن ابي أصيبعة ٢ : ٤ .

٢) لم تعرف اوروبا في ذلك العصر الطريقة الحديثة ايضاً ، بل كانوا يفعلون مثل ما فعل المسلمون ، ولعل السبب في ذلك هو ان تلك الطريقة انحدرت للعصور الوسطى من العصور السابقة لها ، والتي كانت كتبها عبارة عن اوراق البردى او لفافات منها او مما ماثلها ، وقضت طبيعة هذه الاوراق وتلك اللفافات ان توضع في الأرفف بعضها فوق بعض .

See the Technique and Approach of Muslim Scholarship by Fr. Rosenthal. A nalecta Orientalia 24 1924 .

وكان يعتقد ايضاً ان وضع الكتب بعضها فوق بعض يحميها من الاتربة ومن قراضة الكتب التي استطاع المسلمون على اي حال ان يجدوا لها دواء (انظر معجم الأدباء لياقوت ٦ : ٣٥٩) .



شكل رقم (٧) نظام ترتيب الكتب في المكتبات الاسلامية المبكرة

القطع الصغير كيلا يكثر تساقطها [1] .

وترتب على تنظيم الكتب بهذه الطريقة شيء آخر هو ان عنوان الكتاب واسم مؤلفه لم يُكتبا على ظهر الكتاب كما هو متبع في العهد الحاضر ، بل كان المعروف ان يكتب عنوان الكتاب واسم مؤلفه على اطراف الصفحات مجتمعة من أسفل وتجعل رؤوس الأحرف تجاه بدء الكتاب فاذا وُضِعت الكتب بعضها فوق بعض جعل الجانب الذي عليه الكتابة في الجهة الخارجية للرف ليواجه الشخص الذي يبحث عن كتاب معيَّن فيسهل عليه في هذه الحال ان يعثر على الكتاب الذي يريده [2] ؛ اما الكتب الثمينة او الكتب غير المجلدة فقد كان كل منها يحفظ غالباً في صندوق صغير حجمه حجم الكتاب ، وهذا الصندوق مصنوع من الورق المقوى في الغالب ، ويكتب العنوان واسم المؤلف في هذه الحال على جانب الصندوق بدلاً من اطراف الورق . وفي دار الكتب المصرية بالقاهرة مجموعة كبيرة متحدرة من تلك العصور كتب العنوان واسم المؤلف على أطراف أوراقها او على جوانب صناديقها ، وقد تفضل موظفو دار الكتب فأتاحوا لي فرصة وضع بعض منها على الطريقة التي كانت تتبع من قبل لتصويرها (انظر شكل ٧) .

وكانت الرفوف مفتوحة ، والكتب في متناول الجميع ، وكل شخص يستطيع ان يحصل بنفسه على الكتاب الذي يريده ما تيسر له ذلك ، فاذا ضل الطريق اليه استعان بأحد المناولين الذين سنتحدث عنهم فيما بعد .

---

١) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ١٧٢ .
٢) ابن جماعة : ١٧١ ـ ١٧٢ .

وكانت هناك على أية حال رفوف مغلقة لأنها كانت تحوي المخطوطات الثمينة والكتب النادرة وللحصول على مخطوطة او كتاب منها يلزم أن يحصل الطالب على اذن بذلك من المشرفين على امور المكتبة [١] .

الفهارس

لم تخلُ مكتبة ذات شأن ، سواء كانت عامة او خاصة ، من فهرس يُرجَع اليه لسهولة استعمال مجموعة الكتب ، وكانت هذه الفهارس منظمة للغاية ، فهي تشمل الكتب التي بالمكتبة مرتبة على حسب موضوعاتها . وبجانب هذه الفهارس العامة كانت هناك ورقة خاصة ملتصقة بكل دولاب من دواليب الكتب ، وقد كتب على هذه الورقة عناوين الكتب التي يحويها ذلك الدولاب وأرقامها فيه ، وبالاضافة الى عنوان الكتاب ورقمه كانت الفهارس تشمل ملاحظات عن الكتب التي فُقِدت بعض اوراقها او لم توجد جميع اجزائها [٢] .

ولْنَجل الآن جولة سريعة في مكتبات العالم الاسلامي لعرض ما عثرنا عليه من ذكرٍ لهذه الفهارس التي عرفها المسلمون ونظموها منذ ذلك العهد المبكر ، ومن الواضح ان الفهارس ترتبط ارتباطاً تاماً بالمكتبات الكبيرة ، ومن اجل هذا فسيشمل حديثنا عن الفهارس ايضاحاً لنقطة هامة ، هي غنى المكتبات وما حوته من ذخائر .

---

١) Islamic Culture III, 1929 p. 229.

٢) Islamic Culture III 1929 p. 229.

واول ما نسوق من ذلك هو قول ابن سينا انه اطلع على فهارس مكتبة السامانيين في بخارى ، واختار بضعة كتب طلب ان يطلع عليها ، فأحضرت اليه في الحال ، ويحكي ابن سينا انه رأى من الكتب ما لم يقع اسمه قط الى كثير من الناس ، وما كان رآه من قبل ، ولا رآه ايضاً من بعد [١] .

ويقول المقدسي [٢] وهو يواصل وصفه لمكتبة عضد الدولة في شيراز : لكل نوع من الكتب فهرستات فيها اسامي الكتب .

ويسجل ابو الحسن البيهقي أنه رأى بنفسه فهارس كتب الصاحب ابن عباد وان تلك الفهارس كانت تقع في عشرة مجلدات [٣] .

وقد كانت الفهارس معروفة في العراق منذ عهد خزانة الحكمة ؛ حدث الحسن بن سهل قال : قال لي المأمون يوماً : أي كتب العجم أشرف ؟ فذكرت كثيراً منها ثم قلت : جاويذان خرد (يتيمة السلطان) يا أمير المؤمنين . فدعا المأمون بفهرست كتبه وجعل يقلبه فلم يرَ لهذا الكتاب ذكراً . فقال : كيف يسقط ذكر هذا الكتاب من الفهرست ؟ [٤]

وكان لمكتبة المدرسة النظامية ببغداد فهرس شامل دقيق رآه ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وهو يقول عنه : ولقد نظرت في ثبت الكتب

---

١) Barthold Turkestan Down to the Mongol Invasion p.p. 9 - 10
وانظر ايضاً ابن ابي اصيبعة ٢ : ٤ .
٢) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ٤٤٩ .
٣) ياقوت : معجم الادباء ٢ : ٣١٥ .
٤) محمد كرد علي : رسائل البلغاء ٤٧٩ ـ ٤٨٠ .

الموقوفة في المدرسة النظامية ، فاذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد [١] .

ولما فرغ المستنصر بالله من بناء مدرسته نقل اليها من الربعات الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والادبية ما حَمَلَه مائة وستون حمالا ، وجُعِلت في خزانة الكتب وتقدم المستنصر الى الشيخ عبد العزيز شيخ رباط الحريم بالحضور بالمدرسة واثبات الكتب واعتبارها [٢] ، والى ولده العدل ضياء الدين احمد ، الخازن بخزانة كتب الخليفة في داره ايضاً ، فحضر واعتبرها ، ورتبها احسن ترتيب ، مفصلاً لفنونها ليسهل تناوُلها ولا يتعب مُناوِلُها [٣] .

اما في مصر فيبدو أنه لم يكن هناك في بادىء الأمر فهرس عام لمكتبة الفاطميين العظيمة التي كانت تشغل أربعين حجرة ، بل كان يُكتفى بقائمة خاصة لكل حجرة ، وتشمل القائمة عناوين الكتب الموجودة بالحجرة وأرقامها وتلصق قائمة كل حجرة على بابها [٤] . ولكن الوزير أبا القاسم الجرجاني وجد ان مكتبة كهذه لا بد لها من فهرس عام ، فأصدر في سنة ٤٣٥ هـ أمره بذلك ، وعين لهذه المهمة القاضي أبا عبدالله القضاعي وأبا خلف الوراق [٥] .

---

١) صيد الخاطر ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .

٢) اثبات الكتب هو كتابة اسمائها في ثبت او سجل ، واعتبارها هو فحصها للتأكد من صحة عددها ومن سلامة اوراقها ، او لاثبات حالها ، ومثل الاعتبار لفظ الجرد وهو لفظ مولد يكثر استعماله في الوقت الحاضر .

٣) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٥٤ .

٤) الخطط ١ : ٤٠٩ .

٥) القفطي : اخبار الحكماء ص ٤٤٠ .

وفي اسبانيا كان لمكتبة الحكم فهارس غاية في الدقة والنظام ، وهي تدل على ان المكتبة كانت تزخر بمجموعة عظيمة من الكتب فقد روى المقري [١] ان الفهرست الخاص بدواوين الشعراء وحدها كان يقع في أربعة وأربعين جزءاً .

استعارة الكتب

تستحب اعارة الكتب ممن لا ضرر عليه في ذلك لمن لا ضرر منه بها ، واعاراتها للطلبة والمشيخة آكد ، لما فيه من نشر العلم خاصة وافادة الناس عامة ، حتى عُدَّ من صفات العلماء المحمودة ، وكان الحافظ بن الخاضبة محبوباً الى الناس كلهم فاضلاً حسن الذكر . . . . لا يأتيه مستعير كتاباً الا اعطاه له او دلَّه عليه [٢] .

وقد وجدت في عهد مبكر عادة الاستهانة بالكتاب المستعار او عدم رده [٣] ، وكان ذلك سبباً في ان كره بعض الادباء والعلماء اعارة كتبهم خوفاً عليها . قال رجل لأبي العتاهية : أعرني كتابك . فقال : اني أكره ذلك . فقال الرجل : أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره . فأعاره الكتاب [٤] . وطلب الشافعي من محمد بن الحسن كتباً فمنعها فكتب له الشافعي :

---

١) نفح الطيب ١ : ١٨٦ وانظر كذلك :
Sayid Ameer Ali : A Short History of the Saracens p. 514 .
٢) ابن جماعة ص ١٦٧ وهامش ص ١٦٨ .
٣) انظر المقريزي ٢ : ٣٦٦ .
٤) ابن جماعة ١٦٧ ـ ١٦٨ .

يا ذا الذي لم ترَ عَيْنُ من رآه مثله
العلم يأبى أهلُه أن يمنعوه أهلَهْ [1]

وقد كان تيسير الاستعارة داعياً لأن يستغني بها بعض العلماء ، فلم يجدوا من الضروري أن يشتروا الكتب ويبذلوا المال ثمناً لها ومن هؤلاء أبو حيان الغرناطي الذي يقول : اذا اردت كتاباً استعرته من كتب الأوقاف وقضيت حاجتي [2] .

ولم تكن الاستعارة على اية حال مطلقة تماماً ، بل وضعت عليها قيود لتنظيم العمل وحسن سيره ، ومن ذلك انه كان من نظام مكتبة القاهرة انها تعير كتبها للطلبة الساكنين في القاهرة فقط [3] .

وكان يكثر ان يُطلَب الى المستعير أن يدفع ضماناً أو ما يطلق عليه الآن (تأمين) ولكن كان يعفى العلماء وأفاضل الناس من دفع ذلك الضمان ؛ فلقد مَدَح ياقوت الرومي المشرفين على المكتبات ببلدة مرو اذ سمحوا له ان يستعير مائتي مجلد دون ان يدفع ضماناً [4] .

وكثيراً ما كان يُحدَّد وقت للمستعير بحيث يلزمه رد الكتاب دون تجاوز هذا الوقت ؛ فان ابن خلدون سجَّل في الوثيقة التي أهدى بها كتابه العبر الى مكتبة جامع القيروان : انه لا يجوز اعارة الكتاب اعارة خارجية الا اذا كان المستعير شخصاً موثوقاً به وأميناً ، على ان يدفع

---

١) ابن جماعة ص ١٦٨ .
٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ٤ : ٣٠٩ .
٣) دائرة معارف وجدي ٨ : ٦٤ وهذا يذكرنا بالنظام الانكليزي المعمول به في اغلب المكتبات البريطانية ان لم يكن كلها ، والذي لا يسمح باخراج الكتاب المستعار من الجزائر البريطانية.
٤) معجم البلدان : ٣٧٦ .

ضماناً هاماً ، وان يردَّ الكتاب في مدة لا تتجاوز شهرين [١] .

ومستعير الكتاب ينبغي له ان يحافظ عليه تمام المحافظة ، ولا يجوز أن يصلحه بغير اذن صاحبه ، ولا يحشي ولا يكتب شيئاً في بياض فواتحه او خواتمه او هوامشه الا اذا علم رضا صاحبه ، ولا يعيره لغيره ولا يدفعه ضماناً لشيء . وعلى المستعير ألا يطيل مقام الكتاب عنده من غير حاجة ، بل يرده اذا قضى حاجته او انتهت المدة التي أذِن له بها . ولا يحبسه اذا طلبه المالك . وليتبع على العموم قول الشاعر :

ايها المستعير مني كتاباً ارض لي منه ما لنفسك ترضى

كل هذا ينطبق على الكتاب المستعار من شخص او من مكتبة عامة الا أنه في حالة الكتاب المستعار من مكتبة عامة لا بأس باصلاحه ممن هو أهل لذلك . وينبغي للمستعير ان يشكر للمعير عونه ويجزيه خيراً [٢] .

وقبل ان نختم هذا الموضوع يجدر بنا ان نذكر انه وجد بالعالم الاسلامي مكتبات للاطلاع الداخلي فقط دون اعارة خارجية كما هو متبع الآن في المتحف البريطاني وممن فعل ذلك في البلاد الاسلامية القاضي ابن حيان النيسابوري الذي وقف كتبه على أهل العلم على شرط الا يعار كتاب منها اعارة خارجية مهما كانت الظروف [٣] . وقد اشتُرِط هذا الشرط نفسُه فيما يختص بمكتبة المدرسة المحمودية التي أنشأها جمال الدين محمود بن علي الذي نص في كتاب الوقفية على أنه لا يجوز إخراج اي كتاب خارج بناء المدرسة [٤] .

---

١) The Encyclopaedia of Islam II, p. 1047.
٢) ابن جماعة ١٦٨ ـ ١٦٩ بتصرف .
٣) Islamic Culture III, 1929, p. 234.
٤) المقريزي الخطط ٢ : ٣٩٥ .

موظفو المكتبة

يختلف موظفو المكتبة بطبيعة الحال باختلاف المكتبة ، وما اذا كانت صغيرة او كبيرة ، خاصة او عامة ، وهذا الاختلاف يشمل أنواع الوظائف وعدد الموظفين . ومع هذا فهناك وظائف قلّ أن خلت منها مكتبة ذات شأن في العالم الاسلامي ، ويدور الحديث في هذا القسم عن هؤلاء الموظفين وهم :

١ ـ الخازن (أمين المكتبة) .

٢ ـ المترجمون .

٣ ـ النساخ .

٤ ـ المجلدون .

٥ ـ المناولون [١] .

١ ـ الخازن (أمين المكتبة)

واجباته : كان الخازن يشرف على الناحية العلمية والناحية الادارية بالمكتبة ؛ فهو يمد المكتبة بالكتب الجديدة ، ويلاحظ دقة الفهارس وحسن تنظيمها وشمولها ، وييسِّر للقراء عملهم ما استطاع الى ذلك سبيلا ،

---

١) كانت هناك ايضاً وظيفة المشرف الا انها كانت قليلة الانتشار ، فلم توجد الا في المكتبات العظيمة . ووظيفة المشرف وظيفة عامة ، لا تستلزم من شاغلها ان يمضي بالمكتبة وقتاً طويلا كما كان يفعل الخازن، بل كان يكفي ان يتردد المشرف من يوم الى آخر لوقت قصير، ومن اجل هذا لم يكن مرتبه اعلى من مرتب الخازن ، وكان من الممكن ان ينتقل المشرف فيصبح خازناً كابن القوطي الذي كان مشرفاً على خزانة المدرسة المستنصرية ثم عين خازناً لها . ولما لم تكن وظيفة المشرف موجودة بكل مكتبة او بأغلب المكتبات ، ولما كانت غير دقيقة الاختصاصات فقد اكتفيت بهذا الموجز عنها .

وعليه المحافظة على الكتب من الضياع ، وترميم شعثها ، وحبكها عند احتياجها للحبك ، والضن بها على من ليس من أهلها ، وبذلها للمحتاج اليها ، وان يقدم في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الاغنياء [١] .

وكان الغالب ان يكون للمكتبة خازن واحد يقوم بهذه المهمة ، ولكن بعض المكتبات كانت ضخمة او كثيرة الرواد فثقل العبء على خازن واحد ، ومن أجل هذا كان يعين اثنان أو يعين للخازن مساعدٌ او اكثر ليتعاونوا جميعاً في خدمة القراء ، وتيسير الاطلاع لهم ، ومن هذه المكتبات مكتبة سابور بن أردشير فقد ذكر ابن العماد [٢] ان سابور بعد ان نقل اليها الكتب الكثيرة ، رد النظر في أمرها الى الحسين بن شيبة [٣] وابي عبد الله الضبي القاضي . وبعد وفاة سابور آلت مراعاة الدار الى المرتضى ابي القاسم نقيب الطالبيين ، فضم هذا الى خازنها المعروف بأبي منصور آخر يعرف بأبي عبد الله بن حمد [٤] . وكذلك أقيم لمكتبة الفاطميين قوام يرعون شئونها [٥] .

ثقافه الخازن : يعتبر أمناء المكتبات في أرقى دول العالم في العصر الحديث موئلا للطلاب بل وللعلماء ، فكثيراً ما يُمدُّونهم بمراجع هامة في موضوع يعنيهم ، ثم ان الأمناء بحكم عملهم يتلقون الكتب الحديثة ويلقون

---

١) السبكي : مفيد النعم ١٥٩ .
٢) شذرات الذهب ١ : ١٠٤ .
٣) صحفت في الشذرات الى السنية والتصحيح من المنتظم ٧ : ١٧٢ .
٤) ياقوت : معجم الادباء ٦ : ٣٥٩ .
٥) المقريزي : الخطط ١ : ٤٥٨ .

عليها النظرات الأولى ، وهم بذلك يستطيعون ان يوجهوا انظار المهتمين بموضوع ما بما يجدُّ حول هذا الموضوع من دراسات وابحاث ، ومن اجل هذا يختار امناء المكتبات من بين المثقفين ثقافة ممتازة ، ومنهم من هو حاصل على درجات علمية عليا .

ويبدو ان المسلمين في العصور الوسطى اتجهوا هذا الاتجاه ، وأدركوا ان وظيفة الخازن ليست عملا اداريا فحسب ، وانما هي عمل علمي قبل كل شيء ، وعلى هذا فقد اختير لهذه الوظيفة جماعةٌ من أساطين العلماء ومشاهير الأدباء ، وفيما يلي سرد سريع لأسماء بعضهم مع لمحة موجزة عن كل منهم :

كان سهل بن هارون وسعيد بن هارون وسلم خزنةً لبيت الحكمة الذي انشأه الرشيد ؛ ويقول ابن النديم عن سهل : انه كان حكيماً فصيحاً شاعراً . . . . وكان ابو عثمان الجاحظ يفضله ، ويصف براعته وفصاحته ، ويحكي عنه في كتبه ، ولسهل بن هارون عدة من الكتب ، اما سعيد فقد كان بليغاً فصيحاً مترسلا وله من الكتب كتاب الحكمة ومنافعها وله رسائل مجموعة ولسلم نقول من الفارسي الى العربي [١] .

وكان علي بن يحيى المنجم (٢٧٥ هـ) هو الذي أعد مكتبة الفتح ابن خاقان وأشرف عليها وكان من خاصة ندماء المتوكل ، وخُصَّ أيضاً بمن جاء بعده من الخلفاء الى أيام المعتمد ، وكان راوية للأشعار والأخبار ، شاعراً محسناً ، وله صنعة مقدماً عند الخلفاء [٢] ، وقد ترجم له ياقوت ترجمة

---

١) ابن النديم : الفهرست ص ١٧٤ .
٢) المرجع نفسه ص ٢٠٥ .

طويلة [1] وهو يقول فيها : ان علياً كان مشتهراً بالأدب ، مائلاً الى اهله ، معتنياً بأمورهم ، وكان منزله مألفاً لهم ، وكان يوصل كثيراً منهم الى الخلفاء والأمراء [2] .

اما مكتبة الفاطميين فقد تولاها عالم من خيرة علماء زمانه ، ذلك هو علي بن محمد الشابشتي (٣٩٠ هـ) ويقول عنه ابن خلكان [3] : كان أديباً فاضلا تعلق بخدمة العزيز بن المعز العبيدي صاحب مصر ، فولاه أمر خزانة كتبه ، وجعله يقرأ له الكتب ويجالسه وينادمه ، وكان حلو المحاورة لطيف المعاشرة ، وله مصنفات حسنة ، منها كتاب الديارات وكتاب مراتب الفقهاء وغيرها .

وسبق لنا ان ذكرنا ان المؤرخ الشهير والعالم الكبير ابن مسكويه كان خازناً لمكتبة ابن العميد [4] .

وحظيت خزانة سابور بن أردشير الوزير البويهي (٤١٦ هـ) بشرف أن تولى الاشراف عليها مجموعة من جلة العلماء والأدباء نذكر منهم :

القاضي ابو عبدالله الضبي [5] .

ابو احمد عبد السلام بن الحسين البصري (٤٠٥ هـ) وكان معاصراً لأبي العلاء المعري وصديقاً له ، وكان عالماً ، أديباً ، قارئاً القرآن ، عارفاً

---

١) معجم الأدباء ٥ : ٤٥٩ ـ ٤٧٧ .
٢) ٥ : ٤٦٠ .
٣) الوفيات ١ : ٤٨١ .
٤) تجارب الأمم ٦ : ٢٢٤ .
٥) شذرات الذهب ٣ : ١٠٤ .

بالقراءات ، وكان من احسن الناس تلاوة للقرآن . وانشاداً للشعر [١] .

وتولى الاشراف على مكتبة المدرسة النظامية جمهرةٌ من علماء العصر ونوابغه نذكر منهم :

ابو يوسف الاسفرائيني وكان شاعراً اديباً وهو القائل يرثي منصور بن مزيد

أيا شجرات النيل من يضمن القِرَى اذا لم يكن جار الغداة ابن مزيد
اذا غاب منصور فلا النور ساطع ولا الصبح بسام ولا النجم مهتدي [٢]

ولما توفي الاسفرائيني سنة ٤٩٨ اخذ مكانه محمد بن احمد الابيوردي ، وهو ايضاً شاعر وعالم واديب [٣] . ومن اشهر خزنة النظامية ابو الحسن يحيى بن الخطيب التبريزي ويقول عنه ياقوت [٤] انه كان احد الأئمة في النحو واللغة والأدب ، حجة صدوقا ثبتا ، رحل الى ابي العلاء المعري فأخذ عنه ، وعن كثيرين غيره . وولي تدريس الادب بالنظامية وخزائنَ الكتب بها ، وانتهت اليه الرئ اللغة والادب ، وسار ذكره في الاقطار ورحل الناس اليه .

اما خزنة مكتبة المدرسة المستنصرية فهم سلسلة من الأفاضل والثقات منهم :

الشمسي علي بن الكتبي وهو اول خازن للمستنصرية وقد منحه الخليفة خلعة يوم افتتاحها [٥] .

---

١) تاريخ بغداد ١١ : ٥٨ .
٢) معجم الادباء ٦ : ٣٤٣ .
٣) معجم الادباء ٦ : ٣٤١ ـ ٣٤٣ .
٤) معجم الادباء ٧ : ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .
٥) القوطي : الحوادث الجامعة ٢٥٦ .

ابن الساعي المؤرخ المشهور صاحب الجامع المختصر [1] .

ابن القوطي مؤلف الحوادث الجامعة ، وكتباً كثيرة أخرى ، وقد كان قبل تعيينه خازناً لهذه المكتبة خازناً لمكتبة نصير الدين الطوسي الخاصة [2] .

٢ ـ المترجمون :

من المسلم به انه فيما عدا الدراسات الدينية واللغوية ، كانت النهضة العلمية التي احتضنها المسلمون ورعوها تعتمد جل الاعتماد على الدراسات التي قام بها غير العرب من الشعوب ، ومن أجل هذا كان المترجمون حلقة الاتصال بين العرب وهذه العلوم ، وبمساعدة هؤلاء المترجمين وعن طريقهم نُقِلت علوم اليونان والسريان والقبط والفرس والهنود الى اللغة العربية ، ويستطيع الباحث ان يقرأ عن هؤلاء المترجمين ونتاجهم في الفهرست لابن النديم وفي الباب التاسع من طبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة ، ولكنا هنا سنتحدث حديثاً قصيراً عن نماذج لطائفة واحدة من المترجمين تشمل هؤلاء الذين كانوا يقومون بعملهم في المكتبات ، فهم الذين يدخلون في المحيط الذي نتكلم عنه :

ونسجل هنا ان المترجمين وجدوا مكانهم في اول مكتبة عرفت في العالم الاسلامي ؛ فقد ذكر كرد علي [3] ان خالد بن يزيد (٨٥ هـ) كان اول من عرفت له مكتبة ، ويقول عنه ابن النديم [4] انه عُني

---

١) انظر مقدمة الجامع المختصر ص ١ .
٢) انظر ترجمته في اول الحوادث الجامعة .
٣) خطط الشام ٦ : ١٨٩ .
٤) الفهرست ٤٩٧ .

باخراج كتب القدماء ، وأول من تُرجِم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء ، وفي مكان آخر يقول عنه [1] أنه أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي ، وهو اول نقل كان في الاسلام من لغة الى لغة ، ويعين ابن النديم [2] مترجماً اسمه اصطفن القديم ويقول انه نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة .

ولكن الترجمة وصلت قمتها في بيت الحكمة ، ومن مشاهير المترجمين فيها ابو سهل الفضل بن نوبخت ، ويقول ابن النديم عنه [3] انه كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد وله نقل من الفارسي الى العربي ، وقد قلَّد الرشيدُ يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة مما وجده بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون ووضعه أميناً على الترجمة [4] .

وكان المأمون الخليفة عالماً مثقفاً ، فأولى النهضة العلمية عنايته الكاملة ، واتجه الى ان يحصُل على عدد ضخم من كتب القدماء ، فوفق بطرق شتى الى الحصول على مجموعات نادرة ، وضعها في خزانة الحكمة ، وعيَّن خيرة المثقفين ونخبة ممتازة من المترجمين لينقلوها الى اللسان العربي ، وليضيفوا لها ما يعنُّ لهم من شروح وتعليقات . ومن أشهر المترجمين بالخزانة في ذلك العهد سَلَم ، والحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وحنين

---

١) الفهرست ٣٣٨ .
٢) ابن النديم ٣٤٠ .
٣) الفهرست ٣٨٢ .
٤) ابن ابي أصيبعة ١ : ١٧٥ .

بن اسحق ، وعمر بن الفرخان ، واسحق بن حنين [1] .

واشتهرت بعض المكتبات الخاصة بالحرص على النقل والترجمة ، ومن هذه مكتبة بني شاكر وهم محمد وأحمد والحسن وقد كان لهم مترجمون لا يفتئون ينقلون لهم ويلازمون العمل في مكتبتهم ومنهم حبيش بن الحسن وثابت بن قرّة [2] .

وتوقف نشاط الترجمة تقريباً بعد الواثق ، ولم يعد من السهل ان يجد الباحث ذكراً للمترجمين في المكتبات العامة او الخاصة ، ولعل السبب في ذلك ان النشاط الكبير الذي حظيت به الترجمة من قبل قد نقل الى اللغة العربية أمهات الكتب في الفنون المختلفة ، او ان المسلمين بعد ان اطلعوا على ما تُرجم في بيت الحكمة وما عاصرها من مكتبات استطاعوا ان ينتجوا بلغتهم ثقافة وعلماً وفلسفة كانت مجالا لنشاطهم العلمي في العهود التالية .

٣ ـ النُّسَّاخ*

من مفاخر المسلمين انهم أدركوا في العصور الوسطى ضرورة ان يكون

---

١) انظر الفهرست ١٧٤ ، ٣٣٩ ، ٤١٥ والنفطي ٢٤٢ وابن أبي أصيبعة ١ : ١٨٧ .

٢) القفطي ٣٠ ـ ٣١ ؛ ابن ابي أصيبعة ١ : ١٨٧ ، ابن النديم ٣٤٠ .

* ١ ـ يرى ابن خلدون (المقدمة ص ٢٩٦) ان الوراقة تشمل النسخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية . ويصرح ابن النديم (الفهرست ١٦٩) ان الوراقة تشمل بيع الكتب ايضاً ، فهو يقول دكاكين الوراقين ولكني اوافق السمعاني الذي آثر تحديد معنى الوراقة فجعله كتابة المصاحف وكتب الحديث وغيرها (الانساب ظهر الورقة رقم ٥٧٩) فالوراقة هي النسخ وهي بهذا المعنى ستكون موضوع الحديث في هذا الفصل .

٢ ـ كان نسخ المخطوطات هو الطريق العادي للحصول على نسخة من كتاب ما ، وكان الشخص ينسخ الكتاب بنفسه أو يستأجر من ينسخه له ، كما كان هناك نساخ ينسخون الكتب ثم يعرضونها للبيع ، وكان يحدث ان تقدم الكتب هدايا ولكن هذا لم يكن كثيراً بين الافراد وانما كثر ان يهدي العلماء كتبهم او مجموعات منها للمساجد والمدارس .

بالمكتبة قسم للطبع والنشر ، ولم تكن وسائل الطبع الحديثة قد وجدت بعدُ بطبيعة الحال فعينوا بالمكتبات نساخاً عُرفوا بالدقة وجودة الخط ، وكانت الكتب الحديثة يُؤتى بها لهؤلاء النساخ لينقلوا صورة منها تزوّد بها المكتبة ، فاذا ضن مؤلف الكتاب او مالكه باعارته بضعة ايام للنساخ خوفاً عليه ، فانه من الممكن ان ينتقل النساخ اليه ليقوموا بعملية الكتابة تحت اشرافه ، والحق ان هؤلاء النساخ أدوا واجبهم خير اداء ، وأمدوا المكتبات بكل جديد وطريف دون تأخير او تقصير .

وكان على الناسخ ان يلحظ الدقة والاتقان في عمله ، بحيث لا تدعوه الرغبة في سرعة الانجاز ان يحذف في أثناء الكتابة شيئاً او ان يسهو عنه ، وعليه ان يتتبع تعليمات مستأجره بملاحظة عدد الاوراق ، ونظام الكتابة ، وعدد الأسطر في كل صفحة ، ولون الحبر وغير ذلك ، ثم ألا يكتب الكتب غير النافعة وان أغراه الراغبون فيها بالمال الوفير [1] .

وقلما خلت مكتبة ذات شأن ، خاصة او عامة ، من ناسخ او نساخ يعملون بها . وفيما يلي أمثلة موجزة لبعض النساخ :

كان في بيت الحكمة عدد من النساخ فقد ذكر ابن النديم [2] في ترجمة علان الشعوبي ما نصه : « علان الشعوبي أصله من الفرس ، وكان راوية ، عارفاً بالأنساب والمثالب والمناظرات ، منقطعاً الى البرامكة ، وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون .

وكان في مكتبة الواقدي (٢٠٨ هـ) غلامان مملوكان له يكتبان الليل

---

١) السبكي : مفيد النعم ١٨٦ ـ ١٨٧ بتصرف .

٢) ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

والنهار ، وقد اشتهر محمد بن سعد بكتابته للواقدي ، حتى أصبح من أبرز مميزات ابن سعد ان يقال عنه : كاتب الواقدي [١] .

وكان لحنين بن اسحق الطبيب المسيحي الشهير نُسَّاخ ذكر منهم ياقوت محمد بن الحسن بن دينار قائلا إنه كان وراقاً يورق لحنين بن اسحق المتطبب في منقولاته لعلوم الأوائل [٢] . وذكر ابن ابي أصيبعة [٣] انه كان لحنين كاتب يعرف بالأزرق ، وأضاف ابن ابي أصيبعة قولَه : وقد رأيت أشياء كثيرة من كتب جالينوس وغيره بخطه .

وكان للجاحظ في مكتبته الخاصة وراق اسمه عبد الوهاب بن عيسى [٤] وكان احمد بن احمد (ابن اخي الامام الشافعي) وراقا لابن عبدوسى الجهشياري ، وكان جماعة من اعيان العلماء يفتخرون بالنقل من خطه لأنه متقن الضبط [٥] .

وكان علي بن هلال المعروف بابن البواب (٤١٣ هـ) خطاطا شهيراً ، وقد سمتْ بـه همته وكفايته حتى رُدَّ اليه أمر مكتبة بهاء الدولة بن عضد الدولة ، ولـكن ذلك لم يكن يعفيه من ان يعود ناسخا في المكتبة اذا احتاج النسخ في مناسبة ما الى براعته وفنه وجودة خطه ، ومن ذلك انه عَثَر في هـذه المكتبة على تسعة وعشرين جزءاً من القرآن الكريم كتبها الخطاط العظيم ابو علي بن مقلة ، وجعل كل جزء في مجلد مستقل ،

---

١) الفهرست ١٤٤ .
٢) معجم الأدباء لياقوت ٦ : ٤٨٢ .
٣) ١ : ١٨٧ .
٤) تاريخ بغداد ١١ : ٢٨ السمعاني : الانساب وجه الورقة رقم ٥٨٠ .
٥) ياقوت : معجم الادباء ١ : ٨١ .

نكلّف بهاءُ الدولة ابنَ البواب ان يكتب الجزء الناقص ، وقد استطاع ابن البواب ان يختار كاغدا وقلما وحبرا تشبه من جميع الوجوه تلك التي استعملها ابنُ مقلة ، ثم قلّد ابنُ البواب خط ابن مقلة تقليداً دقيقاً رقيقاً ، بحيث لم يستطع بهاء الدولة ان يتعرف على الجزء الذي كتبه ابن البواب من بين الاجزاء الثلاثين [١] .

وقد وجّه الخليفةُ الراضي مرة الى خازن كتبه يطلب ديوان نهشل ابن جزي فلم يجده ، فساء الصوُلي ان تخلو المكتبة من مثل هذا النتاج ، واشار على الخليفة ان يزود مكتبته بالكتب المفيدة حتى تتناسب مع جلالة علمه ، وعلو نعمته ، وأضاف بان ما كان سماعا او لا يمكن الحصول عليه ينسخه الوراقون الذين تجرى عليهم الارزاق ويجلّده مجلدو الخزانة [٢] .

وكان من النساخ في مكتبة المدرسة المستنصرية عالمان فاضلان ، احدهما صفي الدين عبد المؤمن بن فاخر الذي يحدثنا عن حياته فيقول : وردت بغداد صبيا ، واتيت فقيها بالمستنصرية شافعيا في ايام المستنصر واشتغلت بالمحاضرات ، والآداب ، والعربية ، وتجويد الخط ، فبلغت فيه الغاية ، ثم اشتغلت بضرب العود فكانت قابليتي فيه اعظم من الخط ، لكن اشتهرت بالخط ولم اعرف بغيره في ذلك الوقت ، ثم ان الخلافة وصلت الى المستعصم فعمر خزانة كتب ، وامر ان يُختار لها كاتبان يكتبان ما يختاره ولم يكن في ذلك الوقت افضل من الشيخ زكي الدين ، وكنت دونه في

---

١) ياقوت : معجم الادباء ٥ : ٤٤٦ ـ ٤٤٧ .
٢) اخبار الراضي بالله والمتقي بالله ص ٤٠ .

الشهرة ، فرتبنا في ذلك [١] .

فاذا سرنا الى الشام ومصر والأندلس وجدنا نشاطاً عظيما يقوم بـه هؤلاء النساخ ، ينفعون به العلم ويمدون المكتبات بالنافع والجديد :

فقد كان للصاحب امين الدولة ابي الحسن بن غزّال (من وزراء الشام واطبائها توفي سنة ٦٤٨) همة عالية في جمع الكتب وتحصيلها ، وكان النساخ أبداً يكتبون له ، حتى انـه اراد مرة نسخة من تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ، وهو بالخط الدقيق ثمانون مجلداً ، ففرّقه على عشرة نساخ ، كل واحد منهم ثمان مجلدات فكتبوه في نحو سنتين [٢] . وقد اجتمع عـدّة من النساخ بمكتبة المؤرخ الشهير ابي الفدا صاحب حماة [٣] .

وكان نشاط النساخ في مصر بالغاً الغاية ؛ فقد عُيِّن في دار الحكمة عدد منهم ليزوِّدوا خزانة الكتب بمـا عسى ألا يكون موجوداً فيها ، ويشير المقريزي في أكثر من موضع الى النساخ بهذه المكتبة [٤] . وكان في دار يعقوب بن كلس قوم يكتبون القرآن الكريم ، وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب حتى الطب [٥] . أما افرائيم بن الزفان فقد كانت له همة عالية في تحصيل الكتب وفي استنساخها . . . . وكان أبداً عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفايتهم ، ومن جملتهم محمد بن سعيد

---

١) الكتبي : فوات الوفيات ٢ : ١٨ .
٢) ابن ابي أصيبعة ٢ : ٢٣٦ .
٣) Islamic Culture IX 1935 p. 135.
٤) الخطط ١ : ٤٠٩ ، ٤٥٩ .
٥) ابن خلكان ٢ : ٤٩٧ .

بن هشام المعروف بابن ملساقة [1] ويروي ابن جماعة [2] عن عبد اللطيف البغدادي ان القاضي الفاضل كان له عدد من النساخ لا يفترون يكتبون له . وكان في خدمة موفق الدين ابن المطران ثلاثة نساخ يكتبون له ابداً ، ولهم منه الجامكية والجراية ، وكان من جملتهم جمال الدين المعروف بابن الجمالة وكان خطه منسوباً [3] .

ولنعبر الآن البحر الأبيض المتوسط الى الأندلس لنشاهد نشاط النساخ في هذه البقاع ؛ فقد ذكر ابن خلدون [4] أن الحكم جمع بداره الحذاق في صناعة النسخ ، والمهرة في الضبط ، والاجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله . وكان القاضي ابو المطرف قاضي الجماعة بقرطبة (٤٠٢ هـ) جَمَّاعةً للكتب ، وله ستة من الوراقين ينسخون له دائماً ، وكان قد رتب لهم على ذلك راتباً معلوماً ، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه وبالغ في ثمنه ، فان قدر على ابتياعه والا انتسخه منه وردّه عليه [5] .

ونختم القول عن النساخ بعبارة تدعو الى الدهشة والاعجاب ؛ فلقد روي أنه كان بمكتبة بني عمار بطرابلس الشام مائة وثمانون ناسخاً ، وكان هؤلاء النساخ يتبادلون العمل ليلاً ونهاراً بحيث لا ينقطع النسخ ،

---

١) ابن ابي اصيبعة ٢ : ١٠٥ .
٢) تذكرة السامع ١٦٦ بالهامش .
٣) ابن ابي أصيبعة ٢ : ١٧٨ .
٤) العبر ٤ : ١٤٦ .
٥) الصلة لابن بشكوال ١ : ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .

ولا يقل الذين يؤدون عملهم فعلاً عن ثلاثين ناسخاً في أية ساعة من ساعات النهار والليل [١] .

٤ ـ المجلدون*

ليس هناك حاجة ـ فيما أعتقد ـ لأن نتحدث عن المجلدين حديثاً طويلاً ونتتبعهم من بلاد ما وراء النهر ونسير مخترقين خراسان والعراق والشام ومصر وشمال افريقية الى الأندلس ، والذي دعا الى هذا الاعتقاد ان الحديث عن القسم السابق الخاص بالنساخ يمكن ان يعتبر في الوقت نفسه حديثاً عن المجلدين ؛ اذ ان كلمتي الناسخ والمجلد كانتا متلازمتين تقريباً في كل ما بين أيدينا من مصادر فكلما وردت كلمة الناسخ وردت معها كلمة المجلد [٢] .

وللاستاذين Thomas Arnold و Adolf Grohmann دراسة رائعة عن ذلك الموضوع ظهرت في كتاب The Islamic Book (الكتاب عند المسلمين) ومنه نقتبس العبارة الآتية :

---

١) Islamic Culture IX 1935 p. 135; See also. III : 1929, p. 231.
والاقتباس من تاريخ ابن الفرات مخطوطة بفينا الورقة رقم ٣٦ .

*) هناك فرق بطبيعة الحال بين تغليف الكتب وتجليدها ؛ فالتغليف هو وضع غلاف للكتاب سواء استعمل الجلد في الغلاف او لم يستعمل ، اما التجليد فهو التغليف بالجلد ، ولكن المسلمين دأبوا على ان يستعملوا كلمة « مجلد » لترادف كلمة Binder الانكليزية ولعل السبب في ذلك انهم لم يعرفوا في عصورهم الأولى تغليف الكتب الا بالجلد .

٢) انظر الفهرست ص ١٤ ـ المقدسي ٤٣ ، ٤٤ ، ١٠٠ ، الصولي : أخبار الراضي ص ٤٠ ، ابن خلدون : العبر ٤ : ١٤٦ ، المقريزي : الخطط ١ : ٤٠٩ ، ٤٥٩ ، المقري ١ : ١٨٢ ، ابن جماعة ١٦٦ بالهامش .

ونال تجليد الكتب عناية خاصة من اهل العراق والأندلس ، وكانت مالقة بالأندلس اكثر المدن براعة واتقاناً في صناعة الجلود عامة وتجليد الكتب تجليداً نفيساً على وجه الخصوص ، وقد بذل الهواة من جماعي الكتب كما بذل الامراء المسلمون جهداً رائعاً كانت نتيجته تكوين المكتبات العامرة ، والتشجيع المتواصل لتنسيقها ، وابداع تجليد كتبها ، مما أسهم بنصيب ملحوظ في هذا التطور الذي لا نظير له في فن تجليد الكتب في العصور الوسطى ١) .

ومن هذا الكتاب ومن الكتاب الذي أخرجه F. Sarre وعنوانه Islamic Bookbinding (تجليد الكتب عند المسلمين) تقدم الرسوم الخمسة الآتية ٢) فهي ناطقة بروعة فن التجليد اذا قيس بهذه العصور المبكرة ، وهي لا تزال محتفظة بجمالها على الرغم مما أصابها من ضرر خلال السنين العديدة في تاريخها الطويل .

وقد بدأ التجليد عند المسلمين بسيطاً ، ولكنه تطور بسرعة عجيبة حتى أصبح فناً فيه دقة وفيه جمال ، ويحدثنا ابن النديم ٣) ان الكتب كانت تجلد بجلد مدبوغ في (النورة) وهو شديد الجفاف ، الى ان ظهر دبغ الكوفة وفيه لين ، فاستعمل في التجليد وكان بدء تطوره . وبعد ابن النديم استمر تطور فن التجليد وتقدمه ، ثم ظهر التذهيب والزخرفة والترويق ، فوصل التجليد عند المسلمين الى القمة ، وأصبح آية في الابداع

---

١) صفحة ٣١ ـ ٣٢ .
٢) انظر شكل ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ .
٣) الفهرست ص ٣٢ .

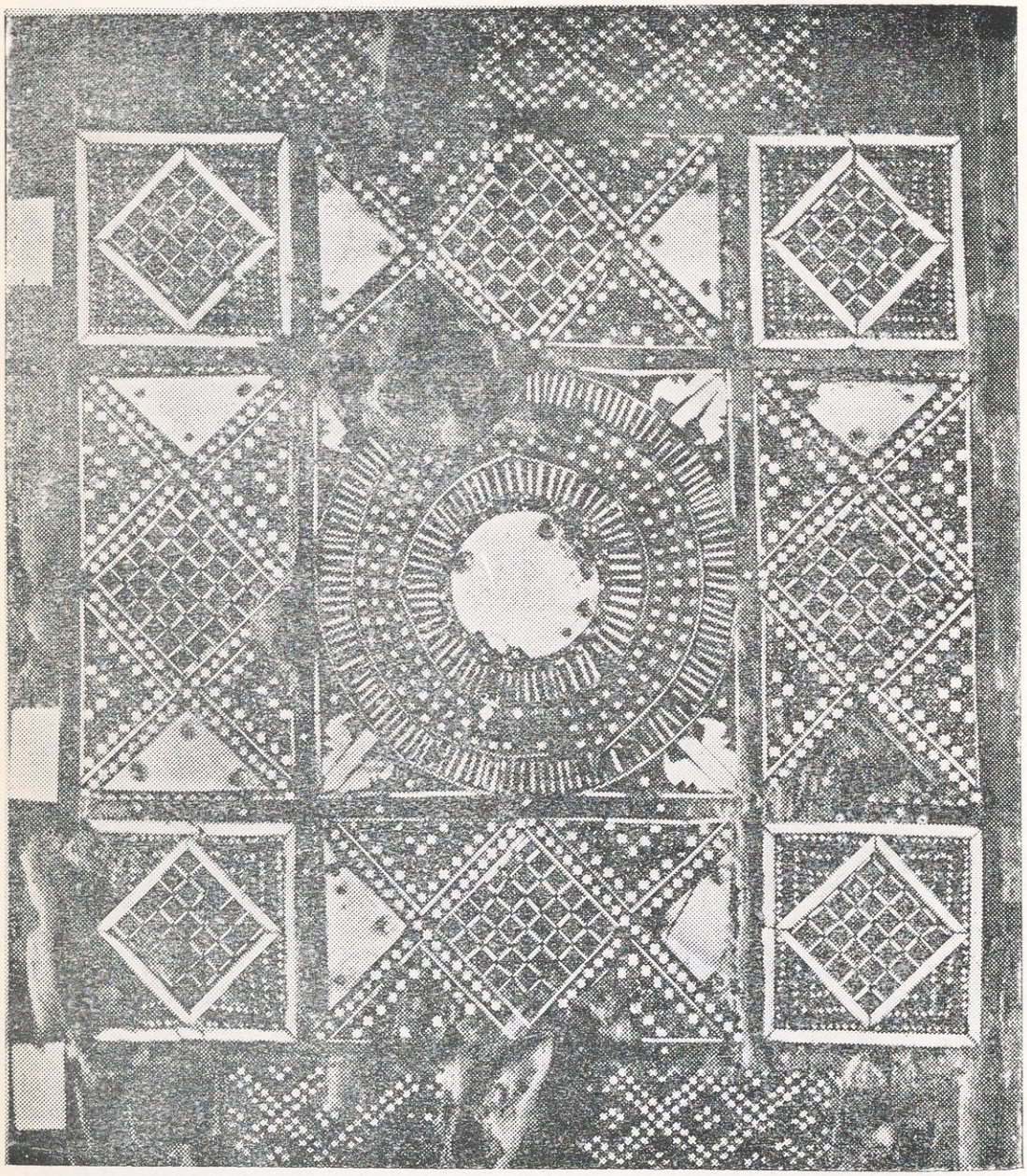

شكل رقم (٨) التجليد المصري في عهد مبكر

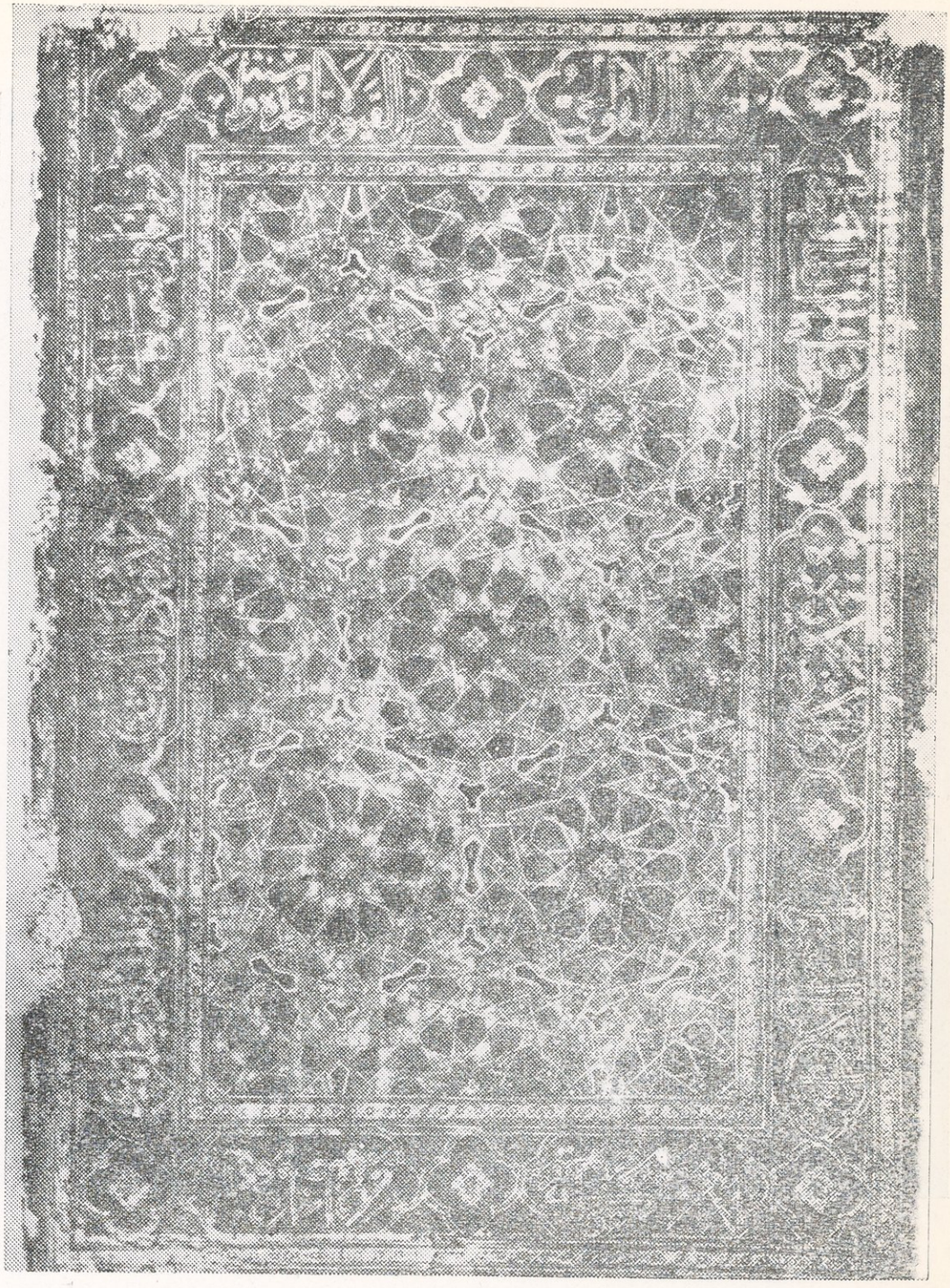

شكل رقم (٩)

تجليد رائع للقرآن الكريم وقد حلّي الجلد بإطار به بعض الآيات القرآنية

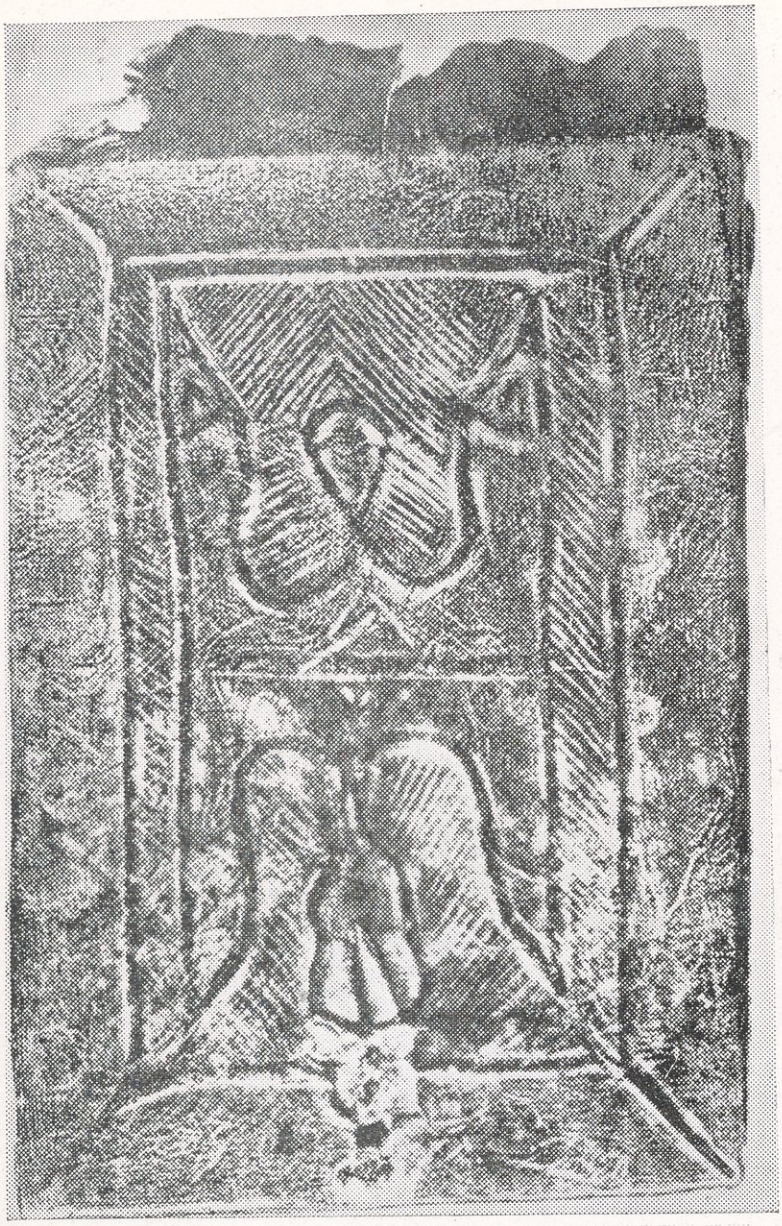

شكل رقم (١٠) تجليد رائع للقرآن الكريم



شكل رقم (١١) تجليد رائع للقرآن الكريم

والجمال [١] ، وقد رأيت في المكتبة الحيدرية بالنجف مصاحف جُلِّدت أجود تجليد وذهِّبت وزخرفت بيد فنانة صناع .

ويقول العلامة الهندي آية الله : وقد سيطر الذوق الجميل على الذين كانوا يقومون بهذه الصناعة في العالم الاسلامي ، وأقدم ما عرف عن تجليد الكتب عند المسلمين هو ذلك الذي كان يقوم به الصناع المصريون المهرة في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، ثم تطور فن التجليد عند المسلمين حتى أصبح التذهيب والتزويق شائعين ، وأصبح مجلد الكتب في العالم الاسلامي معروفاً باتقانه وسيطرته على هذا الفن الجميل [٢] .

٥ ـ المناولون

يكثر الحديث عن المناولين في النصوص العربية كلما تعرض الكتاب للكلام عن موظفي المكتبات . ووظيفةُ المناول هي ارشاد القراء الى موضع الكتب في الرفوف اذا لم يعرفوا طريقها او إحضار الكتب لهم من أمكنتها الى حيث يقرأون ومن هنا سُمِّي من يؤدي ذلك العمل مناولا .

وبهذا التحديد لوظيفة المناول يتضح ان عمله لا يسمو الى عمل الخازن ولكنه لا يهبط الى مستوى الفراشين وعمال النظافة ، فوظيفته ترتفع لاتصالها بالكتب ومعرفة أمكنتها ، ولكنها تقف عند هذا الحد دون ان تتجاوز ذلك الى معرفة فكرة عن محتويات الكتاب العلمية ، فهذا من اختصاص الخازن ليستطيع به تعرف موضوع الكتاب ، ووضعه في المكان المناسب له .

---

١) Islamic Culture IX 1935. p. 138.

٢) Islamic Culture XII 1938, p. 168.

والعمل الذي يؤديه المناول يجعله قريباً من الخدم ؛ لأنه يسعى بين يدي القراء ، ملبيـا لرغباتهم ، مستجيبا لمطالبهم ، ومن هنـا عُبِّـر عنه أحياناً بالخادم واقترن هذا التعبير بكلمة الفراش او الفراشين [١] للتمييز بين الخادم الذي يعمل حلقة اتصال بين الكتب والقراء ، و بين الفراش الذي يقوم بتنظيف الفراش وأثاث المكتبة .

هذا وكلمة المناول أدق في هذا المقام وقد ورد ذكرها كثيراً في المراجع العربية فقد ذكر ابن الفوطي [٢] انه عند نقل الكتب الى خزانة المدرسة المستنصرية كلف من « حضر واعتبرها ورتبها أحسن ترتيب مفصلا لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولهـا » كما تحدث ابن حجـر [٣] عن بعض المناولين في المدرسة المستنصرية على ما سيأتي إيراده .

وعلى كل حال فالوظيفة كانت موجودة ومحددة العمـل بالشكل الذي هي عليه الآن في المكتبات الراقية في العـالم ، وان اختلف التعبير الذي يطلق على من يشغل هذه الوظيفة .

وقد وجد المناولون في المكتبات العامة والخاصة ؛ فقد ذكر ابو العلاء المعري ان جارية كانت تقوم بهذا العمل وهو يقول على لسانها : أتدري من انا يا علي بن منصور ؟ انا توفيق السوداء التي كانت تخـدم في دار العلم ببغداد ، على زمان ابي منصور محمد بن علي الخازن ، وكنت أخرج الكتب الى النساخ [٤] .

---

١) الخطط ١ : ٤٥٨ .
٢) الحوادث الجامعة ٥٤ .
٣) الدرر الكامنة ٢ : ٣٦٠ .
٤) رسالة الغفران ٧٣ .

ووجد بالمدرسة المستنصرية عدد من المناولين نذكر منهم :

الجمال بن ابراهيم بن حذيفة ، وهو اول مناول فيها وقد خلع عليه يوم افتتاح المدرسة [١] .

عبد الرحيم بن محمد بن سعيد الحدادي ..... وكان مناولا بخزانة الكتب المستنصرية كأبيه ، وله بها معرفة تامة [٢] .

ويذكر المقريزي [٣] انه عين بدار الحكمة في القاهرة قوام (خزنة) وخدام (مناولون) وفراشون .

وعن المناولين بالمكتبات الخاصة يذكر ابن خلكان [٤] القصة الآتية :

رأى ابو سعيد العقيلي للصولي بيتاً مملوءاً كتباً جلودها مختلفة الألوان ، وكان يقول هذا كله سماعي ، واذا احتاج لمعاودة شيء منها قال : يا غلام هات الكتاب الفلاني . وكان الصولي عالما فاضلاً ، ولكن العقيلي أخذ عليه عدم اعتماده على نفسه ، ودوام اعتماده على الكتب ، التي اصبحت كأنها هي ـ لا صاحبها ـ العالمة الفاضلة ، وقد عبر العقيلي عن فكرته هذه بمقطوعة قصيرة هجا فيها الصولي هجواً خفيفا وهي التي تهمنا لأنها تشير الى المناولين وهي :

انما الصولي شيخ ... أعلم الناس خزانه
كلما جئنا اليه ... نبتغي منه إبانه
قال : يا غلمان هاتوا ... رزمة العلم فلانه

---

١) الحوادث الجامعة ٥٦ .
٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ٢ : ٣٦٠ .
٣) الخطط ١ : ٤٥٨ .
٤) وفيات الأعيان ١ : ٧٢٧ .

حالة المكتبة المالية

كثيراً ما كانت الاوقاف هي المصدر الذى ينفق منه على المكتبات وما يلزمها [١] ، ويشمل ذلك ترميم البناء ، ومدّ المكتبة بالكتب الجديدة ، ودفع مرتبات الموظفين ، وغير ذلك ، وكان المشرف على المكتبة يحصل ريع الوقف وينفقه على مصارفه السابقة ، فلم تكن هناك اذن مرتبات ثابتة بل كان المرتب يتبع في ارتفاعه وانخفاضه ما يستطيع المشرف ان يحصل عليه من ايراد الوقف .

ولكن النصوص على ية حال أوردت الينا صوراً ثابتة للمرتبات او متناسبة مع ما يبذله الموظفون من جهد وفيما يلي أمثلة لذلك :

كان المأمون يعطي حنين بن اسحق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربي مِثْلاً بمِثْل [٢] .

وكان بنو شاكر وهم محمد وأحمد والحسن يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن اسحق وحبيش لحسن وثابت بن قرة ٥٠٠ دينار للنّقل والملازمة [٣] .

ووجه الواثق عناية كبيرة للمترجمين الذين نقلوا الذخائر الأجنبية للسان العربي ، وكان ابن ماسويه يده اليمنى في ذلك ، فأغدق عليه الواثق نعما متواليـة ، وخيراً وفيراً ، وفي احدى المرات أعطاه دراهم تساوي

---

١) انظر الخطط ١ : ٤٥٩ وشذرات الذهب ٣ : ١٠٤ .
٢) ابن ابي أصيبعة ١ : ١٨٧ .
٣) المصدر نفسه ١٨٧ .

٣٠٠،٠٠٠ روبية [١] .

وكان عطاء محمد بن عبد الملك الزيات للنقلة والنساخ في كل شهر ٢،٠٠٠ دينار [٢] .

ويورد لنا المقريزي [٣] قائمة بالنفقات السنوية لمكتبة دار الحكمة مفصلة تفصيلاً واضحا ولكنها أقل سعة وسخاء وفيما يلي نصها :

ورق الناسخ (ربما كان ذلك يشمل مرتبه أيضاً) ٩٠ ديناراً من العين المغربي

مرتب الخازن	٤٨	«	«
مرتب الفراش	١٥	«	«
لتجليد الكتب (ربما شمل ذلك أجرة المجلد)	١٢	«	«
ورق وحبر وأقلام للمطالعين	١٢	«	«
ثمن الحصر العبداني	١٠	دنانير	«
ثمن الماء	١٠	«	«
ثمن لبود للفرش في الشتاء	٥	«	«
ثمن طنافس في الشتاء	٤	«	«
مرمّة الستارة	١	ديناراً	«

وكانت المرتبات لموظفي المدرسة المستنصرية محددة على الوضع التالي : لخازن الكتب في كل يوم عشرة أرطال خبزاً ، وأربعة لحماً ، وفي كل شهر عشرة دنانير ، وللمشرف في كل يوم خمسة أرطال خبزاً ،

---

١) Khuda Bukhsh: Islamic Civilization p. 269.

٢) ابن ابي أصيبعة ١ : ٢٠٦ .

٣) الخطط ١ : ٤٥٩ .

ورطلان لحما ، وفي كل شهر ثلاثة دنانير ، وللمناول في كل يوم أربعة أرطال خبزاً وغرف طبيخا وفي كل شهر ديناران [1] .

أنواع المكتبات*

هناك أنواع ثلاثة من المكتبات يلزم ان يستقل كل منها بحديث خاص ، وتُرتَّب هذه الأنواع الثلاثة في الحديث عنها تبعا لما تسهم به في خدمة التعليم ، وعلى هذا فلا تهمنا المكتبة التي يملكها أمير او وزير ، بقدر ما تهمنا مكتبة أخرى فتحت أبوابها للناس ليتعلموا فيها وليجدوا بين جدرانها الثقافة والمعرفة ؛ اذ أن أهم ما يعنينا هنا هو مقدار ما قدمته هذه المنشآت للباحثين والطلاب من تثقيف وتعليم . واذن فسيجري الحديث عن المكتبات وفقا للترتيب التالي :

ا ـ مكتبات عامة .

ب ـ مكتبات بين العامة والخاصة .

حـ ـ مكتبات خاصة .

---

١) كوركيس عواد : خزائن الكتب القديمة في العراق ص ١٦٥ .

* ١ – شملت الدراسة السابقة إشارات كثيرة لعدد من المكتبات الهامة التي ظهرت في العالم الاسلامي ، ونحن الآن بصدد إعطاء نماذج لمكتبات المسلمين ، وسنحاول ألا نعيد القول عن المكتبات التي سبق الحديث عنها لندخر الجهد والفراغ لغيرها ، غير أن هذا لا يعفي من إعادة الكلام عن بعض المكتبات ذات الاهمية البارزة ليمكن أن يعطى عنها تفاصيل أوسع ومعلومات أوفى.

٢ – نحاول في هذه الدراسة أن نطوف طوفة سريعة في العالم الاسلامي مبتدئين من بلاد ما وراء النهر فخراسان والعراق والشام ومصر والأندلس ، ومن الحق علينا أن نطري الكتاب الذي ألفه الاستاذ كوركيس عواد بعنوان خزائن الكتب القديمة في العراق (مطبعة المعارف – بغداد ١٩٤٨) والذي كان عونا كبيرا فيما يختص بمكتبات العراق ، وان كان من الطبيعي أننا رجعنا الى المراجع الأصلية في كل ما دون بهذا الفصل .

١ ـ المكتبات العامة

أنشئت هذه المكتبات بالمساجد لتكون في متناول الدارسين فيه ، والوافدين اليه ، كما أنشئت أحيانا لتكون نواة لمعهد يستقبل الطلاب فيجدون فيه العلم والمعرفة ثم أنشئت متصلة بالمدارس عندما بدأت هذه في الظهور والانتشار .

وقد كانت المكتبات من هذا النوع كثيرة جداً ، بحيث كان من الصعب ان تجد مسجداً او مدرسة دون ان تزود بمجموعة من الكتب يرجع اليها الطلاب والباحثون .

وفيما يلي بعض التفاصيل لبعض هذه المكتبات :

١ ـ بيت الحكمة : يرجع تأسيس بيت الحكمة الى الخليفة هارون الرشيد فقد ذكر ابن النديم [١] في كلامه على أبي سهل الفضل بن نوبخت أنه كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد ، وذكر في ترجمة علان الشعوبي أنه كان منقطعا الى البرامكة وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة [٢] .

غير أن نشاط بيت الحكمة وصل الى ذروته في عهد المأمون الذي كان واسع الثقافة ، حر الفكر ، وله شغف بالعلوم والآداب ، ومن أجل هذا أولى بيت الحكمة عنايةً خاصة كان من نتائجها تطور الثقافة عند المسلمين ، ودخول العلوم الأجنبية واحتضان المسلمين لهذه العلوم ، مما أدى

---

١) الفهرست ص ٣٨٢ .

٢) المصدر نفسه ص ١٥٤ .

الى حفظ ذلك التراث ونقله الى الأجيال التالية وكان على وشك ان يضيع .

وقد ضم بيتُ الحكمة كتباً وضِعت في الأصل بلغات مختلفة ، ومن أهمها الكتب اليونانية فالفارسية والهندية والقبطية والآرامية ومن أجل هذا كان المترجمون كثيرين ، ينقل بعضهم من اللغة اليونانية وينقل آخرون من الفارسية وينقل فريق ثالث من الهندية وهكذا .

وقد وجهت العناية في بدء العهد ببيت الحكمة الى الكتب الفارسية والهندية ، ويرجع السبب في ذلك أن يحيى بن خالد كان في هذه الأثناء يشرف على شؤون الدولة بوجه عام ، وعلى النهضة الثقافية بوجه خاص ، ويحيى بن خالد فارسي الأصل والثقافة ، فاهتم بأن ينقل الى اللغة العربية ألواناً من ثقافة الفرس ، فجلب الى بيت الحكمة مجموعة من الكتب الفارسية ، وعين لترجمتها أشخاصاً لهم سيطرة على اللغة الفارسية ومعرفة باللغة العربية من امثال أبي سهل الفضل بن نوبخت وعلان الشعوبي ويقول ابن النديم [1] عن ابن نوبخت : « له نقول من الفارسي الى العربي ، ومعوَّله في علمه على كتب الفرس » وكان للفرس صلة بالهنود ومعرفة بالثقافة الهندية ومدى رقيها ، ومن أجل هذا نجد يحيى بن خالد يرسل في طلب بعض علماء الهنود المتفوقين ، ويعين من يترجم عنهم كتبهم وأفكارهم الى اللغة العربية ، وبوساطة هؤلاء العلماء الهنود الذين استدعاهم يحيى نقلت فنون من الثروة العلمية من الهندية الى العربية [2] .

ثم جاءت الثروة الضخمة في أخريات عهد الرشيد وخلال عهد المأمون

---

١) الفهرست ص ٣٨٢ .

٢) khuda Bukhsh : Islamic Libraries, 1942. Century L 11, p. 128.

عن طريق التراث اليوناني الخالد ، وقد حفلت المراجع العربية بالحديث عن ذلك :

ذكر ابن أبي أصيبعة [1] ان الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة مما وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون .

فهذه مجموعة من الكتب اليونانية جُلبت من أنقرة وعمورية الى بيت الحكمة ، وهناك مجموعة أخرى جُلبت من قبرص يحدثنا عنها ابن نباتة المصري [2] فيقول : ان المأمون جعل سهل بن هارون كاتباً على خزانة الحكمة وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص وذلك ان المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها احد ، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته وذوي الرأي عنده واستشارهم في حمل الخزانة الى المأمون فكلهم أشاروا بعدم الموافقة الا مطرانا واحداً فانه قال : الرأي ان تعجل بانفاذها اليه ؛ فما دخلتْ هذه العلوم العقلية على دولة شرعية الا أفسدتها وأوقعت بين علمائها ، فأرسلها اليه واغتبط بها المأمون .

وهناك مجموعة ثالثة جاءت من القسطنطينية الى خزانة الحكمة ويحدثنا عنها ابن النديم فيقول : ان المأمون كانت بينه و بين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدَّخرة ببلد الروم ، فأجاب الى ذلك بعد

---

١) عيون الانباء ١ : ١٧٥ .
٢) سرح العيون ١٦٦ .

امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، وغيرُهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه اليه امرهم بنقله فنُقل . وقد قيل أن يوحنا بن ماسويه ممن نَفَذَ الى بلد الروم . واحضر المأمون ايضا حنين بن اسحق وكان فتيَّ السن ، وامره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى العربي واصلاح ما ينقله غيره فامتثل امرَه .

تلك بعض مجموعات الكتب اليونانية التي وردت الى بيت الحكمة ، وقد صُنِّفت هذه الكتب بحسب موضوعاتها واختير لها المترجمون ممن لهم خبرة علمية بالموضوع الذي يترجمون منه بالاضافة الى سيطرتهم على اللغتين اليونانية والعربية . ومن اشهر الذين اشتغلوا بترجمة هذه الكتب يوحنا بن ماسويه ، وحنين بن اسحق ، وابنه اسحق ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، وسعيد بن هارون ، وثابت بن قرة ، وعمر بن الفرَّخان .

وبيت الحكمة كان اول مكتبة عامة ذات شأن في العالم الاسلامي ، بل انه كان اول جامعة اسلامية اجتمع فيها العلماء والباحثون ، ولجأ اليها الطلاب ، فكان بذلك اول مركز علمي يحقق للطلاب زاداً علمياً وفيراً ، ويخرج لهم من جهد القائمين عليه ثقافة مختلفة الاتجاه تشمل علوم الطب والفلسفة والحكمة وغيرها .

وكان عهد المأمون هو أزهى عصور بيت الحكمة ، ولم يجد هذا المعهد بعد المأمون من يمنحه عناية المأمون ورعايته ، وكان اول ما قلل من شأنه ان يتولى المعتصم الخلافة بعد المأمون والمعتصم قليل المعرفة بالثقافة ، لا يجد

فيها لذة ولا يتذوق لها حلاوة ، فلم يرع بيت الحكمة كما كان يجب ، وانما اتجه الى جلب المماليك وتدريبهم والسرور ببطولتهم ، ثم هجر بسببهم بغداد الى سامرا فأصيب بيت الحكمة بصدمة اخرى نتيجة انتقال الخلفاء من بغداد وعدم رعايتهم لما في العاصمة الاولى من منشآت ، ثم تزاحمت الاحداث على بغداد وما فيها من مؤسسات وكثرت الحروب والفتن وكلها تنتقص من هذا المعهد وتقلل من شأنه وتخفت من صوته .

وليس معنى هذا أن بيت الحكمة قد اختفى او اندثر ، فلقد ظل يغالب الأحداث ، ويجاهد في سبيل البقاء ، ولكنه بقاء المكلوم الهزيل ؛ وفيما يلي نصوص ثلاثة عن حياته بعد المأمون .

ذكر ابن أبي أصيبعة [1] ان يوحنا بن ماسويه تقلد ترجمة الكتب اليونانية في بيت الحكمة ، وخدم هارون والأمين والمأمون وبقي على ذلك الى أيام المتوكل .

وذكر ابن النديم [2] انه (في النصف الأخير من القرن الرابع الهجري) نقل نموذجاً لكل من الخط الحميري والحبشي من هذه الخزانة .

وذكر القلقشندي [3] ان هذه الخزانة ظلت حتى دهمت التتر بغداد ، وقتل ملكهم هولاكو المستعصمَ آخر خلفاء العباسيين فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب ، وذهبت معالمها ، وأعفيت آثارها .

---

١) عيون الانباء ١ : ١٧٥ .
٢) الفهرست ص ٨ ، ٢٩ .
٣) صبح الأعشى ١ : ٤٦٦ .

٢ ـ المكتبة الحيدرية بالنجف : لا تزال هذه المكتبة موجودة حتى الوقت الحاضر ، وسميت الحيدرية نسبة الى حيدر وهو اسم الامام علي بن ابي طالب ، او قل أنه الاسم الذي يهتف به الملايين من الشيعة في المناسبات الدينية الشيعية المختلفة ، وقد زرتُ العراق سنة ١٩٥٠ وأمضيت بضعة أيام في كربلاء والنجف وغيرها من مراكز الشيعة ، وكان ذلك في أثناء الاحتفالات السنوية التي يقيمها الشيعة ، وقد رأيت الملايين من البشر يتدفقون الى هذه المراكز من الهند والباكستان وايران والعراق وغيرها وكانت كلمة حيدر تتصاعد بقوة واخلاص من ملايين الهاتفين والأتباع .

والمكتبة الحيدرية هي خزانة المشهد الشريف الذي به قبر امير المؤمنين الامام علي بن أبي طالب ويرجع تاريخها الى عهد بعيد ، وان كان التاريخ الدقيق لانشائها ليس معروفاً . وتبعية هذه المكتبة لهذا المشهد كانت السبب في ان كثيراً من الوزراء والأمراء وأعيان الشيعة اهتموا بها اهتماماً كبيراً ، وأهدوا اليها كل غال وعزيز ، ومن أشهر هؤلاء عضد الدولة البويهي المتوفى سنة ٣٧٢ هـ ، ثم كانت هذه التبعية سبباً في بقاء هذه المكتبة حتى العهد الحاضر اجلالا لصاحب الضريح وتقديراً لاسمه الكريم .

وقد زرت هذه المكتبة في اليوم الثاني من ديسمبر سنة ١٩٥٠ ، وفيما يلي أنقل بعض الملحوظات التي دونتها في أثناء هذه الزيارة :

تشغل المكتبة حجرة كبيرة من الحجرات التي تحيط بالضريح الشريف ، وليست المكتبة مفتوحة للجمهور في الوقت الحاضر ، كما لم تعد ذات اهمية للراغبين في الدرس والقراءة ، ويسمح للدخول فيها باذن خاص من المشرف

على الضريح ، ويدخلها عادة المؤرخون وهواة الاطلاع على الذخائر الفنية القديمة .

وليست للمكتبة فهارس في الوقت الحاضر ، والكتب موضوعة على أرففها من غير ترتيب ، وهي تحوي مجموعة من الكتب الفارسية والعربية لا نظير لها ، ولا تقدر بمال ، وأكثرها بخط المؤلفين ، او على الأقل يحوي خطوطهم ، أما المصاحف التي بها فهي تحف بديعة ، وهي من بين مجموعة الكتب أكثر نفاسة ، وأعظم روعة ، فلقد كتبت بخط جميل ، وجُلِّدت افخم تجليد ، وزينت وزخرفت اعظم زينة واجمل زخرفة ، وكثير منها كتبه مشاهير الخطاطين كياقوت المستعصمي ، واحمد التبريزي . اما المصحف الذي تنسب كتابته الى الامام علي فلا يوجد الآن في المكتبة وانما يوجد في الضريح نفسه .

وبجانب المصاحف توجد كتب كثيرة ذات قيمة ادبية عظيمة منها نسخة من الرسائل الشيرازية لأبي علي الفارسي ، وقد صححها المؤلف نفسه ، ومنها الجزء الاول من معجم الادباء لياقوت ، والتقريب لأبي حيان الأندلسي ، وكل منهما بخط مؤلفه ، والمعتبر من الحكمة لهبة الدين بن علي كتب سنة ٥٣٨ هـ هذا الى جانب نهج البردة المنسوب للامام علي والى جانب عدد ضخم من كتب الشيعة وبخاصة التي تبحث عن الامامة والوصاية .

٣ ـ مكتبة ابن سوار بالبصرة : أسس هذه المكتبة ابو علي بن سوار الكاتب ، وهو من رجال عضد الدولة ، وهذه المكتبة تهمنا هنا جداً

فقد كان التدريس فيها عنصراً هاماً بجوار الكتب : حدث المقدسي [1] في كلامه عن رام هرمز : ..... وبها دار كتب كالتي بالبصرة ، والداران جميعاً اتخذهما ابن سوار ، وفيهما إجراء على من قصدهما ولزم القراءة والنسخ ، الا ان خزانة البصرة أكبر ، وأعمر ، واكثر كتبا ، وفي هذه أبداً شيخ يُدرَس عليه الكلام على مذهب المعتزلة . وفي المقامة الثانية من مقامات الحريري وهي المسماة المقامة الحلوانية ذكرٌ لهذه المكتبة ، قال الحريري على لسان الحرث بن همام البصري : فلما أُبتُ من غربتي الى منبت شعبتي حضرت دار كتبها التي هي منتدى المتأدبين ، وملتقى القاطنين منهم والمتغربين ، فدخل ذو لحية كثة ، وهيئة رثة ، فسلم على الجلاس ، وجلس في أخريات الناس ، ثم أخذ يبدي ما في وطابه ويعجب الحاضرين بفصل خطابه [2] .

٤ ـ خزانة سابور : أنشأ هذه الخزانة ابو نصر سابور بن اردشير المتوفى سنة ٤١٦ وكان تأسيسها سنة ٣٨٣ هـ ، ويحكي ابن العماد [3] انه في هذه السنة ابتاع سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة داراً بالكرخ بين السورين ، وعمرها ، وسماها دار العلم ، ووقفها ونقل اليها كتبا كثيرة . ويذكر ياقوت [4] ان عدد الكتب كان عشرة آلاف واربعمائة مجلد من اصناف العلوم منها مائة مصحف بخطوط بني مقلة . ويضيف Margolioth ان معظم الكتب المودعة بهذه المكتبة كانت بخطوط مؤلفيها او عليها

---

١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٤١٣ .
٢) شرح مقامات الحريري ص ١٥ .
٣) شذرات الذهب ٣ : ١٠٤ .
٤) معجم البلدان ٢ : ٣٤٢ .

خطوطهم او خطوط الأفذاذ البارزين من الرجال ، وقد أمدّ سابور هذه المكتبة بوقف يُنْفقُ منه عليها [١] .

وكانت خزانة سابور مركزاً ثقافياً ممتازاً يلتقي فيه العلماء والباحثون للقراءة والدرس ، وطالما عقدت فيها المناظرات والمناقشات ، وكان ابو العلاء المعري الفيلسوف العظيم يتردد عليها دون انقطاع عندما كان في بغداد ، اذ كانت مكانه المختار [٢] .

وكان كثير من العلماء يوقفون نسخاً مما يملكون أو مما يؤلفون على دار العلم ، وقد فعل ذلك احمد بن علي بن خيران الكاتب المصري فقد أرسل جزءين من شعره ورسائله ليستشير في تخليدهما بدار العلم وأبدى استعداده ان يُنفِذ بقية الديوان والرسائل إن علم أن ما أنفذه منها ارتُضي واستُجيد [٣] . وكذلك فعل جبريل بن بختيشوع فأنه لما أتم مؤلّفه الذي سماه الكافي وقف منه نسخة على دار العلم ببغداد [٤] .

٥ ـ خزانة كتب الوقف بمسجد الزيدي : الزيدي هذا هو أبو الحسن علي بن أحمد المتوفى ببغداد سنة ٥٧٥ هـ . وكان شريف النسب ، معروفاً بالزهد ، أما قصة بناء الجامع وانشاء المكتبة فقد اقتطفها الاستاذ كوركيس عواد من مرآة الزمان لسبط بن الجوزي [٥] ، ومن مجلة

---

١) حياة ابي العلاء المعري في مطلع رسائله .
٢) انظر رسائل ابي العلاء المعري ص ٣٤ .
٣) ياقوت : معجم الادباء ١ : ٢٤٢ .
٤) ابن ابي أصيبعة ١ : ١٤٦ .
٥) ٨ : ٢٢٧ .

الحضارة [1] ، ولم يتح الاطلاع على هذين المرجعين ، فلأنقل عن الاستاذ عواد ما اقتبسه ، قال : كان عضد الدين محمد وزيراً للخليفة المستضيء بأمر الله ، ثم عزل عن الوزارة مرة ، ثم أعيد اليها ، فكتب الى الخليفة المذكور رقعة يقول فيها : اني نذرت إن عدت الى الوزارة بعثت الى الشريف الزيدي بألف دينار . فأرسل الخليفة اليه يقول : وأنا ايضاً احمل اليه ألف دينار . فحملت الدنانير الألفان اليه ، فلم يتصرف بها بل اشترى داراً بدرب دينار الصغير ، وبناها مسجداً واشترى بالباقي كتباً ووقفها في المسجد لينتفع الناس بها .... ثم وقف الزيدي كتبه قبل موته على الناس كافة وجعلها في هذا المسجد وشركه رفيقه صبيح بن عبدالله في وقف كتبه ايضاً وكانت كثيرة انتفع الناس بها [2] .

وتلقت هذه الخزانة منحتين أخريين من الكتب :

احداهما كانت من عمر بن محمد بن عبدالله الدمشقي وشهرته ابو الخطاب العليمي ، وكان تاجراً دمشقياً زار بغداد مرة واتصل بالزيدي فعاهده ان يوقف كتبه على خزانته ببغداد ، فلما توفي عمر أرسل أخوه الكتب الى بغداد ، فوصلت بعد وفاة الزيدي ، فتسلمها صبيح صديق الزيدي الذي كان مشرفاً على الخزانة ووضعها فيها [3] .

ثانيتهما : من ياقوت الحموي ؛ يقول ابن خلكان [4] وكان ياقوت قد وقف كتبه على مسجد الزيدي بدرب دينار ببغداد وسلمها الى الشيخ

---

١) العدد ٣٣ ص ٨ .
٢) خزائن الكتب القديمة في العراق ١٥٤ ـ ١٥٥ .
٣) عواد ١٥٥ ـ ١٥٦ بتصرف .
٤) الوفيات ٢ : ٣١٨ .

عز الدين أبي الحسن علي بن الأثير صاحب التاريخ الكبير فحملها الى هناك[1].

٦ ـ دار الحكمة بالقاهرة : افتتحت دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي بالقاهرة يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ ، وقد كانت الاستعدادات تُتَّخذ قبل ذلك بحزم ونشاط ، تمهيداً لافتتاح هذا المعهد العظيم ، الذي أريد به ان يمحو من الاذهان ما علق بها عن مجد بيت الحكمة ، الذي أنشأه هارون الرشيد ببغداد ، وسما به الى الذروة ابنه المأمون .

وقد شملت الاستعدادات إعداد البناء ، وتنظيمه ، ثم فرشت هذه الدار ، وزخرفت ، وعلّقت على جميع ابوابها وممراتها الستور ، ثم حملت الكتب اليها من خزائن القصور المعمورة ، وحصل فيها من خزائن امير المؤمنين الحاكم بامر الله من الكتب التي امر بحملها اليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ، ما لم يُرَ مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك ، وجُعل فيها ما يحتاج الناس اليه من الاقلام والورق والمحابر ، واقيم لها قوام وخدام وفراشون وغيرهم رُسِموا بخدمتها ، وجلس فيها القراء والفقهاء والمنجمون والنحاة واصحاب اللغة والاطباء ، واجري على من فيها من الخدام والفقهاء الارزاقُ السنية ، وابيح دخولها لسائر الناس فوفدوا اليها على اختلاف طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعلُّم[2] .

والى جانب هذا فقد أباح الحاكم المناظرة بين المترددين الى دار الحكمة ،

---

١) انظر كذلك ابن العماد : شذرات الذهب ٥ : ١٢٢ .

٢) الخطط للمقريزي ١ : ٤٥٨ ـ ٤٥٩ ، ٢ : ٣٤٢ بتقديم وتأخير .

فكانوا يعقدون المجتمعات هناك وتقوم المناظرات وقد يفضي الجدال الى الخصام [1].

وقد ظلت دار الحكمة مفتوحة الابواب حتى اوائل القرن السادس الهجري ، ثم اكتشف الملك الافضل ان جماعة يستفسدون عقول الناس يأوون اليها ويتخذون منها مكانا للدعاية لمذهبهم ، فأمر باغلاق دار الحكمة في الحال ، والقبض على زعيم هذه الجماعة واسمه بركات ، ولكن هذا اختفى فلم يستطع الملك الافضل ان يقبض عليه . ولما توفي الملك الافضل امر الخليفةُ الآمرُ باحكام الله وزيرَه المأمون بن البطائحي باتخاذ دار الحكمة وفتحها على الاوضاع الشرعية [2]. وقد ظلت دار الحكمة تؤدي عملها حتى استبدّ صلاح الدين بالامور . وضعف امر العاضد ، فهدم صلاح الدين دار الحكمة وبنى مكانها مدرسة للشافعية [3].

٧ ـ مكتبات المدارس : قلما خلت مدرسة من المدارس التي انتشرت في العراق وخراسان وسوريا ومصر من مكتبة تتبعها ، مزودة بمجموعة من الكتب ضخمةً او صغيرةً تبعا لمكانة المدرسة وللاوقاف عليها .

وقبل المدارس كانت هناك مجموعات من الكتب في المساجد ، فلما أنشأ نظام الملك مدارسه زوّد كلا منها بمكتبة قيمة ، وكانت نظامية بغداد أولى مدارس نظام الملك واشهرها ، فنالت مكتبتها عناية خاصة ، حتى اصبحت اعظم مكتبات المدارس المعاصرة لها .

---

١) التمدن الاسلامي ٣ : ٢١٠ .
٢) الخطط ١ : ٤٥٩ .
٣) ابن خلدون، العبر ٤ : ٧٩.

وقد حوت مكتبة المدرسة النظامية ببغداد كل نفيس ومفيد من الكتب والمخطوطات ، فقد ورد ان عبد السلام القزويني اهدى الى نظام الملك اربعة اشياء لم يكن لأحد مثلها ، منها غريب الحديث لابراهيم الحزمي بخط ابي عمر بن حيوية في عشر مجلدات ، فوقفه نظام الملك على طلاب المدرسة النظامية ببغداد [١] .

وقد ظلت هذه المدرسة موضع عناية الخلفاء والكبراء ، يحكي ابن الاثير ان الخليفة الناصر لدين الله امر في سنة ٥٨٩ بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ، ونقل اليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يوجد مثلها [٢] .

وفي النصف الاول من القرن السابع الهجري وقف محب الدين بن النجار صاحب ذيل تاريخ بغداد خزانتين من الكتب للنظامية وكانت هذه الكتب تساوي الف دينار [٣] .

وكان للمدرسة المستنصرية مكتبة غنية منظمة نقل اليها في يوم افتتاحها من الربعات [٤] الشريفة ، والكتب النفيسة ، المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ، ما حمله مائة وستون حملا [٥] وقد ذكر ابن عنبة [٦] ان عدد هذه الكتب كان ثمانين الف مجلد . وكان بين محتويات خزانة المدرسة

---

١) انظر السبكي : طبقات الشافعية ٣ : ٢٣٠ .
٢) ابن الأثير ١٢ : ٦٧ حوادث سنة ٥٨٩ .
٣) فوات الوفيات ٢ : ٢٦٤ .
٤) الربعات جمع ربعة : صندوق فيه أجزاء المصحف ـ مولد .
٥) الحوادث الجامعة ٥٤ .
٦) عمدة الطالب ص ١٩٥ .

المستنصرية نسخة من كتاب (الياسة) وهو يحوي القواعد والعقوبات التي قررها جنكيزخان وجعلها شريعة لقومه [١] كما كانت تحوي نسخة من كتاب تاريخ بغداد تقع في اربعة عشر جزءاً وكانت مكتوبة بخط المؤلف [٢] .

ولما أنشأ نور الدين زنكي المدارس بدمشق وقف فيها كتباً كثيرة على طلاب العلم [٣] . كما وقف مجموعة من الكتب الطبية على البيمارستان الكبير اذ كانت البيمارستانات ولا تزال مدارس لتعليم الطب [٤] .

وكان قطب الدين النيشابوري فقيه عصره ونسيج وحده ، فسُرَّ نور الدين به وشرع في انشاء مدرسة كبيرة للشافعية ، ليدرس بها قطب الدين ، ولكن الأجل أدرك الشيخ قبل تمامها ، وقد وقف قطب الدين كتبه على طلبة العلم ، ونُقلت بعد تمام هذه المدرسة اليها ويقول النعيمي : فما فاتها ثمرته اذ فاتها مباشرته [٥] .

ولما اسس القاضي الفاضل مدرسته بالقاهرة سنة ٥٨٠ هـ ، وقف عليها جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم ، يقال انها كانت مائة ألف مجلد [٦] .

ولما أنشأ الصاحب صفي الدين عبدالله بن علي مدرسته التي سميت المدرسة الصاحبية ، وقف بها خزانة كتب عامرة [٧] .

---

١) الخطط ٢ : ٢٢٠ .
٢) كشف الظنون ١ : ١٧١ .
٣) النعيمي ١ : ٦٠٨ .
٤) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ٢ : ١٥٥ .
٥) الدارس ١ : ٣٦٠ .
٦) الخطط ٢ : ٣٦٦ .
٧) الخطط ٢ : ٣٧١ .

ب - مكتبات بين العامة والخاصة

لم تكن هذه المكتبات عامة لان دخولها لم يكن مسموحا به لجميع طبقات الناس ، ولم تكن خاصة لان اصحابها لم ينشئوها لتكون لهم هم ، اذ كان ينقصهم الميل للاطلاع او الوقت الذي يمضونه في القراءة والدرس ؛ انها مكتبات أنشأها الخلفاء والملوك تقربا للعلم ، وتظاهراً على انهم من أهله ، وجعلوا دخولها مباحاً لطبقة خاصة من الناس يحددها المقدسي بقوله : لا يدخلها الا وجيه [١] . وكان دخول هذه المكتبات يحتاج الى اذن خاص ؛ يحكي Nicholson [٢] أن ابن سينا الفيلسوف المشهور سمح له ان يدخل مكتبة السامانيين ولكن بعد ان حصل على اذن بذلك .

وليس غريباً ان تكون هذه المكتبات غنية عظيمة ؛ لأنها كانت مملوكة للخلفاء والملوك ، وهؤلاء في أيديهم المال ، ولهم السلطان والنفوذ والعظمة ، مما استلزم ان تكون لهم مكتبات لا تُضارع ، ومجموعات من الكتب قليلة الوجود ، وفيما يلي نماذج قليلة لهذه المكتبات :

١ - مكتبة الناصر لدين الله : شخصية الناصر القوية وحكمه الطويل المديد (حكم من سنة ٥٧٥ الى سنة ٦٢٢) أتاحا للناصر أن يعيد مجد الخلافة ، ويسترد لها كثيراً من رونقها وبهائها وتقاليدها . وكان مما التفت له الناصر وأولاه عنايته أن رعى الناحية العلمية ، واستدعى هذا ان يكون له مكتبة ضخمة .

---

١) احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٤٤٩ .

٢) Literary History of the Arabs: p. p. 265 - 266.

ومن الممكن ان يتخيل الانسان ضخامة هذه المكتبة اذا لاحظنا ان جزءاً منها قد قُسِّم الى ثلاثة أقسام فكوّن ثلاث مكتبات كبيرة ذكر القفطي [1] في ترجمة ابي الرشيد مبشر بن احمد الحاسب انه تميز في ايام الناصر لدين الله ابي العباس احمد ، وقرب منه ، واعتُمد في اختيار الكتب التي وقفها بالرباط الخاتوني السلجوقي ، وبالمدرسة النظامية ، وبدار المسناة ، فانه أدخله الى خزائن الكتب بالدار الخليفية وأفرده لاختيارها .

وقد سبق لنا ان ذكرنا ان ابن الأثير تحدث عن نصيب المدرسة النظامية من هذه المجموعة بقوله : ان الناصر نقل اليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يوجد مثلها [2] .

٢ ـ مكتبة المستعصم بالله : المستعصم بالله هو آخر الخلفاء العباسيين (تولى الخلافةسنة ٦٤٠ هـ) وقتله المغول عقب سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وقد كانت له مكتبة عظيمة ، تحدثت عنها المراجع المختلفة حديثاً ينبيء عما كان لها من عظمة وجلال .

يقول ابن الفوطي [3] إن الخليفة أمر في سنة ٦٤١ بعمل خزانة للكتب في داره ، وكُتِب على جهاتها أشعارٌ منها ما نظمه صفي الدين عبدالله بن جميل متقدم شعراء الديوان :

أنشأ الخليفة للعلوم خزانة ... سارت بسيرة فضله أخبارُها
أهدى مناقبه لها مستعصمٌ ... بالله ، من لألائه أنوارُها

---

١) أخبار الحكماء ص ٢٦٩ .
٢) الكامل في التاريخ ١٢ : ٦٧ .
٣) الحوادث الجامعة ص ١٨٤ .

وقد سبق ذكر الخطاطين الشهيرين الشيخ زكي الدين وصفي الدين عبد المؤمن بن فاخر اللذين اختيرا للنسخ بمكتبة المستعصم [1] .

ويذكر ابن طباطبا [2] ان الخليفة المستعصم استجد في آخر ايامه خزانة كتب ، ونقل اليها نفائس الكتب ، وسلّم مفاتيحها الى عبد المؤمن بن فاخر ، فصار عبد المؤمن يجلس بباب الخزانة ينسخ له ما يريد ، وأذا خطر للخليفة الجلوس في خزانة الكتب جاء اليها ، وعدل عن الخزانة الأولى التي كانت مسلمة الى الشيخ صدر الدين علي بن التيّار .

ويؤخذ من كلام ابن طباطبا ان الخليفة كان كثير التردد والجلوس في خزانة الكتب هذه او تلك ، وقد اورد حكايات كثيرة تحمل هذا المعنى [3] .

ولكنه اضاف الى ذلك قوله « ان جلوسه بخزانة الكتب كان جلوسا ليس فيه كبير الفائدة [4] » ولكن ابن طباطبا كان حيا في هذه الفترة وكان مواليا للتتار ، وضلعه معهم ، يدعو لهم باليسر وعلو الشأن ، ثم ينحي باللائمة على الخليفة وصحبه ، ويصفهم بالضعف ، وقلة الخبرة ، فيما عدا الوزير ابن العلقمي الذي رضي عنه هولاكو بعد الفتح وسلّم له مقاليد الامور [5] . والذي يدرك هذا الموقف لابن طباطبا يتردد كثيراً في قبول حكمه على الخليفة ، وان جلوسه بخزانة الكتب كان جلوساً ليس فيه كبير فائدة .

---

١) فوات الوفيات ٢ : ١٨ .
٢) الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٩٥ .
٣) انظر الفخري ٢٩٤ ـ ٢٩٦ .
٤) انظر الفخري ص ٢٩٥ .
٥) انظر الصفحات الاخيرة من الفخري .

٣ ـ مكتبة الخلفاء الفاطميين : يذكر ابن الاثير [١] ان المهدي حمل معه وهو ذاهب من سلمية الى سجلماسة ، جميع الكتب والوثائق التي كانت لآبائه ، ولكنها سرقت منه وهو في طريقه في مكان يقال له الطاحونة بالقرب من طرابلس ، ولكن أبا القاسم بن المهدي استطاع ان يستعيد هذه الوثائق حال مسيره لغزو مصر للمرة الاولى سنة ٣٠٠ هـ .

ومن المحتمل بل من المتوقع ان هذه الكتب وتلك الوثائق كانت ضمن المتاع الذي احضره المعز لدين الله معه من شمال افريقية الى القاهرة عندما تم له فتح مصر ، فاذا كان هذا صحيحاً فان هذه الكتب وتلك الوثائق كانت النواة لمكتبة الفاطميين الكبرى التي أنشئوها بالقاهرة .

ولم يكن الفاطميون عسكريين قنعوا بفتح مصر وتسلطهم على امورها ، بل كانوا ينافسون خلفاء بغداد ، ويريدون ان تكون لهم السيادة على العالم الاسلامي كله ، ومن اجل هذا انشئوا من المؤسسات ما يضمن لهم علو الصيت وحسن السمعة ، وكانت المكتبة دعامة من هذه الدعائم .

وقد اتجه الفاطميون اتجاهاً غريباً في تكوين مكتبتهم ؛ فقد كانوا يحرصون على ان يجمعوا بها جميع النسخ الموجودة من بعض الكتب حتى تكون مكتبتهم المكان الوحيد الذي يوجد به هذا الكتاب او ذاك ، فاذا جمعوا مئات النسخ من كتاب ما ثم ظهر لهم انه لا تزال هناك نسخة منه بعيدة عن مكتبتهم ، اظهروا استعدادهم لان يدفعوا فيها ثمنا باهظا مهما بولغ فيه ليصلوا بذلك الى هدفهم . وفيما يتعلق بالقرآن الكريم فانهم كانوا

---

١) الكامل في التاريخ ٨ : ٢٩ .

حريصين على ان يجمعوا بمكتبتهم جميع النسخ الفخمة او التي كتبها مشاهير الخطاطين . وهذا يفسر لنا لماذا كان بهذه المكتبة عشرات او مئات النسخ من المصاحف او من كتاب معين ، وعلى هذا فاننا نقرأ ان هذه المكتبة كان بها :

٢٤٠٠ مصحف في ربعات (سبق تفسير كلمة ربعات) بخطوط منسوبة زائدة الحسن محلاة بذهب وفضة وغيرهما .

١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبري منها نسخة بخط المؤلف .

١٠٠ نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد .

نيف وثلاثون نسخة من كتاب العين منها نسخة بخط مؤلفه الخليل ابن احمد [١] . اما المجموع العام لكتب المكتبة فيبدو انه وصل الى رقم خيالي ، ويروي ابو شامة [٢] انه سمع ان هذه المكتبة كان بها ٢،٠٠٠،٠٠٠ كتاب ، وقد ذكر المقريزي عدة روايات ولكنه يميل الى ان العدد كان ١،٦٠٠،٠٠٠ كتاب [٣] .

ويذكر المقريزي ايضاً [٤] ان هذه الكتب كانت في موضوعات متعددة فمنها الفقه على سائر المذاهب ، والنحو واللغة ، وكتب الحديث ، والتواريخ وسير الملوك ، والنجامة والروحانيات ، والكيمياء . ويتفق ابو شامة

---

١) الخطط ١ : ٤٠٨ ، الروضتين ١ : ٢٠٠ ، وقد ذكر أبو شامة في الروضتين أن الخزانة حوت من تاريخ الطبري ١٢٢٠ نسخة .
٢) الروضتين ١ : ٢٠٠ .
٣) الخطط ١ : ٤٠٩ .
٤) المرجع السابق الصفحة نفسها .

والمقريزي [1] على ان هذه المكتبة كانت من عجائب الدنيا ، وانه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب اعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر .

وقد ظلت هذه المكتبة محتفظة برونقها وجلالها حتى اشتعلت الحرب الداخلية في عهد المستنصر ، وفي هذه الأثناء قام الأتراك الغوغاء بالسلب والنهب في العاصمة ، واعتدوا على دار الخليفة فهدموا ما بها من نماذج الفن الرائع ، ثم عرجوا على المكتبة فاعتدوا على هذا التراث الجليل من العلم والمعرفة ، ومن المؤلم حقاً أن تستعمل المخطوطات الثمينة والكتب النادرة لتشعل سجائر هؤلاء البرابرة ، وأن يقوم عبيدهم واماؤهم بأن يتخذوا من جلودها نعالاً يلبسونها في ارجلهم ، وقد أُلقي عدد كبير من الكتب في النيل ، وحرق عدد وافر منها ، وحمل بعضها الى سائر الأقطار ، وبقي منها ما سفت عليه الرياحُ التراب فصار تلالاً تعرف بتلال الكتب ، وقد حرص البرابرة الأتراك ان يقضوا على هذه الكتب لاعتقادهم ان فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم [2] .

ويعلم الله أنه ما كان لهم علم بكلام المشارقة ، ولا بكلام المغاربة ، ولا بأي لون من ألوان العلوم ، وانما هو الجهل والهمجية دفعا هؤلاء الغوغاء ان يرتكبوا هذه الجريمة العظمى ، وان يطعنوا المدنية الاسلامية بالقضاء على أشرف مقوماتها .

وعندما تسلم بدر الجماعي مقاليد مصر جدَّ في ان يجمع من كتب

---

١) الروضتين ١ : ٢٠٠ والخطط ١ : ٤٠٩ .

٢) الخطط ١ : ٤٠٩ وانظر كذلك :
Stanley Lane - Poole : History of Egypt 149.

هذه المكتبة ما سلم من الحرق والغرق ، فاستعاد ما استطاع ان يستعيده من الأقطار ، واسترد ما كان منها في حوزة بعض الناس ، و بهذا استطاع ان يعيد للمكتبة شيئاً من مكانتها ، وقد ظلت هذه المجموعة بالقصر الفاطمي الى ان سقطت الدولة الفاطمية وخلفتها الدولة الايوبية وحينئذ تقدم صلاح الدين البطل الاسلامي العظيم فقضى على هده المكتبة ؛ أفنى منها ما تعارض مع مذهب اهل السنة وأهدى جملة كبيرة منها الى القاضي الفاضل وعماد الدين الاصفهاني وكلف ابن صورة دلال الكتب ان يبيع الباقي ، فاستغرق ذلك منه عدة اعوام [1] وطالما ذكرنا وذكر المؤرخون صلاح الدين بالخير والتقدير والاجلال ، ولكن المنصف لا يستطيع هنا الا ان يلومه متسائلاً : لماذا وقف صلاح الدين من الكتب هذا الموقف و بخاصة بالنسبة لما لم يتعارض منها مع مذهب أهل السنة ؟

وقبل ان ينتهي الكلام عن المكتبات التي بين الخاصة والعامة تحسن الاشارة الى حقيقة هامة وهي ان هذا النوع من المكتبات كثيراً ما حول الى مكتبات عامة كما حصل في مكتبة الناصر وفي مكتبة الفاطميين التي نقل جزء كبير منها الى مكتبة دار العلم على ما سبق تفصيله .

حـ – مكتبات خاصة

هذه المكتبات انشأها العلماء والادباء لاستعمالهم الخاص ، وهذا النوع من المكتبات كان كثيراً جداً وواسع الانتشار ، اذ كان من الصعب ان

---

١) الروضتين ١ : ٢٦٧ الخطط ١ : ٤٠٩ .

تجد عالماً او اديباً دون ان يكوّن له مكتبة يرجع اليها في دراسته واطلاعه ، وسنختار هنا عدداً قليلاً من هذه المكتبات لنتحدث عن كل منها حديثاً قصيراً :

١ ـ مكتبة الفتح بن خاقان : الفتح بن خاقان هو وزير المتوكل العباسي وقد قتل معه في سامرّا سنة ٢٤٧ هـ ، وقد كان الفتح عالماً واسع الاطلاع مولعاً بالقراءة ، حتى قيل انه كان يحضر لمجالسة المتوكل فاذا اراد ان يقوم الى المتوضأ اخرج كتاباً فلا يزال يطالعه في ممره وعوده فاذا وصل الى الحضرة الخليفية أعاده حيث كان [١] .

ومن الطبيعي ان توجد مكتبة ضخمة لرجل كهذا توَفرّ له المال والرغبة في الاطلاع ، وقد عهد بجمعها الى رجل من خيرة رجال العصر علماً وأدباً ، ذلك هو علي بن يحيى بن ابي منصور المنجم يقول ابن النديم [٢] ان المنجم اتصل بالفتح بن خاقان ، وعمل له خزانة حكمة ، نقل اليها من مكتبته ومما استكتبه الفتح ، اكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط .

اما الكتب التي استكتبها الفتح فقد كانت كثيرة ، كتبها له نوابغ الرجال في ذلك الوقت ، وفي مقدمتهم الجاحظ الذي استجاب لرغبة الفتح ، فألف له كتابي « التاج في اخلاق الملوك » و « مناقب الاتراك وعامة جند الخلافة » كما ألف له محمد بن الحارث التغلبي ومحمد بن حبيب كتباً اخرى ضاعت اصولها فلم تصل الى ايدينا ، وقد حق لابن النديم ان يصف هذه الخزانة بانها لم يُرَ اعظم منها كثرة وحسنا [٣] .

---

١) ابن طباطبا . الفخري ص ٣ .
٢) الفهرست ص ٢٠٥ .
٣) المصدر نفسه ص ١٦٩ .

٢ ـ مكتبة حنين بن اسحق ٢٦٤ هـ : كان حنين بن اسحق أبرز الاطباء والمترجمين في عهد المأمون ، وكان اعلم زمانه باللغة اليونانية والسريانية والفارسية الى حد لم يصل اليه احد من النقلة الذين كانوا في زمانه ، مع براعته ايضاً في اللغة العربية ، ومداومة الاشتغال بها حتى صار من جملة المتميزين [١] فيها . ويضيف القفطي [٢] قوله : وكان حنين فصيحاً لسناً بارعاً شاعراً وكان شيخه في العربية الخليل بن احمد . وقد نقل حنين كتباً كثيرة الى اللغة العربية وكان جل اهتمامه بكتب الحكمة والطب . ولهذا تتميز مكتبته الضخمة بثروة وافرة في كتب الطب ، و بعدد غزير من الكتب المكتوبة باللغات الاربع التي كان يجيدها ، وكان حنين من هواة الكتب ، وقد حكى عن نفسه انه سافر الى بلاد كثيرة ، ووصل الى أقصى بلاد الروم لطلب الكتب [٣] ، وقد عدد ابن النديم [٤] جملة كبيرة جداً من الكتب ذكر أنها من مؤلفات حنين ، وهذه الكتب وحدها تكوِّن مكتبة عظيمة ، فما بالك اذا أضيفت لها المراجع التي اعتمد عليها حنين في اخراج هذه الكتب .

٣ ـ مكتبة ابن الخشاب ٥٦٧ هـ : عبد الله بن احمد الخشاب البغدادي كان من اعلم الناس بكلام العرب ، واعرفهم بعلوم شتى من النحو واللغة والتفسير والحديث والنسب ، وله المؤلفات العزيزة ، والكتب المفيدة ، والفكر

---

١) بن ابي اصيبعة ١ : ١٨٦ .
٢) اخبار الحكماء ص ١٧٤ .
٣) ابن ابي اصيبعة ١٨٧ .
٤) ص ٤١٠ ابن النديم .

الجيدة ، واذا كتب كتاباً بخطه يشترى بالمئين ، ويتنافس عليه المتنافسون [1] .

وكان الخشاب ثقة في الحديث صدوقاً نبيلاً حجةً . الا انه لم يكن في دينه كذلك ، جمع كتباً كثيرة جداً ولكنه لم يكن يتحرى الطريق المستقيم في جمعها ، فقد امتلك حبُّ الكتب عليه نفسَه وشُغف بها وبجمعها ، ثم كان في الوقت نفسه بخيلاً ، لا يحب ان يدفع الكثير من المال ثمناً لها ، وعلى هذا تنكب سواء السبيل ، وكان يحتال لجمعها فاذا استعار من احد كتاباً وطالبه به قال : دخل بيت الكتب فلا أقدر عليه ، واذا حضر سوق الكتب ، واراد شراء كتاب غافل الناس وقطع منه ورقة وقال : انه مقطوع لينصرف الناس عنه ، فيأخذه بثمن بخس . وفي خاتمة حياته وقف كتبه على اهل العلم [2] .

٤ ـ مكتبة الموفق بن المطران (٥٨٧ هـ) : كان موفق الدين بن المطران الدمشقي حاد الذهن ، فصيح اللسان ، كثير الاشتغال ، وله تصانيف تدل على فضله ونبله في صناعة الطب ، خدم بطبه الملك الناصر صلاح الدين ، وحظي في أيامه ، وكان رفيع المنزلة عنده ، عظيم الجاه [3] ، وكانت له همة عالية في تحصيل الكتب حتى إنه مات وفي خزانته من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجاً عما استنسخه ، وكانت له عناية بالغة في استنساخ الكتب وتحريرها ، وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له ابداً ولهم منه الجامكية والجراية . . . . وكتب

---

١) هامش معجم الادباء لياقوت طبعة فريد رفاعي ١٢ : ٤٩ .
٢) ياقوت : معجم الادباء ٤ : ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .
٣) ابن أبي أصيبعة ٢ : ١٧٥ .

ابن المطران ايضاً بخطه كتباً كثيرة وقد رأى ابن ابي اصيبعة عدة منها ويقول انها كانت في نهاية حسن الخط والصحة والاعراب ، وكان ابن المطران كثير المطالعة للكتب لا يفتر من ذلك في اكثر اوقاته ، واكثر الكتب التي كانت عنده توجد وقد صححها وأتقن تحريرها وعليها خطه بذلك ..... وكان كريم النفس طالما وهب لتلامذته الكتب تشجيعاً لهم ، وكان عنده ألوف من المجلدات الصغيرة فكان أبدا لا يفارق في كمه مجلداً يطالعه على باب دار السلطان او اين توجه [١] .

٥ ـ مكتبة جمال الدين القفطي : هو الوزير القاضي جمال الدين ابو الحسن ولد بمصر وأقام بحلب ، وكان يجيد علوم اللغة والنحو ، والفقه والحديث ، وعلوم القرآن والاصول ، والمنطق والنجوم ، والهندسة والتاريخ ، توفي سنة ٦٤٦ هـ جمع من الكتب ما لا يوصف وقُصد بها من الآفاق طمعاً في سخائه وكرمه ، وكان لا يحب من الدنيا سواها ، فأوقف عليها نفسه ورفض ان يتزوج حتى لا يشغله الاهل والاولاد عنها ، وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب ، وكانت تساوي خمسين ألف دينار وله حكايات غريبة في غرامه بالكتب [٢] .

٦ ـ مكتبة المبشر بن فاتك (توفي في نهاية القرن الخامس) : هو الامير ابو الوفاء المبشر بن فاتك ، من اعيان امراء مصر ، وأفاضل علمائها ، أجاد علوم الهيئة ، والعلوم الرياضية والحكمية ، واشتغل ايضاً بصناعة الطب ،

---

١) ابن ابي اصيبعة ٢ : ١٧٨ ـ ١٧٩ .
٢) الكتبي : فوات الوفيات ٢ : ٩٧ خطط الشام ٦ : ١٩٣ .
Islamic Culture, III 1929, P. 217.

ولازم لذلك علي بن رضوان . وكان المبشر كثير الكتابة ، ويقول ابن ابي أصيبعة انه وجد بخطه كتباً كثيرة من تصانيف المتقدمين ، وكان المبشر ابن فاتك قد اقتنى كتباً كثيرة جداً ، وبعضها يوجد وقد تغيرت ألوان اوراقه بسبب غرق أصابه [1] . ويحدث الشيخ سديد الدين المنطقي عن سبب هذا الغرق فيقول : كان الامير بن فاتك محباً لتحصيل العلوم ، وكانت له خزانة كتب ، فكان في اكثر اوقاته يجلس فيها ولا يفارقها ، وليس له دأب الا المطالعة والكتابة ، وكانت له زوجة فاضلة ولكن داخلتها الغيرة من الكتب ، فلما توفي نهضت هي وجواريها الى خزائن كتبه وفي قلبها من الكتب لوعة ، لانه كان يشتغل بها عنها فجعلت تندبه ، وفي أثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار هي وجواريها ، ثم أخرجت الكتب بعد ذلك من الماء وقد غرق أكثرها فهذا هو سبب تغير ألوان ورقها [2] .

٧ ـ مكتبة افرائيم الزفان (حوالى سنة ٥٠٠ هـ) من أطباء مصر المشهورين ، خدم الخلفاء ونال منهم أحسن العطايا ، قرأ صناعة الطب على ابي الحسن علي بن رضوان فكان من أجلّ تلامذته ، وكانت له همة عالية في تحصيل الكتب وفي استنساخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها ونقل ابن ابي أصيبعة [3] عن ابيه ان رجلاً من العراق كان قد أتى الى الديار المصرية ليشتري كتباً ويتوجه بها ، وانه

---

١) ابن ابي أصيبعة ٢ : ٩٨ ـ ٩٩ .
٢) ابن ابي أصيبعة ٢ : ٩٩ .
٣) المصدر نفسه ٢ : ١٠٥ .

اجتمع مع افرائيم واتفق الحال فيما بينهما ان باعه افرائيم من الكتب التي عنده عشرة آلاف مجلد ، وكان ذلك في أيام ولاية الأفضل ابن أمير الجيوش ، فلما سمع ذلك أراد ان تبقى تلك الكتب في الديار المصرية ولا تنتقل الى موضع آخر ، فبعث الى افرائيم من عنده بجملة المال الذي كان قد اتفق عليه بين افرائيم والعراقي ، ونقلت الكتب الى خزانة الأفضل وكُتبت عليها ألقابه وقد رأى ابن ابي أصيبعة كتباً كثيرة من هذه المجموعة وقد كتب عليها اسم افرائيم وألقاب الأفضل . وخلف افرائيم من الكتب ما يزيد على عشرين الف مجلد [1] .

٨ ـ مكتبة عماد الدين الاصفهاني : يروي ابو شامة عن عماد الدين الاصفهاني انه قال كان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان ، وهي تباع بأرخص الأثمان ، وقد كانت في القصر مرتبة البيوت ، مقسّمة الرفوف ، مفهرسة ، فأراد دلالو الكتب ان يشتروها بثمن بخس ، فخدعوا بهاء الدين قراقوش متولي القصر المشرف على البيع وأشاروا عليه باخراج الكتب من الرفوف للتهوية والنفض فاستجاب ، وتسبب عن ذلك ان اختلطت واضطربت فأصبحت تجد كتب الطب مع كتب التفسير ، كما توزعت أجزاء المؤلف الواحد فلا تكاد تعثر عليها جميعاً ، وقد تسبب عن هذا ان أصبحت تسام بالدون وتباع بالهون ، والدلالون يجمعونها ويرتبونها في الخارج ، ويواصل عماد الدين كلامه قائلاً : فلما رأيت الأمر حضرت القصر ، واشتريت كما اشتروا ، فلما عرف السلطان ما ابتعته وكان بمئين

---

١) ابن ابي أصيبعة ٢ : ١٠٥ .

أنعم علي بها وأبرأ ذمتي من ذهبها ، ثم وهب لي ايضاً من خزانة القصر ما اخترت من كتبها ، ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلدات كثيرة انتُقيتْ له من القصر وهو ينظر في بعضها ويبسط يدي لقبضها وكنت طلبت كتباً عينتها فقال : وهل في هذه شيء منها فقلت : كلها . فوهبها لي فأخرجتها من عنده بحمال [1] .

وهكذا تكونت مكتبة عظيمة لعماد الدين الاصفهاني من هذه الهبات السخية بالاضافة الى ما كان عنده من كتب ووثائق .

---

١) الروضتين ١ : ٢٦٨ .

الفصل الثالث

المدرسون

مقدمـــة

١ ـ من الملاحظ انه لم يكن هناك في العصور الوسطى حد فاصل بين العلماء المدرسين والعلماء الذين لم يتخذوا التدريس مهنـة لهم ؛ اذ كان الجميع يعملون بأجرٍ او تطوعا لتثقيف النـاس وتعليمهم ، امّـا عن طريق حلقات تعليمية ، او بتأليف الـكتب ونشرها ، وعلى هذا فستشمل دراستنا في هذا الفصل الصنفين جميعاً دون ان نقصر حديثنا على اولئك الذين اتخذوا التدريس مهنة وصناعة . والذي حدا بنـا الى هذا هو اعتقادنا ان الجاحظ مثلا كان معلم جيله والأجيال التالية مع انه لم يتخذ التدريس مهنة له فقد روي عنه انه قال : ذُكِرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني [١] ومـا الجاحظ الا مثال لـكثيرين غيره ممن كانوا معلمين وان لم يتحلق حولهم الطلاب .

٢ ـ عُني المسلمون بتلقي العلم عن المدرسين عناية ملحوظة ، وكرهوا كراهة شديدة ان يتلقى الطالب العلم عن الـكتب وحدها ، وكان بعضهم يقول : من اعظم البلية تشييخ الصحيفة اي ان يتعلم الناس من الصحف [٢] وورد في كتاب الشكوى [٣] « من لا شيخ له فلا دين له ، ومن لم يكن له استاذ فامامه الشيطان » وروي عن مصعب بن الزبير انه قال : ان الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون ويحفظون أحسن ما يكتبون ويكتبون

---

١) ابن خاكان ١ : ٥٥٣ .
٢) ابن جماعة ص ٨٧ .
٣) كتاب لم يعرف مؤلفه نشر في : Journal Asiatique 1940, P. P. 284 -285.

احسن ما يسمعون ، فاذا اخذت الادب فخذه من أفواه الرجال فانك لا تسمع الا مختاراً ولؤلؤاً منثوراً [١] وروي عن الامام الشافعي قوله : من تفقه من بطون الكتب ضيع الاحكام [٢] . وفي رسائل اخوان الصفا [٣] انه ليس في وسع كل انسان معرفة العلوم في اول مرتباته ، ومن اجل هذا يحتاج كل انسان الى معلم او مؤدب او استاذ في تعلّمه وتخلّقه واقاويله واعتقاده واعماله وصنائعه .

ولا يكتفي ابن جماعة بان ينصح الطالب بتلقي العلم عن مدرس ، بل يزيد على ذلك بان ينصح الطالب ان يختار مدرساً يكون له مع من يوثق به من مشايخ عصره كثرةُ بحثٍ وطول اجتماع لا ممن اخذ من بطون الاوراق ، ولم يعرف بصحبة المشايخ الحُذّاق [٤] .

٣ ـ من مفاخر المسلمين أنهم أدركوا ان العلم وحده لا يكفي ليكون سلاح المعلّم ، وعرفوا ان لا بدّ من ان يضاف الى العلم فن التربية ، ليتمكن المدرس من دراسة نفسية الطفل ، والنزول الى مستواه ، والاتصال العاطفي به ، ليكون ذلك جسراً يوصل خلاله العلم الى عقل التلميذ . قال ابن عبدون [٥] : والتعليم صناعة تحتاج الى معرفة ودربة ولطف ؛ فانه كالرياضة للمهر الصعب الذي يحتاج الى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ويقبل التعليم . وقد عقد ابن خلدون [٦] فصلاً شرح فيه هذه النظرية

١) محي الدين بن العربي : محاضرات الأبرار ص ٣ .
٢) تذكرة السامع ص ٨٧ .
٣) ج ٤ ص ١٨ .
٤) تذكرة السامع ص ٨٧ .
٥) رسالة ابن عبدون ص ٢١٥ نشرت في المجلة الأسيوية سنة ١٩٣٤.
٦) المقدمة ٣٠٢ ـ ٣٠٤ بتصرف .

وجعل عنوانه « فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع » وهو يقول فيه : « مما يدلُّ على ان تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه ؛ فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأنَ الصنائع كلها ، فدل على ان ذلك الاصطلاح ليس من العلم والا لكان واحداً عند جميعهم . . . . . وملازمة المجالس العلمية ، وكثرة الحفظ ، والعناية بتحصيل العلم ليست جميعها بمانحةٍ ملكة التصرف في العلم وتعليمه . . . . . ومن اهم ما يلزم في المعلم فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة ، والعمل على تحصيل الملكة التي هي صناعة التعليم . »

٤ ـ تحدث المسلمون ايضاً عن علاقة البيت بالمدرسة ، وأهمية الدور الذي يلعبه البيت ليترتب على ذلك نجاح الطالب ، وقد ورد في كتاب الارشاد والتعليم حديث طويل عن ذلك الموضوع ومنه نقتبس الفقرة التالية : والطفل صورة عائلته ؛ فكل ما فيها من خير او شر ، وكل ما سمعه ورآه ينطبع فيه ، ولهذا كان جهد الأمهات من أهم الأمور في تربية الأبناء ، ومن ربّى ماله ولم يربِّ ولده فقد ضيع الولد والثروة [١] ، وتربية الفضائل لا يمكن ان تكتسب في المدارس بل تجب ممارستها مع الطفل من يوم يعي الخطاب ويفهم الكلام ، وأول من يُطلَب منهم القيام بهذه الوظيفة هم طبعاً الذين يعاشرون الطفل من نشأته معاشرة مستمرة ، والذين يؤثّرون عليه باعمالهم واقوالهم وسلوكهم ، ثم اذا أضفنا ما تحتاجه هذه التربية من العناء والصبر ، والعقل والحنو والمحبة الخالصة حكمنا بانها لا تتم الا بواسطة

---

١) كتاب الارشاد والتعليم ٥٤١ ـ ٥٤٢ .

من أنتجتهم الفطرة الآلهية لهذه المأمورية العالية وهم الوالدان [1] .

وقد عبر الزرنوجي [2] أدق تعبير وأوجزه عن العلاقة التي يجب ان تقوم بين البيت والمدرسة بقوله : يُحتاج في التعلم الى جدِّ الثلاثة : المتعلم والاستاذ والأب .

العلاقة بين الحكومات والمدرسين

جاء الرسول بالدين الحنيف فبدأ يدعو قومه اليه ، ويعلم من استجاب منهم مبادىء الدين الجديد ، وقد كان الرسول زعيماً سياسياً ورائداً دينياً في نفس الوقت ، ولهذا باشر الأمرين جميعاً بكفاءة ونجاح ، ولما صعدت روحه للرفيق الاعلى قام الخلفاء الراشدون مقامه الواحد بعد الآخر ، وكانت لهم القدرة على تحمل هذه التبعات الجسام ؛ فكان الواحد منهم يدبر امور الدولة ، ويرسل الجيوش ، ثم في الوقت نفسه يفتي الناس ويعلمهم امور الدين .

وفي هذه الاثناء اتسعت رقعة الدولة وسار الدين الجديد من بلد الى بلد ، ومن مملكة الى اخرى ، وبدأ أناس في هذه البقاع النائية يعتنقون الاسلام ويستجيبون لداعي الله ، ومن ثم اصبح غير متيسر على الرسول او على خليفته بالعاصمة ان يعلم الناس امور الدين وان يهديهم بهدْي القرآن لبعد الشقة وطول المسافة ، فتحولت مسئولية هذا العمل الى العلماء ، وقد بدأ الرسول نفسه هذه السُّنَّة ؛ فانه حين عودته من مكة بعد فتحها ترك فيها معاذاً ليعلم المسلمين الجدد قواعد الدين الجديد .

---

١) كتاب الارشاد والتعليم ٥٤٢ ـ ٥٤٣ .

٢) تعليم المتعلم ص ١٥ .

ولما انتشرت الفتوحات في عهد عمر ارسل أفراداً من علماء الصحابة الى المدن المختلفة للقيام بنفس المهمة، وكان من هؤلاء عبد الله بن مسعود الذي ذهب الى الكوفة، وابو موسى الاشعري الذي قصد البصرة.

ثم اصبح الفقهاء من المسلمين يصحبون الجيش الاسلامي أنّى يسير، فصار جيش المسلمين كما يصفه Professor Gibb [1] «ليس مجرد معسكر حربي، وانما كان مع ذلك مركزاً تنبعث منه الدعوة للدين الجديد.»

ولما قامت الدولة الاموية اصبح الخلفاء حكاماً سياسيين فقط، ولم تكن لهم ثقافة دينية واسعة تجعلهم أكفاء للإفتاء وتعليم الناس، ومن هنا انتقلت الى العلماء هذه المسئولية حتى في العاصمة وحملوا هم عبء التعليم والارشاد.

الا ان هؤلاء المعلمين لم يكونوا معينين من قبل الدولة للقيام بهذا العمل، وانما كانوا يؤدونه طلباً للثواب من الله كما كان الرسول يفعل من قبل؛ وكان كثير منهم يسعون من تلقاء انفسهم الى هنا وهناك حيث يجلسون لتثقيف الناس وتعليمهم؛ واتخذ هؤلاء من المسجد مكانهم المختار فكانوا يجلسون فيه ويلتف حولهم الناس فيأخذون من علمهم ويستفيدون من ثقافتهم.

وكانت المساجد بدَوْرها مفتوحة، يقصدها من يأنس في نفسه الكفاءة لتعليم الناس، ولم يكن على المدرس بطبيعة الحال ان يعلِّم موضوعاً بذاته، بل كان يعظ الناس بما يعرف ويفتيهم ما استطاع الى ذلك سبيلاً، وقد

---

(١) Muhammadanism P. P. 4 - 5.

ظل العلماء يقصدون المساجد ليؤدوا هـذا العمل دون انتظار من يحثهم على الذهاب ، وظل الناس يلتفون حولهم و يأخذون عنهم ، من غير ان تتدخل الحكومات في ذلك ، فقد كان هذا العمل غير داخل في دائرة سلطانها ؛ فما دام المعلم غـير معيَّن منها ، وما دام لا يتقاضى من الدولة على عمله أجراً ، فقد ترك له ان يدرس ما شاء وقتما شاء .

وقـد بدأ تدخل الحكومات في التعليم عندما اقترح القائمون بالأمر موضوعاً معيَّناً ليدرس ، او عندما شَيَّدت الحكومات معاهـد تعليمية فعينت لهـا المدرسين ونظمت لهم الاجور ، و بهذا أو ذاك بـدأ تدخل الحكومات في التعليم .

وكانت القصص اول موضوع اقترحته حكومة اسلامية واحتضنته [1] ، ويحكي المقريزي في ذلك ان علياً صلى بالناس مرة فقنت ودعـا على قوم من اهل حربه ، فلما بلغ ذلك معاوية امر قصَّاصاً ليجلس للناس بعد صلاة الفجر و بين صلاتي المغرب والعشاء ليدعو له ولاهل الشام بواسطة القصص . وكان معاوية يقصد بذلك ان يستثير شعور السوريين ، ويحرك عواطفهم ، ويزكي حماستهم ضد اولئك الذين تهاونوا في الدفاع عن عثمان ، والذين هجموا عليـه وقتلوه ، ثم اولئك الذين لم يجدُّوا في القبض على قتلته ، والمطالبة بثأره .

و بدأ القصص بمصر منذ سنة ٣٨ هـ وكان توبة الحضرمي وأبو اسماعيل بن نعيم وابو رجب بن عاصم بين من عينوا قصاصاً بجامع عمرو ،

---

١) الخطط ٢ : ٢٥٣ .

وكان مرتب الأخير عشرة دنانير في الشهر [1] .

ذلك كان مطلع تدخل الحكومات في شؤون التعليم ، ثم سار التدخل قُدُماً ، وأصبح أبرز وأوضح عندما ظهرت المؤسسات التعليمية التي شيدتها الدولة :

فعندما شيد العباسيون بيت الحكمة في بغداد وعينوا له جلة العلماء للترجمة والنسخ والاشراف ورتبوا لهم المرتبات والأجور السخية ، عند ذلك أصبح للخلفاء كامل الحق في السيطرة على بيت الحكمة وتوجيه أموره على حسب ما يريدون .

واتضح تدخل الدولة اتضاحاً سافراً في المؤسسات التعليمية التي انشأها الفاطميون في القاهرة ؛ اذ عينوا اتجاهاً دينياً خاصاً ليكون موضوع الدراسة ، ورتبوا خيرة رجالهم للاشراف على هذا التوجيه ، ولبثّ الدعوة لمذهب الدولة الحاكمة ، وسنورد فيما بعد الوثيقة التي عُيِّن بها داعي الدعاة في عهد الحاكم والتي يتضح منها كيف ان الدولة رسمت له عمله ، واوضحت له المنهاج الذي يسير عليه .

وانشأ نظام الملك عدة مدارس في العالم الاسلامي سميت باسمه ، ورتب فيها المدرسين والعلماء بأجور سخية منتظمة ، ورسم لهم ان يكافحوا المذهب الشيعي الذي كان منتشراً في عهد البويهيين ، وان يدرسوا مذهب اهل السنة ، ثم كان من تدخل الحكومة ان تُبعِد عن هذه المدارس كل مدرس يعطف على الشيعة او يعتنق مذهبهم [2] .

---

١) المقريزي : الخطط ٢ : ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

٢) انظر معجم الأدباء لياقوت ٥ : ٤١٥ .

وهكذا فعل نور الدين في الشام ، وصلاح الدين في مصر فكل منهما انشأ المدارس وحدَّد لكل منها المذهب الفقهي الذي تسير الدراسة عليه ، وعيَّن لها احد شيوخ هذا المذهب ليدرس بها . واقتدى بهذين الملكين كثير من أقاربهما وأتباعهما وعلماء عصرهما على ما مر ذكره .

ولما انشأ الخليفة المستنصر العباسي (توفي سنة ٦٤٠ هـ) المدرسة المستنصرية جعل فيها اربعة أمكنة (ايوانات) منفصلة لتُعقد فيها حلقات على المذاهب الاربعة ، وعين لكل ايوان شيخاً من شيوخ المذهب ليدرس فيه فقه ذلك المذهب ، وعين لكل شيخ من هؤلاء الشيوخ خمسة وسبعين طالباً ، ورتب الروانب للمدرسين والطلاب [١] .

وعندنا لحسن الحظ وثائق هامة في هذا المجال ، وهي سجلات تعيين بعض المدرسين في وظائفهم ، وهذه الوثائق تحدد عمل المدرسين ، وتقر سلطان الحكومات . وفيما يلي موجز لاثنين منها :

الاول سجل فاطمي بتولية داعي الدعاة الذي كان يشرف على الحركة العلمية ، ويصدر التعليمات الى الفقهاء والمعلِّمين . وهذا موجز له :

الحمد لله الذي اختار الاسلام فأظهره وعظمه ، واستخلص الايمان فأعزه واكرمه ، يحمده امير المؤمنين ان اصطفاه لخلافته ، وخصه بلطائف حكمته ، واقامه دليلاً على مناهج هدايته ، وداعياً الى سبيل رحمته ، ويسأله الصلاة على سيدنا محمد نبيه الذي ابتعثه رحمة للعالمين ، فأوضح معالم الدين ، وشرع ظواهره للمسلمين ، وأودع بواطنه لوصيه سيد الوصيين ، علي بن ابي

---

١) ابن العبري ص ٤٢٥ ، Khuda Bukhsh : Islamic Civilization P. 287.

طالب امير المؤمنين .... صلى الله عليهما وعلى الأئمة من ذريتهما مصابيح الاديان ، واعلام الايمان ، وخلفاء الرحمن .

وان امير المؤمنين بما منحه الله من شرف الحكمة واورثه من منصب الإمامة والأئمة ، وفوض اليه من التوقيف على حدود الدين ، وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين ، يعلن باقامة الدعوة الهادية بين اوليائه وشيوع ظلها على اشياعه وخلصائه ، وما يزال نظره مصروفاً الى نوطها بناشىء في حجرها مغتذٍ بَدرِّها ، سارٍ في نورها ، فتقلَّد ما قلدك امير المؤمنين . . . وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشدَّ العقد على كل منقاد ظاهر ، ولا تلق الوديعة الا لحفاظ الودائع ، ولا تُلقِ الحبَّ الا في مزرعة لا تكدي على الزارع ، وتوخّ لغرسك اجل المغارس ، واتل مجالس الحِكَم التي تخرج اليك على المؤمنين والمؤمنات في قصور الخلافة الزاهرة ، والمسجد الجامع بالمعزيَّة القاهرة ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ولا تستقل افهامهم بتقبُّله ، واقبض ما يحمله المؤمنون لك من الزكاة والجزي والأخماس والقُرُبات ، وما يجري هذا المجرى واحمله الى امير المؤمنين لينتفع مخرجوه بوصوله اليه وتبرأ ذممهم عند الله منه ، واستنب عنك في اعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة ومن تثق بديانته ١) .

الثاني (فرمان) اصدره السلطان سنجر السلجوقي الى محمد بن يحيى النيشابوري يفوض اليه التدريس بنظامية نيشابور ، ولهذا الفرمان مقدمة طويلة يتحدث فيها السلطان سنجر عن الوزير العظيم نظام الملك ، ومنشآته

---

١) القلقشندي : صبح الأعشى ١٠ : ٤٣٤ – ٤٣٩ .

العلمية ، وافضاله على العلم والمتعلمين ، ثم يشيد بالمدرسة النظامية وما بذله مدرسوها السابقون من جهد في خدمتها ، ثم يستمر قائلاً : ولما كان عصرنا متجملاً بفضل محمد بن يحيى وعلمه وعفته ، متع الله بطول بقائه ، وكان قائداً للعلماء من المذهبين الشافعي والحنفي ، وموضع ثناء الجميع ، فقد اسندنا اليه منصب التدريس الذي هو اشرف المناصب في المدرسة النظامية بنيشابور التي هي اشرف مدارس العالم ، واعز بقاع طلبة العلم ، وجعلنا المدرسة والأوقاف وكل ما ينضاف اليهما وينتسب في عُهْدة علمه وعفته وديانته [1] .

وينبغي ان يكون واضحاً ان تدخُّل الحكومات كان خاصاً بالمدرسين الذين عينتهم وحددت عملهم ودفعت لهم اجورهم ، ولم يمس هذا التدخل آلاف المدرسين الذين ظلوا يجلسون في المساجد ، ويفد اليهم الناس ، فيتعلمون منهم ويغترفون من علمهم وثقافتهم .

المستوى الاجتماعي للمدرسين

يُعتبر الجاحظ من المصادر الهامة عند الحديث عن المستوى الاجتماعي للمدرسين ، ويسارع الى الذهن بوجه خاص ما رواه من ان من امثال العامة « احمق من معلم كتاب » وما رواه عن بعض الحكماء انه قال : « لا تستشيروا معلما ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء » ويَرْوِي كذلك انه سمع قول بعضهم « الحمق في الحاكة والمعلمين والغزالين » [2] .

---

١) يادجار : مجله فارسية عدد يناير وفبراير سنة ١٩٤٥ ص ٤١ – ٤٣ .

٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٠ .

والمثل الاول خاص بمعلمي الكتاتيب اما المثلان الاخيران فمطلقان ، ومنهما فهم بعض الكتاب ان الجاحظ يضع المعلمين جميعاً في هذا المستوى الاجتماعي المهين . ولكن الجاحظ نفسه سجل رأيه عن المعلمين بتفصيل واضح في كتابيه رسالة المعلمين [١] ، وفي البيان والتبيين وهاك موجزاً لما قال :

لو استقصيت عدد النحويين والعروضيين والفرضيين والحُسَّاب والخطاطين ، لوجدت اكثرهم مؤدب كبار ومعلم صغار ، فكم تظن أنا وجدنا منهم من الرواة والقضاة ، والحكماء والولاة ، ومن الدهاة والحماة ، ومن القادة والزادة ، ومن الرؤساء والسادة ، ومن كبار الكتاب والشعراء ، والوزراء والأدباء ، ومن اصحاب الرسائل والخطابة ، ومن الفرسان واصحاب الطعان [٢] . . . . فلا تلزم الاكابر ذنب الاصاغر ولا تحكم على المجتهدين بتفريط المقصرين [٣] .

ويقول الجاحظ في البيان والتبيين [٤] : والمعلمون عندي على ضربين منهم رجال ارتفعوا عن تعليم اولاد العامة الى تعليم اولاد الخاصة ، فالى تعليم اولاد الملوك انفسهم المرشحين للخلافة ، فكيف تستطيع ان تزعم ان الكسائي وقطرب وأتباعهما يقال لهم حمقى ، ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم .

---

١) مخطوط بعضه بالمتحف البريطاني وبعضه بالموصل (انظر مصادر الكتاب).
٢) رسالة المعلمين ورقة رقم ١٠ ا ، ب .
٣) المرجع السابق ٤ ب .
٤) ج ١ : ١٤٠ ـ ١٤١ .

فان ذهبوا الى معلمي كتاتيب القرى فان لكل قوم حاشية وسفلة فما هم في ذلك الا كغيرهم ، وكيف تظن الظنون بمعلمي الكتاتيب جميعاً وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء مثل الكميت بن زيد وعبد الحميد الكاتب وقيس بن سعد وحسين المعلم وابي سعيد المعلم . . . . . وما كان عندنا بالبصرة رجلان ادرى بصنوف العلم ولا احسن بيانا من ابي الوزير وابي عدنان المعلمَين [1] .

ذلك هو رأي الجاحظ في المعلمين وهو ينفي ما يشاع من ان الجاحظ كان يحط من أقدارهم ويقلل من مكانتهم ، ثم ان رأي الجاحظ يحتم ان ينظر الباحث في هذا الموضوع على ان المعلمين طوائف لا طائفة واحدة ، وهو ما ندين به مع شيء يسير من الخلاف مع الجاحظ ، فهو يجعل المعلمين ضربين ولكني أميل الى ان أقسمهم ثلاث طوائف سواء أكان الحديث عن مستواهم الاجتماعي أم عن مركزهم المالي وهذه الطوائف الثلاث هي :

١ ـ معلمو الكتاتيب .

٢ ـ المؤدبون .

٣ ـ المعلمون بالمساجد والمدارس .

ولكل طائفة من هذه ظروفها الخاصة التي تتميز بها عن الطائفتين الأخريين وهذا ما سيتضح مما يلي :

١ ـ معلمو الكتاتيب : ينبغي ان نعترف أنه كان بين هذه الطائفة

---

١) البيان والتبيين ج ١ : ١٤٠ ـ ١٤١ .

جماعة احترفوا هذه المهنة بثقافة ضحلة او بدون ثقافة ، وبأخلاق دعت لا الى احترامهم بل الى امتهانهم والتقليل من شأنهم ، وهؤلاء جلبوا السمعة الرديئة الى الطائفة كلها ، واحياناً الى المعلمين جميعاً ، اما كيف استحق هؤلاء ذلك الوضع فهذا ما تعبِّر عنه الاقاصيص الآتية :

كان صبي يقرأ القرآن على معلم ، فلما وصل الصبي الى قوله تعالى « وان عليك اللعنة [1] » أخذ يكرر هذه الجملة موجهاً الخطاب الى معلمه ، فاغتاظ المعلم وقال له : ان عليك اللعنة وعلى والديك . فقال الصبي : لم يكن في لوحي وعلى والديك وانما عليك فقط فهل تريدني ان أقول عليك وعلى والديك [2] ؟ .

وكان معلم كتاب يقرأ « غلبت الروم في أدنى الأرض [3] » ولكنه قرأها غلبت الترك .... فرده بعض السامعين الى الصواب فقال : لا يهم ؛ الترك والروم أعداؤنا [4] .

وسُمع معلم يلقِّن صبياً : واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه [5] ، يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك ، فيكيدوا لك كيداً [6] واكيد كيداً ، فمهل الكافرين امهلهم رويداً [7] . فقيل له : ما هذا ؟ فقال : ان أباه

---

١) سورة رقم ١٥ الآية ٣٥ .
٢) الاصفهاني : محاضرات الأدباء ١ : ٣٠ .
٣) سورة رقم ٣٠ آية ٢ .
٤) الأبشيهي : المستطرف ٢ : ٢١٥ .
٥) سورة رقم ٣١ آية رقم ١٦ .
٦) سورة رقم ١٢ آية رقم ٥ .
٧) سورة رقم ٨٧ الآيتان ١٦ ـ ١٧ .

يُدخِل مشاهرة شهر في شهر ، وانا ادخله من سورة الى سورة لئلا يحصل على شيء ، كما لا احصل انا على شيء [1] .

وروى ان تلاميذ مكتب ما رغبوا في ان يحصلوا على اجازة في يوم معين ، فاتفقوا على ان يوهموا معلمهم انه مريض ، فلما حضر اخذ كل منهم يبدي أسفه لمرضه ، وينصحه ان ينال قسطاً من الراحة فان التعب بادٍ عليه ، ووقع المعلم في الفخ الذي نصبوه له ، ولجأ الى النوم ، ومنح التلاميذ اجازة [2] .

ويحدثنا ابن حوقل [3] حديثاً طويلاً عن المعلمين في صقلية وفي مدينة بُلَرْم على وجه الخصوص ، وهو يعيب عليهم كثرتهم الباعظة ، ويرجع سبب الكثرة الى ان هؤلاء كانوا يفرون الى هذه المهنة من الجهاد والغزو ، اذ كان قد سبق الرسم باعفاء المعلمين « ففزع الى التعليم بلهم وحسّنه لديهم جهلهم فراراً من الجهاد وشرفه والغزو وعزه » فكان منهم في بلرم وحدها ٣٠٠ مدرس وكان الغالب عليهم الصراع والخباط والجهل ، ثم كان من اعظم البلية ان جميع اهل صقلية يعتقدون ان هذه الطائفة اعيانهم ، وفقهاؤهم ، وعدولهم ، وارباب فتاواهم ، وهؤلاء المعلمون بين غبيٍّ عمٍ وناقص زري المنظر والمخبر ، ومع جهل هؤلاء وحمقهم فانه لا اخلاق لهم . ومن أرثِّ ما رآه ابن حوقل وأغثّه خمسةٌ معلمون في مكتب واحد يعلمون فيه الصبيان شركاء متشاكسون ، يرئسهم شيخ يعرف بالملطاط ، من أقدم

---

١) الاصفهاني : محاضرات الادباء ١ : ٣٠ .
٢) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٠٩ .
٣) كتاب صورة الأرض موجز ١٢٦ — ١٣٠ .

الناس على شهادة زور .

وعلى ذكر الملطاط الذي كان مقداماً في شهادة الزور نوضح ان قبول شهادة معلمي الكتاتيب كان موضع تردد من القضاة وهناك تعليلان لذلك :

الاول ان هذا المعلم يأخذ على تعليم القرآن أجراً وهذا يسقط المروءة والعدالة ، يروي الدينوري [1] ان رجلاً جاء ليشهد عند سوّار فقال له : ما صناعتك ؟ قال : انا مؤدب . قال : فانا لا نجيز شهادتك . قال : ولم ؟ قال : لأنك تأخذ على تعليم القرآن أجراً . قال : وانت تأخذ على القضاء بين المسلمين أجراً . قال : اني اكرهت على القضاء . قال : يا هذا ، القضاء أكرِهتَ عليه ، فهل أكرِهتَ على اخذ الرزق ؟ قال القاضي : هلم شهادتك . فأجازها .

الثاني : ان بعض المعلمين ارادوا ان ينتهزوا فرصة كونهم حملة القرآن ، وان شهادة الحق تُتَوَقَّع منهم ، فاحترفوا الشهادة ، واخذوا على تأديتها أجراً ، ولهذا يحذر ابن عبدون من قبول شهادة هؤلاء على الاطلاق ، وبخاصة اذا كثر ترددهم في الشهادات ويوصي ابن عبدون ان يتحرى القاضي في هؤلاء الخير ويسمع عنهم حسن الثناء حتى يقبل شهادتهم [2] .

والذي لا شك فيه ان بعض معلمي الكتاتيب قد انحطوا الى منزلة مهينة ، ولكن الذي لا شك فيه ايضاً ان هذه القصص التي أوردناها مبالغ فيها ، بل ان بعضها مصنوع ، وتبدو الصناعة ظاهرة فيه ، الا ان المعتقد ان هناك أساساً اعتمد عليه القصاصون فيما وضعوا من قصص ،

---

١) عيون الأخبار ١ : ٦٩ .

٢) رسالة ابن عبدون نشرت في The Journal Asiatique سنة ١٩٣٤ عدد رقم ٢٢٤ ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

اذ كان هناك عدد من معلمي الكتاتيب احترفوا هذه المهنة وكل ثقافتهم انهم حفظوا القرآن ، وليس لهم علم بسواه ، ويلوم ابن عبدون هؤلاء مؤكداً ان حفظ القرآن وحده لا يؤهل احداً لأن يكون مدرساً [1] .

وقد اساء هؤلاء الى سمعة معلمي الكتاتيب جميعاً ، حتى اصبحت عبارة « معلم صبيان » مثلا يُضرَب للضعة والامتهان . روى ياقوت [2] ان الصاحب ابن عباد بلغه ان ابا حيان التوحيدي عاب رسائله ورغِبَ عن نسخها ، فتوعده الصاحب وهدَّده ، فقال ابو حيان : « يتوعدني . . . . كأني طعنتُ في القرآن ، او رميت الكعبة بخرق الحيض ، او عقرت ناقة صالح ، او سلحت في بئر زمزم ، او قلت : مات النظام مأبونا ، او مات ابو هاشم في بيت خمار ، او كان الصاحب معلم صبيان » فانظر الى اي حد كان يُنظر الى معلم الصبيان حتى يقرن بمن طعن في القرآن او عقر ناقة صالح . . . .

ولكن الباحث اليقظ العادل لا يدع عقله في مهب الريح ، ولا يتأثر بكل ما يلقى له ، بل ينظر بعمق في كل ما حوله ويصدر حكمه . وأعتقد انه اقرب الى الصواب ان نقرر ان المستوى الاجتماعي لبعض مدرسي الكتاتيب كان وضيعاً لسبب أو لآخر ، وان بين مدرسي الكتاتيب عدداً وفيراً كانوا في مستوى يدعو الى التقدير والاحترام ، وانه الى هذه الطائفة انتسب كثير من العلماء والفقهاء والخطاطين والأدباء ، وان من هذه الطائفة أفراداً شقوا طريقهم حتى وصلوا الى مكانة مرموقة ومركز رفيع فأصبح

---

١) المرجع السابق ص ٢١٥ .
٢) معجم الادباء ٥ : ٣٩٧ .

منهم القضاة ، ورجال السياسة ، والقواد ، وقد مرَّ ذكر بعضهم في رواية الجاحظ .

وقبل ان نختم هـذا البحث نورد آراء بعض المستشرقين في هـذا الموضوع : يتفق Goldziher و Lammens تقريباً في ذلك الموضوع فيذكران ان السبب في أن معلمي الكتاتيب نظر اليهم شذراً ان معظمهم كانوا من الموالي ، كما كان أغلب معلمي القراءة والكتابة في العهـد الاول من الذميين ، وكان العرب المسلمون يعتدُّون بدمهم العربي ، وبدينهـم الاسلامي ، ويحتقرون من عدا ذلك . فليس بعيداً ان تكون فكرة احتقار معلمي الكتاتيب نشأت من ذلك العهد [1] .

ويقول Adam Mez [2] : ولعل كثيراً ممـا لحق المعلمين من ضروب الاستهزاء يقع اثمه على الروايات اليونانية الهزلية ؛ لأن المعلم فيهـا كان من الشخصيات المضحكة .

أما الخليفة المأمون ـ وبه نختم هذا البحث ـ فيعلل لما أثر عن بعض المعلمين من بلادة وتخلف بالعبارة الآتية : المعلم يحلو عقولنا بأدبه ، ويصدأ عقلُه بجهلنا ، ويوقرنا برزانته ونستخفه بطيشنـا ، ويشحن أذهاننا بفوائده ويكلُّ ذهنه بعيِّنا ، فنأخذ منـه محمود خصاله ويستغرق مذموم خصالنا ، فاذا برعنا في الاستفـادة برع في البلادة ، فنحن الدهرَ ننزع من آدابه المكتسبة ، ونثبت فيه أخلاقنـا الغريزية فهو طول عمره يكسبنا عقلاً

---

١) انظر Mu'awiya p. 361 و Encyclopaedia of Religions and Ethics V p. 202.

٢) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١ : ٣٠٧ من الترجمة العربية للاستاذ محمد عبد الهادي ابو ريده .

ويكتسب منا جهلاً [1] .

٢ ـ المؤدبون : يذكر الاصفهاني [2] ان اسماعيل بن علي رغب الى عبدالله بن المقفع ان يجلس مع ابنه في كل اسبوع يوماً ، فقال : أتريد ان أُثبتَ في ديوان النوكى . وقال سعيد بن مسلم : قصدت الكوفة فرأيت ابن المقفع فرحب بي وقال : ما تصنع ههنا ؟ فقلت ركبني دين . فقال : هل رأيت أحداً ؟ فقلت : ابن شبرمة وعرفته حالي ، فقال : انا أكلم الامين ليضمك الى اولاده فيكون لك نفع فقال ابن المقفع : أفٍ لذلك أيجعلك مؤدباً في آخر عمرك ؟ اين منزلك ؟ فعرّفته فأتاني في اليوم التالي وأعطاني ..... فرجعت الى البصرة .

وهذا الذي يرويه الاصفهاني يفهم منه ان تعليم الصبيان لم يكن مرغوبا فيه حتى ولو كان هؤلاء من اولاد الملوك ، وهذه الدعوى لا ترتقي بطبيعة الحال الى تأديب اولاد الملوك اذا كبروا ، فان تأديب ولاة العهود اذا تجاوزوا سن الصبا كان عملاً كبيراً مرموقاً يتولاه خيرة رجال العصر علماً وأدبا وخلقا .

ثم اذا ناقشنا الاصفهاني في هاتين القصتين وضح لنا انهما الى الصنعة أقرب منهما الى الواقع فان ابن المقفع تبعاً لما ذكره بروكلمان [3] كان فعلاً مؤدبا لأولاد اسماعيل بن علي ، والذي حدا بنا الى قبول رواية بروكلمان وترجيحها على رواية الاصفهاني ان الاخير لم يتحر الدقة فيما يظهر في كتابته

---

١) ابن الجوزي : اخبار الحمقى والمغفلين ١٠٧ ـ ١٠٨ .

٢) محاضرات الادباء ١ : ٢٩ .

٣) Brockelman J. I, 15. S. I 233.

في ذلك الموضوع ، وقد اتضح ذلك من القصة الثانية التي تذكر ان ابن المقفع كان يعيش حينما كان للامين اولاد مع ان ابن المقفع قتل سنة ١٤٥ هـ في عهد المنصور وولد الامين سنة ١٧١ هـ ولا يمكن ان يقال ان المراد بالأمين المذكور هنا شخص آخر والا لوجب ان يكنّيه ويذكر نسبه ، اما اطلاقه هكذا فلا يمكن ان يقصد به غير الأمين الخليفة .

وفيما عدا ما ذكره الاصفهاني فان كل الدلائل والنصوص تفيد ان تأديب اولاد الخاصة صبيانا او كباراً كان عملاً عظيماً ، يكسب من يقوم به الجلال ويحوطه باهاب من العظمة ؛ اذ كان من يتولى ذلك يُعدُّ للملك قائده وللخلافة راعيها ، ولقد مرَّ رأي الجاحظ في المؤدب وتقديره لعمله . صحيح ان بعض العلماء كالخليل بن احمد رفضوا ان يكونوا مؤدبين ، ولكن ما كان ذلك استقلالا للعمل ، او تهاونا به ، وانما كان بدافع الزهد والورع ، ورغبةً في البعد عن المغانم والصيت . وكان يرتفع قدر المؤدب حتى ينظر اليه على انه احد افراد الأسرة التي كان يؤدب فردا او اكثر من بنيها ، بل كان ينتسب احيانا الى هذه الاسرة ويأخذ اسمها فأبو محمد يحيى بن المغيرة قيل له اليزيدي لأنه صحب يزيد بن منصور خال المهدي يؤدب ولده فنسب اليه . وقد عبّر الكسائي مؤدب الأمين عن هذا المعنى في بيت من الشعر كان مطلع مقطوعة ارسلها الى الرشيد وهذا البيت هو :

قل للخليفة ما تقول لمن أمسى اليك بحرمة يدلي[١]

وقد اهتم الخلفاء والعظماء بمؤدبي اولادهم اهتماماً عظيماً ، وارتفعوا بمستواهم

---

١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ : ٤٦٩ .

الاجتماعي الى درجة تناسب مكانهم من الأمراء وولاة العهود . فقد كان علي بن الحسن الاحمر (١٩٤ هـ) حينما اختير لتأديب الأمين يعيش في حجرة واحدة في حي متواضع من احياء بغداد فسرعان ما نقله الرشيد الى مستوى اجتماعي رفيع يصفه محمد بن الجهم بقوله : كنا اذا أتينا الاحمر تلقانا الخدم فندخل قصراً من قصور الملوك ويخرج علينا الاحمر وعليه ثياب الملوك ١) .

وفيما يلي قائمة بأسماء بعض المؤدبين الذين اشرفوا على تربية ابناء الخلفاء والعظماء ، ولا تحتاج هذه الاسماء الى تعليق فهي اسماء لامعة في التاريخ الاسلامي والادب العربي . وستذكّر هذه الاسماءُ القارىءَ بالمركز الادبي السامي الذي نعم به هؤلاء المؤدبون وبالادوار السياسية التي لعبها كثير منهم:

المؤدب	التلميذ	المرجع
الضحاك بن مزاحم	أولاد عبد الملك بن مروان	Brockelman SI, 235
عامر الشعبي	ابن هشام بن عبد الملك	تذكرة السامع والمتكلم ص ١٧
محمد بن مسلم الزهري	الوليد بن يزيد	الأغاني ٦ : ١٣٤
عبد الصمد بن عبد الأعلى	» »	Brockel· GI 190, s 1332
يزيد بن مساحق السلمي	مروان بن محمد	ضحى الاسلام ٢ : ٥٤
الجعد بن ادهم	المهدي	طبقات الأدباء ص ٦٧
المفضل الضبي		

١) ياقوت : معجم الادباء ٥ : ١١٠ .

المؤدب	التلميذ	المرجع
شرقي بن القطامي	المهدي	عصر المأمون ١ : ١٧٤
عبد الله بن المقفع	أولاد اسماعيل بن علي	Brockel. GI, 151 SI, 233
يحيى بن خالد البرمكي	الرشيد	ابن خلكان ٢ : ٣٦١
الكسائي	»	طبقات الأدباء ٨٧ ، ٩١
ابو عياض	المأمون وأولادابراهيم بن المهدي	الأغاني ٥ : ١٢٧
الكسائي	الأمين	ابن خلكان ١ : ٤٦٩
الأحمر	»	معجم الادباء ٥ : ١١٠
اليزيدي	ابن يزيد بن منصور	طبقات الأدباء ص ١٠٤
»	المأمون	» » » »
محمد بن الحسن	»	» » » »
الفراء	ابن المأمون	طبقات الادباء ص ١٣٠
قطرب	ابن ابي دلف (القاسم بن علي)	Brockel. GI, 102. SI, 131
الحسين بن قطرب	» » » » »	الفهرست ص ٧٨
ابن السكيت	ابناء الخليفة المتوكل	الفهرست ١٠٨
» »	ابناء طاهر بن الحسين	ابن خلكان ٢ : ٤٥٩
ابو العميثل (عبدالله بن خليد)	ابن عبد الله بن طاهر	الفهرست ص ٧٢
ثعلب	ابن المعتز	ابن الانباري ص ٣٠١
»	طاهر بن محمد بن طاهر	» » » »
المبرد	عبد الله بن المعتز	فتوح البلدان ص ١٢
الكندي	المعتضد	Brockel. GI ,209 SI, 216
الزجّاج	أولادالمعتضدوابن عبدالله بن المعتز	Brockel.GI,100 SI 170,507
—	ابن سليمان بن وهب	ابن خلكان ١ : ١٦
الصولي	الراضي بالله	الفهرست ص ٢١٥
كافور	أولاد الاخشيد	ابن خلكان ١ : ٦١٤
علي بن منصور الحلبي	اولاد الحسين بن جوهر	ياقوت (طبعة فريد رفاعي) ١٥ : ٨٣ — ٨٤
علي بن جعفر	حفيد بدر الجمالي	نفس المرجع ١٢ : ٢٧٩
ابو سعيد البندهي	أولاد صلاح الدين	خطط الشام ٦ : ١٩٢

٣ ـ المعلمون بالمساجد والمدارس : حظيت هـذه الطائفة من المعلمين بكثير من الاجلال والتقدير ، ولا يكاد الانسان يجد ما يقلل من شأنهم او يضع من اقدارهم الا هذه الحملة التي شنَّها ابن شهيد والتي هاجم فيها المعلمين والعلماء ، ولـكن ابن شهيد يعلل لهجومه هذا بان هؤلاء كانوا لا يعاملون الادباء معاملة طيبة اذا ضمَّتهم مجالس الامراء والعظماء [١] . فما كتبه ابن شهيد اذن لم يـكن عن عقيدة وانما كان ليثأر لنفسه وللادباء والشعراء من هؤلاء المعلمين والعلماء الذين لا يعيرون الشعر وقائليه اي اهتمام في مجالس العظماء وأولى الامر وبهذا تسقط قيمة مـا كتبه ابن شهيد لان الدافع له كان شخصياً وكان الرغبة في الانتقام ومثل هذا يُضيع قيمةَ ما كتِب ولا يجعله يرقى دليلاً على اي شيء .

وما قيمة ما ذكره ابن شهيد اذا قيس بالنصوص الـكثيرة التي حفلت بهـا كتب الادب والتاريخ والتي تنبىء ـ بما لا يدع مجالا للتردد ـ ان هذه الطائفة من المعلمين كانت موضع التقدير والاحترام والتعظيم والاجلال ، وفيما يلي أمثلة مقتبسة من هـذه المصادر ـ تمثل بتدرجها الفترة التي نعنى بدراستها .

نُصِح احد الخلفاء برسالة هامة جاء فيها : واعلم ان مواقع العلماء من ملكك مواقع السرج المتألقة والمصابيح المتعلقة ، وعلى قـدر تعاهدك تبذل من الضياء وتجلو بنورها صور الاشياء [٢] .

وقيل لأحد أكابر الخلفاء : قد حقق الله لك كل مرغوب ومأرب ،

---

١) الذخيرة ١ : ١١٨ وانظر ايضاً النثر الفني لزكي مبارك ٢ : ٩٤ ـ ٥٠ .

٢) مخطوط مجموعة رسائل بجامعة اسطنبول ورقة ٣٧ ب .

فهل بقيت لك لذة او بُغية لم تنلها ؟ فقال : نعم ، بقيت لذة واحدة هي أعلى من جميع ما نلته ، وافخم من كل ما باشرته ، بل لم تقرب منها ـ فضلاً عن ان تساويها ـ لذةٌ من لذات الدنيا ولا مرتبة من مراتب الخلافة العليا ، وهي ان أجلس مجلساً كمجلس مشايخ الحديث فأملي وأشرح وأقيد [١] .

وكان ابو الاسود الدؤلي يقول : ليس شيء أعز من العلم ؛ الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك [٢] .

وكثيراً ما كان العلم نجاة لأصحابه من الردى ؛ فقد ذكروا ان الحجاج ضرب أعناق أسرى فلما قدّموا اليه رجلاً ليضرب عنقه قال : والله ان كنا قد أسأنا في الذنب فما أحسنت في العفو . فقال الحجاج : أفٍ لهذه الجيَف اما كان فيها احد يحسن مثل هذا ! وامسك عن القتل [٣] .

وقدموا رجلا من الخوارج لعبد الملك بن مروان لتضرب عنقه ، وقبيل التنفيذ دخل على عبد الملك ابن صغير له يبكي لأن المعلم قد ضربه ، فأخذ عبد الملك يهدىء الولد ويكفكف دمعه ، فقال الخارجي : دع الولد يبكي ، فانه أرحب لشدقه وأصح لبصره واذهب لصوته وأحرى ألا تأبى عليه عينه اذا حفزته طاعة الله فاستدعى عبرتها . فقال له عبد الملك : اما يشغلك ما انت فيه عن هذا ؟ قال الخارجي : ما ينبغي للمسلم ان يشغله عن قول الحق شيء . فامر بتخلية سبيله [٤] .

---

١) معجم ابن حجر مخطوط ٨ ب وانظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣١ .
٢) تذكرة السامع ص ١٠ .
٣) العقد الفريد ١ : ١٤٠ ـ البيان والتبيين ١ : ١٤٤ .
٤) البيان والتبيين ١ : ١٤٤ ـ الكامل للمبرد ٥٧٣ .

وكان عبد الملك بن مروان خطب للوليد ابنه ووليِّ عهده ابنةَ سعيد ابن المسيب (توفي قبيل نهاية القرن الهجري الاول) ولكن هذا رفض ان يزوج ابنته من الوليد . ويحدثنا ابن خلكان [1] كيف زوج سعيد ابنته هذه فيقول : كان ابو وداعة يجالس سعيدا فتخلف أياما ، فلما عاد قال له سعيد : اين كنت ؟ فأجاب بان زوجته قد توفيت . فقال : هلا اخبرتنا فشهدناها ؟ ثم سأله : هل احدثت اخرى ؟ فقال : واين لي ذلك وانا فقير معسر ؟ فقال سعيد : ان فعلتُ تقبل ؟ قال : نعم . فزوجه سعيد ابنته من يومه وكانت غاية في الجمال والخلق .

ولما مات الحسن البصري (١١٠ هـ) تبع اهلُ البصرة كلهم جنازته ، فلم يبق بالمسجد من يصلي العصر ، ولم تُترَك صلاة منذ كان الاسلام الا يومها [2] .

وحضر بعض اولاد الخليفة المهدي عند شريك القاضي (١٧٧ هـ) وهو يلقي الدرس على طلابه ، فاستند ابن المهدي الى الحائط وسأل عن حديث ، فلم يلتفتْ اليه شريك . ثم عاد وسأل فعاد شريك الى اهماله . فقال ابن الخليفة : تستخف باولاد الخلفاء ؟ قال : لا ، ولكن العلم أزين عند اهله من ان يضيعوه [3] .

ويقول الامام الشافعي : حسن لي أحد ابناء عمي من الزبيريين ان ألتحق بالامام مالك بالمدينة لأتعلم الفقه ، وكنت في مكة في هذا الوقت

---

١) وفيات الأعيان ١ : ٢٩١ – ٢٩٢ .
٢) ابن خلكان ١ : ١٨١ .
٣) تذكرة السامع ٨٨ – ٨٩ .

فأخذت كتاب والي مكة الى والي المدينة ليصحبني الى مالك بن أنس ، فلما قدمت المدينة أبلغت الكتاب الى الوالي ، فلما ان قرأ قال : يا فتى ، ان مشيي من جوف المدينة الى جوف مكة حافياً راجلاً أهون عليَّ من المشي الى باب مالك بن أنس ، فلست ارى الذل حتى أقف على بابه . فقلت أصلح الله الأمير ، ان رأى ان يوجه اليه ليحضر . قال : هيهات ، ليت اني اذا ركبت اليه وأصابنا انا ومن معي من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا . . . . وذهب الوالي مع الشافعي الى دار الامام مالك واستأذن في الدخول ، فسئل عن حاجته فشرحها . فقال مالك : يا سبحان الله ! ! صار العلم يؤخذ بالوسائل وسمح للشافعي ان يلتحق به وارتد الوالي [1] .

ومر الرشيد مرة بحلقة محمد بن الحسن فقام الناس كلهم الا محمد بن الحسن ، فخرج الآذن ونادى محمد بن الحسن فلما عاد سأله اصحابه عما كان فقال : سألني الرشيد : مالك لم تقم مع الناس ؟ فقلت : كرهت ان اخرج عن طبقة العلماء الى طبقة العامة . فسُرَّ باجابتي [2] .

ويحكي Palmer [3] ان أبا معاوية العالم الأعمى كان يتغدى مرة مع الرشيد فلما انتهى الغداء وأراد العالم ان يغسل يديه على عادة المسلمين ، قدم له شخص ما الطست والابريق وصب عليه ، ولما انتهى العالم الأعمى من غسل يديه شكر ذلك الذي أولاه هذه العناية وصب عليه الماء ، ولكنه اكتشف ان الذي فعل ذلك هو الرشيد نفسه على كثرة خَدَمه .

---

١) معجم الأدباء ٦ : ٣٦٩ ـ ٣٧٠ .
٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٢ : ١٧٣ ـ ١٧٤ .
٣) Harun el Rashid p. 32.

فقال العالم : يا امير المؤمنين ، اني أعتقد انك فعلت هـذا تكريماً للعلم . فأجاب الرشيد : هو كذلك .

وكان احمد بن ابي داود سيد دولة المعتصم ، وكان اول من افتتح الكلام مع الخلفاء وكانوا لا يبدؤهم أحد حتى يبدءوه ، وكان يعرف ما بين الأفشين التركي وأبي دلف القاسم بن عيسى العربي من منافسة وكراهيـة ، فبلغه مرة ان الأفشين احتال حتى شُهِدَ على ابي دلف بجريمة قتـل ، فأحضره ليقتله ، فسارع احمد بن ابي داود الى الافشين وقال له : اني رسول امير المؤمنين اليك ، وقد امرك ألا تحدث في القاسم بن عيسى حدثا ، ثم التفت الى من معه وقال : اشهدوا أني بلغت الرسالة والقاسم حي معافى ، ثم خرج الى المعتصم وقال : قـد أديت عنك رسالة لم تقلها وقص القصة فصوَّب المعتصم رأيه [1] .

وكان المعتضد يطوف يوما في البستان وهو آخذ بيد ثابت بن قرة اذ جذبها دفعة واحدة وخلاَّها . فقال ثابت : ما بدا يا امير المؤمنين ؟ فقال المعتضد : كانت يدي فوق يدك ، والعلم يعلو ولا يعلى عليه [2] .

وقد وقع بين القاضي ابي حامد احمد بن محمد الاسفرائيني و بين الخليفة جفوة فكتب اليـه الشيخ ابو حامد : اعلمْ انك لست بقادر على عزلي عن ولايتي التي ولانيها الله تعالى ، وانا اقدر ان اكتب الى خراسان بكلمتين او ثلاث اعزلك عن خلافتك [3] .

---

١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ١ : ٣١ .
٢) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٣١٠ .
٣) السبكي : طبقات الشافعية ٣ : ٢٦ .

وذُكِرَ قطب الدين الشافعي بسوء عند نور الدين ، فقال : لو صحَّت هذه السيئة فان فيه حسنة تكفرها وهي العلم [١] .

ولما مات علي بن الحسن بن عساكر الحافظ الدمشقي سنة ٥٧١ هـ حضر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب جنازته بالميدان والصلاة عليه [٢] .

وكان الملك الافضل ينزل من قصره في قلعة دمشق يتأبط كتابه ويأتي دار استاذه الكندي في درب العجمي ، وربما تأخر الدرس الذي يتقدم درسه فينتظر الى ان تأتي نوبته [٣] .

هذه الأمثلة القليلة نماذج لتراث ضخم يتحدث عن قدر العلماء ومكانتهم السامية وهي وسواها تدل بوضوح على المنزلة الرفيعة التي كان ينزلها من نفوس الناس هؤلاء العلماء والمدرسون .

حالة المدرسين المالية

هناك نقطتان هامتان يجدر ان تنالا ما تستحقان من ايضاح قبل تفصيل القول في حالة المدرسين المالية :

١ ـ كان القرآن الكريم هو مادة الدراسة في جميع الحلقات التعليمية التي كانت تعقد في صدر الاسلام ، فكان الرسول (ص) يجلس الى تباعه ليقرئهم القرآن ، ويشرح لهم ما قد يغمض عليهم منه ويستنبط

---

١) مفرج الكروب لابن واصل ص ١٢٥ مخطوط .
٢) معجم الادباء ٥ : ١٣٩ ـ ١٤٠ .
٣) دهمان : المنصورة الناجية ص ١١ .

أحكام الدين من آياته ، وكان الرسول بطبيعة الحال يؤدي هذا العمل ابتغاء وجه الله ، واتجه الصحابة بعده هذا الاتجاه فأقرأوا القرآن وفسروه للناس دون ان يأخذوا او يقبلوا لذلك أجراً غير الثواب من الله . قال عبدالله بن شفيق كان أصحاب رسول الله (ص) يكرهون بيع المصاحف ويرونه عظيماً ، وكانوا يكرهون ان يأخذ المعلم على تعليم القرآن شيئاً [1] .

وانتقل هذا الميل الى العصور التالية واعتنقه كثير من التابعين ومن جاء بعدهم ، وضُمَّ الى القرآن حديث الرسول ، فذهبت طائفة كبيرة من الفقهاء كالحنفية جميعهم وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وغيرهم الى انه لا يجوز ان يأخذ المعلم أجراً على تعليم القرآن والحديث [2] وكان ابو العباس الأصمُّ وهو من كبار علماء خراسان ومحدثيهم لا يأخذ شيئاً على التحديث وانما كان يورق ويأكل من كسب يده [3] .

ثم تطورت المسألة مرة أخرى فأصبحت الدراسات الدينية كلها لها حكم القرآن والحديث وكما كان على الشخص ان يقرىء الناس ما حفظه من القرآن ويروي لهم ما سمعه من أحاديث الرسول ، كذلك أصبح عليه ان يعلِّم الناس ما وعاه من ثقافة ومعرفة دون أجر في الجميع اكتفاء بالثواب من الله ، وقد رفض الحارث بن محمد أن يأخذ الرزق الذي رتبه له عمر بن عبد العزيز حينما أرسله ليعلم الناس بالبادية وأُثِر عن الحارث انه قال : ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجرا [4] .

---

١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١٣١ .
٢) السمرقندي : مقدمة بستان العارفين .
٣) متز ١ : ٣٠٦ فضلا عن المنتظم لابن الجوزي مخطوط .
٤) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٦٧ .

وفي ضوء هذا الاتجاه سار اغلب المدرسين المسلمين ، وتقصُّ لنا المراجع العربية جملة كبيرة من الأقاصيص التي تنبيء عن انهم حتى الفقراء منهم كانوا يجلسون لتعليم الناس بدون مقابل ، كما فعل ذلك كمال الدين ابو البركات الأنباري الفقيه النحوي الذي كان بابه مفتوحاً لطالبي العلم يعلمهم لوجه الله تعالى [١] .

ووجد من معلمي الاطفال من عمل هذا ايضاً فقد روى ابن قتيبة [٢] ان الضحاك بن مزاحم وعبد الله بن الحارث (وهما من معلمي الاطفال) كانا يعلمان ولا يأخذان أجراً .

وكان كثير من العلماء يقومون برحلات طويلة لجمع الاحاديث وتعلُّم العلم ، وكانوا يبذلون في هذه الرحلات مبالغ كبيرة ثم يعودون ليرووا هذه الاحاديث للناس وليعلموهم ما حصلوا عليه من علم دون جزاء ، فلقد روي ان أبا بكر الجوزني محدث نيشابور قال : أنفقت في الحديث مائة الف درهم ما كسبت به درهماً [٣] .

وكان جلوس العلماء للتدريس دون أجر مادي دليلاً على اخلاصهم لعملهم وتفانيهم فيه ، اذ لم يكن هناك دافع لهم سوى خدمة العلم والرغبة في الثواب ، ومن اجل هذا اجتمع علماء ما وراء النهر وأقاموا مأتم العلم لما بلغهم خبر بناء المدرسة النظامية ببغداد ، وقالوا : كان يشتغل بالعلم أرباب الهمم العليَّة والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، واذا

---

١) الروضتين ٢ : ٢٧ .
٢) المعارف ص ١٨٥ .
٣) طبقات الشافعية ٢ : ١٦٩ .

صار عليه أجره تدانى اليه الاخساء وأرباب الكسل فيكون ذلك سبباً لمهانته وضعفه [1] .

ولكن نظام الملك لم يكن اول من رتب المرتبات للمدرسين ، انها وجدت قبله ولكن على نطاق محدود ، فلما جاء نظام الملك رتبها على نطاق واسع شامل . ولنا الآن ان نتساءل : كيف بدأ دفع المرتبات الى علماء المسلمين مع ما سبق ان اوردناه من اتجاه العلماء لتعليم القرآن والحديث وعلوم الدين خدمة للعلم من جهة وللحصول على الثواب من الله من جهة اخرى ؟

يبدو لي ان الاجابة تنحصر في الحقيقتين الآتيتين :

١ ـ أُريدَ ببعض المسلمين منذ عهد مبكر ان يجلسوا بالمساجد ليدرسوا لمستمعيهم شيئاً لم يكن المقصود به خدمة العلم ولا وجه الله ، ومن ثم لم يكن هناك دافع لأن يقوم المدرس بهذا العمل الا اذا عُيِّن له أجر مادي يحثه على القيام بهذه المهمة ، ومن هذا تدريس القصص في عهد معاوية كما سبق ان اشرنا اليه ، اذ من الواضح أنه كان للدعاية لفريق معين وللتأثير على الناس بوجهة نظر خاصة .

٢ ـ استعان المسلمون بأفراد كثيرين من غير المسلمين ليخدموا النهضة العلمية وليقوموا على وجه الخصوص بأعمال الترجمة ، ومن هؤلاء يوحنا ابن ماسويه وجبريل بن بختيشوع وحنين بن اسحق وغيرهم وكانوا يُمنَحون أجوراً سخية على القيام بهذا العمل .

---

١) كشف الظنون ١ : ١٥ .

وهكذا بدأت فكرة إعطاء مرتبات لمن يخدمون العلم ويسهمون في رفع المستوى الثقافي ، ثم تطور الزمن فأوشك النسيان ان يسدل ستاره على هاتين الحقيقتين ليصبح دفع المرتبات للمدرسين شيئاً عادياً أياً كان الموضوع الذي يدرسونه ، او أيا كان الدين الذي يعتنقونه ، وهكذا بدأت ثم انتشرت المرتبات في العالم الاسلامي ، غير ان كثيراً من العلماء والزهاد ظلوا على الاقتداء بالرسول وصحبه في تعليم العلم خدمة للعلم وابتغاء مرضاة الله .

ب ـ يعتقد ابن خلدون ان الخضوع والتملق من اسباب الحصول على الجاه المحصِّل للسعادة والكسب ، وان اكثر اهل الثروة والسعادة مدينون لهذا التملق ، ولهذا نجد الكثيرين ممن يتخلقون بالترفع والشمم لا يحصل لهم غرض الجاه فيقتصرون في التكسب على اعمالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة [1] . ويروي كذلك ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب لان ما يقومون به ليس من الاعمال الضرورية التي تشتد الحاجة اليها ولذلك لا يأجرهم الحاكم كما يأجر سواهم من اهل الشوكة وأهل الصنائع [2] ثم يصل ابن خلدون الى النتيجة التي يريد ان يقررها فيقول : انه لما كان القضاة والمدرسون والأئمة والمؤذنون لا يميلون الى الخضوع والتملق ، ثم انهم لا يقدّمون للمجتمع شيئاً ضرورياً تحتاج اليه عامة الخلق ، ويضطر له الناس ، فلذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب . ويضيف ابن خلدون انه وقع بيده أوراق من حسابات المأمون وفيها ما يثبت ما ذهب اليه من ان

---

١) المقدمة ص ٢٧٥ .

٢) المرجع السابق ص ٢٧٦ .

أرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين كانت قليلة [1] .

ونحب ان نتساءل : ما العمل الضروري الذي يعنيه ابن خلدون ؟ وما المقياس الذي يزن به الاعمال ؟ هل يقيسها مادياً ؟ واذا كان كذلك فلماذا كان العمال الزراعيون يعيشون في مستوى مهين جداً مع انهم كانوا يقومون بأهم الاعمال واكثرها ضرورة اذ ينتجون للدولة الحاصلات ويربّون لحاجاتها الماشية والأنعام ؟ واذا وافقنا ابن خلدون على ان الامام والمؤذن لا يؤديان عملاً ضرورياً على اعتبار ان الصلاة يمكن ان تؤدى بدونهما فانا لا نستطيع ان نوافقه على ان عمل القاضي والمدرس يمكن ان يستغنى عنه فطالما انشغل الخلفاء أنفسهم بالنظر في المظالم عقب رفعها اليهم دون تأخر مما يدل على أهميتها ، والنظر في المظالم عمل من اعمال القضاء فالذي يخيل لي ان ابن خلدون أخطأه التوفيق حينما جمع أعمال المؤذنين والخطباء جنباً الى جنب مع عمل القضاة والمدرسين . وهناك حقيقة واضحة هي ان معظم الخلفاء والحكام في العالم الاسلامي كانوا يعضدون نفوذهم بسلطتين هما سلطة العلماء والجند ، ومن أجل هذا كانوا يغدقون على هؤلاء وأولئك بسخاء ليطول لهم السلطان .

ثم ان ابن خلدون يريد ان يقرر حكماً عاماً لأن مرتبات القضاة والمدرسين كانت ضعيفة في عهد المأمون تبعاً لما رآه ابن خلدون . ولا اوافق ابن خلدون اولا على تقرير حكم عام لوجود مثال عليه بل لا بد لتقرير حكم عام ان توجد أمثلة كثيرة لعهود مختلفة ، ثانياً : ما هي هذه

---

١) المصدر السابق ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

الأوراق التي وقعت في يد ابن خلدون عن حسابات المأمون ؟ الواقع ان ابن خلدون لم يعطنا عنها تفاصيل ذات بال في حين ان عندنا حقائق ثابتة عن مرتبات القضاة في عهد المأمون وعن اجور الذين أسهموا في النهضة العلمية ابان خلافته وهذه وتلك تتعارض مع ما ذكره ابن خلدون : يروي الكندي ان أجر الفضل بن غانم الذي ولي قضاء مصر سنة ١٩٨ هـ (في عهد المأمون) كان مائة وثمانية وستين ديناراً في الشهر [١] وان مرتب عيسى بن المنكدر الذي ولي نفس المنصب سنة ٢١٢ كان سبعة دنانير كل يوم ، وقد سبق ان اوردنا ان المأمون كان يعطي حنين بن اسحق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربي مثلاً بمثل . كل هذا يحدونا الى ان نخالف ابن خلدون فيما ذهب اليه في هذا الأمر .

والآن نستطيع ان نتحدث عن الحالة المالية للمدرسين طائفة طائفة على النهج الذي اتّبع في الحديث عن مستواهم الاجتماعي :

١ ـ معلمو الكتاتيب : اكثر النصوص التي بين أيدينا عن الحالة المالية لهذه الطائفة من المدرسين تميل الى انها كانت شحيحة في الكثير الغالب ، ولعل المستوى الاجتماعي المتدهور الذي أشيع عن هذا الفريق بالحق او بالباطل كان ذا أثر فعال فيما يتصل بحالتهم المالية ، ثم ان هؤلاء يعلمون القرآن ومبادىء الدين ومن اجل هذا فقد كان متوقعاً منهم ان يتبعوا سنة الأولين في عدم الحصول على أجر ، او على الاقل ان يكونوا زهاداً يرضون بالقليل وليست لهم أطماع مالية .

---

١) الولاة والقضاة ص ١٠١ .

وكانت نتيجة هذه الافكار ان انحدر المستوى المالي لهذه الطائفة وظل اغلبهم يعانون كثيراً من الحرمان حتى العهد الحاضر ، وعندنا امثلة متعددة لتأكيد هذه الحقيقة .

لقد سبق ان تحدثنا عن الحجاج وهل كان معلم كتاب او لم يكن وهل حقيقةً اسمه كليب او ان هذا من أكاذيب الشعراء ، وروينا البيتين اللذين يزعم البعض انهما قيلا فيه وهما :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلك دائر وآخر كالقمر الأزهر [1]

ونحن الآن لا يهمنا ان يكون كليب هو الحجاج او سواه فالبيتان على أية حال قيلا في معلم كتاب وتحدثا عن حالته المالية . ومنهما يتضح ان معلم الكتاب هزيل في هذه الناحية ، وانه يتلقى الرغفان المختلفة الاشكال والاحجام أجراً له على العمل الذي يؤديه [2] .

ومما يدل على تدهور الحالة المالية لهذه الطائفة ان ابن السكيت كان يعلم مع ابيه صبيان العامة بمدينة السلام ففشل في ان يحصل من ذلك على رزق مناسب ، فأقلع عن تعليم الصبيان ، وجعل يتعلم النحو رجاء ان يكون مؤدباً او عالماً ، فيضمن له هذا أجراً سخياً [3] .

وينعى ابن حوقل على معلمي الكتاتيب في صقلية رضاهم بشظف العيش وقلة الدخل ، اذ ما كان يتجاوز ايراد الواحد منهم عشرة دنانير في

---

١) سرح العيون ص ١٠٢ – ١٠٣ .
٢) انظر كذلك المنتخب من كنايات الأدباء للجرجاني ص ١١٨ .
٣) ابن خلكان ٢ : ٤٦١ .

العام بل ربما لا يصل ايراده الى هذا الحد [1] .

وحاضر الكتاب فيما يعتقده الكثيرون صورة من الماضي في منهاجه ومظاهره المختلفة ، والسبب في انه لم يلحقه تطور ولا رقي ان معلمي الكتاتيب يتوارثون ذلك العمل الواحد عن الآخر ، فيقلّد اللاحق السابق في كل ما عرفه عنه وأخذه منه ، ولم تتدخل النهضات الاصلاحية في رفع مستوى الكتاتيب ، بل تركت هذه على حالها البدائية ، وأنشأت المدارس والمعاهد ، ومن ثم بقيت الكتاتيب على ما كانت عليه ، دون تغيير او بتغيير طفيف .

ونستطيع اذن مما وصل الينا من نصوص ثم بما انحدر من الماضي الى الحاضر ان نعطي فكرة عامة عن الحالة المالية لمعلمي الكتاتيب :

لم تكن الأجور التي يدفعها الصبيان الى معلمي الكتاتيب محددة ، بل كانت متروكة لحالة الطفل نفسه وطاقة أهله المالية ، ونستطيع على العموم ان نقسم الأجور قسمين : قسم يتعلق بالزمن وقسم يتعلق بتحصيل الطفل نفسه . اما القسم الأول فكان يقوم به جميع الأطفال تقريباً وهو عبارة عن مبلغ قليل من المال يدفع اسبوعياً او شهرياً ورغيف من الخبز يدفع كل اسبوع .

أنشد الجاحظ للرَّقاشيّ في معلم :

مختلفُ الخبز خفيف الرغيفِ منتثر الزاد لئيمُ الوصيفِ

وأنشد لأبي الشمقمق :

---

١) كتاب صورة الأرض ١ : ١٢٧ .

خبز المعلم والبقال متفق واللون مختلف والطعم والصور

ثم مبلغ قليل آخر من المال يدفع في مناسبات الأعياد والمواسم [1] وفي بعض الأحوال كان يدفع مقدار من القمح والذرة بدل دفع النقود الاسبوعية او الشهرية . اما القسم الثاني فكان يدفعه الطفل الذي يصل في حفظه الى تمام سورة من سور معينة في القرآن الكريم ؛ فاذا سار الطفل في حفظه الى تمام سورة (تبارك) كان عليه عندئذ ان يقدم للمعلم شيئاً يُعدُّ لوناً من تكريمه وشكره ، فاذا سار الطفل شوطاً آخر في حفظ القرآن حتى أتم سورة الفتح فعل مثل ما فعل عند الانتهاء من حفظ سورة تبارك ، وهكذا مع بعض سور معروفة عند المعلمين . ويدخل في القسم الثاني ما يدفعه الطفل عندما يختم حفظ القرآن الكريم ، وفي هذه المرة يَظْهَرُ الجود والسخاء ويكرَّم معلم الكتاب اجمل تكريم ، وقد يشمل العطاء شيئاً من الأكسية والمال وغيرهما على حسب حالة اهل الطفل .

وقد سبق ان قررنا ان المستوى الاجتماعي لمعلمي الكتاتيب ربما كان ذا أثر في اضعاف مستواهم المالي ، ونحب ان نقرر هنا ان العكس ربما كان صحيحاً ايضا .

٢ ـ المؤدبون : نَعِم المؤدبون بالغنى والرخاء اللذين استمتعت بهما طائفة العظماء الذين اتصل بهم المؤدبون ، وتعيينُ شخص ما مؤدبا كان يعتبر فاتحة خير عليه وعلى ذويه ، اذ كانت هذه الوظيفة تضمن لشاغلها غنى سريعا شاملا ، وتضمن له كذلك تسوية لأية مشكلات مالية يعانيها او

---

١) القابسي . الفضلة ٧٣ ب مخطوط .

ديون يرزح تحتها ؛ فلقد روى ان هشام ابن عبد الملك ، مع انه كان شحيحاً ، أدّى عن الزهري سبعة آلاف دينار عندما اختير لتأديب ولده [1] .

وقد سبق لنا ان اشرنا اشارة سريعة الى قصة هامة رواها ياقوت وهي تبين بوضوح الى اي مدى كان الخلفاء والعظماء يعنون برفع المستوى المالي لمؤدبي اولادهم وهاهي تلك القصة كاملة :

دخل علي بن الحسن الاحمر (١٩٤ هـ) الى دار الرشيد ليعلم الامين ، وفرش له البيت بفرش حسن ، وكان الخلفاء اذا أدخلوا مؤدبا الى اولادهم فجلس في اول يوم ، أمروا بعد قيامه بحمل كل ما في المجلس الى منزله مع ما يوصَّل به (من الدواب) ويوهب له ، فلما اراد الاحمر الانصراف الى منزله دُعِيَ من يحمل له ذلك فقال الاحمر : والله ما يسع بيتي هذا ، فما لي الا غرفة لا يدخلها غيري . فامر الرشيد بشراء دار له وجارية ، وحُمِل على دابة ، ووُهِبَ له غلام ، وأقيم له جار ولمن عنده . . . . . قال محمد بن الجهم : كنا اذا أتينا الاحمر تلقانا الخدم فندخل قصراً من قصور الملوك ويخرج علينا الاحمر وعليه ثياب الملوك [2] .

ولم يكن الاحمر فقط هو الذي استمتع بهذا العيش الرغد بسبب اشتغاله بتأديب اولاد العظماء ، بل كان جميع المؤدبين ينعمون تقريباً بنفس النتيجة ، يحكي ابن خلكان [3] ان الكسائي رُتِّب له مرتب سخي منتظم ، وبجانب ذلك فقد اعطي له في اول عهده بمهمته عشرة آلاف درهم ، وجارية حسناء

---

١) ابن جماعة . تذكرة السامع والمتكلم ص ١٧ بالهامش .
٢) معجم البلدان ٥ : ١١٠ .
٣) وفيات الأعيان ١ : ٤٧٠ .

بجميع ما تحتاجه ، وخادم وبرذون بجميع آلاته .

وفي احدى المناسبات منح الخليفة المتوكل ابن السكيت مؤدب ولده مبلغ خمسين الف دينار بالاضافة الى مرتبه المنتظم ، وكثيراً ما حصل المؤدبون بالاضافة الى المال على مساكن ، وأطعمة منتظمة ، وغيرها من من الهدايا والمنح [١] .

ونستطيع من النصوص المتعددة ان نقرر ان متوسط مرتب المؤدب كان الف درهم في الشهر فقد كان هذا هو المرتب الشهري لابن السكيت لتأديبه ابناً لمحمد بن عبد الله بن طاهر [٢] كما كان محمد بن عبد الله يدفع مبلغا مماثلا لثعلب كفاء تعليم ولده [٣] واذا كانت العملة المستعملة هي الذهب فان المرتب كان حوالي سبعين ديناراً ، وهي على وجه التقريب تعادل الالف درهم فقد كان عند قائد لعبد الله بن طاهر مؤدبٌ رزقُه في الشهر سبعون ديناراً .

المدرسون بالمدارس : عند الحديث عن الحالة المالية لا نستطيع ان نذكر كلمة المساجد التي ذكرناها في كلامنا عن هذا القسم في الحالة الأدبية ؛ لأن معلمي المساجد كانوا في الكثير الغالب لا يرجون غير الثواب من الله . كما ان هذا القسم سيشمل غير المعلمين ممن خدموا الثقافة العالية ونشروها ، وقد سبق التعليل لذلك .

---

١) انظر ياقوت : معجم الادباء ص ١٤٤ .

٢) ابن خلكان ٢ : ٤٦١ .

٣) معجم الادباء ٢ : ١٤٤ .

ومن الممكن ان نقرر دون تردد ان هذا الصنف من العلماء والباحثين قد عاشوا في بحبوحة من العيش ، ونعموا بمستوى مالي مرموق ؛ اذ اضفى عليهم الخلفاء والسلاطين والعظماء كثيراً من عنايتهم ، وأمدُّوهم بهبات متجددة ، وافضال لا تنقطع ؛ فقد حُكي عن المأمون ان منَحَه لحنين بن اسحق كانت متصلة وهباته اليه لا تتوقف [١] .

ولما نزل الشافعي أرض مصر استقبله ابن عبد الحكم استقبالا كريماً ، فأحسن اليه وأكرم مثواه ، وبلغ الغاية في بره ، وأعطاه من ماله ألف دينار ، وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألف دينار ، ومن رجلين آخرين من اصحابه ألف دينار [٢] .

وكان الجاحظ يبيع الخبز والسمك بسيحان [٣] في مطلع حياته فكانت حالته المالية رقيقة هزيلة ، ولكن هذه الحالة سرعان ما تغيرت عندما عُرِف عن الجاحظ علمُه وفضلُه ، واصبح نتاج الجاحظ الفكري يدر عليه من الثروة ما تدره الضياع الفسيحة او التجارة العريضة الناجحة . دخل الجاحظ البصرة مرة ثم خرج منها بثروة كبيرة بعد فترة قصيرة ، فسأله ميمون بن هارون : ألك بالبصرة ضيعة ؟ فتبسم وقال : أهديتُ كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار ، واهديت كتاب البيان والتبيين الى ابن ابي داود فأعطاني خمسة آلاف دينار ، واهديت كتاب الزرع والنحل الى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار

---

١) Khuda Bukhsh, Islamic civilization P, 277.

٢) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ١٧ بالهامش .

٣) ياقوت : معجم الادباء ٦ : ٥٦ .

فانصرفت عن البصرة وكأن لي فيها ضيعة لا تحتاج الى تجديد ولا تسميد [١] .

ولما كمل جامع ابن طولون صلى فيه القاضي بكار اماماً ، واملى فيه الحديث الربيع بن سليمان تلميذ الامام الشافعي ، ورفع اليه احمد بن طولون في ذلك اليوم كيساً فيه الف دينار [٢] .

وارتفعت ثقافة بعض العلماء وتنوعت ، فسُجِّلتْ أسماؤهم مع الفقهاء ومع العلماء ومع الندماء ، وكان البعض يأخذ رزقاً في هذه الطوائف كلها كالزجّاج (٣١٠ هـ) فقد كان له رزق في الندماء وفي الفقهاء وفي العلماء ، ومبلغ ذلك ٣٠٠ دينار في الشهر [٣] .

وقد أجرى الخليفة المقتدر على ابن دريد المتوفى عام ٣٢١ هـ خمسين ديناراً في كل شهر حينما قدم بغداد فقيراً [٤] .

وعندما انشئت المدارس وعين المدرسون بها كان هؤلاء يتناولون مرتبات شهرية منتظمة من الخزانة العامة او من ايراد الاوقاف التي كانت عادة تعين لينفق من ريعها على هذه المنشآت ، وقد كانت هذه المرتبات تختلف باختلاف مكانة المدرس وريع الوقف ، ولكنها كانت على العموم أميل الى الجود والسخاء .

اما عن المدرسين في ظل الفاطميين فقد سجل لنا المقريزي [٥]

---

١) معجم الأدباء ٦ : ٧٥ ـ ٧٦ .
٢) حسن المحاضرة ٢ : ١٣٧ .
٣) الفهرست ٩٠ .
٤) متز: الحضارة الاسلامية ١ : ٣٠٩ نقلا عن: Wüstenfeld AGGW, 37, Nr. 92.
٥) الخطط ١ : ٤٠١ – ٤٠٢ .

والقلقشندي [1] معلومات عظيمة الفائدة لا عن مرتب المدرسين فحسب ، ولكن عن المرتبات الهامة في الدولة بما في ذلك داعي الدعاة وهو الشخص الأول في طائفة المدرسين في العهد الفاطمي ، وسنقتبس فيما يلي بعضاً من هذا السجل ليحدّد لنا مركز المعلم المالي بين مراكز الآخرين من كبار موظفي الدولة .

الوزراء	٥٠٠٠ دينار شهرياً
ابن الوزير	من ٢٠٠ دينار ال ٣٠٠ شهرياً
كاتب الدَّست الشريف	١٥٠ ديناراً شهرياً
صاحب الباب	١٢٠ » »
قاضي القضاة داعي الدعاة الاستاذون المحنكون صاحب بيت المال حامل الرسالة صاحب الدفتر	١٠٠ دينار شهرياً
صاحب السيف صاحب الرمح رئيس ديوان النظر	٧٠ ديناراً شهرياً

---

١) صبح الأعشى ٣ : ٥٢٥ ـ ٥٢٦ .

الطبيب الخاص رئيس ديوان التحقيق	٥٠ ديناراً شهرياً
رئيس ديوان المجلس	٤٠ ديناراً شهرياً
الواعظ بالمسجد شاعر الخليفة	من ١٠ دنانير الى ٢٠ ديناراً شهرياً

لكل من الاطباء الآخرين الذين كانوا يقيمون في القصر ١٠ دنانير

ومنذ العهد الأيوبي لم يعد هناك مستوى منتظم لمرتبات المدرسين ، بل اصبحت هذه المرتبات تتأثر تأثراً واضحاً بظروف متعددة كمقدار الوقف على المدرسة وكمكانة المدرس وسمعته ، ثم تأثرت المرتبات بشكل خاص بالأخلاق التي اضطرب مستواها في هذه الفترة ، فاذا كان ولي الأمر كريماً او عفيفاً اغدق على المدرسين ، واذا كان شحيحاً او شرهاً قل المرتب الذي يمنحه للمدرسين مهما كان ريع الوقف او شرط الواقف ، وأياً ما كان مركز المدرس العلمي ، وقد سجل لنا السيوطي أمثلة واضحة لهذا الاتجاه وفيما يلي احدها :

بنى صلاح الدين المدرسة الصلاحية بجوار الامام شافعي عين للتدريس والنظر بها الشيخ نجم الدين الخبوشاني ، وشرط له او لمن يشغل هذا المنصب من بعده الأجر التالي

أربعين ديناراً في كل شهر عن التدريس .
عشرة دنانير لأجل النظر في أوقاف المدرسة .
ستين رطلا مصرياً من الخبز في كل يوم .

راويتين من ماء النيل في كل يوم .

قال السيوطي : وقد استمرت المدرسة بيد الخبوشاني الى ان مات سنة ٥٨٧ هـ فوليها شيخ الشيوخ صدر الدين ابو الحسن محمد الجويني في حياة الواقف ، فلما مات الواقف عزل عنها واستمرت عليها أيدي بني السلطان واحداً بعد واحد . . . . وكذلك تداولتها أيدي من جاء بعد الأيوبيين من سلاطين ، واضطربت المعاليم تبعاً لذلك فمرة تخلو من المدرسين ويكتفى فيها بالمعيدين ، ومرة يعين فيها مدرس بنصف المعلوم ، وأخرى يعين بها مدرس بربع المعلوم ، فلما تولاها برهان الدين الخضر السنجاري قُرِّر له المعلوم الشاهد به كتاب الوقف دون خصم [١] .

وقد بنى صلاح الدين مدرسة أخرى أسماها المدرسة السيوفية ، وقرر في تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتي ، ورتب له في كل شهر أحد عشر ديناراً [٢] .

وهناك نوع آخر من المدرسين ينبغي ألا يُنْسى في مجال الحديث عن الحالة المالية لهذه الطائفة من المعلمين ؛ ذلك النوع هو المدرسون الذين كانوا يعلِّمون الثقافة العالية ويتقاضون أجرهم من الطلاب ، فكأن مؤسساتهم كانت بمثابة مدارس خاصة أنشأها هؤلاء المعلمون ، وقد نعم هؤلاء المدرسون بمستوى مالي لائق اذ كان الطلاب يبذلون أقصى ما يطيقون ليحصلوا العلم ؛ حدَّث الزجَّاج قال : كنت أخرط الزجاج فاشتهيت

---

١) انظر حسن المحاضرة ٢ : ١٥٧ .

٢) المقريزي : الخطط ٢ : ٣٦٥ .

النحو ، فلزمت المبرد لتعلمه ، وكان لا يعلّم مجاناً ، فقال لي : أي شيء صناعتك ؟ قلت : أخرط الزجاج وكسبي في كل يوم درهم ودانقان او درهم ونصف ، وأريد ان تبالغ في تعليمي وأنا أعطيك كل يوم درهماً ، وأشرط لك ان اعطيك أياه ابداً الى ان يفرق الموت بيننا ، استغنيت عن التعلّم او احتجت اليه . قال فلزمته وكنت أخدمه في اموره مع ذلك واعطيه الدرهم فينصحني في العلم حتى استقللت ، فجاءه كتاب بعض بني مازمة من الصراة يلتمسون معلماً نحوياً لأولادهم . فقلت له : اسمني لهم . فأسماني ، فخرجت فكنت اعلمهم وأنفذ اليه في كل شهر ثلاثين درهماً وأزيده بعد ذلك بما أقدر عليه ، ومضت مدة على ذلك ، فطلب منه عبيد الله بن سليمان مؤدباً لابنه القاسم ، فقال له : لا اعرف لك الا رجلاً زجاجاً بالصراة مع بني مازمة . فكتب اليهم عبيد الله فاستنزلهم عني فنزلوا له ، فأحضرني وأسلم القاسم اليّ ، فكان ذلك سبب غنائي وكنت أعطي المبرد ذلك الدرهم في كل يوم الى ان مات ولا أخليه من التفقد بحسب طاقتي [1] .

وكان محمد بن علي بن اسماعيل المعروف بمبرمان قيماً بالنحو ، وكان لا يقرىء كتاب سيبويه الا بمائة دينار [2] كما كان الشيخ شمس الدين السيوطي عالماً بالعربية ، ماهراً فيها ، حسن التعليم لها ، وكان يقرىء كل بيت من ألفية ابن مالك بدرهم [3] .

---

١) ياقوت : معجم الأدباء ١ : ٤٧ ـ ٤٨ .
٢) بغية الوعاة ص ٧٤ .
٣) المصدر نفسه ٣٧ .

مدرسو المدارس النظامية

كانت المدارس النظامية معاهد عالية لنشر الثقافة الرفيعة ، ولهذا كان مدرسوها دائماً من خيرة علماء العصر واساتذة الجيل . وقد استطعت ان أجمع عدة اسماء ممن حملوا عبء التدريس بهذه المدارس ، وأصحاب هذه الأسماء لهم شهرة عظيمة وصيت ممتاز بين علماء المسلمين ، وهم خير دليل على المستوى العلمي للمدارس النظامية ، بالاضافة الى ان هذه الاسماء ستفيدنا فائدة عظيمة ، لأنها ستساعدنا على تحديد تاريخ تقريبي لاختفاء المدارس النظامية ، وبخاصة نظامية بغداد أولى هذه المعاهد وجوداً وأعظمها شهرة . وفيما يلي هؤلاء المدرسون مرتبين بحسب تاريخ الوفاة :

اسم المدرس	التاريخ الهجري للوفاة	المدرسة النظامية التي كان يعمل بها	المرجع
أبو اسحق الشيرازي	٤٧٦	بغداد	ابن خلكان ١ : ٦
أبو نصر الصباغ	٤٧٧	»	تاريخ آل سلجوق ص ٧٥
إمام الحرمين : ابو المعالي يوسف الجويني	٤٧٨	نيشابور	ابن خلكان ١ : ٤٠٧
أبو القاسم العلوي الدبوسي	٤٨٢	بغداد	ابن الاثير ١٠ : ٦٧
أبو بكر محمد بن ثابت الخوجندي	٤٨٣	اصفهان	ابن الاثير ١٠ : ٢٥١
محمد بن ثابت الشافعي	٤٨٣	»	سعيد نفيس ص ٢
ابو بكر الشاسي	٤٨٥	هرات	تاريخ الوفاة ذكر تبعاً للسبكي في طبقات الشافعية ٣ : ٧٩ ـ ٨٠ ولابن العماد في شذرات الذهب ٣ : ٣٧٥ ولكن Brockelmann 1 : 390 يتبع ابن الأثير في جعل عام وفاته هو ٥٠٧

اسم المدرس	التاريخ الهجري للوفاة	المدرسة النظامية التي كان يعمل بها	المرجع
محمد بن علي بن حامد	٤٩٥	هرات	ابن قاضي شهبة ١٦٥ أ (خط)
ابو عبدالله الطبري	٤٩٥	بغداد	ابن الأثير ١٠ : ١٢٣
عبد الرحمن بن مأمون	٤٩٨	»	ابن الأثير ١٠ : ٩٦
ابو محمد عبد الوهاب الشيرازي	٥٠٠	»	ابن الأثير ١٠ : ١٢٣
ابو زكريا يحيى الخطيب التبريزي	٥٠٢	»	معجم الأدباء ٧ : ٢٨٧
الكيا الهرسي	٥٠٤	»	كشف الظنون ١ : ٤٥
أبو حامد الغزالي	٥٠٥	بغداد ونيشابور	مقدمة كتاب الاحياء
علي بن محمد بن علي الفصيحي	٥١٦	بغداد	معجم الأدباء ٥ : ٤١٥
أبو الفتح بن برهان	٥١٨	»	طبقات الشافعية ٤ : ٤٢
أبو سعيد البزار	٥٢٠	»	طبقات الشافعية ٤ : ٣٢٣
احمد الغزالي	٥٢٠	»	ابن خلكان ١ : ٣٩
احمد الميهني	٥٢٧	مرو	طبقات الشافعية ٤ : ٢٠٣
معين الدين سعيد بن الرزاز	٥٣٨	بغداد	الروضتين ١ : ١٨٥
» » » »	»	»	شذرات الذهب ٤ : ١٢٢
موهوب بن احمد الجواليقي البغدادي	٥٣٩	»	معجم الادباء ٧ : ١٩٨
محمد بن يحيى	٥٤٨	نيشابور	ياد جار (صحيفة فارسية)
ابو سعيد احمد بن ابي بكر	٥٥١	اصفهان	ابن الاثير ١١ : ٣٥
شرف الدين يوسف الدمشقي	٥٥٧	بغداد	» ١١ : ١٧٤
الشيخ ابو النجيب	٥٦٣	»	» ١١ : ١٠٠
يوسف الدمشقي	٥٦٣	خورستان	» ١١ : ٢١٩
رضي الدين القزويني	٥٧٥	بغداد	ابن جبير ٢١٩
ابو البركات الانباري	٥٧٧	»	ابن خلكان ١ : ٣٩٤ـ٣٩٥
ابو الخير اسماعيل القزويني	٥٨١	»	ابن الاثير ١١ : ٣٤٤
ابو طالب المبارك بن المبارك	٥٨٥	»	معجم الادباء ٦ : ٢٣٠
محيي الدين ابو حامد	٥٨٦	الموصل	الدكتور داود جلبي : مخطوطات الموصل ص ١٠
مجد الدين ابو علي يحيى بن الربيع	٦٠٦	بغداد	ابن الاثير ١١ : ٣٤٤
يحيى بن القاسم	٦١٦	»	معجم الادباء ٧ : ٢٨٩

اسم المدرس	التاريخ الهجري للوفاة	المدرسة النظامية التي كان يعمل بها	المرجع
بهاء الدين بن شداد	٦٣٢	بغداد	Hitti. p. 411
نجم الدين الباذرائي	٦٥٥	«	النعيمي ١ : ٢٠٥
ابو المناقب الزنجاني	٦٥٦	«	طبقات الشافعية ٥ : ١٥٤
شمس الدين الكيشي	٦٦٥	«	العزاوي ١ : ٢٦٣
ناهد الدين الفاروقي	٦٧٢	«	« ١ : ٢٧٥
مجد الدين بن جعفر	٦٨٢	«	« ١ : ٣١٨
شرف الدين الشهرستاني	٦٩١	معيد ببغداد	تاريخ علماء بغداد ص ٣٧
محمد بن العقيلي	اوائل القرن الثامن	بغداد	العزاوي ٢ : ٢٢٦
عبدالله بن بكتاش	اواخر القرن الثامن	«	« ٢ : ٣٢٩
الفيروز ابادي	٨١٧	معيد مع ابن بكتاش ببغداد	نفس المرجع

ملحوظات :

١ – من الطبيعي ان نظام الملك كان يعين مدرسا لأية مدرسة من مدارسه يتم بناؤها ، وكثيراً ما كانت المدرسة تبنى من اجل مدرس وفي هذه الحالة كان تعيين المدرس يسبق بناء المدرسة ، غير ان شيئاً غير عادي حدث عند افتتاح المدرسة النظامية ببغداد فلزمت الاشارة إليه .

حدث ابن الاثير [١] قال : وفي ذى القعدة من سنة تسع وأربعين وأربعمائة فرغت عمارة المدرسة النظامية ببغداد ، وتقرر التدريس بها للشيخ أبي اسحق الشيرازي ، فلما اجتمع الناس لحضور الدرس ، وانتظروا مجيئه ، تأخر ، فُطلب فلم يوجد ، وكان سبب تأخره أنه لقيه شخص فقال له :

١) الكامل في التاريخ ١٠ : ٣٨ .

كيف تدرس في مكان مغصوب ؟ فتغيرت نيته عن التدريس بها ، فلما ارتفع النهار ويئس الناس من حضوره أشار الشيخ ابو منصور بن يوسف بأبي نصر بن الصباغ صاحب كتاب الشامل ، وقال : لا يجوز أن ينفصل هذا الجمع إلا عن مدرس ، فجلس أبو نصر ، ولما علم نظام الملك الخبر لم يزل يرفق بالشيخ أبي اسحق ويزيل شكوكه حتى درس بالمدرسة وكانت مدة تدريس ابن الصباغ عشرين يوما .

٢ ـ في حدود الجهد الذي بذلته والمراجع التي أتيح لي الاطلاع عليها نستنبط من القائمة السابقة أن المدرسة النظامية ببغداد كانت أطول عمراً من سواها فقد ظل ذكرها يرد في المراجع في حين اختفى ذكر نظامية خراسان والموصل ونيشابور واصفهان ومرو وغيرها من المدارس النظامية التي ورد ذكرها في القرنين الخامس والسادس ، وهذا يوحي بأنه فيما عدا نظامية بغداد ـ اختفت هذه المعاهد العليا تدريجيا في خلال القرن السادس ، وكان سبب اختفائها كثرة الحروب والفتن التي اجتاحت هذه البلاد عقب انحلال أسرة السلاجقة ، ولكن نظامية بغداد كانت في العاصمة ، وكانت أغنى وأعظم ، فكسبت بعض القوة ، وقاومت الأحداث حتى مطلع القرن التاسع ، ويبدو أنها أيضاً اختفت حوالى ذلك التاريخ ، إذ لم يوجد اي ذكر لها بعد الفيروز ابادي الذي توفي في أوائل ذلك القرن ، وعندنا عوامل أخرى تدعم هذه الفكرة ، ففي هذا التاريخ انشغل التركمان الذين دخلوا بغداد سنة ٨١٣ بحروب طاحنة مع المصريين في سوريا ، ومع الفرس ، ومع الأتراك في الأناضول ، وكانت هذه الحروب معارك تهديم وتخريب ،

اكتسحت كثيراً من آثار بغداد ومنشآتها ومن المعتقد أن المدرسة النظامية كانت احدى هذه المنشآت التي أتت عليها هذه الحروب ، كما أحدثت هذه الحروب أزمة مالية كان من جرائها أن اغتصب الحكام والولاة أوقافها ، ثم تهدمت فأصبحت خربة واستولى عليها أحد الولاة وضمها إلى أملاكه الخاصة [1] وهكذا كانت النهاية التعسة لهذا المعهد العظيم .

٣ ـ وامتدت التعاسة الى موقع هذا المعهد ؛ فان الباحثين لا يتفقون على موضع معين يرون ان النظامية كانت تشغله ، إذ أن مكان المدرسة كما سبق استولى عليه السالبون والناهبون وضمّوه إلى ممتلكاتهم الخاصة ، وليس فيما رأيت من مراجع ما يعطي فكرة نهائية عن ذلك المكان ، ومن أجل هذا حاولت إبان زياراتي لبغداد سنة ١٩٥٠ أن أحدد ولو بوجه التقريب موقع هذه المدرسة واستعنت في ذلك بالدكتور مصطفى جواد كما استعنت بغيره من علماء العراق الأفاضل واستهدينا كذلك بالمادة الطفيفة التي كتبت عن موقع هذا المعهد [2] ، وقد زرت ومعي الدكتور مصطفى جواد البقعة التي يظن ان المدرسة النظامية كانت مشيدة فيها ، واختبرنا بعض الآثار والأبنية القليلة التي لا تزال قائمة ، وكانت نتيجة هذه الأبحاث أن اعتقدنا ان سوق الخفافين يشغل المكان الذي كانت تشغله المدرسة النظامية ببغداد ، كما يظهر في الرسم التالي الذي يبدو أنه أقرب ما يكون إلى تصوير المنطقة في القرن السابع الهجري [3] .

---

١) انظر مقالا للاستاذ مصطفى جواد بمجلة العلم الجديد سنة ١٩٤٢ ص ١١٥ .
٢) انظر ابن الاثير ١٠ ص ٧١، ٧٣ وانظر كذلك طبقات الشافعية ٣ : ٩٠ .
٣) انظر مقال الدكتور مصطفى جواد السابق .

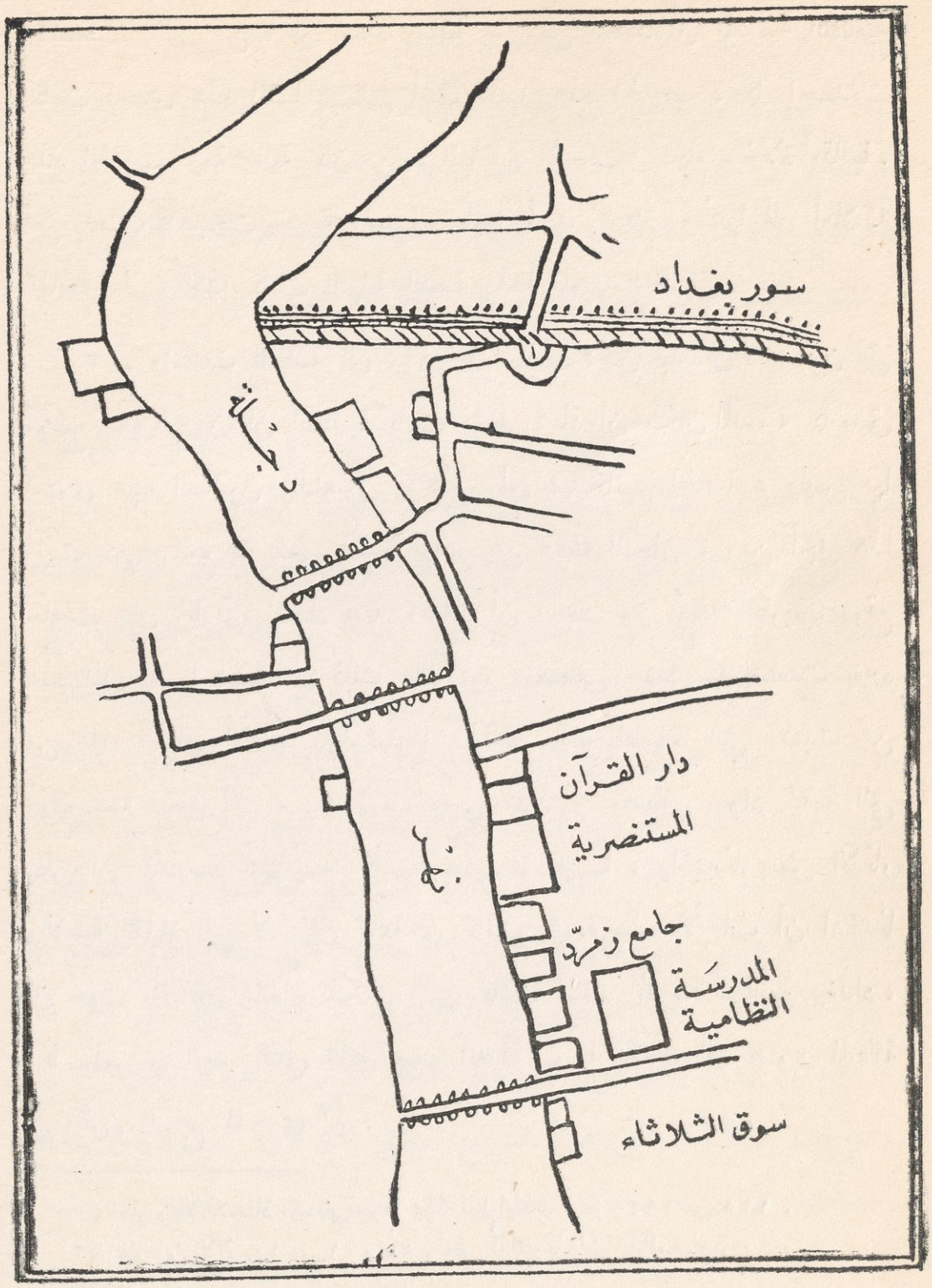

خريطة تقريبية لبغداد في القرن السابع الهجري
ويظهر بها موقع المدرسة النظامية

المعيدون

حددت المراجع العربية مكانة المعيد وعمله ؛ فهو دون الشيخ وأعظم درجة من عامة الطلبة ، وهو الذي يعيد الدرس بعد القاء الشيخ الخطبة على الطلبة ، (الخطبة هي المحاضرة في الاصطلاح الحديث) كأنه معين الشيخ على نشر العلم [١] . وذكر السبكي [٢] أن المعيد يجلس مع الطلاب لسماع المحاضرة ، ولكنّ عليه قدراً زائداً على السماع من تفهيم بعض الطلبة ، ونفعهم ، وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة بعد انتهاء الشيخ من الدرس . فعمل المعيد اذاً يبدأ عندما ينتهي عمل المدرس ، ويشمل عمل المعيد شرح النقاط الصعبة من الدرس او مساعدة محدودي الذكاء من الطلاب لفهم ما صعب عليهم فهمه في الجولة الأولى .

ومن المعتقد ان هذه الوظيفة قد ظهرت في القرن الخامس الهجري ، والذي دعا الى مثل هذا الاعتقاد انه لم يرد لها ذكر فيما أعلم قبل ذلك التاريخ ، ثم ـ وهو الأكثر دعماً لهذه الفكرة ـ ان وظيفة المعيد ارتبطت غالباً بالمدارس وهذه المدارس بدأ ظهورها في النصف الثاني من القرن الخامس ، أما لماذا ارتبطت وظيفة المعيد بالمدارس فان السبب في ذلك ان المدرسة جمعت طلاباً تتفاوت مقدرتهم العلمية فاحتيج الى المعيد ليساعد المتخلفين حتى يتمكنوا من مسايرة الآخرين ، اما في المساجد فكان الطالب اذا احس تخلفه العلمي عن طلاب حلقة ما رغب عنها الى سواها

---

١) تذكرة السامع ١٥٠ بالهامش.

٢) معيد النعم ومبيد النقم ١٥٤ ـ ١٥٥ .

من الحلقات التي يناسبه مستواها .

وبجانب هذا كان هناك طلاب نابغون برزوا في الحلقات ، وزاد ارتباطهم بمدرسيهم ، ففضلوا ان يعملوا مساعدين لهم او معيدين لدروسهم عن ان يستقلوا عنهم ويكوّنوا لانفسهم حلقات خاصة . حدّث ابن خلكان [1] قال : صحب ابو اسحق الشيرازي أبا الطيب الطبري كثيراً ، وانتفع به ، وناب عنه في مجلسه ، ورتبه معيداً في حلقته ثم صار إمام وقته ببغداد .

وقد كثر ورود ذكر المعيدين متصلين بالمدارس النظامية ؛ حكى ابو شامة [2] أن أبا الفتح بن ابي الحسن الأشتري الفقيه كان يشتغل معيداً بالنظامية ، كما حكى ابن الأثير [3] ان ابا الحسن علي بن علي بن سعادة المتوفى سنة ٦٠٢ كان ايضاً يشتغل معيداً بالنظامية .

ومنذ العهد الايوبي اصبح منصب المعيد منصباً مرموقاً ، وقل ان خلت منه مدرسة من المدارس التي انشئت في ذلك العهد ، فقد عيّن صلاح الدين معيدين بالمدرسة الناصرية الى جانب الخبوشاني مدرسها وناظر وقفها [4] ، وفي المدرسة الصلاحية التي أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب كان يشتغل اربعة من المدرسين وقد عين لكل منهم معيدان يساعدانه [5] .

---

١) وفيات الأعيان ١ : ٥

٢) الروضتين ١ : ١٣ .

٣) الكامل ١٢ : ١٦١ .

٤) السيوطي : حسن المحاضرة ٢ : ١٥٧ الخطط ٢ : ٤٠٠ .

٥) الخطط ٢ : ٣٧٤ .

ومن المعروف ان المستوى العلمي للمدارس كان مختلفاً ، ومن أجل هذا كان من الممكن ان يُختار معيد في مدرسة ليكون مدرساً في مدرسة أخرى لأن المدرسة الأولى ارقى من الثانية في مستواها الثقافي فلا تقل وظيفة المعيد فيها عن وظيفة المدرس في المدرسة الأخرى ، بل ربما شغل شخص واحد الوظيفتين معاً في وقت واحد . ويقبل المدرس في مدرسة ما أن يظل معيداً في مدرسة اخرى اذا كانت الإعادة مع استاذ ذي علم واسع ، وخبرة كبيرة ، يرجى من العمل تحت اشرافه مزيد من المعرفة والاستفادة . وقد روى السيوطي [1] ان النصير ابن الطباخ كان إماماً متبحراً في الفروع .... درس بالقطبية وأعاد بالصالحية عند ابن عبد السلام . وكان من الممكن ايضاً ان يقوم المعيدون بالتدريس في مدرسة ما دون ان يكون معهم مدرس ، وهم في هذه الحالة يقومون بعمل المدرس واختصاصه دون ان يكون لهم أجرُه ، يحكي السيوطي [2] ان المدرسة الصلاحية خلت من مدرس ثلاثين سنة واكتفي فيها بالمعيدين ثم عُيِّن فيها مدرس بعد ذلك [3] .

اخلاق المدرسين وواجباتهم*

عقد القلقشندي في صبح الأعشى [4] فصلا طويلا للكلام عن صنعة

---

١) حسن المحاضرة ١ : ١٩٤ .
٢) المرجع السابق ٢ : ١٥٧ .
٣) انظر ايضاً خطط المقريزي ٢ : ٤٠٠ .
* من اهم المراجع التي اهتمت بآداب العالم والمتعلم هو منية المريد في آداب المفيد والمستفيد لعلي ابن احمد العاملي فقد تحدث حديثاً مفصلا عن آداب العالم والمتعلم في نفسهما ثم في درسهما .
٤) ج ٢ من صفحة ١٨٣ الى صفحة ٣٢٨ .

الكلام ، ومعرفة كيفية إنشائه ونَظْمه وتأليفه ، وم يستعمل القلقشندي لفظ المدرس في ذلك الفصل مما قد يوحي بأنه غير مقصود ، ولكن النظرة الفاحصة تنبىء بأن المدرس مقصود في هذا الفصل دون تردد ، والسبب في ذلك ان القلقشندي استعمل لفظ الخطيب والخطابة ، كما استعمل عبارة صانع الكلام . وقد مر بنا في حديثنا عن المعيدين أن كلمة الخطبة كانت تطلق على ما نسميه الآن المحاضرة ، فالخطيب إذاً هو المحاضر ، ثم ان عبارة صانع الكلام تشمل المدرس دون عناء .

فاذا كنا سنعد ذلك الحديث المفيد شاملا المدرس فان الأوصاف التي أوردها القلقشندي له قريبة جدا من الشروط التي تتطلبها معاهد التربية في الاختبارات المهنية التي يجرونها لراغبي الالتحاق بها ليعدوا أنفسهم لوظيفة التدريس .

يشترط القلقشندي فيه من الصفات الجسمية حسن القد ، ووضوح الجبين ، وسعة الجبهة ، وانحسار الشعر فيها .

ويشترط له من الصفات العقلية العقل ، وثقافة الذهن ، وحدة الفهم .

ويشترط من الصفات الخلقية العدل ، والعفة ، وسعة البال ، في الفضل . ويضع القلقشندي له دستورا قويما لاعداد الفكرة والقائها كما يلي :

إذا أردت ان تصنع كلاما فأخطر معانيه ببالك ، ونقِّ له كرائم اللفظ فاجعلها على ذكر منك ليقرب تناولها ، ولا تتقدم الكلام تقدما واستعمل جزل الألفاظ ، وسهلها ، وفصيحها ، وسلسلها ، وتجنب كل ما يكسب الكلام تعمية .

وفي كتاب منهاج المتعلم [1] ذكر لكثير من هذه الصفات والارشادات مع نسبتها نسبة صريحة للمدرسين .

وبالاضافة إلى هذه المراجع السابقة نجد كثيرا من المؤلفين المسلمين مثل الزرنوجي وابن جماعة والغزالي والعبدري يهتمون اهتماما كبيرا بأخلاق المدرسين وواجباتهم ومن هذه المصادر جميعا يمكن كتابة نبذة موجزة عن أهم ما يجب ان يتصف به المدرسون :

ينصح ابن المقفع [2] من نصب نفسه للناس إماما في الدين أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والرأي واللفظ ، فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه .... ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم . قال الله تعالى « أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم [3] » وقال الحسن : لا تكن ممن يجمع علم العلماء ، وطرائف الحكماء ، ويجري في القول مجرى السفهاء ، وليذكر المعلم أن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الابصار أكثر [4] .

ثم على المعلم أن يُشْفِق على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه ، والا يدع من نصح المتعلم شيئاً ، وان يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها ، ثم ينبهه أن الغرض من طلب العلم الثقافة والقرب من الله دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، وان يهتم بأخلاق التلاميذ اهتمامه بعقولهم ، وان

---

١) ٩ ب مخطوط مجهول المؤلف بحلب .
٢) الأدب الصغير ص ١٤ من رسائل البلغاء الذي جمعه كرد علي .
٣) سورة ٢ آية ٤١ .
٤) الغزالي، الاحياء ١ : ٤٨ - ٤٩.

يزجرهم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما امكن ، ولا يصرح بالزجر إلا عند الضرورة [١] .

وعليه ان يختار للمبتدىء المسائل البسيطة كثيرة الوقوع ، لأن ذلك أقرب الى الفهم والضبط [٢] ، وقد قال الرسول : من حدث الناس بحديث لا يفهمونه كان فتنة على بعضهم [٣] وعلى المتكفل ببعض العلوم الا يقبح علوم الآخرين في نفس المتعلم [٤] ، وعلى المعلم الا يتردد في ان يقول : لا ادري اذا كان لا يدري [٥] .

وعلى المدرس ان يربي في التلميذ ملكة الاجتهاد والنظر لا مجرد التقليد والتسليم حتى ينشأ مستقلا لا نسخة من معلمه [٦] .

وينصح ابن جماعة [٧] المدرس ألا يدرس وقت جوعه او عطشه او همه او غضبه او اضطرابه او قلقه ، وينصحه كذلك ألا يطيل الدرس تطويلاً يُملّ ولا يقصره تقصيراً يُخل ، ويراعي في ذلك مصلحة الحاضرين ، ثم عليه الا يجاوز صوته مجلسه ، ولا يقصُر عن سماع الحاضرين .

وعليه ألا يكون في مجلسه مكان مميز لآحاد الناس بل كل من سبق لموضع فهو أولى به ، هذا مع استثناء ما تدعو اليه الضرورة العلمية من

---

١) الغزالي : الاحياء ١ : ٤٦ ـ ٤٧ .
٢) الزرنوجي : تعليم المتعلم ص ٢٢ .
٣) الغزالي : الجام العوام عن علم الكلام ص ٣٣.
٤) الغزالي : الاحياء ١ : ٤٧.
٥) الغزالي رسالة الادب في الدين ص ٤٣ من الجواهر الغوالي .
٦) كتاب الارشاد والتعليم لبعض رجال الصوفية ص ٩٠ .
٧) تذكرة السامع والمتكلم صفحات ٣٣ ، ٣٨ ، ٣٩ .

جلوس العلماء والمعيدين في امكنة خاصة [1] .

وقد ذكر الغزالي في رسالة « الأدب في الدين » آداباً خاصة لمعلم الصبيان اذ انهم لم يكوّنوا في هذه السن استقلالهم ، فهم ينظرون الى مدرسهم على انه نموذج صالح يقلدونه ؛ فعليه ان يدرك ذلك ، فأعين التلاميذ اليه ناظرة وآذانهم اليه مصغية ؛ فما استحسن فهو عندهم الحسن وما استقبح فهو عندهم القبيح [2] .

واخيراً يجب على المدرس ان ينظر الى تلاميذه نظرة مساواة وإنصاف وعدل وألا يميز بحال من الاحوال بين اولاد الأغنياء واولاد الفقراء [3] .

الاجازات العلمية

لم تعرف الشهادات الدراسية في العهد الأول للاسلام ، وكان الطالب يسعى لطلب العلم ما أتيح له الفراغ والمال والموهبة ، ويكتفي بالقليل من العلم أو يجمع منه الكثير على حسب ظروفه الخاصة ، فاذا كان يقصد أن يكون مدرساً فانه ايضاً يترك له ان يقرر وقتما يرى ذلك ممكنا ـ انه اصبح ذا كفاءة تؤهله لأن يجلس مجلس الشيوخ ؛ غير ان مجلس الشيوخ هذا لم يكن يسيرا ، ولهذا كان الطالب يتردد طويلا قبل ان ينقل نفسه من مجلس التعلّم الى مجلس التعليم ، وكان مجلس التعليم يُرْهب بسبب الأسئلة الكثيرة التي يمطرها الطلاب على المدرسين ، وبخاصة على

---

١) العبد ري : المدخل ١ : ١٩٩ .
٢) الأدب في الدين ص ٤٣ من الجواهر الغوالي .
٣) العبدري . المدخل ٢ : ١٥٨ .

اولئك الذين هم حديثو عهد بهذه المنزلة ، فاذا استطاع المدرس الجديد ان يَثْبُت امام النقاش والأسئلة التي كانت تصل احيانا درجة التحدي ، واذا وُفِّق في الإجابة عنها واقناع الذين تحلقوا حوله فانه حينئذ يستطيع ان يستمر في عمله ويواصل التدريس ، ولا حرج عليه بعد ذلك ان يزل او يهفو ما دام قد اجتاز العاصفة الشديدة التي كانت تهب ضد المدرسين في اول عهدهم بهذا العمل . اما اذا عجز في جلساته الأولى عن إقناع التلاميذ والإجابة عن اسئلتهم فان عليه حينئذ ان يعود الى حيث كان ، طالبا يتلقى العلم في مجالس الشيوخ : روي ان ابا حنيفة كان يلتحق بحلقة حماد بن ابي سليمان ، ثم أحس ان في مقدوره ان يستقل عنه ، ويكوِّن لنفسه حلقة يعلِّم فيها ففعل ، ولكن طالبا سأله سؤالا لم يستطع ان يجيب عنه ففض حلقته وعاد الى حلقة استاذه [1] .

ورُوِي ان أبا يوسف مرض مرضاً شديداً فعاده استاذه الامام ابو حنيفة النعمان وقال له : لقد كنتُ أؤملك بعدي للمسلمين . . . . فلما برىء ابو يوسف اعجب بنفسه بسبب شهادة شيخه له ، فعقد مجلسا للأمالي ، فلما عرف ابو حنيفة ذلك ادرك ان ابا يوسف تعجل ، فأرسل ابو حنيفة له رجلا يسأله عن خمس مسائل :

الأولى : قصار جحد الثوب ثم جاء به مقصورا ، هل يستحق الأجر ام لا ؟ فأجاب أبو يوسف : يستحق الأجر . فقال له الرجل : أخطأت . فقال : لا يستحق . فقال : أخطأت . ثم قال له الرجل : ان كانت

---

١) السيوطي : تبييض الصحيفة في مناقب أبي حنيفة ص ١٥ .

القصارة قبل الجحود استحق والا فلا .

الثانية : هل الدخول في الصلاة بالفرض ام بالسنة ؟

الثالثة : طير سقط في قدر على النار فيه لحم ومرق هل يؤكل ام لا ؟

الرابعة : مسلم له زوجة ذمية ماتت وهي حامل منه ففي اي المقابر تدفن ؟

الخامسة : ام ولد تزوجت بغير اذن مولاها فمات المولى ، هل تجب العدة من المولى ؟

وكان ابو يوسف يجيب الرجل في كل منها بالايجاب مرة وبالنفي اخرى ، وكانت الاجابة خطأ على كلا الوجهين على نحو ما ذكر في المسألة الأولى . فأدرك ابو يوسف تقصيره وعاد الى ابي حنيفة فقال له : تزبَّبْت قبل ان تحصرم ، من ظن انه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه [1] .

اما واصل بن عطاء فكان في اول امره يجلس الى الحسن البصري ، فلما ظهر الاختلاف ، وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبيرة ، وقالت الجماعة بايمانهم خرج واصل عن الفريقين ، وقال بمنزلة بين المنزلتين واعتزل مجلس الحسن البصري ، وتحلق حوله الناس ، فاستطاع ان يبرهن لهم على كفاءته وجدارته بمجلسه الجديد ، فظل يجلس مجلس الشيوخ منذ ذلك الحين [2] .

وسار الحال على ذلك ، غير انه كان للحديث وروايته عناية خاصة عند المسلمين ، فلم يُكْتَفَ فيه بما اكتُفِيَ به مع سواه من العلوم ، وكان نظام العنعنة ضروريا ومتبعاً في رواية الحديث ، ولم يكن المدرس

---

١) محمد زاهد الكوثري : أبو يوسف القاضي ص ٥٧ ـ ٥٨ .

٢) ابن خلكان : الوفيات ٢ : ٢٥٢ ، ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٢٢٤ .

يجرؤ على روايته جراءته على تدريس اية مادة اخرى ، وللدقة في ذلك كان المحدثون منذ عهد مبكر يعطون طلابهم الذين يأخذون عنهم شهادة بما رووا لهم من احاديث ويجيزون لهم روايتها عنهم .

ثم انتقل هذا من الحديث الى سواه من العلوم ، فاذا ثابر الطالب على الاستماع لأمالي الشيخ في الأدب او التاريخ او غيرهما ، او لشرح يقوم به المدرس لكتاب ما وتأكد المدرس من استفادة الطالب كتب له شهادة على الورقة الاولى او الاخيرة من الكتاب يقول فيها مثلاً « اتم فلان قراءة هذا الكتاب .... واجزت له تدريسه .... » والكتابة نفسه يعيِّن اتجاه ثقافة الطالب إن فقهاً او ادبا او تاريخا او غيرها ، ثم يعيِّن الى حد كبير درجة هذه الثقافة ؛ اذ تتفاوت الكتب من حيث العمق والتفاصيل تفاوتا يجعل من اليسير ان تُعرف درجة الثقافة من معرفة عنوان الكتاب او عناوين الكتب التي قرأها الطالب ونال عليها شهادات اساتذته . وعلى هذا كان يمكن ان يحصل الطالب على اجازة في موضوع في حين يظل طالبا بالنسبة لموضوع آخر .

وقد بذل الشيخ العلامة أغا بزرك احد علماء النجف جهداً كبيراً في جمع وتسجيل وترتيب نصوص أكثر الشهادات التي صدرت من او الى مشاهير العلماء فهو بهذا مرجع هام في ذلك الموضوع ، وقد اتيح لي ان أجلس معه ابّان زيارتي للنجف حيث دارت في مجلسه افانين من العلم والمعرفة ، وقد سألته عن أقدم شهادة معروفة ، فتفضل وأطلعني على مخطوط كتبه بيده وهو الجزء الرابع من « الذريعة الى تصانيف الشيعة »

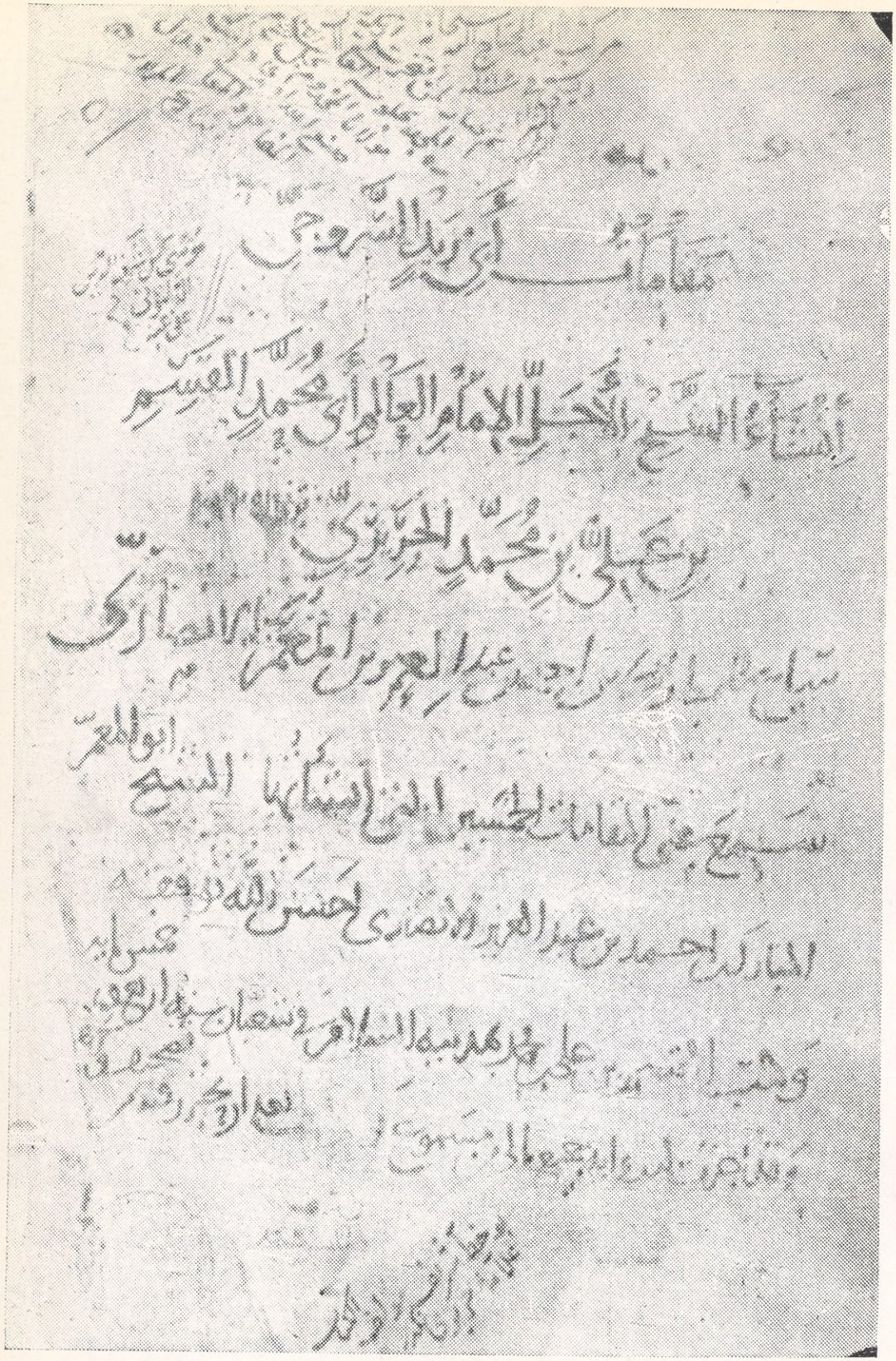

شكل رقم (١٣) اجازة علمية بخط الحريري صاحب المقامات

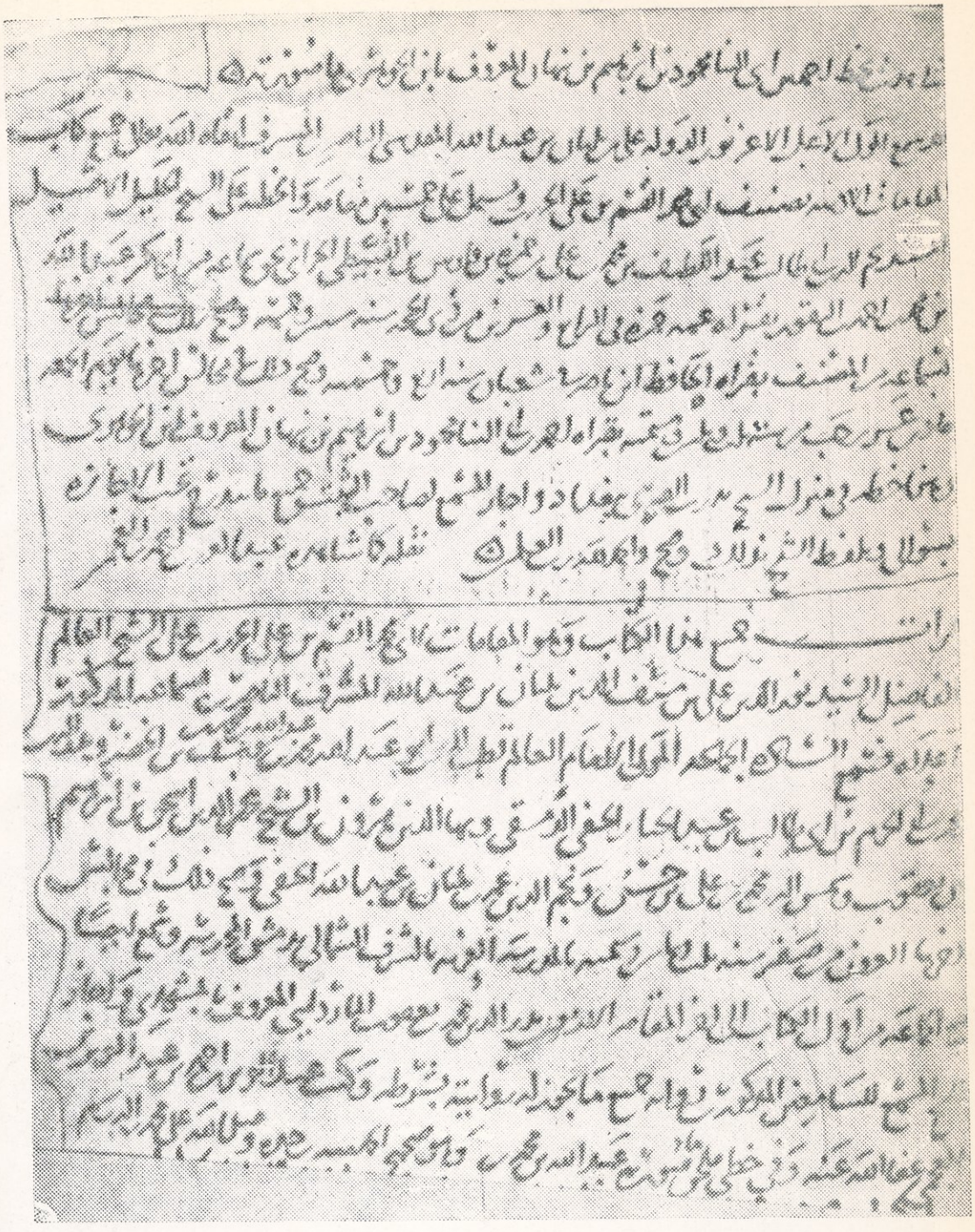

اجازتان علميتان اولاهما بخط عبد اللطيف بن محمد يجيز بها علي النصيري والثانية بخط علي النصيري يجيز بها ستة من تلاميذه. وهاتان الاجازتان تظهران في مخطوط يحوي مقامات الحريري. شكل رقم (١٤)

وفيه ان اقدم شهادة معروفة هي الصادرة سنة ٣٠٤ هـ وقد منحها محمد بن عبدالله بن جعفر الحميري الى ابي عامر سعيد بن عمرو ، اما الكتاب الذي مُنِحتْ الشهادة عليه فهو « قرب الإسناد » ونص الشهادة هو :

بسم الله الرحمن الرحيم

أطلقت لك يا أبا عامر سعيد بن عمرو ان تروي هذا الكتاب عني عن ابي على تمام هذا الكتاب وما كان فيه عن بكر الازدي وسعدان ابن مسلم .... وكتب محمد بن عبدالله بن جعفر الحميري بخطه في صفر سنة ٣٠٤ هـ .

وفي دار الكتب المصرية توجد نسخة خطية لمقامات الحريري وقد سُجِّل على هذه النسخة احدى وعشرون اجازة كتب اولاها مؤلف المقامات نفسه ونصها كالآتي :

سمع عني المقامات الخمسين التي انشأتها الشيخ ابو المعمر المبارك احمد ابن عبد العزيز الأنصاري احسن الله توفيقه ، وكتب القاسم بن علي بن محمد بمدينة السلام في شعبان سنة اربع وخمسمائة ، وقد اجزت له رواية جميع مالي من مسموع . (انظر الشكل رقم ١٣)

وهناك اجازتان أخريان نقلت صورتهما هنا (الشكل رقم ١٤) لايضاح حقيقة هامة ، هي ان اكثر الاجازات الصادرة عن غير المؤلف كان يذكر فيها الشيوخ الذين يتسلسلون من المؤلف حتى المجيز ، فيقول المجيز : اجزتك بحق سماعي من .... بحق سماعه من .... وهكذا حتى المؤلف .

ومن الحق ان نوضح ان لفظ (سماع) هو اللفظ الاصطلاحي الذي يطلق على الشهادات التى وردت لها بعض النماذج والتي تُمنَح بعد ان يتم الاتصال بين المدرس والطالب فيسمع هذا من ذاك و يُمنَح (سماعاً) يبيح المدرس فيه للطالب ان يروي عنه ما رواه له .

اما لفظ (الاجازة) في الاصطلاح فيدل على اذن يُمنح بدون تعليم ، يمنحه شيخ الى آخر يجيز فيه الاول للثاني رواية احاديث معينةٍ رواها الاول او تدريسَ كتاب أَلَّفه .

واذا كان السماع جائزاً عند الجميع فان الاجازة دون تعليم موضع خلاف بين العلماء ، فقد روى بعضهم ان الشافعي لا يجيز الرواية عن طريق الاجازة بدون سماع العلم مباشرة من المدرس ، ولكن ابا العباس الوليد بن بكر تصدَّى في كتابه (الوجازة في صحة القول بأحكام الاجازة [1]) للرد على ذلك ونسب السهو لمن نقل هذه الدعوى عن الشافعي [2] .

والاجازة من هذا النوع تدل على المستوى العلمي لمن منحت له كما يدل عليه السماع ؛ اذ ان الشيوخ ما كانوا يمنحون الاجازة من هذا النوع الا لمن كان ذا معرفة تهيىء له ان يجيد تدريس الكتاب المجاز به ، او رواية الأحاديث المأذون له في روايتها . ويشترط لصحة الاجازة ان يكون الفرع معارضاً بالأصل حتى كأنه هو ، وان يكون المجيز عالما بما يجيز به ، ثقة في دينه وروايته ، معروفاً بالعلم ، وان يكون المستجيز من

---

١) مخطوط ملك الاستاذ عباس العزاوي ببغداد .
٢) انظر ظهر الورقة رقم ٤١ ووجه الورقة رقم ٤٢ .

اهل العلم ، متسماً بسمة حتى لا يوضع العلم الا عند اهله [١] .

وللاجازة ضروب :

١ ـ ان يقول الراوي للطالب : خذ هـذا الجزء فانه من حديثي ، وانا عالم بما فيه من العلم ، فحدِّث به عني ، او استنسخه وقابله وحدِّث به عني ، ويسمى هذا الضرب مناولة وهو أعلى مراتب الاجازة [٢] .

٢ ـ ان يكتب الراوي : الى فلان بن فلان ؛ اني قد أجزت لك ما سمعه مني فلان او ما تضمنه الجزء الفلاني وهو شبيه بالمناولة عند ثبوت الخط [٣] .

٣ ـ ان يقول الراوي : اني قد أجزت لك بجميع ما صح عندك ويصح من حديثي .... وهـذا أخفض مرتبةً من الذي كتبت اجازته بشيء مسمى [٤] .

وأقدم اجازة معروفة ـ تبعا لرأي الشيخ اغا بزرك ـ هي التي اعطاها سنة ٣١٣ هـ محمد بن محمد بن الأشعث الى هرون بن موسى العكبري ليروي الثاني عن الاول اشياء عددها الاول في كتابه [٥] .

وكثيراً ما كان الشيخ يعطي شهادة هي في الواقع سماع واجازة ؛ فاذا جلس طالب امام شيخ ، واخذ عنه احد مؤلفاته فيغلب حينئذ ان يكتب الشيخ يجيز للطالب ان يروي عنه ما سمعه منـه وما لم يسمعه من مؤلفات

---

١) المرجع السابق رقم ٣٠ ب ، ٣١ أ .
٢) المرجع السابق ٢٢ ، ٢٣ ملخص .
٣) المرجع السابق ٢٤ أ .
٤) المرجع السابق ٢٤ ب ، ٢٥ أ .
٥) أغابزك : رسالة مشيخة العكبري مخطوط .

اخرى . كتب السخاوي يجيز احد تلاميذه ان يروي عنه كتابه الضوء اللامع وغيره من الكتب فكان فيما قال :

الحمد لله ، كتاب الضوء اللامع قرأه عليَّ كاتبه عبد العزيز بن عمر ابن محمد بن فهد الهاشمي المستغني بشريف اوصافه عن تكرير التعريف به و بأسلافه ، زاده الله تعالى فضلا وافضالا ، وأعاذه من المكروه حالا ومآلا ، ورحم اصوله ، وضم شمله بفروعه ، و بلَّغه فيهم مأمولَه ، وأجزت له روايته عني مع سائر مروياتي ومؤلفاتي قاله وكتبه مؤلفه [1] .

ولبعض العلوم كالطب خطورة عظيمة اذ قد تزهق ارواح الناس بسبب جهل من يعانيه ، ولذلك نجد أنه منذ عهد مبكر اشتُرِط على من يرغب في الاشتغال بهذه المهنة ان يجتاز امتحاناً وينال شهادة مكتوبة تحدد له الامراض التي يمكن ان يتصدى لعلاجها . حكى ثابت بن سنان بن ثابت ابن قرة قال : في سنة ٣١٩ اتصل بالمقتدر ان غلطاً جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل ، فأمر المقتدر ابرهيم بن محمد بمنع سائر المتطببين من التصرف الا من امتحنه والدي سنان بن ثابت وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له من الصناعة . فصاروا الى والدي فامتحنهم واطلق لكل واحد منهم ما يصلح ان يتصرف فيه [2] .

العقوبات

عقد ابن خلدون فصلاً عن الشدة على المتعلمين وانها مضرة بهم ، أكد فيه ان ارهاق الجسد في التعليم يضر بالمتعلم سيما في أصاغر الوُلْد ،

(١ السخاوي : الضوء اللامع ١٢ : ١٦٨ .
(٢ ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ١ : ٢٢٢ .

لأن من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين ذهب نشاط نفسه ، ودعاه ذلك الى الكسل ، وحمله على الكذب ، والتظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه ، وربما صارت له هذه عادة وخلقا فتفسد معاني الانسانية عنده وتكسل نفسه عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، لأنه تعوَّد ان يكتسب الفضائل خوف القهر والشدة ، فاذا رُفع القهر عنه يوما بَعُد عن الفضائل وربما سلك طريق الرذيلة [1] .

وقد كان رأي ابن خلدون في ترك الشدة والقهر في معاهد العلم رأياً معترفاً به ، غير ان المسلمين فرقوا بين الشدة وبين الضرب الخفيف يلجأ له المعلم عند الضرورة فحرَّموا الاول واباحوا الثاني ، وقد نقل ابن خلدون عن ابن سحنون انه قال في كتابه الذي ألَّفه ، في حكم المعلمين والمتعلمين ما نصه : لا ينبغي لمعلم الصبيان ان يزيد في ضربهم اذا دعت الحاجة اليه على ثلاثة أسواط شيئاً [2] . وكان حبس تلميذ ما بعض الوقت في المكتب بعد انصراف الآخرين لوناً آخر من ألوان العقوبات على ما سيرد فيما بعد .

ولعل مما شجع على جعل العقوبة البدنية سلاحاً في يد المعلم ان اهل الاطفال وذويهم كانوا كثيراً ما يلجأون للمعلمين يطلبون منهم تأديب اولادهم على أخطاء ارتكبوها في الخارج ، فكانت مهمة المعلم بذلك ليست محصورة في تعليم الأطفال وانما تشمل تقويم سلوكهم ومعاقبتهم اذا وقع منهم ما يشين هذا السلوك . كتب شريح القاضي يشكو ولده الى معلمه :

---

١) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٣٣٩ .
٢) المقدمة ص ٣٩٩ .

ترك الصلاة لأكلب يلهو بها طلب الهراش مع الغواة الرجَّس
فاذا خلوت فقضَّه بملامةٍ او عظه موعظة الأديب الأكيس
واذا هممت بضربه فبدرَّة واذا ضربت بها ثلاثاً فاحبس [1]

وعلى هذا وجدت العقوبات في الكتاتيب واصبحت (عصا المعلم) شيئاً لا يخلو منه كتاب قط ، وشاعت عنها عبارة (عصا المعلم من الجنة) ، ومن اجل هذا كان مدرس الطفل يستطيع ان يضربه اكثر مما يستطيع أقرب الناس اليه ، وكانت الأم تقبل ان يضرب المعلِّمُ ابنَها ولكنها ربما تدخلت ان ضربه ابوه ، وذلك لأن عصا المعلم من الجنة ، ولكن عصوات الآخرين ليست كذلك .

فانتشرت بذلك العقوبات البدنية في كتاتيب الاطفال ؛ حدث اسحق الموصلي قال : أسلِمَ ابي الى الكتَّاب فكان لا يتعلم شيئاً ، ولا يزال يُضرَب ويُحبَس ، لا ينجع ذلك فيه ، فهرب الى الموصل ، وهناك تعلم الغناء [2] .

وقد شاهد الشاعر الخليع ابو نواس عقوبة تنزل باحد الصبيان بمكتب حفص ، وقد صور ابو نواس لنا هذه الحادثة في المقطوعة التالية :

انني أبصرت شخصا قد بدا منه صدود
جالساً فوق مصلى وحواليه عبيد
فرمى بالطرف نحوي وهو بالطرف يصيد

---

١) كمال الدين عمر : الدراري في الذراري ص ٣٨ ، الحيوان للجاحظ ٢ : ٨٤ ـ ٨٥ ، العقد الفريد لابن عبد ربه ١ : ٣٦٣ ، ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١٦٧ .
٢) الاغاني ٥ : ١٥٧ طبعة دار الكتب .

ذاك في مكتب حفص ان حفصا لسعيد
قال حفص : اجلدوه انه عندي بليد
لم يزل مذ كان في الدر س عن الدرس يحيد
كُشِفتْ عنه خزوز وعن الخز برود
ثم هالوه بسيرٍ ليِّن ما فيه عود [1]

وكان المعلمون يلجأون الى عقوبة الضرب والحبس حتى مع الأمراء ، وقد ورد في وصية الرشيد الى الاحمر مؤدب الامين قوله : .... وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان اباهما فعليك بالشدة والغلظة [2] .

قال الاحمر : فكنت كثيراً ما اشدد عليه في التأديب ، وأمنعه الساعات التي يتفرغ فيها للهو واللعب [3] .

وضرب ابو مريم مؤدب الامين والمأمون الامينَ بعود فخدش ذراعه ، فدعاه الرشيد الى الطعام فتعمد ان حسر عن ذراعه فرآه الرشيد فسأله ، فقال : ضربني ابو مريم . فبعث الرشيد الى ابي مريم وسأله : ما بال محمد يشكوك ؟ فقال : غلبني خبثاً وعرامة . قال الرشيد : اقتله فلأن يموت خير من ان يموق [4] . (الموق : الحمق في غباوة) .

وكان ابو محمد اليزيدي يؤدب المأمون فأتى يوماً المكان الذي يقابله فيه ، ثم وجه اليه بعض غلمانه ليبلغه بقدومه ليحضر فتأخر في الحضور

---

١) ديوان ابي نواس ص ٤١٨ .
٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٩٩ .
٣) البيهقي : المحاسن والمساوىء ص ٦١٧ .
٤) الاصفهاني : محاضرات الأدباء ١ : ٣٠ .

فوجه اليه ثانياً فتأخر ايضاً فلما جاء امر بحمله وضربه تسع ضربات [1] .

وقد وضع ابن مسكويه نظاماً لتأديب الصبيان وانزال العقوبة بهم اذا اخطأوا فهو يقول : فالذنب الاول الذي يرتكبه الصبي يعفى عنه ، والثاني يُعاتب عليه عتاباً غير مباشر ، كأن يُقال له : انّ فعل كذا وكذا قبيح ، والثالث يعاتب عتاباً مباشراً ، فان تكرر منه ذلك ضرب ضرباً خفيفاً ، فاذا استعمل المدرس هذه الطرق ولم ينته الصبي فعليه ان يتركه مدة ، ثم يعود اليه بنفس الطرق ، ويروي ابن مسكويه قول الماوردي « اذا استعصى على المدرس قيادة الطفل ودام منه نفور قلبه مع سياسته ومعاناة رياضته تركه ترك راحة ، ثم عاوده بعد الاستراحة [2] . »

وقبل ختام هذا الموضوع ينبغي ان تتضح ثلاث حقائق هامة :

١ ـ أبيحت العقوبات البدنية للصبيان الذين تجاوزوا العاشرة من اعمارهم ولم يبلغوا مبلغ الشباب ؛ فلا يجوز ضرب الاطفال قبل العاشرة ولا ضرب الطلاب الذين تقدمت اعمارهم [3] .

٢ ـ يستطيع المعلم ان يلجأ للعقوبة البدنية عند الضرورة القصوى ، ويجب ألا يكثر استعمالها ، واذا استعملها فيجب ألا يكون متشفياً قاسياً بل مؤدباً رحيما [4] .

٣ ـ يكون الضرب بالدرة ، على ان تكون رطبة مأمونة ، ولا يضرب

---

١) البيهقي : المحاسن والمساوىء ص ٦١٧

٢) تهذيب الأخلاق ص ٢٠ .

٣) الأهواني : انظر الفضلة لأحوال المتعلمين للقابسي ص ١٣٣ وانظر كذلك رسالة ابن عبدون نشرت في : Journal Asiatique 1934 p. 214

٤) انظر رسالة الأدب في الدين للغزالي ص ٤٣ من الجواهر الغوالي .

على الرأس ، ولا على الوجه ، بل يضرب على الافخاذ واسافل الرجلين لأن هذه المواضع لا يخشى منها مرض ولا غائلة [١] .

الجوائز والمكافآت

هناك رابطة تعوَّد المسلمون ان يلحظوها بين موضوع هذا القسم وموضوع القسم السابق ؛ فكلاهما يتصل بسلوك التلميذ وتحصيله ؛ فاذا اساء التلميذ سلوكه او اهمل واجباته عوقب ، واذا سما سلوكه او ظهر تفوقه أجيز وكوفىء ، ومن اجل هذه الرابطة جاء الحديث عن الجوائز والمكافآت عقب الحديث عن العقوبات .

وقد مرَّ عن العقوبات انها كانت متنوعة ، منها الأدبي كالعتاب والتوبيخ ، ومنها المادي كالضرب والسجن ، وكذلك كانت صنوف التقدير منها المدح والتشجيع ، ومنها المكافآت المالية ، وكان من هذه ما يستحقه الطالب نظير تفوق في مسابقة وتُسمى جائزة ، ومنها ما يستحقه نظير تفوُّق بدون مسابقة ويسمى مكافأة ، وان كان اغلب الكتاب يتحررون من ملاحظة وجه الخلاف بين اللفظين فيضعون كلا منهما في موضع الآخر في كثير من الاحايين .

قال ابن مسكويه [٢] : ويمدح الصبي بكل ما يظهر منه من خلق جميل وفعل حسن ويكرَّم عليه . وقال الغزالي [٣] : ويمدح الصبي المتأدب ،

---

١) العبدري : المدخل ٢ : ٣١٧ نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٠٤ ، ومعالم القربة في طلب الحسبة ص ١٧١ .
٢) تهذيب الأخلاق ص ٢٠ .
٣) إحياء علوم الدين ٣ : ٥٨ .

ومهما ظهر منه من خلق جميل وفعل محمود فينبغي ان يكرَّم عليه ، ويجازى بما يفرح به ، ويُمدح بين اظهر الناس .

وقد استجاب الناس لهذا الاتجاه فكرَّموا أدبيا وكافأوا ماديا كل من برَّز من التلاميذ وأظهر تفوقا ونبوغا ، وكان من مظاهر التكريم الأدبي ان يُحمَل الصبي على حصان او بعير ، وقد ارتدى أزهى ملابسه ، ويحيط به اخوانه وأقرانه ، ويسير ذلك الموكب في الشوارع الهامة بالمدينة ، ويُطِلُ الناس من النوافذ والشرفات لتحية الموكب وتكريم الصبي النابه ، وكثيراً ما يلقون على الصبي وموكبه البندق والجوز وامثالها من الاشياء ، ويروي ابو الفرج الاصفهاني [1] ان علي بن جبلة لما نشأ اسلم في الكتاب فحذق بعض ما يحذقه الصبيان فحمل على دابة ونثر عليه اللوز [2] .

واما عن المكافآت والجوائز المالية فقد كانت منتشرة جداً ، وكثيراً ما كان مؤسسو المدارس يجعلون لها حصيلة خاصة في اوقافهم على المدارس ؛ فقد جاء في كتاب وقف الملك الاشرف على مدرسته بدمشق ما يلي : « ويُجعل لكل من المشتغلين ثمانية دراهم ، ومن زاد اشتغاله زاده ، ومن نقص نقصه . ويُجعل لكل من السامعين أربعة أو ثلاثة ، ومن ترجح منهم زاده ، ومن كان فيه نباهة جاز الحاقه بالثمانية ، ومن حفظ منهم كتابا من كتب الحديث فللشيخ ان يخصه بجائزة [3] . »

---

١) الأغاني جـ ١٨ ص ١٠١ .

٢) أخبرني الدكتور سارجنت المدرس بجامعة لندن أن هذا التقليد لا يزال معمولا به في حضر موت .

٣) كتاب وقف الملك الأشرف مخطوط ملك الاستاذ صلاح الدين المنجد بدمشق .

ويذكر المقريزي [1] ان الخليفة الظاهر أمر الدعاة ان يحفّظوا الناس كتاب دعائم الاسلام ومختصر الوزير ، وجعل لمن حفظ ذلك مالا .

وكان الملك المعظم يحفظ المفصل للزمخشري ، وقد جعل لمن يحفظه مائة دينار ، ولمن يحفظ الجامع الكبير مائتي دينار ، ولمن يحفظ الايضاح ثلاثين دينارا سوى الخلع [2] .

ملابس المدرسين

كانت ملابس الرسول (ص) هي الملابس التي يحتذيها الخلفاء والفقهاء والولاة حتى قيام الدولة الأموية ، وكانت ملابسه عليه السلام سهلة يسيرة تتكون في الغالب من إزار وسراويل وقميص وعباءة وعمامة وخفين ، وكان اللون الأبيض أحب الألوان للرسول [3] .

فلما قامت الدولة الأموية بدأ خلفاؤها والعظماء فيها يقلدون لباس الدول التي خضعت للاسلام من فرس وروم ، وكانت عاصمتهم « دمشق » التي قامت في قلب دولة الروم ، ثم كانت بلاد الفرس التي استسلمت لهم ، يضاف الى هذا عدم حرص الأمويين على أن يظلوا تابعين في مظاهر حياتهم لدولة الخلفاء الراشدين ، كل هذا حدا بالأمويين أن يغيّروا ويتطوروا في مساكنهم وطعامهم ولباسهم ؛ وقد حذا حذو الخلفاء علماء الدولة وفقهاؤها ، غير ان تطور الأمويين لم يكن عميقا كل العمق ، اذ اهتموا بالمحافظة على عروبتهم على أية حال .

---

١) الخطط : ١ : ٣٥٥ .
٢) النعيمي : الدارس ١ : ٥٨٤ .
٣) انظر صحيح البخاري ٨ : ٤٩٦ ـ ٥٠٤ .

فلما قامت الدولة العباسية على اكتاف الفرس قفزت الى بلاط الخلفاء كل النظم الفارسية او اغلبها ، وظهر الزي الفارسي في قصور الخلفاء وقصور العظماء ، وكان المنصور أول من خرج على العمامة التقليدية واختار للرأس زيا فارسيا فقلده في ذلك اتباعه [١] .

وظهرت السراويل الفارسية الواسعة والقميص ، وكانت مع القفطان والجبة أو العباءة مغطاة بالطيلسان تكوّن زي الطبقة الممتازة في الدولة . وقد جمع الشاعر أبو قابوس الحِيريّ هذه الأنواع في مقطوعته التالية التي بعث بها الى جعفر بن يحيى يستجديه مجموعة كاملة من الملابس يلبسها في العيد .

فلا بد لي من جبة من جبابكم ومن طَيلَسان من جياد الطيالس
ومن ثوب قُوهيٍّ وثوب غلالةٍ ولا بأس لو أتبعت ذاك بخامس
اذا تمّت الأثواب في العيد خمسة كَفَتْكَ فلم تحتج الى لبس سادس [٢]

وكان العلماء ، وبخاصة أولئك الذين كانوا يشغلون بعض مناصب الدولة ، يلبسون هذا الزي الذي ارتضاه الخليفة وارتداه ، وظل العلماء كذلك حتى عهد الرشيد فاتخذوا لهم زيا خاصا بهم ، قال ابن خلكان [٣] : كان أبو يوسف أول من غيّر لبس العلماء الى هذه الهيئة التي هم عليها في هذا الزمان ، وكان ملبس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً لا يتميز أحد عن أحد بلبسه . وكان ما اقترحه أبو يوسف لتمييز هذه الطائفة هو عمامة سوداء وطيلسان أوطيلس [٤] .

---

١) Hitti : History of the Arabs p. 294

٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢١٠ .

٣) وفيات الأعيان ٢ : ٤٥٠ .

٤) انظر المخصص لابن سيده ٤ : ٧٨ ، وابن خلكان ٢ : ٤٥٠ ، والأغاني ٥ : ١٠٩ ، ٦ : ٥٩ والمقدسي : أحسن التقاسيم ص ٣٢٨ .

ومنذ ذلك الحين اصبح هذا الزي ضرورياً للمدرسين والفقهاء ، لدرجة ان الصاحب بن عباد لما اراد ان يحدِّث وهو وزير دخل فخلع لباس الوزراء ولبس لباس العلماء قبل ان يجلس الى سامعيه [١] .

وكان العلماء يرخون طرف العمامة بين الكتفين قدر شبر او اطول قليلاً ، كما كانوا يستعملون الطيلسان المربع ويضعونه فوق العمامة ويسدل على الاكتاف [٢] .

وأوجد الفاطميون خزانة الكسوة التي كان يخرج منها أكسية لجميع الأمراء وكبار الدولة وقد تنوعت هنا الأكسيات بتنوع طبقات الناس ، وكانت كسوة رجال التعليم مذهَّبةً ، تتكون من ست قطع أهمها القلنسوة والطيلسان [٣] ، واصبحت الخضرة شعار الفاطميين بدل السواد الذي كان رمز العباسيين ومن هنا لبس رجال العلم في هذا العهد عمامة خضراء [٤] .

ويذكر القلقشندي تفاصيل مفيدة عن زي القضاة والعلماء منذ عهد الايوبيين فيقول انهم يلبسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق سرجه اذا ركب ، ومنهم من يجعل عوض الذؤابة الطيلسان الفائق ، ويلبس فوق ثيابه دلقاً (جبة) متسع الاكمام طويلها مفتوحاً من الأمام سابلا على قدميه ، او يلبس بدل الدلق فرجية مفرجة من اعلاها الى اسفلها مزرَّرة بالإزار ، وليس فيهم من

---

١) ياقوت : معجم الادباء ٢ : ٣١٢ .
٢) في اللبس ، مخطوطة مجهولة المؤلف ٤٩ ب ، ٥٣ أ ، ب .
٣) الخطط ١ : ٤٠٩ ـ ٤١٣ ، ٢ : ٢٧٠ .
٤) العيني : عقد الجمان ١٢ : ١٩٢ مخطوط .

يلبس الحرير ولا ما غلب فيه الحرير ، ولباسهم أبيض اللون ولا يلبسون الملوّن الا في بيوتهم [١] .

اما ملابس العلماء والمدرسين في الأندلس فقد اختلفت عن تلك التي كانت متبعة في الشرق في شيء هام هو العمامة ، والسبب في هذا الاختلاف هو كما يقول المقري [٢] ان مسلمي الاندلس قلدوا جيرانهم من الفرنجة في الملابس وأدوات الحرب . ويوضح سيد امير علي [٣] نقلاً عن احد الكتاب المعاصرين ان العلماء والمدرسين في بلنسية وغيرها من المقاطعات والمدن الشرقية تركوا لبس العمامة واستعملوا بدلها نوعاً آخر من غطاء الرأس هو بالقبعة اشبه (Caps) كما ان بعضهم تركوا لبس العمامة ولم يتخذوا لها بديلاً بل كانوا يظهرون امام الناس ويحضرون مجلس السلطان ورؤوسهم عارية ، ويؤكد ابن سعيد الكاتب الاندلسي المعاصر ان ابن هود لم يلبس قط عمامة ولم يلبسها كذلك ابن الاحمر ، اما في المقاطعات والمدن الغربية كقرطبة واشبيلية فان القضاة والفقهاء كانوا يلبسون عمائم ولكنها أصغر كثيراً من تلك التي كانت مستعملة في الشرق .

وكما تأثر المسلمون في الاندلس بمجاوريهم من الفرنجة فتركوا العمامة او جعلوها صغيرة فان العكس صحيح الى حد كبير ؛ اذ أن زيّ العلماء والمدرسين المسلمين قد وجد طريقه الى اعظم جامعات اوروبا ، وهو حتى

---

١) صبح الأعشى ٤ : ٤١ ـ ٤٢ .

٢) نفح الطيب ١ : ١٠٥ .

٣) A Short History of the Saracens p. 571.

العهد الحاضر الزي الرسمي للطلاب والمدرسين بعد ان دخل عليه شيء من التحوير ليلائم امزجة القوم وظروفهم هناك . وليس الـ « Gown » والـ «Hood» والـ « Cap » الا امثلة محرفة قليلا للجبة والطيلسان والعمامة فالـ « Gown » قريب الشبه بالجبة ؛ فضفاض مفتوح من الامام يلبس فوق الملابس والـ « Hood» قريب الشبه بالطيلسان يحيط طرفاه بالرقبة وينحدر الى الخلف وبه بعض الألوان الزاهية اما الـ « Cap » فهي طربوش تحلل من الشال غير انه اسود اللون ويرف فيه الزر كالحال مع الطربوش سواء بسواء .

ولو ان بعض طلاب الأزهر أو شيوخه وحّدوا زيّهم فلبسوا جميعاً الجبب واختاروا لها اللون الاسود لخلتهم فوجا من طلاب جامعة كمبردج وهم يغادرون قاعة محاضرات او يدخلونها .

وكان جمال الزي واناقته وتهذيب الشعر من المستحسنات ، فقد كان الرسول يلبس جبة رومية ضيقة الكمين ، وكان يحرص على النظافة ؛ فقد روي عنه انه رأى رجلا عليه ثياب وسخة فقال : اما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه ؟ ورأى رجلا شعثاً قد تفرق شعره فقال : اما كان يجد هذا ما يسكّن به شعره ؟ واذا كان هذا في الرجل العادي فهو للمدرس أولى ، لأنه قدوة ، ولأن أنظار التلاميذ تتجه له وترنو اليه ، فيجب ان تقع على شيء مستحسن محمود . وقد اشتهر بعض العلماء بالأناقة فقد كان الامام مالك يلبس الرقيق ، ويجلس على الوطيء ، ويأكل الرقاق ، فلما كتب له يحيى بن يزيد بذلك في صيغة العتاب أجابه مالكٌ قائلاً : وصل كتابك فوقع مني موقع النصيحة ، واما ما ذكرت فنحن نفعل ، علم الله ،

ذلك ونتلو قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق [1] » .

نقابة المعلمين

تدل النصوص الصريحة التي سجلتها المصادر العربية على ان المسلمين في العصور الوسطى عرفوا النقابات ، وأن هذه النقابات شملت عندهم كثيراً من المنظمات ، فياقوت الحموي [2] يتحدث عن المرتضى أبي القاسم نقيب الطالبيين الذي اسندت اليه مراعاة دار العلم التي أنشأها سابور بن أردشير ويتحدث المقريزي [3] عن الزي الذي كان يصنع بخزانة الكسوات في العهد الفاطمي ليرتديه نقيب الأشراف .

ويذكر عبد الرحمن بن الجوزي [4] أن العميد أبا نصر جمع وجوه الناس سنة ٤٦٢ ليقرأ بحضورهم وقفية نظام الملك على مدارسه ، وكان من الوجوه الذين حضروا النقيبان والأشراف وقاضي القضاة .

وهكذا وجدت النقابات وانتشرت حتى أصبح للكناسين نقابة ترعى شئونهم وتدافع عن حقوقهم . ونريد الآن ان نصل الى المعلمين فهم الذين يهموننا هنا وان نتساءل : هل كان لهم نقابة ؟ الاجابة عندي بالايجاب فما كانت طائفة المعلمين بأقل من هذه الطوائف وبخاصة ان المعلمين كانوا

---

١) كتاب التعليم والارشاد لبعض رجال الصوفية ص ٤٢٩ ـ الآية رقم ٣٢ من السورة رقم ٧ .
٢) معجم الأدباء ٦ : ٣٥٩ .
٣) الخطط ١ : ٤١١ .
٤) المنتظم ٨ : ٢٥٦ .

يكوِّنون طبقة العلماء والفضلاء وكان لهؤلا من النفوذ في الدولة مكان كبير فلا بدَّ ان منظمة قامت تضم جماعتهم وتنظم مهمتهم ، على ان هذا الاستنباط ليس هو كل ما عندنا من مادة عن ذلك الموضوع ، بل ان عندنا نصوصا قوية لا تتحدث فقط عن نقابة المعلمين ونقباء المعلمين وإنما تتحدث عن نفوذ هؤلاء النقباء ذلك النفوذ الذي كان احياناً يرجح نفوذ الخلفاء وفيما يلي طائفة من هذه النصوص :

حكى ياقوت [1] قال : وقع للخطيب البغدادي جزء من سماع الخليفة القائم بأمر الله ، فحمل الخطيب الجزء ومضى الى باب حجرة الخليفة ، وسأل ان يؤذن له في قراءة الجزء فقال الخليفة : هذا رجل كبير في الحديث فليس له الى السماع مني حاجة ، ولعل له حاجة اراد ان يتوصل اليها بذلك فسلوه ما حاجته . فسئل فقال : حاجتي ان يؤذن لي ان املي بجامع المنصور فتقدم الخليفة الى نقيب النقباء بأن يؤذن له .

ومن هذا يتضح انه كان هناك نقباء ونقيب نقباء وأنه ما كان للخليفة ان يتخطى او يتطاول على هذه الجماعة فيأذن لأحد بالتدريس دون استشارة ذوي الشأن فيها فاذا تخطى ذلك فان امر النقيب يرجح ويكون اجدر بالتنفيذ ؛ روى المقريزي [2] ان ابا طالب علي بن عبد السميع العباسي استقر في خطابة جامع راشدة باذن قاضي القضاة (هو نقيب النقباء [3])

---

١) معجم الأدباء ١ : ٢٤٦ – ٢٤٧ .

٢) الخطط ٢ : ٢٨٢ .

٣) كثيرا ما تولى قاضي القضاة منصب داعي الدعاة ، وداعي الدعاة هو نقيب النقباء ، أما النقباء فهم الخيرة من المعلمين كما سيرد في النص التالي .

فتوصل ابن عصفورة الى ان خرج له أمر امير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله ان يخطب ، ثم استقر الرأي على ان تترك الخطابة لأبي طالب على ان يخلفه ابن عصفورة .

ويتحدث المقريزي [1] ايضاً عن داعي الدعاة في العهد الفاطمي فيقول : انه يلي قاضي القضاة في الرتبة ويتزيا بزيه في اللباس وغيره ، وهو عالم بجميع مذاهب اهل البيت ، يأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه الى مذهبهم وبين يديه من نقباء المعلمين اثنا عشر نقيباً .

ويروي ابو شامة ما يفيد ان جماعة المدرسين هم الذين كانوا يختارون النقيب وان السلطان ما كان يتدخل الا اذا وقع خلاف بين الاعضاء على انّ تدخله كان للتوفيق والاصلاح لا للأمر واستعمال النفوذ ، قال ابو شامة [2] : قال مقلد الدولعي : لما مات الحافظ المرادي ، وكنا جماعة الفقهاء قسمين : العرب والأكراد ؛ فمنا من مال الى المذهب وأردنا ان نستدعي الشيخ شرف الدين بن ابي عصرون ، ومنا من مال الى علم النظر والخلاف واراد ان يستدعي القطب النيسابوري ، فوقعت فتنة بين الفقهاء بسبب ذلك فسمع نور الدين بها فاستدعى جماعة الفقهاء ، وخرج لهم مجد الدين ابن الداية نائباً عنه وقال لهم : ما أردنا ببناء المدارس الا نشر العلم ودحض البدع ، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق ، وقد قال المولى نرضي الطائفتين ونستدعي الشيخين فاستُدعيا وولي شرف الدين

---

١) الخطط ١ : ٣٩١ .
٢) الروضتين ١ : ١٣ .

المدرسة التي سميت باسمه وولي قطب الدين مدرسة النفري .

تلك اهم النصوص التي تتحدث عن نقابة المعلمين ، وهي تعطي فكرة عن ان هذه المنظمة وجدت عند المسلمين في ذلك العهد الباكر ، وان كنا نعترف بأنها بطبيعة الحال لم تكن من النضج والنظام في الدرجة الفائقة ، ولكن يكفي ان يتضح انه بين ظلام القرون الوسطى كان للمعلمين نقابة لها هذا السلطان وذلك النفوذ ، وقد اطراها وأعجب بها Earst Dies في مقاله القيم بدائرة المعارف الاسلامية تحت عنوان مسجد .

الفصل الرابع

التلاميذ

برهن الطالب المسلم ـ كما سيبدو من هذا الفصل ـ على حماسة منقطعة النظير في طلب العلم ، وكان في هذا حديد العزم قوي الارادة فذلل العقبات التي قامت في سبيله وتغلب على الصعوبات التي اعترضته ، ولم يكن الطريق الى طلب العلم ممهدا ، ولا كانت الحياة ميسرة سهلة ولكن الطالب المسلم لم يكترث بالشوك ، ولم يبال بالمخاطر ، وألقى بنفسه ليصل الى هدفه دون تردد أو فتور .

ما الدافع القوي الذي كان يدفعه ؟ وما هذه القوة الجبارة التي كانت تعمل عملها من وراء ستار فتحيل الصعب سهلا والعسير يسيرا ؟

انها فيما يبدو لي آيات القرآن الكريم ، واحاديث الرسول عليه السلام ، ثم الامثال والأقوال التي تنسب الى حكماء المسلمين وقادتهم .

لقد سمع الطالب المسلم هذه وتلك تطري العلم وتحث على طلبه ، فوطد العزم على أن ينفر ليتفقه في الدين لينذر قومه اذا رجع اليهم ، وليرفع الله درجته مع الذين اوتوا العلم ، وكانت الآيات والأحاديث تتردد على لسان الطالب وتغمر قلبه ، فتتغلب على ما قد يعتوره من تردد ، أو يطوف به من خور ، وتجدد عزمه ، وتزكي همته .

من اجل هذا كان لا بد ان يفتتح هذا الفصل بطائفة من هذه الآيات والأحاديث والأمثال ، تلك التي اعتقد انها لعبت دورا هاما في حياة التعليم في العالم الاسلامي :

من آيات القرآن الكريم :

يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات [١] .

هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون [٢] ؟

فلولا نفر من فرقة طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم [٣] .

وقل : ربِّ زدني علما [٤] .

فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون [٥] .

من أحاديث الرسول :

غدوة في طلب العلم احب الى الله من مائة غزوة [٦] .

من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين [٧] .

العلماء ورثة الانبياء .

اقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد .

يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء .

افضل الناس المؤمن العالم .

لموت قبيلة أيسر من موت عالم .

---

١) ٥٨ : ١١ .
٢) ٣٩ : ٩ .
٣) ٩ : ١٢٢ .
٤) ٢٠ : ١١٤ .
٥) ١٦ : ٤٣ .
٦) أساس الاقتباس ظهر الورقة رقم ١١ مخطوط .
٧) البخاري ١ : ٢٨ .

اطلبوا العلم ولو بالصين [1] .

لا خير فيمن كان من امتي ليس بعالم ولا متعلم .

الناس عالم ومتعلم والباقي همج [2] .

من آثار الحكماء :

قال علي بن ابي طالب لكميل : يا كميل ؛ العلم خير من المال ؛ العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تُنْقصه النفقة ، والعلم يزكو بالانفاق [3] .

وقال ايضاً : كل يوم لا ازداد منه علماً فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم ، وليس الخير ان يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير ان يكثر علمك [4] .

وقال الأحنف : كل عز لم يؤيد بعلم فإلى ذل يصير [5] .

وقال الزبير بن ابي بكر : كتب لي ابي بالعراق : عليك بالعلم فانك ان افتقرت كان لك مالا ، وان استغنيت كان لك جمالا .

وقال ابن عبد الحكم : كنت عند مالك أقرأ عليه العلم ، فدخل الظهر ، فجمعت الكتب لأصلي فقال : يا هذا ما الذي قمت اليه بأفضل مما انت فيه .

---

١) الغزالي : الاحياء ١ : ٥ .
٢) الأصفهاني : محاضرات الادباء ١ : ٢٦ .
٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٢٦٥ ، ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢ : ١٢٠ .
٤) ابن الحاج : الألف باللألبا ٩ أ مخطوط .
٥) الاصفهاني : محاضرات الادباء ١ : ١٦ .

وقال بعض العلماء : ليت شعري ؛ أي شيء أدرك من فاته العلم ، وأي شيء فاته من ادرك العلم .

وقيل لبعض الحكماء : أي شيء تقتني ؟ قال : الاشياء التي اذا غرقت سفينتك سبحت معك ، يعني العلم [١] .

وقال ابن المقفع : العلم زين لصاحبه في الرخاء ومنجاة له في الشدة [٢] .

وسئل عبدالله بن المبارك : لو أن الله أوصى اليك : تموت العشية ، فماذا تصنع اليوم ؟ فقال : اقوم واطلب العلم [٣] .

رياضة الاطفال في نظر بعض الفلاسفة المسلمين

الغزالي : الطريق في رياضة الاطفال من اهم الأمور وأوكدها . والصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ، ومائل الى كل ما يمال به اليه ، فإن عُوِّد الخير وعُلِّمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه ابواه وكل معلم له ومؤدب ، وان عُوِّد الشر وأهمل شقي وهلك ، وكان الوزر في رقبة القيِّم عليه والوالي له . وعلى الوالي ان يصون الصبي عن الآثام بأن يؤدبه ويهذبه ويعلِّمه محاسن الأخلاق ، ويحفظه من قرناء السوء ولا يعوِّده التنعم ، ولا يحبب اليه الزينة وأسباب الرفاهية ، فيضيع عمره في طلبها اذا كبر .

---

١) الغزالي، الاحياء ١ : ٦ – ٧ .
٢) الأدب الصغير ص ٢٢ من رسائل البلغاء .
٣) منهاج المتعلم ٥ أ مخطوط .

وينبغي ان يتذكر الوالي ان تربية الصبيان ليست مقصورة على تعليمهم ، وانما تشمل ألواناً اخرى لا تقل اهمية عن التعليم ؛ فيجب ان يراقبه الوالي من اول امره ، فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه الا امرأة صالحة متدينة ، تأكل الحلال . . . . وينبغي ان يحسن مراقبته ، وان يقوي فيه خلق الحياء عند ظهوره فيه ؛ وان يعلمه الطريق المستقيم في تناول الطعام والمشاركة فيه ؛ فعليه ان يأكل مما يليه ، والا يبادر الى الطعام قبل غيره ، وألا يحدق النظر اليه ، ولا الى من يأكل ، وألا يسرع في الأكل ، وان يجيد المضغ ، وألا يوالي بين اللقم ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه ، ويقبح عنده كثرة الأكل ، ويحبب اليه الايثار بالطعام ، وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن احيانا .

ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة ، وكذلك الصبيان الذين ساءت اخلاقهم .

ويشغل في المكتب فيتعلم القرآن ، واحاديث الاخيار ، وحكايات الابرار ، واحوالهم ، لينغرس في نفسه حب الصالحين ، ويُحْفَظ من الاشعار التي فيها ذكر العشق واهله ، ويحفظ من مخالطة الادباء الذين يزعمون ان ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فان ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد . ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرَّم عليه ويجازى بما يفرح به ، ويمدح بين اظهر الناس ، فان خالف ذلك في بعض الاحوال مرة واحدة فينبغي ان يُتغافل عنه ، ولا يُهتك ستره ، ولا سيما اذا ستره الصبي واجتهد في اخفائه ، ولا يكثر عليه قول العتاب في كل حين فانه

يهوِّن عليه سماع الملامة .

ولا يوبخه الأب الا احياناً والأم تخوِّفه بالأب وتزجره عن القبائح .

ويمنع عن النوم نهاراً فانه يورث الكسل ، ولا يمنع منه ليلاً ، ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب اعضاؤه حتى لا يعود التنعم ، وحتى يصبر على الخشونة في المفرش والمطعم والملبس .

ويعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل .

ويمنع ان يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والده او بشيء مما يملكه هو كالملابس وأدوات الكتابة ، بل يعوَّد التواضع والاكرام لكل من عاشره ، والتلطف في الكلام معهم ، ويُمنَع من ان يأخذ من الصبيان شيئاً ، وان كان غنياً يعلَّم ان الرفعة في الأعطاء لا في الأخذ ، وان الأخذ لؤم وخسة ، وان كان فقيراً يعلم القناعة وان الطمع والأخذ مهانة وذلة .

ويعود ألا يبصق في مجلسه ولا يمتخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يعمد رأسه بساعده ، فان ذلك دليل الكسل بل يعلَّم كيفية الجلوس ، ويُمنَع كثرة الكلام . ويُمنَع اليمينَ صادقاً كان او كاذباً لغير ضرورة ، ويعلَّم حسن الاستماع مهما تكلم غيره من هو اكبر منه سناً ، وان يقوم لمن فوقه ، ويوسع له المكان ، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ، ومن مخالطة من يجري على لسانه ذلك ، واذا ضربه المعلم فعليه ألا يكثر الصراخ والشغب ، ولا يستشفع بأحد بل يصبر دأب الرجال الشجعان .

ينبغي ان يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب ان يلعب لعباً جميلاً يستريح اليه من تعب المكتب ، بحيث لا يتعب في اللعب ، فان منع الصبي من اللعب وارهاقه بالعلم يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش [1] .

ابن سينا : يجب ان تكون العناية مصروفة الى مراعاة أخلاق الصبي ، وذلك بأن يحفظ كيلا يعرِض له غضب شديد او خوف شديد او غم او سهر ، وذلك بأن يُتَأمَّل كل وقت ما الذي يشتهيه ويحنُّ اليه فيقرَّب اليه ، وما الذي يكرهه فينحى عن وجهه ، لا استجابة لأمره ولكن تيسيراً للحياة عليه ، وفي ذلك منفعتان : احداهما لنفسه والثانية لبدنه ؛ اذ ينشأ من طفولته حسن الاخلاق تبعاً لحسن مزاجه ، فالاخلاق الحسنة تابعة لصفاء المزاج ، والاخلاق الردية تابعة لسوء المزاج ، وحسن الاخلاق يحفظ الصحة للنفس والبدن جميعاً .

واذا انتبه الصبي من نومه فالاحرى ان يستحم ثم يخلَّى بينه وبين اللعب ساعة ، ثم يُطْعَم شيئاً يسيراً ثم يطلق له اللعب وقتاً اطول ثم يستحم ثم يُغدَّى . . . . واذا بلغ ست سنوات فيجب ان يقدَّم الى المؤدب والمعلم ، ويدرَّج ايضاً في ذلك ، فلا يحمل على ملازمة الكتاب كرة واحدة ، وعند هذه السن ينقص من إجمامهم ويُزاد في تعبهم [2] .

---

١) إحياء علوم الدين ٣ : ٥٧ ـ ٥٩ .

٢) القانون ١ ص ٧٩ .

من كتاب منهاج المتعلم [1] : وعلى الأب ان يؤدب ابنه ويسلمه الى معلم ، فان لم يؤدبه ، او لم يجلسه بين يدي المعلم ظهر الانحراف في جميع اعضائه خصوصاً في لسانه .

تكافؤ الفرص في التعليم

يستطيع الانسان أن يقرر دون تردد ولا هوى أن فرص التعليم في العالم الاسلامي كانت مكفولة للغني والفقير على حد سواء ، وأن الفقر لم يقف عائقا أمام الراغب في العلم أو الساعي لارتشاف المعرفة .

لقد بدأ التعليم الاسلامي في المسجد ، ولا نزاع ان المسجد كان مفتوحاً للناس جميعاً وكانت حلقاته معدة لاستقبال الطلاب لتعليمهم بالمجان دون قيد أو شرط ، وكان من نظام حلقة الدراسة ان يترك بها مكان ليجلس فيه أولئك الذين يحبون ان ينضموا حديثاً للحلقة للاستماع والاستفادة .

وكان على المدرس - على ما سبق ذكره - الا يكون في مجلسه مكان مميز لآحاد الناس ، بل أن يكون الجميع عنده سواء ، ومن سبق من الطلاب الى موضع من المكان المخصص لهم جلس فيه [2] ، وليست المسألة مسألة الجلوس فحسب وانما كان على المدرس ان يعامل الفقير معاملة الغني فقد ورد في الحديث الشريف ما يحتّم ان يكون المتعلمون أمام المعلم على حد واحد لا فرق بين غني وفقير [3] .

---

١) مخطوط مجهول المؤلف ظهر الورقة رقم ٩ .
٢) انظر العبدري . المدخل ١ : ١٩٩ .
٣) محاضرات الادباء ١ : ٢٠ .

وروى ياقوت [1] أن محمد بن احمد بن كيسان (٢٩٩ هـ) كانت له حلقة كبيرة بالمسجد ، وكان يجتمع على باب ذلك المسجد نحو مائة رأس من الدواب للرؤساء والكتاب والأشراف والأعيان الذين قصدوه ، وكان اقباله على صاحب الرقعة الممزقة والعباءة الخلَق والطِّمرْ البالي كاقباله على صاحب القصب والوشي والديباج والركب والحاشية الغاشية .

واذا كان هذا موقف المدرسين فانه كان على الطلاب ان يقفوا موقفاً مماثلاً ، وان يدركوا أنهم أمام المعلم وفي حلقات العلم سواسية لا فرق بين غني وفقير ، وشريف وسوقة ، بل الفضل للمهذب المجد أيا كان عنصره او نصيبه من الثراء ، وقد سبق ان اوردنا [2] حكاية بعض اولاد الخليفة المهدي الذي كان يحضر مجلس شريك ، ثم استند الى الحائط وسأل عن حديث فلم يلتفت اليه شريك ، ثم عاد يسأل ولكن شريكا ظل يهمله فقال الامير : تستخف بأولاد الخلفاء ؟ قال شريك : لا ، ولكن العلم اجل عند اهله من ان يضيعوه . وذكرنا كذلك [3] عن عالم بني أيوب وفاضلهم المعظم عيسى ملك دمشق وفلسطين انه كان ينزل من قصره في قلعة دمشق ، يتأبط كتابه كالطلبة ، فيأتي دار استاذه الكندي في درب العجمي في جيرون ، وربما تأخر الدرس الذي يتقدم درسه الذي يتقدم درسه فينتظر الى ان تأتي نوبته .

وكانت توجه عناية خاصة للطلاب الموهوبين الذين تبدو عليهم مخايل الذكاء والفطنة ، وكان يُعدُّ من الظلم ان يحرم طالب نابغ تلقي العلم

---

١) معجم الأدباء ٦ : ٢٨٢ .

٢) ، ٣) عند الكلام عن المستوى الاجتماعي للمدرسين .

لأي سبب من الأسباب ، ذكر الغزالي [1] انه ليس الظلم في إعطاء العلم لغير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق . وكانت عناية المدرسين بتلاميذهم الفقراء تصل بهم الى حد الانفاق عليهم من مالهم الخاص ، حكى الإمام ابو يوسف قال : كنت اطلب الحديث والفقه وانا مقلّ رثُّ الحال ، فجاءني ابي يوماً وانا عند ابي حنيفة ، فانصرفت معه فقال : يا بني لا تمدَّ رجلك مع ابي حنيفة فان ابا حنيفة خبزه مشوي وانت تحتاج الى المعاش ، فقصَّرت عن كثير من الطلب ، وآثرت طاعة ابي ، فتفقدني ابو حنيفة رضي الله عنه ، وسأل عني فعدت الى مجلسه ، فلما كان اول يوم اتيته بعد تأخري عنه قال لي : ما شغلك عنا ؟ قلت : الشغل بالمعاش وطاعة والدي . فجلست فلما انصرف الناس دفع اليَّ صُرَّة وقال : استمتع بها . فنظرت فاذا فيها مائة درهم ، وقال لي : الزم الحلقة واذا فرغت هذه فأعلمني . فلزمت الحلقة ، فلما مضت مدة يسيرة دفع اليَّ مائة اخرى ، ثم كان يتعهدني حتى استغنيت وتمولت [2] .

ولم يكن المدرسون فقط هم الذين اتجهوا برعايتهم للطلاب الفقراء بل حظي هؤلاء بنصيب موفور من اوقاف الأغنياء على الطلاب ، وكان لهذا كله اثر بيِّن في حالة التعليم في العالم الاسلامي اذ ظهرت من بين المسلمين جمهرة ضخمة من العلماء الأفذاذ الذين ينتمون الى طبقة الكادحين الفقراء من الشعب . ومن هؤلاء :

---

١) الاحياء ١ : ٤٧ .

٢) ابن خلكان : ٢ : ٤٥١ وحكي أن والد ابي يوسف مات وأبو يوسف طفل صغير ، وأن أمه هي التي أنكرت عليه حضور مجلس ابي حنيفة ...

ابو تمام الطائي الشاعر الذائع الصيت الذي كان سقاء متواضعاً في جامع عمرو بن العاص [1] .

الجاحظ الذي كان يبيع الخبز والسمك بسيحان ، ثم مهدت له الحياة الاسلامية ان يتلقى ثقافته العالية حتى أصبح في القمة بين العلماء ، وأصبح معلم الجيل والأجيال التالية [2] .

الامام الشافعي وقد كان يتيما في حجر مه وكانت امه فقيرة لا تستطيع ان تمده حتى بالورق والاقلام ، ولكنه التحق بالمسجد وسمع من العلماء ، ثم انضم الى الامام مالك الذي أضفى عليه من رعايته ودبّر أمره ، وبهذا استطاع ان يشق طريقه حتى يصبح حد الأئمة الأربعة الأعلام في الفقه الاسلامي وصاحب المذهب المشهور [3] .

ولما انشئت المدارس في العالم الاسلامي كانت فرصة الفقير لتلقّي العلم اوضح وأدقّ وأشملَ ؛ فلقد أدرك منشئو المدارس الاسلامية أن أغلب النابهين في العلم والمعرفة ينبعون من أسر فقيرة ، مضيق عليها في الرزق ، وأن مظاهر الغنى والترف تشغل الطلاب الأغنياء في الغالب عن العلم والفراغ له والتعمق فيه ، ولا يشغل الطالب الفقير شيء اذا كفل له رزق يسير وحياة لا يشوبها العوز ، بل ان مثل هذا الطالب ربما حثه الفقر على ان يكمّل بالعلم ما بدا فيه من نقص ، ويعوض ما فقده من الجاه والحسب . ومن أجل هذا عُنِيَ منشئو المدارس عناية كبيرة بتيسير الحياة للفقراء

---

١) ابن خلكان ١ : ١٧٢ .
٢) معجم الأدباء ٦ : ٣٦٩ .
٣) المرجع السابق ٦ : ٥٦ ـ ٨٠ .

من الطلاب حتى يتيحوا لهم الفرصة كاملة لتلقي العلم في هدوء بال ، واطمئنان نفس . وكان نظام الملك فاتحة هؤلاء فأعلن ان التعليم بمدارسه حق للجميع ، وأنه يُعطَى للناس جميعاً دون مقابل ، ثم زاد على المجانية الشاملة ان عيَّن مرتبا منتظما للطلاب المعوزين [١] ؛ ففي نظامية بغداد مثلا كان الذين يُغَذُّون بالمعارف ٦٠٠٠ تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن افقر الصناع فيها ، وكلهم يتعلمون بالمجان وللطالب الفقير فوق ذلك معلوم يتقاضاه من الريع المخصص لذلك [٢] .

ومن الطلاب الذين انتفعوا بهذا الامتياز الرائع الامام ابو حامد الغزالي واخوه احمد ، فلقد ورد في ترجمة الامام الغزالي ان اباه تركه وترك اخاه في رعاية صديق له متصوف واوصاه ان يتولى الاشراف على تعليمهما ففعل الصوفي حتى نفد المال الذي خلفه لهما ابوهما وتعذر على الصوفي القيام بنفقتهما فقال لهما : اعلما اني قد انفقت عليكما ما كان لكما ، وانا رجل من اهل الفقر ليس لي مال فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما ان تلجئا الى مدرسة لطلب العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما مع تحصيل العلم ، ففعلا ذلك ، وكان ذلك هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما [٣] .

وسار نور الدين سيرة نظام الملك فبنى كثيرا من المدارس في دمشق واوقف عليها الوقوف السخية التي تضمن للطلاب والمدرسين حياة هنيئة وعيشا كريما . ويمدح ابن جبير هذا الاتجاه في البلاد المشرقية كلها وبخاصة

---

١) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٣ : ١٣٧ .
٢) محمد عبده : الاسلام والنصرانية ص ٩٨ .
٣) ترجمة حياة الغزالي في أول الجزء الأول من الاحياء .

دمشق ، ويهتف بالطلاب المغاربة ان يرحلوا للمشرق لتلقي العلم ؛ استمع اليه يقول : وتكثر الاوقاف على طلاب العلم في البلاد المشرقية كلها وبخاصة دمشق ، فمن شاء الفلاح من نَشَأ مغربنا فليرحل الى هذه البلاد فيجد الأمور المعينات كثيرة وأولها فراغ البال من أمر المعيشة [١] .

فاذا وصلنا الى مصر وجدنا فيضاً من العناية وموفوراً من الاهتمام بالطلاب وتيسير حياتهم ولنسمع الى Stanley lane - Poole [٢] يتحدث عن الأزهر فيقول : « وفي الأزهر يجتمع جمهرة من الطلاب ، قدموا من البلاد المختلفة في العالم الاسلامي ، ابتداء من الساحل الذهبي حتى جزر الملايو ، وقد حُدِّد رواق خاص لكل قطر من الاقطار ، ويتلقى الطلاب دروسهم من شيوخ أجلاء وَرِعين . . . . وليس التعليم بالمجان فحسب ، بل ان الطلاب يتلقون جرايات وأطعمة من اوقاف معينة تسد حاجاتهم . فالأزهر مثال نموذجي لمجانية التعليم تلك المجانية الممنوحة لجميع الطلاب على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم من غير اي تمييز لعنصر او طبقة من الطلاب [٣] » .

---

١) رحلة ابن جبير ٢٨٥ .

٢) The Story of Cairo p. 124.

٣) لقد كان الأزهر كذلك منذ ألف عام ولا يزال كذلك حتى اليوم ، ولا تزال جموع الطلاب تؤمه من كل حدب وقطر ، فتتلقى العلم والعون المالي ، وكثيرا ما استقبل الأزهر طلابا شعثا معوزين ، لم يكن لهم لفقرهم ملجأ علمي سواه ، فكان لهم كالأب البار والأم الرؤوم! رباهم وعلمهم ، وفيه بدأت عبقرياتهم تبرز وأخلاقهم القويمة تلمع ، ثم ألقى بهم الأزهر الى المجتمعات حيث أخذوا أهبتهم وأصبحوا فيها قادة ومصلحين.

ومع هذا الثناء على الأزهر والاجلال له فمن حقه علينا ومن حق البلاد الاسلامية التي تعد الأزهر جامعتها الأولى ، أن نقرر أن تعديلا سريعاً وشاملا ينبغي أن يدخل على مناهج الأزهر معاهده وكلياته ، وأن روحاً جديداً يجب أن تدب فيه ، وأن تيارات متعددة يتحتم أن تنحى عنه ، ليؤدي الأزهر رسالته الكبرى . على أن صيحة الاصلاح هذه يجب ان يهتف بها شباب الأزهر ، وما أجدر هؤلاء الشباب بصيحات الاصلاح !

وفي العهد الأيوبي كان كل تلميذ بمصر يلقى مسكناً يأوي اليه ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله [1] .

وعلى هذا استطاع الفقراء ان يشقوا طريقهم الى المجد العلمي وان يتزودوا بالمعرفة في مختلف الفنون دون صعوبة او مشقة ، فنشأ في مصر مئات من العلماء ذوي الشهرة البعيدة والصيت الذائع ، الذين ينتمون الى اصل لا مجد له ، والذين نبتوا في بيئة فقيرة ضيقة ذات اليد ، ومن هؤلاء علي بن رضوان الطبيب المصري الشهير الذي مات سنة ٤٦٠ هـ بعد ان نبغ في الطب والفلسفة والمنطق وصار رئيس الاطباء في مصر في عهده ، ومن هؤلاء ايضاً الفقيه المشهور نجم الدين الخبوشاني المتوفى سنة ٥٨٧ هـ .

وقبل ان نختم هذا الموضوع يجدر بنا ان نشير الى ان اتاحة الفرصة لم تكن مكفولة فقط في المدارس والمساجد ، وانما كانت مكفولة ايضاً في الكتاتيب حتى يستطيع الصبي اليتيم او الفقير ان يسير منذ مطلع حياته في طريق معبَّد لا يقف الفقر عقبة أمامه ، ولا يحول العوز دون النبوغ والعبقرية ، وانتشرت هذه الكتاتيب المجانية في نواحٍ مختلفة من العالم الاسلامي ، وفيما يلي ذكر عنها :

بكَّرت الكتاتيب المجانية في الظهور في العالم الاسلامي ، فقد ذكر الجهشياري [2] ان يحيى بن خالد انشأ الكتاتيب للايتام . ولما انتشرت المدارس انتشرت معها الكتاتيب المجانية لتعد الطلاب للالتحاق بهذه المدارس ؛

---

١) رحلة ابن جبير ص ٤٢ .
٢) الوزراء والكتاب ص ٢١٢ .

فقد ذكر عماد الدين الاصفهاني [1] انه لما تولى عزيز الدين ابو نصر احمد ابن حامد منصب الاستيفاء في عهد وزارة شمس الملك بن نظام الملك بنى بمحلة العتابين ببغداد مكتبا للأيتام ، ووقف عليه وقوفاً مستمرة الجدوى على الدوام ، والايتام مكفولون منها الى ان يبلغوا الحلم ، بالنفقة والكسوة والطعام ، وتعلم الآداب وحفظ القرآن ومعرفة الحلال والحرام .

وبنى نور الدين في كثير من بلاده مكاتب للايتام واجرى عليهم وعلى تعليمهم الجرايات الوافرة [2] . وفي عهد صلاح الدين كان للايتام من الصبيان في دمشق محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم ما يقوم به ، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم [3] .

اما في مصر فيذكر ابن جبير [4] ان من مآثر صلاح الدين الكريمة أنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل ، يعلمون ابناء الفقراء والايتام خاصة ، وتجري عليهم الجراية الكافية لهم ، كما اوقف القاضي الفاضل اوقافا لتعليم الأيتام بالكتاب [5] .

وهكذا كان تكافؤ الفرص في العالم الاسلامي مرعيا في جميع مراحل التعليم ، ولم يكن الفقر قط سبب حرمان من العلم ، فلقد تغلب عليه القوم بما بذلوا للموهوبين والاذكياء .

---

١) تاريخ آل سلجوق ١٣٦ ـ ١٣٧ .
٢) ابن واصل : مفرج الكروب ١٦٥ ـ ١٦٦ مخطوط .
٣) ابن جبير ص ٢٧٢ .
٤) المصدر السابق ص ٥٢ .
٥) المقريزي : الخطط ٢ : ٣٦٦ ، النعيمي ١ : ٩٢ ، الروضتين ٢ : ٢٤١ .

توجيه التلاميذ على حسب مواهبهم

عرف المسلمون في العصور الوسطى فكرة توجيه التلاميذ على حسب مواهبهم ، وكانت عملية التوجيه هذه تبدأ بعد ان يجتاز التلميذ المرحلة الأولى للتعليم ، وقد ذكر حاجي خليفة [١] وابو يحيى الأنصاري [٢] ان على كل صبي ان يعرف طرفا من العلوم الضرورية في الحياة كالقراءة والكتابة والحساب . . . ثم عليه بعد ذلك ان يتجه الى العلم او الحرفة على حسب استعداده وتكوينه ؛ اذ ليس كل احد يصلح لتعلّم العلوم ، فاذا اتجه الى العلم فليقصد العلم الذي يقبله طبعه فما كل من يصلح لتعلم العلوم يصلح لجميعها .

وينبغي للطالب كما يقول الزرنوجي [٣] الا يختار نوع العلم بنفسه بل يفوض امره الى الاستاذ ؛ فإن الاستاذ قد حصل له من التجارب في ذلك ، فهو أعرف بما ينبغي لكل واحد وما يليق بطبيعته . اما المدرس فكان عليه ان يتصفح طلابه كما يتصفح خُطّابَ حُرَمِه كما ذكر ذلك الأصفهاني [٤] والا يدع الى حلقته الا من كان قادرا على استيعاب ما يجري فيها ، فليست كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية ، لكن ما شاكل طبعه وناسبه [٥]

---

١) كشف الظنون ١ : ٢٩ .
٢) اللؤلؤ النظيم في روم التعليم ص ٥ .
٣) تعليم المتعلم طريق التعلم ص ١٣ .
٤) محاضرات الادباء ١ : ٢٥ .
٥) ابن سينا : القانون ١ : ٢٧ .

وفي منهاج المتعلم [1] حديث طريف عن اختبارات الذكاء يقرر أنه يجب على المعلم ان يشخص طبيعة المبتدىء من الذكاوة والغباوة ، ويعلّمه على مقدار وسعه ولا يكلف الزيادة عن مقداره فانه اذا كلف يئس عن تحصيل العلم ويتبع الهوى ويُشكِل تعليمُه .

وقد وضح تفاوت الذكاء لدى المربين المسلمين ، وعبّر عنه الامام الغزالي [2] بقوله : « واذا غلبت القوة البدنية على النفس يحتاج المتعلم الى زيادة التعلم وطول المدة ، واذا غلب نور العقل على اوصاف الحس يستغني الطالب بقليل التفكر عن كثرة العلم » وعلى هذا فان من واجب المدرس « ألا يشرك الذكي مع الغبي في التلقي فهو تقصير في الذكي وارهاق للغبي [3] » .

أما طرق اختبارات الذكاء التي كانوا يستعملونها فلم يذكر لنا المؤرخون والكتاب تفصيلاً دقيقاً عنها فيما أعرف ، وكل ما ورد الينا عنها ان المربين كانوا يعتمدون على التجربة ؛ فهم يعلّمون الطفل ثم يحكمون عليه بمقدار النتيجة التي يستطيع ان يحصل عليها ، كما كانوا يختبرون ذاكرة التلميذ ليروا ما اذا كان يميل الى الحفظ ، او التعمق والتفكير ، فان كانت الأولى فليدرس علم الحديث مثلاً ، وان كان الثانية فليدرس الفلسفة والمناظرة وعلوم الجدل والكلام .

---

١) من مخطوط غير معروف المؤلف وجدته بحلب وتوجد صورته بمكتبتي الخاصة ، ظهر الورقة رقم ٩ .

٢) الرسالة اللدنية ص ٣٣ .

٣) منهاج المتعلم ٩ ب .

فاذا وُجِّه التلميذ او التحق بحلقة دون توجيه ، ورأى المدرِّس في هذه الحالة او تلك ان التلميذ ينبغي له ان يفارق هذه الحلقة الى سواها ، فان المدرس ما كان يتردد في ابلاغ التلميذ هذه النتيجة ، وينصحه بأن يغيِّر الموضوع الذي شغل نفسه به ، ويدرس موضوعاً آخر . قال ابن جماعة [1] : واذا علم ان تلميذاً لا يفلح في فنٍّ أشار عليه بتركه والانتقال الى غيره مما يرجى فيه فلاحه ؛ روي ان يونس بن حبيب كان يختلف الى الخليل بن احمد يتعلم منه العروض ، فصعب عليه تعلُّمه ، فقال له الخليل يوما : من اي بحر قول الشاعر ؟

اذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

ففطن يونس لما عناه الخليل ، فترك العروض وأخذ يتعلم النحو ، وقواعد اللغة حتى أصبح في ذلك أماما وعالما شهيرا [2] .

وقد بدأ محمد بن اسماعيل البخاري يتعلم الفقه على محمد بن الحسن فقال له محمد بن الحسن : اذهب فتعلم علم الحديث ، لما رأى ان ذلك العلم اليق بطبعه ، فطلب علم الحديث فصار فيه مقدماً [3] .

سن التعلم

روي عن الرسول (ص) انه قال « اطلبوا العلم من المهد الى

---

١) تذكرة السامع ص ٥٧ .
٢) الاصفهاني : محاضرات الادباء ص ٢٥.
٣) الزرنوجي : تعليم المتعلم ص ١٣ .

اللحد [1] » وعلى هذا فلم تكن هناك سن محدودة لطلب العلم ، بل كان كل مسلم يدرك ان من واجبه ان يطلب العلم ما اتيح له ذلك في اي فترة من فترات عمره ، حتى ولو كان شيخاً تقدمت به السن ، قيل لابي عمرو بن العلاء : حتى متى يحسن بالمرء ان يتعلم ؟ قال : ما دامت الحياة يحسن ان يتعلم [2] . وقيل لحكيم : ما حد التعلُّم ؟ فقال : حد الحياة [3] . ويروي الزرنوجي [4] انه ليس لصحيح البدن والعقل عذر في ترك طلب العلم مهما كان عمره . ويروي ابن قتيبة [5] انه « لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فاذا ظن انه قد علم فقد جهل » .

وفي ضوء هذه الافكار نجد أن أصحاب رسول الله قد تعلموا في كبر سنهم كما يروي البخاري [6] ذلك ، ونجد كذلك حرص بعض العلماء على ان يحققوا ما تشككوا فيه من مسائل العلم وهم على فراش الموت [7] .

فالنتيجة لكل هذا ان العمر كله يجب ان يكون مسرحا لتلقي العلم ، غير ان المربين المسلمين يدركون بوضوح ان التبكير في تلقي العلم له كبير الفائدة وعظيم الجدوى لنشاط الجسم ، وصفاء النفس ، وفراغ البال . قال حاجي خليفة [8] : ان من شرائط تحصيل العلم ان يكون الطالب شابا ،

---

١) حاجي خليفة : كشف الظنون ١ : ١٣ .
٢) ابن خلكان : الوفيات ١ : ٥٥١ .
٣) الاصفهاني : محاضرات الادباء ١ : ٢٦ .
٤) تعليم المتعلم ص ٢٥ .
٥) عيون الاخبار ٢ : ١١٨ .
٦) صحيح البخاري ١ : ٣٠ .
٧) ياقوت : معجم الادباء ٦ : ٣٠٩ .
٨) كشف الظنون ١ : ٢٨ .

فارغ القلب ، غير ملتفت الى الدنيا ، قليل العوائق حتى الأهل والاولاد والوطن ، ويقول ابن جماعة : وعلى الشخص ان يغتنم وقت فراغه ونشاطه ، وزمن عافيته ، وشرخ شبابه ، ونباهة خاطره ، وقلة شواغله قبل عوارض البطالة ، او مواقع الرياسة [1] ، ويستحب للطالب ان يكون عزبا ما امكنه لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجية وطلب المعيشة عن إكمال الطلب [2] ، وعليه ان يبادر شبابه وأوقات عمره الى التحصيل ، ولا يغترّ بخدع التسويف والتأميل ، فان كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها ، ويقطع ما قدر عليه من العلائق الشاغلة ، والعوائق المانعة عن تمام الطلب وبذل الاجتهاد وقوة الجد في التحصيل ، فانها كقواطع الطريق ، ولذلك استَحَبَّ السلفُ التغرب عن الأهل والبعد عن الوطن لأن الفكرة اذا توزعت قصَّرت عن درك الحقائق وغموض الدقائق ويقال : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك [3] ويروي الاصفهاني [4] قول بعضهم : بادروا بتعليم الأطفال قبل تراكم الاشغال ، وانه وان كان الكبير اوقد عقلا الا أنه أشغل قلبا .

وقد ترددت هذه النصائح في العالم الاسلامي ، فاستمع لها الناس واستجابوا إليها ، وحرص الآباء على ان يلحقوا ابناءهم بحلقات العلم وهم في سن مبكرة ، كما حرص الصبيان أنفسهم ، بل تنافسوا فيما بينهم في

---

١) تذكرة السامع ص ١٣٤ .
٢) المرجع السابق ص ٧٢ .
٣) تذكرة السامع ٧٠ ـ ٧١ .
٤) محاضرات الأدباء ١ : ٢٦ .

الجلوس المبكر امام المدرسين للاستماع اليهم ، والانتفاع بهم ، حتى ان بعض المحدثين كان لا يقبل في مجلسه من لم يكن ملتحيا ، ويُروى ان صبيا كان شديد الرغبة في سماع الحديث ، ومنع من ذلك فاتخذ لنفسه لحية مصطنعة [١] .

وكان من نتيجة إقبال الطلاب على حلقات التعليم وهم في سن مبكرة أن حذقوا قسطاً كبيراً من العلوم ، ووصلوا الى مراكز علمية مرموقة وهم في مطلع الشباب ، ومقتبل العمر .. وتدل النتائج التي حصل عليها كثير من التلاميذ على انهم بذلوا جهداً كبيراً يدعو الى الدهشة والاعجاب . قال قتادة : حفظت القرآن في سبعة اشهر [٢] . وقد أتم سهل بن عبدالله التستري حفظ القرآن وعمره ست او سبع سنوات [٣] ، وأكمل تاج الدين الكندي القراءات العشر وله عشرة اعوام [٤] ، ويروي عمر بن احمد بن العديم أنه ذهب الى المكتب وعمره سبع سنوات وختم القرآن وله تسع سنين وقرأ بالعشر وله عشر سنين [٥] .

وكان الامام الشافعي يحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، ويحفظ الموطأ وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وكان يقال له وهو ابن خمس عشرة سنة : أفتِ يا أبا عبدالله فقد والله آن لك ان تفتي ، وكان سفيان بن عيينة اذا جاءه شيء من الفتيا او التفسير التفت الى الشافعي وقال : سلوا

---

١) آدم متز : الحضارة الاسلامية ١ : ٣٠٣ من الترجمة العربية .
٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٢٦٧ .
٣) الغزالي : الاحياء ٣ : ٥٩ .
٤) النعيمي : الدارس ١ : ٤٨٣ ـ ٤٨٤ .
٥) ياقوت : معجم الادباء ٦ : ٣٦ .

هذا الغلام [1] . ولما بلغ ابن سينا عشر سنين كان قد أتقن علم القرآن والأدب وحَفِظَ اشياء من اصول الدين وحساب الهند والجبر والمقابلة [2] .

عدد التلاميذ في الفصل او الحلقة

من المبادىء التربوية التي يُعنى بها المربون المحدثون ان يهيئوا للصبي فرصة ليجتمع بأترابه من الصبيان ، يتحدث اليهم ويسمع منهم ، ويعدون ذلك ضرورياً لتنشئة الصبي تنشئة صالحة ، وتربية الصبي مع الصبيان وسيلة لنجاح الصبي وأدعى لاقباله وحبه للدرس من ان يحاط بالرجال الذين يكبرونه في السن وفي التفكير وفي الآمال . ومما يدعو للفخر والاعجاب ان المسلمين أدركوا هذا الاتجاه وصاغه فيلسوفهم ابن سينا احسن صياغة فها هو ذا يقول : « ويكون مع الصبي في مكتبه صبيةٌ حسنة آدابُهم ، مرضيةٌ عاداتهم ، لأن الصبي عن الصبي ألقن وهو عنه آخذ وبه آنس [3] » . وعلى هذا كان الخلفاء لا يكتفون باستدعاء المربين لأولادهم في القصور ، بل كانوا مع هذا يرسلون الأولاد لينضموا للحلقات وليستمعوا مع لداتهم الى الدروس ، ثم يتلقون من المؤدب في القصر لوناً آخر من الدرس يؤهلهم الى المستقبل الذي ينتظرهم ، وقد مرت نماذج كثيرة لأولاد الخلفاء والعظماء الذين كانوا يسعون للانضمام للحلقة وللاستماع مع الأتراب الى المحاضرات .

---

١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ : ٦٣٧ .
٢) المرجع السابق ١ : ٢١٤ .
٣) ابن سينا : القانون ١ : ٧٩ ـ ٨٠ .

واذا عدنا الى هذه الحقبة التي نعنى بدراستها لنشاهد مجموعات الطلاب الذين يجلسون أمام شيوخهم لاحظنا ان عدد هؤلاء الطلاب يختلف اختلافاً بيِّناً في المسجد عنه في المدرسة ، ومع ان عدد الطلاب في المسجد كان يكثر في حلقة عنه في اخرى تبعا لشهرة الشيخ وتعمقه في مادته ، فان عدد طلاب الحلقة في المسجد كان على العموم أكثر من عددهم في المدرسة ؛ إذ كان المسجد مفتوحاً للجميع ، وكان عدد طلاب الحلقة فيه غير محدود ، ومن هنا كانت حلقات المشاهير من الشيوخ تشمل مئات من الطلاب ؛ روى القزويني [١] أنه كان في حلقة درس رضي الدين النيشابوري أربعمائة فقيه من الفضلاء . وكان يحضر مجلس أبي الطيب الصعلوكي مفتي نيشابور اكثر من خمسمائة طالب علم [٢] ، وكان ابو حامد الاسفرائيني يدرس بمسجد عبدالله بن المبارك ببغداد ، وكان يحضر مجلسه ما بين ثلاثمائة وسبعمائة طالب [٣] . وفي مصر كان محمد بن سليمان النعالي امام المالكية في عصره ، وكانت اليه الرحلة والامامة بمصر ، وكانت حلقته في الجامع تدور على سبعة عشر عمودا من كثرة من يحضرها [٤] .

فاذا تركنا المسجد وذهبنا الى المدرسة وجدنا أمام المدرس عددا معيناً من الطلاب لا يصح تجاوزه في الغالب ، ثم ان هذا العدد قليل جدا بالقياس الى عدد الطلاب في حلقات المساجد ، وكان مما جرت عليه العادة في المدارس ان يعيِّن منشىء المدرسة مدرسا لها ، ويحدد في الوقت نفسه عدد

١) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٣١٧ .
٢) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٣ : ١٧٠ .
٣) المرجع السابق ٣ : ٢٥ .
٤) السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٢١٢ .

الطلاب الذين يسمح لهم بالالتحاق بها ، ولعل اكبر عدد سمح له بالالتحاق بمدرسة هو ذلك الذي كان موجودا بالمدرسة المستنصرية ؛ فتبعا لرواية ابن العبري [1] جعل المستنصر بمدرسته إيوانا لكل مذهب من المذاهب الأربعة ، ورتب لكل ايوان مدرسا ، وعيّن له خمسة وسبعين طالبا ليتعلموا منه ، اما في دمشق ومصر فكان العدد يقف تقريباً عند العشرين ؛ فقد مر عند الحديث عن وقف مدرسة ست الشام الجوانية ان سجل الوقف يشترط الا يزيد عدد الطلاب عن عشرين رجلا بما فيهم المعيد ، وذلك بخلاف المدرس والمؤذن والقيم ، الا ان يوجد في ارتفاع الوقف نماء وزيادة وسعة فللناظر أن يقدر بقدر ما زاد ونما [2] وفي المدرسة المجدية الخليلية بمصر قرر الواقف مدرسا شافعيا ومعيدين وعشرين طالباً [3] .

تلك كانت النظم في المدارس غير ان هذه النظم لم تستطع البقاء في بعض الاحيان امام الرغبة الجامحة التي ابداها الطلاب للاستماع لمدرس ما عُيِّن للتدريس بمدرسة ؛ يحكي السبكي [4] ان حلقة إمام الحرمين في المدرسة النظامية بنيشابور كانت تضم ثلثمائة طالب .

ويجدر بنا ان نذكر ان التعليم في مرحلته العليا هو الذي كان يباح فيه هذا العدد الضخم من الطلاب ليجلسوا امام المدرسين ، اما المرحلة الأولى (الكتّاب) فقد كان على المدرس فيها ان يعلم عدداً محدوداً

---

١) تاريخ مختصر الدول ص ٤٢٥ .
٢) النعيمي : الدارس ١ : ٣٠٣ .
٣) المقريزي : الخطط ٢ : ٤٠٠ .
٤) طبقات الشافعية ٢ : ٢٥٢ .

من الصبيان فاذا كثر التلاميذ في كتابه عين من المدرسين عدداً يتناسب مع عدد التلاميذ بحيث يكون لكل فقيه عدد قليل من الصبيان ؛ قال ابن عبدون [1] ريجب للمؤدب ألا يكثر من الصبيان و يمنعون من ذلك . . . فانه لن يستطيع ان يعلمهم شيئاً على ما ينبغي .

واذا كان لنا ان ندون هنا ملحوظة قصيرة فهي ان هذا النظام ، وهو اباحة عدد كبير من الطلاب في المرحلة العليا وتحديد العدد في المرحلة الأولى ـ هو الذي يتبعه المربون في العهد الحاضر ، فالمدرس الجامعي يلقي محاضرته الى عدد قد يصل الى بضع مئات ، في حين يشكو مدرسو التعليم الابتدائي اذا تجاوز العدد في فصولهم بضع عشرات .

العقل والجسم

أدرك المسلمون في عصورهم الأولى أن هناك صلة وثيقة بين الجسم والعقل ، وقد عبروا عن هذه الصلة بالحكمة القائلة « العقل السليم في الجسم السليم » ومن أجل هذا عنوا بالجسم ، وخففوا عنه الأعباء ، ليستطيع أن يحمل النفس الكبيرة ، ويساعد العقل على الدرس والتدريس ، والتعلُّم والتعليم .

ولم يُجِز المسلمون ان يُرْهِق الانسان قواه الجسمانية أو يضعف من احتمالها من أجل عبادة يسرف فيها ، أو حرمان مما أُحِلَّ للناس ، فيحكي البخاري [2] ان الرسول صلى الله عليه وسلم شاهد رجلا يكثر الصلاة و يصوم

---

١) رسالة ابن عبدون نشرت في The Journal Asiatique , 1934.

٢) صحيح البخاري ٣ : ٤٨٩ .

ولا يفطر فأمره بعدم الإسراف في العبادة وقال له : « إن لبدنك عليك حقا » .

وقد اتُّبِعتْ هذه المبادىء في المعاهد التعليمية ، وادرك المربون المسلمون ان الجسم المجهد أو المريض لا يساعد العقل على الفهم ، وأوصى الاصفهاني ١) بترفيه النفس في طلب العلم محذرا الطالب من مواصلة الدرس والجهد دون ان يتخلل ذلك راحة ورياضة ، فهذا الجهد المتواصل ستكون نتيجته الفشل ، ويستشهد الأصفهاني بقوله (ص) ان المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . ويضيف الاصفهاني ان على الطالب ان يواصل الدرس ما نشط عقله وفطن ، فاذا أحس في عقله فتورا فليتوقف عن العمل وليلجأ الى اللعب فان العقل المكدود ليس لرويّته لقاح ولا لرأيه نجاح .

وكان المربون المسلمون يدركون ان من طبيعة الطفل ان يكون نشيطاً كثير الحركة ، وكانوا يغذون فيه هذه الطبيعة لعلمهم ان في نشاط الجسم يقظة العقل وصفاء الذهن ، وبالتالي كانوا يرون ان من غير الطبيعي ان يكون الطفل هادئاً ساكناً ويرجعون سكونه الى مرض أصابه او بأس نزل به ؛ سأل ابو القاسم عبدالله بن محمد أحد علماء المغرب معيقب ابن ابي الأزهر : ما حال صبيانكم في الكتاب ؟ فأجاب معيقب : ولع كثير باللعب . فقال ابو القاسم : ان لم يكونوا كذلك فعلّق عليهم التمائم ٢) .

وقد حفل كتاب الارشاد والتعليم بنصائح هامة في ذلك الموضوع نقتبس بعضها فيما يلي :

ومن العجب ان يفرح الناس بالأطفال القليلي الحركة البعيدين عن

---

١) محاضرات الادباء ١ : ٢٨ .

٢) انظر مقالا نشر بمجلة المعلم الجديد السنة التاسعة العدد الرابع ص ٢٥ .

اللعب ، ويعتبروهم عقلاء متَّزنين ، ويتوسموا فيهم الخير ، ولم يعلموا ان الأطفال الذين طبعوا على السكون وعدم الحركة لا بد ان يكونوا مصابين بأمراض جسمية او عقلية ، بحيث ينتهي أمرهم الى ضعف الحياة وكدر المعيشة اذا لم يؤخذوا من الصغر بالرياضة والحركة وتنبيه أجسامهم . ولذلك يجب ان يترك التلاميذ بل ان يرشدوا الى اللعب والجري والأعمال المساعدة على نمو أجسامهم ، لتطيب لهم لذة العيش ويفرحوا بالحياة وتنمو أجسامهم ويتربى إحساسهم [1] .

ومن الضروري تعويد الجسم على الرياضة ، واستنشاق الهواء النقي ، والحركات المعتدلة من نحو المشي ، او ركوب الخيل ، او السباحة ، او نحو ذلك ، فان ذلك من اقوى الدواعي على تقوية الجسم ومتى قوي الجسم قويت الروح ، وعظم الأمل ، وانبعثت المسرة للعمل [2] .

فعلى القائمين على تربية الطفل سواء أكانوا في المدرسة ام في المنزل ان يجعلوا للأطفال نصيباً من اللعب والرياضة ، خصوصاً في أواسط النهار ، وبعد انصرافهم وحضورهم الى المنزل . ومتى آنسوا منهم ضعفاً في الجسم ، او مللاً في القوى العقلية ، طالبوهم بالرياضة والتفسح في الهواء الجيد [3] .

وللعب انواع كثيرة منها ما يدعو الى كثرة الحركة كلعب الكرة والجري ، ومنها ما يدعو الى قليلها كاللعب بالاشياء والحيوانات ، ومهما كان نوعها يجب على الآباء والأمهات او المدرسين والمدرسات ان يلاحظوا

---

١) كتاب الارشاد والتعليم ص ٥٤٠ .
٢) المرجع السابق ص ٥٣٩ .
٣) المرجع السابق ص ٥٤٠ .

أطفالهم وقت لعبهم ، وان يرشدوهم كيف يلعبون لتمرينهم على النظام ، وان يلعبوا معهم أحيانا لينتهزوا فرصة اللعب معهم فيربّوا عقولهم ويعلّموهم [١] .

وكما جعل النوم للراحة ، جعلت اليقظة للحركة والعمل ، واللعب للأطفال هو جزء من العمل ، والأطفال مطبوعون عليه بالفطرة ، وهو يبعث في الأطفال نشاطا في اجسامهم ، وقوة في عقولهم ، ولذة في حياتهم ، ما دام سائرا على محور النظام والترتيب ومناسبا لعمر الطفل وقواه العقلية [٢] .

ويقول الغزالي [٣] : ينبغي ان يُؤذَن للطفل بعد الانصراف من المكتب ان يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب المكتب ، ومنعُ الصبي من اللعب ، وارهاقه بالتعليم دائما ، يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً [٤] ويقول ابن مسكويه [٥] : وينبغي ان يؤذن للطفل في بعض الأوقات ان يلعب لعبا جميلا ليستريح اليه من تعب الأدب ، ولا يكون في لعبه ألم ولا تعب شديد ؛ فالرياضة تحفظ الصحة وتنفي الكسل وتطرد البلادة وتبعث النشاط وتذكي النفس .

وقد اتبعت المعاهد التعليمية الاسلامية نظما مفيدة ، ورياضة منظمة ، للترويح عن التلاميذ وتجديد اقبالهم على العلم . فكان التلاميذ يمنحون اجازة يوم الجمعة ونصف يوم الخميس من كل أسبوع ، كما كانوا يمنحون

---

١) ، ٢) كتاب الارشاد والتعليم ص ٥٤١ .
٣) الاحياء ٣ : ٥٩ .
٤) انظر ايضاً العبدري . المدخل ٣ : ٣١٢ .
٥) تهذيب الاخلاق ص ٢٠ .

إجازات اخرى في مناسبات مختلفة واهمها اجازة عيد الفطر وعيد الأضحى، وهذه تمتد الى اسبوع في الغالب .

وكانت هناك تمرينات رياضية يعالجها التلاميذ ، وقد نصح عمر بن الخطاب ان يعلّم التلاميذ السباحة ورمي السهام وركوب الخيل [١] كما كان الجري أيضاً من أنواع الرياضة التي مارسها التلاميذ المسلمون [٢] .

أخلاق التلاميذ وواجباتهم

عني كثير من المربين المسلمين بالكتابة عن اخلاق التلاميذ وواجباتهم، ومن المؤلفين من خصص لهذا الموضوع حيزاً كبيراً في كتبه ونتاجه ، وسنقتبس من المصادر المتعددة موجزاً نورده فيما يلي :

على الطالب ان يكون طاهر النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات ، فطهارة النفس وحسن الأخلاق أساس للنبوغ في العلم ، وربما حصل رديء الأخلاق على العلم غير انه لن ينتفِع ولن ينفَع به ولذلك فكأنه لم يحصِّلْه [٣] .

وعلى الطالب ان يقلل من علائقه بالدنيا ، ويبعد عن الأهل والوطن حتى لا يشغله ذلك عن تحصيل العلوم [٤] ، وألا ينوي بطلب العلم إقبال الناس ، ولا استجلاب حطام الدنيا ، او الكرامة عند السلطان ، قال

---

١) المبرد : الكامل ص ١٥٠ .
٢) كتاب الارشاد والتعليم ص ٥٤٠ .
٣) الغزالي : الاحياء ١ : ٤٠ ، العبدري: المدخل ٢ : ٩٨.
٤) الاحياء ١ : ٤١ .

رسول الله (ص) «لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولتماروا به السفهاء، ولتصرفوا به وجوه الناس اليكم» بل يكون المقصود ازالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال [1].

وعليه أن يتواضع لمعلمه، وان يجله ويحترمه، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق، ملاحظاً ان حق المعلم اعظم من حق الوالدين، فان الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية، وقد قيل: الآباء ثلاثة: أب ولدك، وأب رباك، وأب علّمك وخير الأباء من علمك [2]. وقد استجاب الطلاب المسلمون لهذه النصائح فأحلوا المعلمين منهم في مكان رفيع، قال الشافعي: كنت أقلب الورق بين يدي مالك تقليباً رقيقاً هيبة أن يسمع وقعه. وقال الربيع: والله ما اجترأت ان أشرب الماء والشافعي ينظر الي هيبةً منه [3]. ويعدد الزرنوجي بعض الآداب التي يجب على الطالب ان يلاحظها مع استاذه فيقول: يجب ألا يمشي الطالب أمام المعلم، ولا يجلس مكانه، ولا يبتدىء الكلام عنده الا بإذنه، ولا يكثر الكلام عنده، ولا يسأل شيئاً عند ملالته، ويجتنب سخطه، ويمتثل أمره في غير معصية [4].

ولما كان معروفاً في المعاهد العلمية الاسلامية أن الطالب هو الذي يختار الاستاذ الذي يعجبه ليلتحق بحلقته فقد نصح الطالب ألا يتعجل في اختيار

---

١) الزرنوجي: تعليم المتعلم ٦ ـ ٧، الاحياء للغزالي ١: ٤٨.
٢) منهاج المتعلم ١٢ ب مخطوط.
٣) ابن جماعة: تذكرة السامع ص ٨٨.
٤) الزرنوجي: تعليم المتعلم ص ١٢.

استاذه ، وان يلاحظ فيه العلم والأخلاق ، ولا يتقيد بالمشهورين فقد يكون بين خاملي الذكر علماء أفاضل [١] ، فاذا اختار أستاذه فليتعلم الصبر والثبات عليه ، فان تركه بعد اختياره يسيء الى الاثنين جميعاً ، وكما يتعلم الصبر والثبات على الاستاذ يتعلم ذلك أيضاً على كتاب حتى لا يتركه أبتر ، وعلى فن حتى لا يشتغل بفن آخر قبل ان يتقن الأول ، وعلى بلد حتى لا ينتقل الى بلد آخر بغير ضرورة ؛ فان ذلك يفرق الأمور ، ويشغل القلب ، ويضيع الوقت [٢] .

وعلى الطالب المبتدىء ان يتحرّز عن الإصغاء الى اختلاف الناس ؛ فان ذلك يدهش عقله ، وان يؤجل النظر في ذلك الى ان يصير متقدما في العلم ، وان يبتدىء بأن يأخذ من كل علم من العلوم المحمودة بطرف ، فينظر فيه نظرا يطلع به على مقصد العلم وغايته ، ثم يختار واحدا من هذه العلوم ليتبحر فيه على الا يخوض في ذلك الموضوع دفعة واحدة بل يراعي الترتيب ويبدأ بالأهم [٣] .

وعلى الطالب ان يحبب الى نفسه العلم حتى يألفه ويلزمه ويكون هو لهوه ولذته وسلوته [٤] ، كما ان عليه الا يتورع عن اخذ العلم واصطفاء الأخلاق من اي شخص ولو كان صغير الشأن ، فان اللؤلؤة الفائقة لا تهان بهوان غائصها الذي استخرجها [٥] ، ويجب ان يكون الطالب مملوءاً

---

١) ابن جماعة : تذكرة السامع ٨٥ ـ ٨٦ .
٢) الزرنوجي : تعليم المتعلم ص ١٠ .
٣) الغزالي : الاحياء ١ : ٤٢ .
٤) ابن المقفع : الدرة اليتيمة ص ٨٣ من رسائل البلغاء .
٥) ابن المقفع : الأدب الصغير ص ٢٢ من رسائل البلغاء .

بالحماسة والنشاط وان يُقبل على عمله برغبة وشغف [1] .

وإذا كتب الطالب لنفسه او عن شيخه شيئا فيلزم ان يجوِّد ما يكتب ، وان يترك حاشية ، ولا يكتب بين الأسطر [2] .

ومهما تقدم الطالب وحصل من العلم فحذار ان يظن أنه وصل الغاية في تحصيل العلوم ، وقد مرَّ قول ابن المبارك : لا يزال المرء عالما ما طلب العلم فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل [3] .

صلة التلميذ بالتلميذ

بين الطالب والطالب علاقة قدَّرها المربون المسلمون على أنها لا تقل عن علاقة القريب بقريبه ، والشخص بذي رحمه ؛ قال الامام الشافعي : العلم بين اهل الفضل والعقل رحم متصل [4] . فاذا كان هؤلاء الطلاب يتلقون العلم عن شيخ واحد ، او في مدرسة واحدة ، فان العلاقة حينئذ يجب ان تكون آكد وأقوى ، اذ انهم يُعتَبرون أبناء روحيين لأبٍ واحد هو المربِّي ، ومن اجل هذا فان رباطا كرباط الأخوة يجب أن يؤلف بين قلوبهم ، قال الغزالي [5] : وكما ان حق ابناء الرجل الواحد ان يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد

---

١) حاجي خليفة : كشف الظنون ١ : ٢٩ .
٢) الزرنوجي : تعليم المتعلم ص ١٤ ، تذكرة السامع لابن جماعة ٨٥ ـ ٨٦ .
٣) الغزالي : الاحياء ١ : ٤٩ .
٤) الغزالي : الاحياء ١ : ٣٨ .
٥) المرجع السابق ١ : ٤٩ .

التحاب والتوادد ويطلق الزرنوجي [1] وحاجي خليفة [2] على الزميل في المدرسة لفظ (الشريك) ولعلهما لاحظا ان هناك منفعة مشتركة تربط الزميل بالزميل ، وان تعاونهما ينتج الخير لهما جميعاً كالذي يحدث بين الشريك والشريك في تجارة او أي تصرف مالي ، إذ ان تعاونهما واخلاص كل منهما للاخر سيدرُّ الربح عليهما معاً ، وسيعمل على نجاح الهدف المشترك الذي يسعى له الاثنان .

وهناك آداب يذكرها المربون المسلمون لينيروا للطالب الطريق ، وليدلُّوه على ما يفعل وما يدع فيما يتصل بعلاقته بزملائه ، فينصحه الزرنوجي [3] « ألا يصادق من زملائه الا المجدَّ الورع ، وصاحب الطبع المستقيم ويَفِرَّ من الكسلان والمعطِّل والمكثار . » وينبغي ألا يفتخر الطالب على أقرانه بشيء مما يمتاز به ، ولا يتوصل بشرف ان كان له ، او سلطان من أهله ان اتفق الى غضب من هو دونه ، او تطاوله عليه ، ويعوَّد ألا يُوحش الصبيان ، بل يبرهم ويكافئهم على الجميل بأحسن منه ، وألا يعوَّد الربح على الصبيان [4] .

جهود التلاميذ لتحصيل العلم

الذي يقرأ في الأدب العربي وفي الآداب المتصلة به كالأدب الفارسي يدرك ان للمسلمين مواقف رائعة يبدو فيها حرصهم على العلم وتضحياتهم

---

١) تعليم المتعلم ص ١٤ .
٢) كشف الظنون ١ : ٢٩ .
٣) تعليم المتعلم ص ١٠ .
٤) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٢١ .

من أجله ، وتروي لنا المصادر المختلفة قصصاً مثيرة ، تسجل للطلاب المسلمين حماسة ربما كانت نادرة المثال ، وحرصاً على طلب العلم يصل بهم الى القمة في قوة العزم والاستهانة بالمصاعب .

وفيما يلي مجموعة قليلة من هذه القصص قصدت بها ان أدلّل على هذه الحقيقة وأن أطري هذه الهمة العالية ، ثم أروّح بها عن نفس القارىء ففي بعضها طرافة وجمال :

قرأ ابو بكر بن الاخشاد في اول كتاب الحيوان ما عدّه الجاحظ من اسماء كتبه ، فرأى بينها كتاب « الفرق بين النبي والمتنبي » وقد حاول ابو بكر الحصول عليه دون نجاح ، فلما دخل مكة حاجا أقام مناديا بعرفات ينادي : رحم الله من دلنا على كتاب « الفرق بين النبي والمتنبي لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ [1] » .

ويروى عن أبي يوسف قاضي القضاة أنه قال : مات لي ولد فأمرت من يتولى دفنه ، ولم ادع مجلس أبي حنيفة خوفا ان يفوتني منه يوم [2] .

ورغب ابو اسحق الكازروني ان يلتحق بمعهد ليتعلم العلم ، فقال له ابوه : يا بني ، نحن فقراء فتعلم التجارة لتربح نفقاتك . فأجاب الابن : نعم يا أبي التجارة لنا ضرورية وسأعمل بها نهاري كله ، ولكنه كان يذهب عند الفجر ليتلقى الدروس فإذا اقبل النهار التحق بعمله التجاري ، وكان يختلس الوقت للنظر والاستذكار وأصبح بذلك عالما من خيرة العلماء [3] .

---

١) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٧٢ — ٧٣ .

٢) الأبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ١ : ٢٠.

٣) Di Vita des Schich p. 14, Abu·Ishaq al Kazarūni, Edited by Fritz Meier 1948.

وكان ابراهيم الزجّاج يكسب في اليوم درهماً ونصف درهم ، فاشتهى العلم ، فذهب الى المبرد وطلب منه ان يعلّمه ، واتفق معه على ان يدفع له ثلثي ايراده (درهماً في اليوم) وزاد في الشرط فقال له : سأعطيك درهماً في اليوم أبداً الى ان يفرق الموت بيننا [1] .

ومر محمد بن القاسم ابو بكر بن الانباري بسوق النخاسين فرأى جارية حسنة الصورة كاملة الوصف . قال : فوقعت في قلبي ، ثم مضيت الى دار امير المؤمنين الراضي بالله فقال : اين كنت ؟ فعرفته الأمر ، وأخبرته بالجارية . فأمر بشرائها وحملت الى منزلي فلما عدت الى المنزل كنت أطلب مسألة قد خفيت عليّ فاشتغل قلبي بالجارية ، فقلت للخادم : خذها الى النخّاس فليس يبلغ قدرها أن يَشْغَل قلبي عن علمي [2] .

وحدّث الفقيه علي بن عيسى الولواجي قال : دخلت على ابي الريحان البيروني وهو يجود بنفسه الأخير ، فقال لي في تلك الحال : كيف قلت لي يوماً حساب الجدّات ؟ فقلت له إشفاقاً عليه : أفي هذه الحال ؟ فأجاب : يا هذا ، أدَعُ الدنيا وانا عالم بهذه المسألة ألا يكون خيراً من ان أخليها وانا جاهل بها ؟ [3]

كان الأحمر صاحب الكسائي رجلاً من رجال النوبة على باب الرشيد ، وكان يُحِبُّ علم العربية ، فكان يرصد مصير الكسائي الى الرشيد ، ويعرض له في طريقه كل يوم ، فاذا أقبل تلقاه ، واخذ بركابه ، ثم

---

١) ياقوت : معجم الأدباء ١ : ٤٧ .
٢) المرجع السابق ٧ : ٧٥ .
٣) المرجع السابق ٦ : ٣٠٩ .

أخذ بيده وأنزله وماشاه الى ان يبلغ الستر ، وسأله في طريقه عن المسألة بعد المسألة ، فاذا دخل الكسائي رجع الأحمر الى مكانه ، فاذا خرج الكسائي من الدار تلقاه لدى الستر وأخذ بيده وساءله الى ان يركب و يجاوز المضارب ، ثم ينصرف الى الباب . فلم يزل كذلك يتعلم المسألة بعد المسألة حتى قوي وتمكن . وقد اصبح الأحمر فيما بعد معلماً لأولاد الرشيد [1] .

ويبدو ان الطلاب ساروا سيرة معلميهم في هذا النشاط وتلك الحماسة ، فقد كان حرص الطلاب على الأخذ والتلقي صورة صادقة لحرص المعلمين على التدريس والتعليم ، وفيما يلي اقصوصتان قصيرتان تدلان بوضوح على شغف الشيوخ بالتلقين والتحقيق مهما وجدوا في ذلك من عناء ومشقة .

اعتقل احمد بن طولون بكار بن قتيبة لامتناعه عن لعن الموفَّق ووضعه في السجن حتى بقي فيه مدة سنتين ، ولكن بكاراً ظل يحدِّث وهو في السجن ، فقد كان تلاميذه ومريدوه يجتمعون حول طاق بالحجرة التي سجن فيها وكان بكار يقف الى هذه الطاق ليلقي خلالها درسه [2] .

وجاءت امرأة الى ابي الحسن الزيات فاستفتته فأجابها ثم مضت لسبيلها ، فما هو الا قليل واذا الشيخ رحمه الله تعالى قد تغيَّر وجهه ، وأخذ ثوبه فجعله في فمه وخرج يجري حافيا الى ان لحق المرأة فصحح لها الفتوى ثم رجع ، فسأله أصحابه عن سبب قيامه وجريه فقال : ذكرت أني وَهِمْتُ في جوابها ، فأسرعت لئلا تفوتني ؛ فقالوا له : لو أمرتنا لفعلنا ذلك . فقال :

---

١) ياقوت معجم الأدباء ٥ : ١٠٨ ـ ١٠٩ ومقدمة ابن خلدون ص ٣٩٩ .
٢) ابن حجر : رفع الاصر ص ٢٦ مخطوط ، ابن خلكان ١ : ١٢٨ .

ما هي في ذمة احد منكم فلو فعلت ذلك فقد يتباطأ احدكم فتفوت المرأة ولا تعلم جهتها [1] .

الرحلات لطلب العلم

لعل من الخير ان نفتتح حديثنا عن الرحلات لطلب العلم بقول الرسول (ص) لا ينال العلم براحة الجسم . وقوله : من سافر في طلب العلم كان مجاهداً في سبيل الله ، ومن مات وهو مسافر يطلب العلم كان شهيداً [2] .

وقد شاع هذا الدستور الذي وضعه الرسول ليحث به الناس على طلب العلم ويهوّن ما يناله المرء في سبيل العلم من عناء وجهد ، فاحتذى الشعراء والأدباء حذو الرسول ، وعبروا عن هذه المعاني بأساليب مختلفة تجدد العزم وتقوي الهمم ، قال الشاعر :

تريدين ادراك المعالي رخيصة ولا بُدَّ دون الشهد من إبر النحل [3]

وقال الاصفهاني [4] : لا يتأدب الرجل حتى يتجنب الفراش الوطيء والدثار الدفيء . وقال ابن جماعة [5] : ويقطع الطالبُ ما قَدِرَ عليه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة عن تمام الطلب وبذل الاجتهاد وقوة الجد في التحصيل فانها كقواطع الطريق ، ولذلك استحب السلف التغرب عن

---

١) العبد ري : المدخل ٢ : ١٠٨ ـ ١٠٩.
٢) ابو الحاج :الألف باللألبا ٨ أ مخطوط ، منهاج المتعلم ١٦ ب مخطوط.
٣) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ٢٧ .
٤) محاضرات الأدباء ١ : ٢٨ .
٥) تذكرة السامع والمتكلم ٧٠ ـ ٧١ .

الأهل والبعد عن الوطن لأن الفكرة اذا توزعت قصّرت عن درك الحقائق وغموض الدقائق .

وقال أبو الدرداء : لو اعيتني آية من كتاب الله فلم اجد احدا يفتحها عليّ الا رجلا ببرك الغماد لرحلت اليه . وقال الشعبي : لو ان رجلا سافر من أقصى الشام الى اقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ما رأيت ان سفره ضاع [1] .

وقد استجاب الطلاب المسلمون لهذه الدعوة ، وهبوا يسافرون لطلب العلم ، في عهدٍ كان السفر شاقاً والرحلات مُجْهِدة ؛ اذ لم تكن هناك طرق معبَّدة ، ولا قوافل منتظمة ، ولكن الطلاب لم يأبهوا بعناء ، ولم يخشوا جهداً ، بل خرجوا فرادى وجماعات يسعون في عزم قوي ، ومثابرة فائقة ، وبدا لهم ذلك العالم الاسلامي المترامي الأطراف وكأنه قطر واحد ، وندر ان أحسَّ عراقي بمصر ، او أندلسي بالشام أنه غريب .

ويتحدث العلامة ابن خلدون [2] بإفاضة عن الرحلات لطلب العلم ، وفيما يلي موجز للفصل الذي عقده لهذا الغرض :

الرحلة في طلب العلوم مفيدة ، لأن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم تارةً علماً وتعليماً والقاء ، وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة ، الا ان حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشدُّ استحكاماً وأقوى رسوخاً ، والرحلة تفيد كثرة الشيوخ وعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها .

---

١) جامع بيان العلم ص ٩٥ .
٢) المقدمة ٣٩٩ ـ ٤٠٠ .

فتعدد المشايخ يفيد تعدد الطرق اذ أن لكل منهم طريقته في التعليم [1].

والمتتبع لتاريخ الرحلات العلمية يدرك أنها ابتدأت منذ الجيل الاسلامي الأول ، وقد دعت الضرورة الى ان تبتدىء هكذا مبكرة ؛ فقد تفرق علماء الصحابة في الأقطار المفتوحة عقب فتحها ليعلّموا الناس شؤون الدين وليقرئوهم القرآن ويروا لهم الأحاديث ، وأقام كلٌّ واحد من هؤلاء العلماء مركزاً علمياً في البلد الذي نزل فيه ، ومن مشاهير علماء هذا الجيل :

عبد الله بن عمر	وكانت حلقته في	المدينة
عبد الله بن عباس	« «	مكة
معاذ بن جبل	« «	اليمن
ابو موسى الأشعري	« «	البصرة
عبد الله بن مسعود	« «	الكوفة
عبد الله بن عمرو بن العاص	« «	مصر

واصبح لكل واحد من هؤلاء مدرسة خاصة وطابع معين ، ثم ان هناك بضعة أحاديث لم يروها عن الرسول الا عدد قليل من الصحابة ، وكان للناس شغف كبير برواية الأحاديث فأخذ الناس يسعون الى هؤلاء الصحابة لينتفعوا بعلمهم وليأخذوا عنهم الأحاديث التي تلقوها عن الرسول .

ولما جاء الجيل الثاني كان من الملاحظ ان هناك فرقا بيّنا بين حلقة وأخرى ؛ اذ تفاوتت ميول العلماء تفاوتاً واضحا ، واختلفت اتجاهاتهم اختلافاً ظاهراً ، فأصبح منهم من يميل الى تفسير القرآن ، ومنهم من هو

---

١) انظر أيضاً كشف الظنون ١ : ٥٧ .

راوية للحديث ، ومنهم من يتعرض لعلم الكلام ، ومنهم من تبحّر في الفقه وهكذا ، وفيما يلي اسماء بعض المشاهير من علماء هذا الجيل وهذه الاسماء عناوين واضحة لاتجاهات أصحابها وميولهم :

سعيد بن المسيب	في المدينة
ربيعة الرأي	في قباء
عطاء بن رباح	في مكة
عطاء بن عبد الله الخراساني	في خراسان
الحسن البصري	في البصرة
النخعي	في الكوفة
مكحول	في سوريا
يحيى بن كثير	في اليمامة
طاووس	في اليمن
يزيد بن أبي حبيب	في مصر [1]

ثم كانت قيمة الطالب في نظر الناس تتناسب مع ما قام به من رحلات لطلب العلم ، ومع عدد المدرسين الذين تلقى عنهم ، وكل هذه الظروف شجّعت الطالب او قل دفعته دفعاً ليتلقى أفانين من العلم في أيٍّ من بقاع الأرض ، ولم تكن هذه الحماسة مقصورة على طلاب العلوم الدينية ، ولكنها شملت أيضاً طلاب الدراسات اللغوية والفلسفة والطب وغيرها وقد تحدث Professor Nicholson [2] عن هذه الرحلات حديثاً طريفاً حيث يقول : « وكان

---

١) انظر ياقوت : معجم الأدباء ٤ : ٤١٢ ـ ٤١٣ ، السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٣٤.

٢) Literary History of the Arabs p. 281.

جلة الباحثين وطلاب العلم يرحلون في حماسة ظاهرة عبر القارات الثلاثة ، ثم يعودون الى بلادهم كما يعود النحل محمَّلاً بالعسل الشهي ، ثم يجلس هؤلاء الباحثون في بلادهم ليرووا شغف الجماهير التي كانت تنتظر عودتهم لتلتف حولهم فينالوا من علومهم ومعارفهم زاداً وخيراً عميماً ، كما كان هؤلاء الباحثون يعكفون احياناً على تدوين ما جمعوا وما سمعوا ثم يُخرجون للناس كتباً هي بدوائر المعارف أشبه ، مع نظام رائع و بلاغة عذبة ، وهذه الكتب هي المصادر الأولى للعلوم الحديثة بأوسع ما تحتمله كلمة العلوم من معنى ، وهي مرجع العلماء والباحثين ، ومنها يستمدون فنوناً من الثقافة والمعرفة أعمق بكثير مما يظن الناقدون » .

ولْنرِ فيما يلي بعضاً من الأمثلة التي توضح هذا النشاط الذي يدعو للتقدير والاعجاب .

سمع جابر بن عبدالله الأنصاري ان عبد الله بن انيس الجهني سمع حديثاً عن رسول الله (ص) فاشترى جابر بعيرا ، ثم شد رحله حتى قدم مصر على عبد الله ، وسمع الحديث منه [1] .

وقد كان جابر في حالة مالية تمكنه من شراء بعير ليرحل عليه ، ولكن طلابا آخرين وقفت بهم حالهم المالية دون شراء او استئجار ما يركبون ومع هذا قفزت بهم هممهم العالية غير مبالين بوعثاء السفر ولا بطول الطريق ؛ كان لابن الخطيب التبريزي نسخة من كتاب التهذيب في اللغة للأزهري في عدة مجلدات اراد تحقيق ما فيها وسماعها على عالم باللغة ، فدُلَّ على

---

١) صحيح البخاري ١ : ٣١ ، جامع بيان العلم ١ : ٩٤ ، السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٨٨ .

ابي العلاء المعري ، فجعل الكتاب في مخلاة ، وحملها على كتفه وسار راجلا من تبريز الى معرة النعمان ، فنفذ العرق من ظهره اليها فأثر فيها البلل . ومن شعره :

فمن يسأم من الأسفار يوماً فإني قد سئمت من المقام [1]

وقد نشأ يحيى بن يحيى الليثي في قرطبة ، ورحل الى المشرق وعمره ٢٨ سنة ، فسمع من مالك بن أنس الموطأ في المدينة ، ورحل الى مكة فسمع من سفيان بن عيينة ، ورحل الى مصر فسمع من الليث بن سعد وعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم ، ثم عاد الى الاندلس [2] .

وقد اراد البخاري (٢٦٥ هـ) المحدث الشهير أن يجمع اكبر عدد من الأحاديث الصحيحة ، فجمع أحاديث بخارى ، ثم رحل الى بلخ وسمع محدثيها وروى أحاديثهم ، ثم رحل كذلك الى مرو ونيشابور والري وبغداد والبصرة والكوفة ومكة والمدينة ومصر ودمشق وقيسارية وعسقلان وحمص فجمع بهذا ما تفرق من الحديث في الأمصار ، وأقام في هذه الرحلات ستة عشر عاماً ، لقي فيها عناء شديداً لا يتحمله الا الأبطال الصابرون ، وأخيراً عاد الى وطنه [3] .

وكان سهل بن عبدالله التستري يستذكر العلم ويحضر حلقاته في سن مبكرة ، وقد أشكلت عليه مسألة علمية وهو في سن الثالثة عشرة ، ولما لم يجد لها جواباً شافياً في بلده سأل أهله ان يبعثوه الى البصرة ليسأل عنها

---

١) ابن خلكان ٢ : ٣٤٦، ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٢٨٦.
٢) ابن خلكان ٢ : ٣٢٠ ـ ٣٢١ .
٣) ابن خلكان ٢ : ٦٤٩ .

ففعلوا ، فلما جاء البصرة سأل علماءها فلم يشفِ أحدٌ منهم غلته ، فخرج الى عبادان الى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن أبي عبدالله فسأله عنها فأجابه اجابة شافية فأقام الصبي عنده مدة ينتفع بكلامه ويتأدب بآدابه [١] .

وكان حنين بن اسحق الطبيب البحاثة كثير السفر لجمع الكتب وللتزود من العلم ، وقد وصل في رحلاته الى اقصى بلاد الروم كما طاف بمدن العراق والشام ومصر [٢] .

وقد سبق لنا الكلام عن الطلاب الذين رحلوا الى البادية ليتلقوا هناك اللغة العربية التي لم يدخلها لحن ولا تصحيف ، وليرووا عن الأعراب الشعر والأدب والتاريخ ، وقد احتمل هؤلاء الطلاب الذين تركوا الحضر الى البادية الوانا من شظف العيش والخشونة ، اللذين هما طابع الحياة هناك ، ومع هذا فقد كانت حماستهم للعلم قوية ، وسعادتهم به ظاهرة ؛ روي ان أبا العباس ابن عم الأصمعي هلع مرة من الغربة في البادية واشتاق اهله فهم بالرجوع ، ثم رأى عربيا فتوسل له ان يسهل له سبيل الاخذ عن الاعراب ففعل ، واسمعه اعرابي قصيدة مطلعها :

لقد طال يا سوداء منك المواعدُ ودون الجدا المأمول منك الفراقدُ

فقال ابو العباس : قد والله أنسيت أهلي ، وهان عليَّ طول الغربة ، وشظف العيش سروراً بما سمعت [٣] .

---

١) الغزالي : الاحياء ٣ : ٥٩ .

٢) انظر ابن ابي اصيبعة : عيون الأخبار ١ : ١٨٧ ، القفطي : تاريخ الحكماء ص ١٧٣ .
وانظر ايضاً Khuda Bukhsh : Islamic Civilization p. 277

٣) احمد امين : ضحى الاسلام ٢ : ٣١٨ .

ويتحدث Sayid Ameen Ali [1] عن البيروني أحد الرحالة المسلمين فيقول : البيروني مواطن من خراسان نشأ في عهد السلطان محمود الغزنوي والسلطان مسعود ، وقد قام برحلة علمية طويلة الى الهند ، عاش في خلالها بين الهنود ، حيث عرف لغتهم ، ودرس علومهم وفلسفتهم وآدابهم ، وتعرف على عاداتهم وأخلاقهم ، وعرف قوانينهم وديانتهم ، وخرافاتهم العجيبة ، ثم درس جغرافية البلاد وطبيعتها ، وحشد كل هذه المعلومات في مؤلف ضخم محلى بعبارات مأثورة عن فلاسفة اليونان ومفكريها .

هذه امثلة قليلة من صور النشاط الرائع الذي قام به الطلاب المسلمون ، وقد ظل هذا النشاط في قمته خلال القرون الأولى للإسلام ، وكانت دراسة الحديث هي الدعامة الهامة التي حفزت الطلاب على ان يبذلوا هذا الجهد العظيم . وقد اتضحت في القرن الرابع الهجري فكرة كانت من قبل موضع شك وتردُّد ؛ تلك هي جواز تدوين الأحاديث وجواز الاعتماد في دراستها على هذه الكتب المدوَّنة من غير حاجة الى مقابلة المحدِّث ورواية الحديث عنه رواية مباشرة [2] .

وقد ترتب على هذا ان قل عدد الذين يرحلون لدراسة الحديث وجمْعه حتى عُدَّ ابن مندة : ابو عبدالله محمد بن اسحق الحافظ الجوال (٣٥٥ هـ) ختام الرحالين ، وقد كان ابن مندة معروفاً بالحفظ والمعرفة والصدق وكثرة التأليف ، وقد قام برحلة طويلة جلس فيها الى ١٧٠٠ شيخ وجمع جملة

---

١) A Short History of the Saracens p. 463.

٢) الخطيب البغدادي : تقييد العلم ص ١٠١ .

من الكتب كانت عند عودته أربعين حملاً [1] .

وقد ظل الطلاب على كل حال يرحلون لمقابلة الشيوخ والأخذ عنهم ، ولكن في النصف الثاني من القرن الخامس جدَّ حادث آخر ذلك هو نشأة المدارس وتزويدها بالعتاد والاساتذة الممتازين ، ومن ثم تحولت رحلات الطلاب الى هذه المدارس للاستماع الى شيوخها والانتفاع بما فيها من ميزات وتسهيلات .

وهناك نوع آخر من الرحالة المسلمين لا يمكن اغفاله هنا ؛ هؤلاء الرحالة ليسوا طلاباً يسعون ليجلسوا امام الأساتذة والشيوخ ، وانما هم علماء باحثون لهم ميول مختلفة في دراساتهم ؛ فمنهم من يميل الى الدراسات الدينية ، ومنهم من يهوى الدراسات الاجتماعية او التربوية او الجغرافية او نحوها ، وقد عمد هؤلاء الباحثون الى جمع المادة التي تغذي ميولهم لا من الكتب او النقلة ، بل من ابحاثهم وملحوظاتهم الخاصة ، فزاروا البلاد ، وجابوا البقاع ، يدوِّنون ما يرون ، ويسجلون ما يلاحظون . وقد ترك هؤلاء زاداً كبيراً للباحثين في الدراسات الاسلامية ، ويعتبر نتاجهم المصدر الغني الموثوق به لطلاب هذه الدراسات حتى العهد الحاضر . ومن هؤلاء اليعقوبي والاصطخري والمقدسي وابن حوقل وناصر خسرو وابن جبير وياقوت وابن بطوطة .

وقد شجع الطلاب والباحثين على السفر ما كانوا يلاقونه من تيسير عظيم وتسهيلات نادرة وعون لا ينقطع في كل خطوة يخطونها وفي كل بلد

---

١) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ١ : ٢٣٠ .

ينزلونه ، ولنقرأ معا صفحات قليلة متتابعة من رحلة ابن بطوطة لنقتبس منها نماذج لهذه المساعدات وهـذا العون :

يقول ابن بطوطة [1] لما نزلنا مدينة اقصَرا وهي في طاعة ملك العراق قابلنا الشريف حسين النائب بها عن الأمير ، فأكرمنا اكراماً متناهيا . . . وسافرنا الى مدينة سيواس وهي من بلاد العراق ، فدعينا لننزل عند أخي جَلَبي وقبلنا الدعوة ، وبعد ذلك طلبنا آخرون لننزل عندهم فلم يكن لي ذلك لسبق الأولين ، وكان الذين سبقوا إلينا في اشد الفرح لنزولنا عندهم . . . . وبعث لنا أمير هذه البلدة بفرس وكسوة ودراهم ، وكتب لنوابه في البلاد ان يضيفونا ويكرمونا ويزودونا . . . . ونزلنا الى مدينة ارز الروم ضيوفا عند شيخ كبير السن قد تجاوز المائة والثلاثين ، فأكرمنا وكان يخدمنا بنفسه في الطعام ، ولما اردنا الانصراف في اليوم الثاني شق عليه ذلك وأبى ، وقال : ان فعلتم نقصتم حرمتي وانما أقل الضيافة ثلاث . . . . ونزلنا الى مدينة يرْكي فقابلْنا رجلا من اهلها فسألناه عن منزل مضيفنا فقال : أنا ادلكم عليه . فاتبعناه ، فذهب الى منزله هو واكرمنا جدا ، وفي اليوم التالي صحبنا الى منزل مضيفنا .

ونختتم هذا الموضوع بأن نورد موجزا لنموذج من النصائح التي كان يتوجه بها العلماء لطلابهم الذين رحلوا اليهم قبيل عودة هؤلاء الطلاب الى أوطانهم :

قال ابو حنيفة النعمان لتلميذه يوسف بن خالد السمتي حين استأذنه في الرجوع الى وطنه البصرة : لا ترجع حتى افرغ اليك ، وأعرفك من الأمر

---

١) تحفة النظار ٢ : ٢٨٦ ـ ٢٩٥ .

ما تجعل نفسك عليه حتى يكون علمك آلة تزينك ولا تشينك ، ووسيلة لحب الناس لك لا لعداوتهم إياك . فصبر يوسف يوما حتى خلا به ابو حنيفة فأوصاه قائلاً [1] .

كأني بك وقد دخلت البصرة ، وأقبلت على مناقضة مخالفيك ، ورفعت نفسك عليهم ، وتطاولت بعلمك لديهم ، وهجرتهم فهجروك ؟ قال السمتي : لقد كنت على وشك ان افعل هذا . قال ابو حنيفة :

اذا دخلت البصرة استقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقك ، فأنزِلْ كل رجل منهم منزلته ؛ أكرم أهل الشرف ، وعظِّم أهل العلم ، ووقر الشيوخ ولاطف الأحداث ، وتقرَّب من العامة ، ودار التجار ، واصحب الأخيار ، ولا تهاون بالسلطان ، ولا تقولن من الكلام ما يُنكَر عليك في ظاهره ، ولا تجيبن دعوة ، ولا تقبلن هدية . . . وابذل طعامك فانه ما ساد بخيل قط ، واعمد الى زيارة من يزورك ومن لا يزورك ، والى الإحسان الى من أحسن او أساء اليك ، وخذ العفو وأمر بالعرف ، ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك وتعاهده برسلك ، ومن غاب افتقد احواله ، ومن قعد منهم عنك فلا تقعد انت عنه ، وصل من جفاك ، وأكرم من اتاك ، واعف عمن اساء اليك ، وعزِّ المحزون وهنِّىء من أتته فرحة ، ومن استنصرك فانصره ، واذا حضرت مجلس علم وخاض الناس على خلاف ما عندك فلا تبد لهم خلافا ، فإذا سئلت أجبت بما يعرفه القوم ثم تقول : وفيه قول آخر وتقول ما عندك وبمقدار استقبالهم لرأيك اشرحه ودلل عليه ، وارض للناس ما رضوا لأنفسهم .

---

١) الوصية كاملة مدونة في مخطوط بجامعة اسطنبول .

تعليم المرأة *

قرأت في هذا الموضوع عدة من الكتب يمكن ان يقال بحق انها كثيرة . وفي ضوء هذه القراءة الشاملة ، احب ان اقرر بادىء ذي بدء ، ان المرأة في الشرق او في الغرب كان حظها في التعليم ضئيلا خلال العصور الوسطى ، وان الفرص التي اتيحت لها كانت اقل بكثير من الفرص التي أتيحت للرجل المعاصر لها .

وقبل ان نسترسل في الحديث عن تعليم المرأة في الشرق يجدر بنا ان نقتبس من المراجع الأوروبية بعض الاقتباسات التي تصور المستوى العلمي للمرأة الغربية في اثناء هذه العصور .

« خلال العصور الوسطى كانت العناية بالمرأة الاوروبية محدودة جدا تبعاً لاتجاه المذهب الكاثوليكي الذي كان يعدُّ المرأة مخلوقاً في المرتبة الثانية ، وقد حرصت القرون الوسطى ان تحدَّ من سلطة المرأة الأوروبية والا تمنحها

---

* تقضي الدراسة المنهجية التي نتبعها في هذه الدراسة أن نجعل الحديث في هذا الفصل مقصوراً على المرأة المسلمة وتعليمها وعلى هذا فلن نعرض للكلام عن المرأة العربية قبل الاسلام ولا عن غير مشكلة التعليم من المشكلات الأخرى التي تتصل بالمرأة المسلمة ، وفي المراجع الآتية مادة نافعة للباحث فيما لن نتعرض له هنا من مشكلات تتعلق بالمرأة .

1 - The Arab Woman by M.E.T. Mugannam, Tombridge Printers Limited, 1937.

2 - Women in Ayyam al - Arab by Ilse Lichtenstädter, The Royal Arabic Society, 1935.

3 - Marriage in Early Islam by Gertrude H. Sterm, The Royal Arabic Society, 1939.

4 - The Real Status of Women in Islam. An article published in the 19th c. Sept. 1891.

هذا ما عدا المراجع العربية الكثيرة المتنوعة .

اي لون من ألوان النفوذ فيما عدا المجال الضيق الذي تعيش فيه وهو البيت [1] . »

وهناك تفاصيل اشمل وإيضاح ادق عن الطبقات المختلفة للمرأة الأوربية ، وحظ كل طبقة من التعليم نوردها فيما يلي :

كان Francesco da Barberico يسمح لطبقة النبيلات من الفتيات ان يتعلمن القراءة والكتابة ليتمكنّ فيما بعد من ادارة ضياعهن ، واما فيما يتعلق ببنات السادة من رجال البلاط وكذلك بنات القضاة والأطباء ومن على شاكلتهم فإنه تردد لمدة ما في الحكم عليهن ثم قرر انه من الخير لهن الا يتعلمن القراءة والكتابة ، وبالنسبة لبنات التجار والصناع فقد كان الحكم حازما بألا يتاح لهن اي لون من الوان التعليم [2] .

وهناك صورة واضحة اخرى يكتبها John Langdon Davies [3] عن المرأة من الطبقة العليا وهو يبدأ حديثه بأن يتساءل : كيف كانت السيدة من طبقة الاميرات تعيش في قصرها ؟ ويجيب عن ذلك بقوله : انها في كثير من الحالات نالت طرفا من التعليم فقد امضت بضع ساعات وهي طفلة مع مؤدب خاص او التحقت بنوع من المدارس يلتحق به الهواة ليتعلمن القراءة ، واقصى ما كانت تستطيع ان تصله بثقافتها ان تقرأ القصص والحكايات التي كانت تشتريها من الباعة المتجولين الذين كانوا يقصون هذه القصص بأنفسهم مع نوع من النشيد والغناء ثم يبيعونها لمن يهوى استعادتها من حين الى آخر .

---

(١) Feminism by K. A. Wieth - Knudsen, translated from the Danish by Arthur G. Chater, p. 209.

(٢) The Encyclopaedia of Education IV p. 1790.

(٣) A Short History of Women p. 229.

ومن الممكن ان نؤكد دون تردد أن المرأة من غير طبقة الأميرات لم تصل الى هذا المستوى المتواضع من الثقافة الذي وصلت له نساء الطبقة العليا .

اما عن حالة المرأة الانجليزية قبيل نهاية العصور الوسطى فقد أوجزها A. Abram بقوله .

ان الاهتمام بتعليم المرأة كان أقل كثيرا من الاهتمام بتعليم الرجل وكان المستوى العلمي الذي تحاوله المرأة محدوداً جداً بالقياس الى المستوى الذي يتطلبه الرجل ، ويقتبس Abram رأي أحد النبلاء ويعده مرجعاً هاماً في ذلك الموضوع لأنه يصوِّر آماله تجاه بناته وثقافتهن ، اذ يقول : احب ان تكون بناتي قادرات على القراءة ، وفيما عدا ذلك فالبنت ينبغي أن تتعلم الفضائل من الكتاب المقدس لتعيش في بيتها عيشة غير شريرة .

ثم يواصل Abram كلامه بقوله : وظاهر أنه لم يُطلب ان تنال المرأة اي مستوى ارقى من الثقافة ، ومن اجل هذا كانت الأوقاف على التعليم مقصورة على تعليم الصبيان ، وليس فيها نصيب لتعليم الفتيات ، وكان اغلب الآباء يكتفون بقسط ضئيل من التعليم الأولي لبناتهم ، ثم يعملون على تزويدهم بالجانب العملي في الحياة المنزلية ليعدوهن ليكن زوجات [1] .

هذا وصف موجز لثقافة المرأة الأوربية في العصور الوسطى مقتبس من مراجع أوربية ، فاذا تركنا المرأة الغربية وعدنا الى المرأة المسلمة كان من الأوفق ان اعترف بحقيقة لم يشأ كثير من الكتاب المسلمين ان يعترفوا بها ،

---

(١) English Life and Manners in the Later Middle Ages p. 218.

هي ان التعليم بين النساء لم يكن منتشراً انتشاره بين الرجال وكانت نسبة المتعلمات الى النساء اقل بكثير جداً من نسبة المتعلمين الى الرجال ، ويسأل المرء نفسه ما الذي دعا الى هذه النتيجة مع ان الدين الاسلامي لم يجعل الجنس عائقا للمرأة دون تلقي العلم ؟ واعتقد ان الذي عاق النساء المسلمات عن مجاراة الرجال في التعلّم انما هو الصعوبات التي كان يستهدف لها طلاب العلم فقد كانت الرحلات والحرمان والتقشف شارات الطالب المسلم ، وكان العرب يضعون المرأة في مكانة اسمى ومنزلة اعلى فلا يسمحون ان تتعرض لنصَب العيش وشظف الحياة ، وقد عبر الشاعر العربي عن هذا بقوله :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وعلى هذا هبطت نسبة المتعلمات من النساء غير انه يجدر بنا ان نسجل أن كثيرات من المسلمات تغلبن على هذه الصعوبات بطريق او بآخر فحصلن على جانب من الثقافة التي يمكن ان توصف بأنها عميقة ومتنوعة وهذا ما لم تنله معاصراتها الأوربيات .

وقبل ان نعطي نماذج توضح ثقافة المرأة وعمقها وتنوعها يجدر بنا ان نحقق قضية هامة هي : اين كانت تتعلم الفتاة ؟ هل التحقت بالكتّاب صغيرةً ؟ وانضمت الى حلقات الرجال شابة ؟ او كان لها مؤدب خاص ولم تختلط بالصبيان والرجال ؟

يقول الدكتور محمد فؤاد الاهواني [1] ان البنات كن يتعلمن في

---

١) التعليم عند القابس ص ٨٧ .

الكتاتيب . ولكن الدكتور الاهواني يرجع عن رأيه هذا الى الرأي الذي نعتقده صوابا فيقرر [1] ان العادة قد جرت على تعليم البنات داخل الدور .

وقد تعرض لهذا الموضوع ايضاً الدكتور خليل طوطح في كتابه التربية والتعليم عند العرب فذكر تحت عنوان « البنت والمكتب [2] » ما يلي : ومما يذكر في كتاب الاغاني تردد البنات الى المكتب في القرن الثاني للهجرة ، ثم اورد الدكتور طوطح اقتباسات غير كاملة من الأغاني يرى انها تؤيد رأيه (وسنوردها فيما بعد) ويعلق على هذه الاقتباسات بقوله : فمن هذا يظهر ان الفتيات ذهبن للتعلم في المكتب ، وفي بعض الأحيان تعلمن مع الفتيان كما هو معروف اليوم في بعض الأماكن .

ومرجع الدكتور طوطح هو الاغاني ١٤ : ٤٩ ، ٢١ : ٤٨ فاذا ذهبنا الى الأغاني في الموضعين المذكورين وجدنا النص الأول كالآتي : كان بالكوفة رجل يقال له علي بن آدم وكان يهوى جارية لبعض اهلها (اهل الكوفة) وانه علقها وهي صبية تختلف الى الكتاب ، فكان يجيء الى المؤدب فيجلس عنده لينظر اليها ، فما ان بلغت حتى باعها مواليها لبعض الهاشميين فمات جزعا عليها [3] .

اما النص الثاني فهو كما يلي :

حدثني القطراني المغني عن محمد بن حسن قال : كان خليل المعلم يلقب خليلان ، وكان يؤدب الصبيان ويعلم الجواري الغناء في موضع واحد ،

---

١) المصدر السابق ص ١٦٣ .

٢) ص ٦٩ .

٣) الأغاني ١٤ : ٤٩ طبعة الساس .

فحدثني من حضره قال : كنت يوما عنده وهو يردد على صبي يقرأ بين يديه « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم » ثم يلتفت الى صبية يردد عليها .

اعتاد هذا القلب بَلبالُه أن قُرِّبت للبين أجمالُه ١)

وانا اذ انظر الى هذين النصين لا اوافق الدكتور طوطح على الاستنباط الذي استخرجه منهما ، لأن البنت التي تقول إنها تعلمت في عصور الاسلام الاولى ونالت قسطاً ملحوظاً من الثقافة هي البنت الحرة قبل كل شيء وهذان الاقتباسان يتعلقان بالجواري فلا يمكن ان نأخذ منهما حكماً عاماً على ان البنت تعلمت بالمكتب مع الأولاد ، لأن تعليم الجواري بالمكتب لا يدل بحال من الاحوال على تعليم الحرائر به ، اذ ان كراهية اختلاط الجنسين ما كانت تنطبق على الجواري ؛ فقد كن متبذلات مُنِحْن كثيراً من التسهيلات التي لم تستمتع بها الحرائر .

ولم يكن المراد بتعليم الجواري هو الثقافة بقدر ما كان يراد رفع أثمانهن بتعليمهن الكتابة ، كما في الاقتباس الاول ، او الغناء كما في الاقتباس الثاني . على ان الاقتباس الثاني أبعد جداً عن الموضوع لتعلقه بالغناء الذي هو صنعة أخرى صادف ان المؤدب كان يجيدها ، وكان يزاولها مع عمله البعيد عنها كل البعد كما يزاول بعض معلمي مكاتب الريف المصري في هذه الأيام بعض الصناعات اليدوية السهلة وهم يشرفون على أطفال المكتب ، فلم تكن هذه البنت في الحقيقة ملتحقة بالكتاب .

---

١) الأغاني ٢١ : ٤٨ طبعة مصر .

وعندنا من النصوص الصريحة ما يؤكد لنا ان البنت لم تلتحق بالكتاب صبيّةً ولم تجلس في حلقة الرجال شابة ، وكان الغالب ان تتعلم في المنزل عن طريق احد اقاربها او بمؤدب يدعى لها .

يروي البلاذري [١] انه عند مجيء الاسلام كان هناك خمسة من نساء العرب يقرأن ويكتبن ، وهن حفصة بنت عمر ، وأم كلثوم بنت عقبة ، وعائشة بنت سعد ، وكريمة بنت المقداد ، والشفاء بنت عبدالله العدوية ، التي كانت تعلم حفصة وقد طلب الرسول منها ان تستمر في تعليمها لحفصة حتى بعد زواج الرسول منها .

ويروي البخاري [٢] ان النساء قلن للنبي (ص) غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك . فعيّن لهن يوما يلقاهن فيه ويعلمهن .

وقد ثقف الاعشى ابنته وعلمها حتى أصبحت اديبة ناقدة ، ويُرْوَى ان الأعشى كان اذا قال القصيدة عرضها عليها ثم يقول لها : عُدِّي لي المخزيات فتعددها له [٣] .

وكان عيسى بن مسكين (٢٧٥ هـ) يجلس للطلبة الى العصر فاذا كان بعد العصر دعا بنتيه وبنات اخيه وحفيداته ليعلمهن القرآن والعلم [٤] ، وكذلك علم اسد بن الفرات ابنته اسماء والامام سحنون ابنته خديجة كما كان يُدْعى مؤدبون خاصون لتعليم البنات في بيوت اهل الثراء وقصور الامراء [٥] .

---

١) فتوح البلدان ص ٤٥٨ .
صحيح البخاري ١ : ٣٨ .
٣) الأغاني ١٥ : ١٠٦ .
٤) ص ٢٢ من مقدمة حسن حسني عبد الوهاب للكتاب آداب المعلمين لابن سحنون .
٥) المصدر نفسه ص ٢٣ .

وهنا يبرز لي سبب آخر يضاف الى ما سبق ايراده عن السبب في ان نسبة عدد المتعلمات الى النساء اقل كثيراً من نسبة عدد المتعلمين الى الرجال ، ذلك هو ان الطريق الى تعليم المرأة كان عن طريق احدٍ من ذويها او يقوم به معلم خاص وكلا هذين لا يتيسر للجمهرة العظمى من النساء في حين ان الوسيلة لتعليم الولد سهلة فهو يلتحق بالكتاب صبياً وينضم الى الحلقات بالمساجد اذا شب ونمت ثقافته .

وعلى كل حال فقد انتج التعليم الخاص مجموعة من النساء اللائي كانت ثقافتهن لا تقل عن ثقافة الرجال بل ربما بزتها في كثير من الاحوال .

وحقيق بنا ان نشير الى ان المرأة المسلمة كثيرا ما برهنت على انها متزودة لا بالثقافة الاسلامية فحسب ولكن بالأخلاق الاسلامية والنبل في ارفع صوره ، وفي هذا المجال تحفل كتب التاريخ والادب بصور رائعة زاهية نسوق منها مثالا شهيرا ولكنه مع شهرته لم يفقد روعته وبهاءه :

لبث عبد الله بن الزبير على إمرة المؤمنين ثماني سنوات ودانت له العراق والحجاز واليمن ، ثم بدأ ينهزم امام جيوش عبد الملك بن مروان التي يقودها الحجاج بن يوسف ، حتى لم يبق له الا مكة المحاصرة بجند الحجاج ، والتي كانت هدفاً للمجانيق والحجارة ، فقلّ اصحابه وكثر عدوُّه ، والحجاج من حين الى آخر يمنّيه بالأمارة في ظل الأمويين لو أغمد سيفه وبسط يده للبيعة . دخل عبد الله حينذاك على امه اسماء بنت ابي بكر فدار بينهما الحوار الآتي :

عبدالله : يا أمه ، خذلني الناس حتى اهلي وولدي ، ولم يبق معي الا اليسير ومالا دفع له اكثر من صبر ساعة من النهار ، وقد اعطاني القومُ ما اردت من الدنيا فما رأيك ؟

اسماء : الله الله يا بني ! ! ان كنت تعلم انك على حق تدعو اليه فامض عليه ، وان كنت اردت الدنيا فبئس العبد انت ، اهلكت نفسك ومن معك ، وان قلت انك كنت على حق فلما وهن اصحابك ضعفت فليس هذا فعل الأحرار ، كم خلودك في الدنيا ؟ القتل احسن ما يقع بك يا ابن الزبير ، والله لضربة بالسيف في عزّ احب اليَّ من ضربة بالسوط في ذلّ .

عبدالله : يا أماه ، اخاف ان قتلني اهل الشام ان يمثلوا بي و يصلبوني .

اسماء : يا بني ان الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح ، امض غير متردد ولا هياب ١) .

والآن فلنتحدث عن ثقافة المرأة التي وصفناها بأنها كانت عميقة ومتنوعة ، وهذا الوصف حقيقة لا مبالغة فيها ، فقد تصدّت المرأة لموضوعات ثقافية متعددة فبرّزت في جميعها ، وكانت في كل منها تضارع الرجال ، وتدل على مقدرة ممتازة وكفاءة طيبة ، وفيما يلي حديث موجز عن الموضوعات التي زاولتها المرأة ، وعن بعض الشهيرات من النساء :

---

١) ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق ٧ : ٤١٥ ـ ٤١٦ ، ابن الاثير ٤ : ١٤٧ .

الدراسات الدينية :

اهتمت المسلمات اهتماما كبيراً بالدراسات الدينية ليعرفن تعاليم الدين الجديد ، ولينعمن برواية أحاديث الرسول ، وقد مرت بنا حديثا رواية البخاري ان النساء قلن للنبي (ص) غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك ، فعين لهن يوما يلقاهن فيه ويعلمهن وقد نتج عن هذا ان حظي الجيل الاسلامي الاول وبخاصة نساء الأنصار بمجموعة من السيدات كان لهن القدح المعلى في هذه الدراسات ، روي عن عائشة انها قالت : نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء ان يتفقهن في الدين [1] وقد كانت عائشة نفسها واسطة العقد بين نساء هذا الجيل فقد ورد عن الرسول (ص) قوله : خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء ، ومما يذكر لها انها روت عن الرسول الف حديث رواية مباشرة وهذا ما لم يتوافر لسواها [2] .

واقبلت النساء على رواية الحديث إقبالا عظيما في هذا الجيل وبعده ، وقد عقد محمد بن سعد جزءا من كتاب الطبقات الكبير لرواية الأحاديث عن النساء اتى فيه على اكثر من سبعمائة امرأة روين عن الرسول او عن الثقات من اصحابه ، وعنهن روى اعلام الدين وائمة المسلمين وترجم ابن حجر حياة ١٥٤٣ [3] محدثة وقال عنهن انهن كن ثقات عالمات ، كما خصص كل من النواوي في كتابه تهذيب الأسماء والخطيب البغدادي في كتابه

---

١) البخاري ١ : ٤٦ .
٢) النواوي : تهذيب الأسماء ص ٨٤٨ .
٣) الاصابة في تمييز الصحابة ٤ : ٤٢٤ ـ ٩٨٤ .

تاريخ بغداد والسخاوي في الضوء اللامع حيزاً كبيراً للحديث عن النساء اللائي كانت لهن ثقافة عالية وبخاصة في العلوم الدينية ورواية الحديث .

ومما يدل على دقة النساء في الرواية والحفظ ان الحافظ الذهبي اتهم أربعة آلاف من المحدثين ولكنه قال عن المحدثات : وما علمت من النساء من اتُّهمت ولا من تركوها ١) .

وهناك اسماء لامعة لبعض السيدات كان لهن في الدراسات الدينية شأن عظيم وفيما يلي بعض منهن .

نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي : وكانت راوية محدثة من خيرة المحدثات في عصرها ، وكان يجلس في حلقتها مشاهير العلماء والمجتهدين ، ولما دخل الامام الشافعي مصر حضر اليها وسمع عنها الحديث ٢) .

الشيخة شهدة وكانت تلقب « فخر النساء » وكانت تحاضر للجماهير في مسجد بغداد فيجلس للاستماع منها جمهور عظيم من الطلاب وكانت تحاضر ـ بالاضافة الى العلوم الدينية ـ في الأدب والبلاغة والشعر وقد استطاعت بثقافتها وفصاحتها ان تأخذ مكانتها بين مشاهير العلماء وفطاحل المدرسين ٣) .

زينب بنت عبد الرحمن الشَّعْري : كانت عالمة وادركت جماعة من أعيان العلماء واخذت عنهم رواية واجازة ، سمعت من محمد بن ابي القاسم ابن ابي بكر النيشابوري وابي المظفر القشيري وغيرهما ، واجاز لها الحافظ ابو الحسن الفارس والعلامة ابو القاسم الزمخشري صاحب الكشاف وغيرهما

---

١) ميزان الاعتدال ٣ : ٣٩٥ .
٢) ابن خلكان ٢ : ٢٥١ .
٣) Ameer Ali : The Spirit of Islam p. 255.

من السادات الحفاظ . وقد اجازت ابن خلكان سنة ٦١٠ وهو طفل جريا على العادة التي كانت متبعة آنذاك من اجازة الاطفال الذين ينبتون في بيوت العلم تشجيعاً لهم عندما يشبون ، واملا في نجاحهم في المستقبل [١] .

عُنَيْدة جدة ابي الخير التيناني الاقطع وكانت عالمة فاضلة تجلس للتدريس فيجلس امامها خمسمائة تلميذ من الرجال والنساء [٢] .

ولا بد لنا ان نشير الى فضليات النساء اللائي يدين لهن كثير من عظماء الرجال ومشاهيرهم :

فالخطيب البغدادي قرأ صحيح البخاري على كريمة بنت احمد المرزوي ، وقد أسهمت بنصيب كبير في تكوين هذا العالم الكبير [٣] .

وقد عد ابن عساكر اساتذته وشيوخه الذين تلقى عنهم العلم ، وكان من بينهم احدى وثمانون امرأة [٤] .

الأدب :

تحفل كتب الأدب العربي بالحديث عن كثيرات من الاديبات والبليغات والشاعرات اللائي كن في كثير من الحالات نظيرات للرجال المعاصرين لهن ، وربما كان لهن التفوق عليهم ، وفيما يلي امثلة موجزة لبعض منهن :

كان النضر بن الحارث قد تعود ان يسب الرسول ويعتدي عليه قبل

---

١) ابن خلكان : الوفيات ١ : ٢٧٨ .
٢) ص ٥٠ من كتاب الشكوى المنشور بالمجلة الأسيوية سنة ١٩٣٠ .
٣) ياقوت : معجم الادباء ١ : ٢٤٧ ، ابن بشكوال : الصلة في تاريخ علماء الأندلس ١ : ١٣٣ .
٤) ياقوت : معجم الادباء ٥ : ١٤٠ ، النعيمي ١ : ١٠١ .

الهجرة ، ثم كان النضر بين الأسرى يوم بدر فأمر الرسول به فقتل ، فرثته أخته قتيلة بقصيدة طويلة منها هذه الأبيات :

هل يسمعنِّي النضر إن ناديتُه ... أم كيف يسمع ميّت لا ينطقُ

أمحمدٌ ، يا نسل خير كريمة ... في قومها ، والفحل فحل معرقُ

ما كان ضرَّك لو مَننْتَ وربما ... منَّ الفتى وهو المغيظ المُحْنقُ

فالنضر أقرب من أسرتَ قرابةً ... وأحقُّهم ان كان عتق يُعتَقُ

ظلَّت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تَشَقَّقُ

قال ابن هشام : ان الرسول (ص) لما بلغه هذا الشعر قال : لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه [1] .

وكانت زوجة الفرزدق أديبة ناقدة يحتكم لها شعراء العصر وأدباؤه وقد حكمها الفرزدق بينه و بين جرير فقالت : انه قد غلبك في حلوه وشاركك في مره [2] .

رابعة العدوية : أخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة ، وكانت شاعرة أديبة متصوفة تستعمل في مناجاتها لله أسلوباً مملوءاً بالرقة والعذوبة والصفاء ، ومن ذلك قولها : إلهي ، أتحرق بالنار قلباً يحبك ؟ وقولها :

اني جعلتك في الفؤاد محدثي ... وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس ... وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي [3]

زبيدة ام جعفر زوجة الرشيد : كانت تنظم الشعر وتناظر الرجال في

---

١) سيرة ابن هشام ٢ : ١١٨ ـ ١١٩ .
٢) الجاحظ : البيان والتبيين ٢ : ٩٣ .
٣) انظر ترجمتها في ابن خلكان .

شتى نواحي الثقافة والفكر ، وكانت في شعرها رقيقة مجيدة ، وكثيراً ما كانت تبعث برسائلها الفياضة أبياتاً شعرية الى زوجها الرشيد ، ولما قتل محمد الأمين في الحرب بينه وبين أخيه المأمون ارسلت زبيدة الأبيات الآتية الى المأمون :

لخير إمام قام من خير عنصر ... وأفضل راق فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين وفخرهم ... وللملك المأمون من أم جعفر
كتبت وعيني تستهل دموعُها ... إليك ابن عمي مع جفوني ومحجري
أُصِبت بأدنى الناس منك قرابة ... ومن زال عن كبدي فقلَّ تصبري

ولما قتل ولدها الأمين رثته بقصائد رائعة منها :

أودى بإلْفَيْن من لم يترك الناسا ... فامنح فؤادك عن مقتولك الباسا
لما رأيت المنايا قد قصدن له ... أصبن منه سواد القلب والراسا
فبتُّ من شجني ارعى النجوم له ... اخال سنته في الليل قرطاسا
والموت كان به والهم قارنه ... حتى سقاه التي اودى بها الكاسا
رزئته حين باهيت الرجال به ... وقد بنيت به للدهر آساسا [1]

حمدة بنت زياد المؤدب وأختها زينب : يقول عنهما لسان الدين بن الخطيب [2] : شاعرتان اديبتان ، من اهل الجمال والمال والمعارف والصون ، الا ان حب الادب كان يحملهما على مخالطة أهله مع صيانة مشهورة ونزاهة موثوق بها . ويقول ياقوت [3] ان حمدة كانت تلقب بخنساء المغرب ،

---

١) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٣١٥ ـ ٣١٦ المطبعة البهية ١٣٤٦ هـ .
٢) الاحاطة في أخبار غرناطة ١ : ٣١٦ .
٣) معجم الادباء ٤ : ١٤٤ .

وشاعرة الاندلس ، وقد خرجت مرة للتنزه بالرملة من نواحي وادي آش فرأت فتاة ذات وجه وسيم أعجبها فقالت :

اباح الدمع أسراري بِوَادي له في الحسن آثار بـوَادي
فمن نهر يطوف بكل روض ومن روض يرف بكل وادي
ومن بين الظباء مهاة أنسٍ سبت لبي وقد ملكت فؤادي
لها لحظ ترقّده لأمر وذاك الأمر يمنعني رُقادي
اذا سدلت ذوائبها عليها رأيتَ البدرَ في افق السواد
كأن الصبح مات له شقيق فمن حزن تسربل بالسواد [1]

مريم بنت ابي يعقوب الأنصاري : اديبة شاعرة ، كانت تعلم النساء الادب وعمرت عمراً طويلا ومن شعرها وقد كبرت :

وما يُرتجى من بنت سبعين حِجَّةً وسبع، كنسج العنكبوت المهلهل
تدب دبيب الطفل تسعى الى العصا ويمشى بها مشي الأسير المكبل [2]

بدانية مولاة ابي المطرف عبد الرحمن بن غلبون : اخذت عن مولاها النحو واللغة لكنها فاقته في ذلك وبرعت في العروض ، وكانت تحفظ الكامل للمبرد والنوادر للقالي وتشرحهما . قال ابو داود سليمان ابن نجاح : قرأت عليها الكتابين وأخذت عنها العروض [3] .

حفصة بنت الحاج الركوني : يقول عنها لسان الدين ابن الخطيب [4]

---

١) انظر أيضاً المقري : نفح الطيب ص ١١٤٢ .
٢) المقري : نفح الطيب ص ١١٤٣ .
٣) المرجع السابق ص ١٠٧٨ .
٤) الاحاطة في اخبار غرناطة ١ : ٣١٦ وما بعدها .

انها كانت فريدة الزمان في الحسن والظرف والادب واللوذعية ، اديبة نبيلة جيدة البديهة سريعة الشعر . ويضيف ياقوت [1] انها كانت مشهورة بالحسب والادب والجمال ، استاذة وَلِيَتْ تعليمَ النساء في دار المنصور امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي وقد تولع بها امير المؤمنين المذكور وتغير بسببها على الوزير ابي جعفر احمد بن عبد الملك وكان عاشقاً لها متصلاً بها يتبادلان رسائل الغرام ويتجاوبان تجاوب الحمام ومما جرى بينهما انه بات معها في بستان (بحوز مؤمِّل) فلما جان وقت التفرق قال :

رعى الله ليلاً لم يرع بمذمَّم عشية وارانا (بحوز مؤمِّلِ)
وقد خفقت من نحو نجد اريحةٌ اذا نفحت جاءت بريا القَرَنْفُلِ
وغرَّد قُمْريٌّ على الدوح وانثنى قضيب من الريحان من فوق جدولِ
يرى الروض مسروراً بما قد بدا له عناقٌ وضمٌّ وارتشافُ مقبلِ

فقالت :

لعمرك ما سُرَّ الرياض بوصلنا ولكنه ابدى لنا الغِلَّ والحسدْ
ولا صفق النهر ارتياحاً لقربنا ولا غرد القُمري الا لما وجد
فلا تحسن الظن الذي انت اهله فما هو في كل المواطن بالرَّشَدْ
فما خلت هذا الأفق ابدى نجومَه لأمرٍ سوى كيما تكون لنا رصدْ

وبلغها ان ابا جعفر علق بجارية سوداء فكتبت اليه :

عشقتَ سوداء مثل ليلٍ بدائعَ الحسن قد سترْ
لا يظهر البشرُ في دجاها كلا ولا يُبْصَرْ الخَفَرْ

---

١) معجم الادباء ٤ : ١١٩ ـ ١٢٢ .

بالله قل لي وانت ادرى بكل من هام في الصورْ
من ذا الذي حب قبل رَوْضاً لا نَوْرَ فيه ولا زهَرْ [1]

وللسيوطي مؤلف قيم عنوانه « نزهة الجلساء في اشعار النساء » وهو لا زال مخطوطاً بالمكتبة الظاهرية بدمشق وهو يحوي تراجم سبع وثلاثين شاعرة مع نماذج رائعة من اشعارهن ، وفيما يلي بعض ما كتبه السيوطي عن واحدة من هؤلاء :

تقية ام علي بنت ابي الفرج : كانت اديبة فاضلة وشاعرة ممتازة ، لها شعر وقصائد ومقطوعات .... نظمت قصيدة تمدح الملك المظفر تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين ، وكانت القصيدة خمرية فوصفت آلة المجلس والخمر وما تفعله بالنفوس احسن وصف ، فلما وقف عليها تقي الدين قال : الشيخة تعرف هذه الأحوال من عهد صباها ، فبلغها ذلك فنظمت قصيدة أخرى حربية ووصفت الحرب وما يتعلق بها احسن صفة ثم سيرتها اليه تقول : علمي بهذا كعلمي بذاك . ومن شعرها :

نأيت وما قلبي عن النأي بالراضي فلا تغترْ مني بصدي واعراضي
واني لمشتاق اليهم متيم وقد طعنوا قلبي بأسمر عراض
اذا ما تذكرت الشآم واهله بكيت دماً حزنا على الزمن الماضي
ابيت اراعي النجم والنجمُ راكد وقد حجبوا عن مقلتي طيب اغماضي
فهل طارق منهم يُلِمُّ بناظري فإن لقاء الطيف اكبر أغراضي

وقد ولدت تقية بدمشق سنة ٥٠٥ وماتت سنة ٥٧٧ [2] .

---

١) انظر ايضاً المقري : نفح الطيب ص ١٠٧٨ وما بعدها .
٢) ورقة رقم ٣ أ ، ب .

الموسيقى والغناء :

يقول H. G. Farmer [1] حفلت حياة العربي بالموسيقى من المهد الى اللحد ، سمعها منذ كان طفلاً يُهَدْهَد بالغناء والموسيقى ، وظل يسمعها طوال عمره حتى عزفت الألحان تفجعه وترثيه . وكان لكل مناسبة من المناسبات التي تمر بالعربي موسيقاها الخاصة ، فللفرح ألحانه المرحة ، وللحزن انغامه المشجية ، ولكل من العمل او اللعب نوع من العزف وللحروب موسيقاها التي تبعث الهمم وتقوي العزائم ، وللمواقف الدينية ترانيمها العذبة الفياضة . وقد حرص كل عربي ذي شأن في تلك الايام على ان تكون عنده جارية مغنية ، وقلما كان يخلو منها بيت ؛ اذ كان انتشارها يشبه الى حد كبير انتشار جهاز (البيانو) في العهد الحاضر في منازل الطبقة العليا من الناس .

يستطيع قارىء هذه العبارة ان يدرك العدد الضخم من الموسيقيين والموسيقيات والمغنين والمغنيات الذين كانت تنبعث الحانهم وانغامهم في العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه ، ويكفي ان يذكر كتاب الاغاني ليستعرض الانسان في خاطره هذه المكانة السامية التي نعم بها فن الموسيقى وفن الغناء ، وليدرك ان طوائف متعددة اسهمت في الرقي بهذين الفنين الجميلين فقد نشط الموسيقيون والمغنون والموسيقيات والمغنيات للاستجابة لنداء العصر وبذل الخلفاء والاثرياء من اموالهم لهؤلاء واولئك ما شجعهم على الاجادة والابداع ، كما نشط المؤلفون يدونون وينشرون على الملأ ما يكتبون .

---

(١) The Legacy of Islam p. 358.

وكتاب الاغاني خير مرجع لنا في ذلك الموضوع ويجيء بعده نهاية الارب للنويري ونفح الطيب للمقري ، ومن هذه المصادر نسوق الحديث عن عدد قليل ممن برزن في هذه الصناعة :

جميلة مولاة بني سليم : يروي الاصفهاني [1] انها اصل من اصول الغناء ، وعنها اخذ معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وعقيلة العقيقية والشماسيتان خليدة وربيحة ، وكانت اعلم خلق الله بالغناء ، وكان معبد يقول : اصل الغناء جميلة وفرعه نحن ، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين . وكان يقصد لها الناس ويجلسون للتعلّم ، كما كان يقصدها مشهورو المغنين ليحتكموا لها ، فكانت تفضل بينهم وكان حكمها دائماً موضع القبول والرضا ، وكانت تعتز بفنها اعتزازاً كبيراً حتى انها آلت على نفسها الا تغني احداً الا في منزلها ، ومن اجل هذا كان يسعى لمنزلها سادة الدولة وعظماؤها لينعموا بصوتها الساحر ، وليسعدوا بغنائها الحنون ، وكان عناء الانتقال لها لا يعدل اللذة التي ينعمون بها والمتعة التي يحصلون عليها [2] .

دنانير : كانت دنانير مولاة يحيى بن خالد ، وكانت صفراء مولدة ، وكانت من احسن الناس وجها واظرفهن ، واكملهن ، واحسنهن ادباً ، واكثرهن رواية للغناء والشعر ، وكان الرشيد لشغفه بها يكثر السير الى مولاها ليسمعها ، وكان يكثر الاقامة عنده حتى الفها ، واشتد عجبه بها ، فوهب لها هباتٍ سنية ، وعلمت ام جعفر خبره فشكته الى عمومته فصاروا جميعاً اليه فعاتبوه .

---

١) الأغاني ٧ : ١٢٤ ..

٢) انظر ايضاً النويري : نهاية الأرب ٥ : ٤٩ ـ ٥٠ .

فقال : ما لي في هذه الجارية من أرب في نفسها وانما أربي في غنائها ، فاسمعوها فان استحقت ان يُؤلَف غناؤها والا فقولوا ما شئتم ، ثم انتقلوا الى منزل يحيى فلما سمعوها عذروه .

ومما يدعو للاعجاب بدنانير وصنعتها الغنائية ما يحكيه الاصفهاني انه كان لها كتاب مشهور في الاغاني ١) .

عليَّة بنت المهدي : أخت هارون الرشيد وهي من الحرائر اللائي فقن الجواري في الغناء ، وكانت من احسن الناس واظرفهم ؛ تقول الشعر الجيد ، وتصوغ فيه الألحان الحسنة ، وكان بها عيب ؛ اذ كان في جبينها فضل سعة فاتخذت العصائب المكللة بالجواهر لتستر بها جبينها فأحدثت شيئاً ما ابتدعت نساء ذلك العصر أجمل منه .

ويقول عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع أنه ما اجتمع في الاسلام قط اخ واخت احسن غناء من ابراهيم بن المهدي واخته عليَّة ، وكانت تقدَّم عليه . ويحكى عن عريب انها قالت : احسن يوم رأيته واطيبه يوم اجتمعتُ مع ابراهيم بن المهدي عند اخته عليَّة وعندهم أخوهم يعقوب ، وكان احذق الناس بالزمر ، فبدأت عليَّة فغنتهم من صنعتها واخوها يعقوب يزمر عليها ، وكان مطلع المقطوعة التي غنتها عليَّة هو :

تحجب فان الحب داعية الحب وكم من بعيد الدار مستوجِب القرب

وكانت عليَّة تحب خادماً من خدم الرشيد اسمه (طل) وكانت تراسله بالشعر فحلف عليها الرشيد الا تكلم (طلاً) ولا تسميه باسمه ، فضمنت

---

١) الأغاني ١٦ : ١٣٦ – ١٣٩ ملخص .

ذلك ، وكانت مرة بعد ذلك تقرأ القرآن والرشيد يستمع اليها فوصلت الى قوله تعالى « فان لم يصبها وابل فطل » ولكنها لم تشأ ان تنطق كلمة طل حفظاً على عهدها للرشيد فقالت : فان لم يصبها وابل فالذي نهانا عنه امير المؤمنين ، فضحك الرشيد ، وقبّل رأسها ، ووهب لها طلا ، وقال : لا امنعك بعد هذا من شيء تريدينه .

ومن شعرها الذي غنته فأبدعت فيه قولها :

نام عُذّالي ولم أنمِ ... واشتفى الواشون من سَقَمي
واذا ما قلت بي ألم ... شك من اهواه في ألمِي [1]

متيم الهاشمية : نشأت متيم بالبصرة وفيها تأدبت وغنّت ، واخذت عن اسحق وعن ابيه من قبله ، وعن طبقتهما من المغنين ، وكانت من تخريج بذل وتعليمها ، وعلى ما اخذت عنها كانت تعتمد ، وكانت من احسن الناس وجهاً وغناء وادباً .

حكى الهشامي قال : كانت متيم ذات يوم جالسة بين يدي المعتصم ببغداد وابراهيم بن المهدي حاضر ، فغنت متيم :

لزينب طيف يعتريني طوارقه ... هُدُوّاً اذا ما النجم لاحت لواحقه

فأشار اليها ابراهيم ان تعيده ، فقالت متيم للمعتصم : يا سيدي ، ابراهيم يستعيدني الصوت وكأنه يريد ان يأخذه . فقال المعتصم لها : لا تعيديه . فلما كان بعد ايام كان ابراهيم حاضراً مجلس المعتصم ومتيم غائبة فانصرف ابراهيم بعد حين الى منزله ومتيم في منزلها بالميدان وطريقه عليها ، وكانت

---

١) الأغاني ٩ : ٨٣ ـ ٩٥ ، نهاية الأرب ٤ : ٢٣١ ـ ٢٣٧ .

هي في منظرة لها مشرفةٍ على الطريق وهي تغني هذا الصوت وتطرحه على جواري سيدها علي بن هشام ، فتقدم ابراهيم الى المنظرة وهو على دابته وتطاول حتى اخذ الصوت ، ثم دق الباب بمقرعته وقال : قد اخذناه بلا حمدك [1] .

خديجة بنت الخليفة المأمون : حدثت ملح العطارة ـ وكانت من احسن الناس غناء وانما سميت العطارة لكثرة استعمالها العطر المطيَّب ـ قالت : غنت شارية يوماً بين يدي المتوكل مقطوعة عذبة منها :

بالله أخبرْنَ : لمن ذا الرشا المثقل الردف الهضيم الحشا
أظرف ما كان اذا ما صحا واملح الناس اذا ما انتشى

فطرب المتوكل وقال لشارية : لمن هذا الغناء ؟ فقالت اخذته من دار المأمون ولا ادري لمن هو . فقالت ملح : انا اعلم الناس به . قال المتوكل لمن هو يا ملح ؟ قالت : الشعر والغناء جميعاً لخديجة بنت المأمون [2] .

وكان في قصر الخليفة عبد الرحمن الثاني جناح يسمى « دار المدنيات » وكان ينزل فيه المغنيات اللائي جُلِبْنَ من المدينة ، وبخاصة قَلَم وعَلَم وفَضْل ، وكانت فضل ابرعهن غناء وجمالاً واكثرهن حظوة عند الخليفة [3] .

وكانت عنيدة الطنبورية امرأة فاتنة الجمال عالية الاخلاق موفورة الذكاء ، وكانت تجيد العزف على الآلة الموسيقية بالطنبور ، ومنها اخذت عنيدة لقب

---

١) الأغاني ٧ : ٣١ : ٣٨ .
٢) الأغاني ١٤ : ١١٤ .
٣) المقري : نفح الطيب ٢ : ٥٧٨ .

الطنبورية ثم كان صوتها غاية في الرقة والعذوبة [1] .

الطب :

تقول Mugannam [2] « ان النساء المسلمات قمن في الحروب الاسلامية بالدور الذي تقوم به في العهد الحاضر منظمات الصليب الاحمر . » فيروى ان امية بنت قيس الغفارية قالت : أتيت رسول الله في نسوة من بني غفار فقلنا : يا رسول الله ، قد اردنا ان نخرج معك الى وجهك هذا - وهو يسير الى خيبر - فنداوي الجرحى ، ونعين المسلمين بما استطعنا . فقال : على بركة الله . وتقول الربيع بنت معوذ : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسقي القوم ونخدمهم ونداوي الجرحى ، ونردُّ القتلى والجرحى الى المدينة [3] .

وبالإضافة الى هذا فان عندنا نساء برعن في الطب وكانت لهن شهرة عظيمة بين الاطباء ، وقد ترجم ابن ابي اصيبعة لبعضهن في مؤلفه طبقات الاطباء كما ورد ذكر بعضهن في تاريخ الحكماء للقفطي وفي الاحاطة للسان الدين ابن الخطيب . وفيما يلي نماذج قصيرة لبعضهن :

زينب طبيبة بني اود : كانت عارفة بالأعمال الطبية خبيرة بالعلاج ومداواة آلام العين والجراحات ، مشهورة بين العرب بذلك . حدث جماد ابن إسحق عن ابيه عن كناسة عن ابيه عن جده قال : اتيت امرأة من بني أود لتكحلني من رمد كان اصابني ، فكحلتني ثم قالت : اضطجع

---

١) Ameer Ali : A Short History of the Saracens p. 456.

٢) The Arab women p. 25.

٣) ابن حجر : الاصابة ٤ : ٥٧٥ وانظر أيضاً عبدالله عفيفي : المرأة العربية ٢ : ٤٤ - ٤٦.

قليلاً حتى يدور الدواء في عينك . فاضطجعت ثم تمثلت قول الشاعر :

أمخترمي ريبُ المنون ولم أزر طبيبَ بني أود ـ على النأي زينبا

فضحكت ثم قالت : اتدري فيمن قيل هذا الشعر ؟ قلت : لا . قالت : فيَّ والله قيل ، وانا زينب التي عناها ، وانا طبيبة بني أود ، أفتدري من الشاعر ؟ قلت : لا . قالت : عمك ابو سماك الأسدي [١] .

أم الحسن بنت القاضي ابي جعفر الطنجالي : كانت امرأة واسعة الاطلاع كثيرة المعارف اجادت عدة علوم مع الطب ، ولكنها في الطب كانت ابرز وأشهر [٢] .

أخت الحفيد بن زهر وابنتها : كانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة ولهما خبرة جيدة فيما يتعلق بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان الى نساء المنصور ولا يُقبل لمداواة اهل المنصور سواهما [٣] .

الشئون الحربية :

نبغ في ظل الاسلام عدد كبير من النساء المحاربات ، وقد قامت نسيبة زوجة زيد بن عاصم بدور هام في موقعة أحد ؛ اذ أنه لما قامت قريش بالهجوم على جيوش المسلمين المنهزمة قبيل نهاية المعركة حاربت نسيبة بشجاعة نادرة وجرحت بسيفها احد عشر محارباً وكانت من الاسباب التي عطلت تقدم جيوش قريش [٤] .

وقاتل يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين قتالا شديداً ، وجعلت هند

---

١) ابن ابي أصيبعة ١ : ١٢٣ .
٢) لسان الدين بن الخطيب : الاحاطة ١ : ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .
٣) ابن ابي اصيبعة ٢ : ٧٠ .
٤) Mugannam. The Arab Women p. 25.

بنت عتبة تقول : عضّدوا الرجال بسيوفكم [1] وكانت جويرية بنت ابي سفيان مع زوجها في حومة الوغى [2] .

وفي موقعة صفين كان يتميز جمل أحمر تركبه الزرقاء بنت عدي الهمدانية وهي توقد الحرب وتحض شيعة عليٍّ على القتال قائلة : ايها الناس ان المصباح لا يضيء مع الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد الا الحديد .... ايهاً في الحرب قدُماً غير ناكصين ولا متشاكسين .

وقد استدعاها معاوية ايام خلافته فسُيِّرت اليه فقال لها : والله يا زرقاء ، لقد شركت علياً في كل دم سفكه . قالت : أحسن الله بشارتك قال : او يسرُّك ذلك ؟ قالت : نعم والله . فضحك معاوية وقال : والله لوفاؤكم له بعد موته اعجب من حبكم له في حياته ، ثم سألها ان تذكر حاجتها . فقالت : يا امير المؤمنين ، آليت على نفسي ألا اسأل اميراً أعنْتُ عليه أبداً [3] .

وفي نفس المعركة كانت عكرشة بنت الاطرش متقلدة حمائل السيف تقاتل اهل الشام وتحثُّ قومها على الجهاد والنضال [4] .

وفي سنة ١٣٩ هـ غزا صالح بن علي والعباس بن محمد بلاد الروم ووغلا فيها وغزا مع صالح اختاه ام عيسى ولبابة [5] .

---

١) البلاذري فتوح البلدان ص ١٤١ .
٢) الطبري : ٢١٠٠ - ٢١٠١ .
٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٢١٣ .
٤) المرجع السابق ١ : ٢١٥ .
٥) ابن الاثير ٥ : ٣٧٢ .

اعمال أخرى اسهمت فيها المرأة

اسهمت المرأة المسلمة في نواح أخرى من جوانب الحياة الاسلامية فقد أهلتها ثقافتها الى ان تشتغل بالسياسة وشئون الحكم او ان تكون مصلحة اجتماعية ممتازة او ان تشغل بعض المناصب العامة ذات الاهمية الكبرى .

فقد كان للخيزران نصيب كبير في ادارة شئون الدولة ، وكانت تتدخل في شئون السياسة تدخلاً سافراً في عهد زوجها الخليفة المهدي ، وعهد ولديها الخليفتين الهادي والرشيد ، وكان الهادي في بدء عهده بالخلافة كثير الطاعة لها مجيباً لها ما تسأل من الحوائج للناس ، فكانت المواكب لا تخلو من بابها ، فكلمته ذات يوم في امر فلم يجد الى اجابتها سبيلاً ، فاعتل عليها بعلة ، فقالت لا بد من اجابتي .... واشتد الخلف بينهما ، فيقال انها دبَّرت الخلاص منه لتستأنف في عهد خلفه الرشيد نفوذها السياسي في الدولة [1] .

واذا كان مزاج الخيزران حاداً فان عندنا سيدة اخرى هي زبيدة زوجة الرشيد وقد تدخلت في السياسة ولكن بفطنة وتؤدة ؛ يروى انه كان لها في السياسة رأي تسمو به الى التدخل في أمور الدولة كأفطن من يكون من الرجال [2] .

ولكن زبيدة مصلحةً اجتماعية كانت ابرز منها سياسيةً ؛ يقول

---

١) انظر المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٥٥ وما بعدها . المطبعة البهية ١٣٤٦ .
٢) نخلة المدور : حضارة الاسلام في دار السلام ص ٩٧ .

المسعودي : وكان أحسن الناس فعلا في أيام الرشيد ام جعفر بنت المنصور لما احدثته من بناء دور السبيل بمكة واتخاذ المصانع بها ، وما احدثته من دور للتسبيل بالثغر الشامي وطرسوس ، وما أوقفت على ذلك من الوقوف . ومن اروع آثارها الخالدة حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز وقصة ذلك انها حجت سنة ١٨٦ هـ فأدركت ما يعانيه اهل مكة من المشاق في الحصول على ماء الشرب ، فدعت خازن أموالها وامرته ان يدعو المهندسين والعمال ليبدأ الحفر وليشق الطريق للماء في كل خفض ورفع وسهل وجبل مسافة اثني عشر ميلا حتى يوصل الماء الى مكة . وقد ظهر التردد على خازن الأموال لما تصوره من كثرة التكاليف فأدركت زبيدة سبب تردده فقالت له بحزم : اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً . وعمل العمال وتم المشروع ولا يزال حتى اليوم يحمل اسمها ، وقد بلغت تكاليفه مليونا وسبعمائة الف دينار [١] .

وفي قرطبة كانت لبانة تشغل وظيفةً قل ان شغلتها امرأة ، تلك انها كانت سكرتيرة خاصة للخليفة الحكم [٢] .

ونختم حديثنا عن ثقافة المرأة بهذه القصة الشهيرة التي لا نظن انها سلمت من المبالغات عبر الأجيال ، ولكنها طريفة على كل حال :

عُرِضت على الرشيد جارية حسناء ، طلب صاحبها عشرة آلاف دينار ثمناً لها ، وعلل ارتفاع ثمنها باجادتها وبراعتها في الدراسات المختلفة ،

---

١) مروج الذهب ٢ : ٥١٦ طبعة المطبعة البهية ١٣٤٦ هـ .

٢) Khuda Bukhsh : Islamic Civilization p. 295.

وقد أغرت هذه القصة الرشيد ، فقرر ان يختبر الفتاة اولا ، ودعا لاختبارها مشاهير الأساتذة في علم الكلام والفقه والتفسير والطب وعلم النجوم والفلسفة والأدب والشطرنج ، واخذ هؤلاء يمتحنونها واحداً بعد واحد ، ولم تكن الفتاة تجيب عن اسئلتهم فحسب وانما كانت في نهاية كل اختبار توجه الى الممتحن سؤالا ، وما استطاع احد منهم ان يجيب عن السؤال الذي وجه اليه . ولما ايقن الرشيد من مواهبها وثقافتها النادرة دفع فيها الثمن الغالي الذي طُلِب فيها . وبهذه المناسبة يجدر بنا ان نقرر ان بيع الرقيقات لم يكن مظهراً من مظاهر العبودية والاسترقاق بالمعنى المألوف ، بل ان كثيراً من الإماء كن يأتين السوق مختارات ليتمتعن بحياة الترف والنعيم في بيوت الخلفاء والأمراء ١) .

---

١) جميل نخلة : حضارة الاسلام في دار السلام ص ٩٨ .

الفصل الخامس

رعاة العلم وفلسفة النظم بالمعاهد العلمية

منشئو المعاهد العلمية

عبدالله المأمون ، ونظام الملك ، ونور الدين زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي ، اسماء لامعة في تاريخ الحركة العلمية التي رعاها المسلمون في العصور الوسطى ، وقد ارتبطت هذه الاسماء بتاريخ هذه النهضة ارتباطاً وثيقاً إذ كان كل من هؤلاء امة وحده ، وقام كل منهم بعمل ضخم كان ذا اثر كبير في تاريخ الأمة الاسلامية . وقد حفل هذا الكتاب بالحديث عن هؤلاء الأشخاص في مواضع متعددة وعن تعداد مآثرهم واياديهم ، وسأوحال هنا ان اضع بعض التفاصيل عن واحد من هؤلاء هو نظام الملك ، الحسن بن علي بن اسحق الطوسي ، منشىء المدارس النظامية ، ذائعة الصيت ، وعظيمة القدر . وقبل ان ان نبدأ هذا نخصص سطوراً قليلة لكل من الثلاثة الآخرين نشير فيها الى مجمل النشاط العلمي الذي رعاه كل منهم :

المأمون (٢١٨ هـ) : يقول خودا بخش [١] : عند الحديث على النهضة الأدبية والنشاط العلمي في العالم الاسلامي يبدو عصر المأمون وهو ازهى العصور ، ومكانه القمة بالنسبة الى سواه .... ومن الحق ان يقال ان جميع الحركات الثقافية في الأقطار الأسلامية منذ عهد المأمون هي فروع للأصول التي غرسها وسقاها ذلك الخليفة العظيم .

فهذا بيت الحكمة اول مؤسسة ثقافية عند المسلمين يدين للمأمون بما

---

١) Islamic Civilization p. p. 276 - 277.

منحه له من عناية ، وما اضفى عليه من قوة ، وما انفق من مال ، وعن طريق هذا المعهد كسبت اللغة العربية كثيراً من الزاد والمعرفة بما اجري في بيت الحكمة من ترجمة اليها من اللغات الاجنبية و بواسطة بيت الحكمة حفظ للانسانية كثير من تراث الاغريق الذي ضاعت أصوله ، ولم يجد العالم غير الترجمات العربية وسيلة للوصول الى هذا التراث .

نور الدين (٥٦٩ هـ) : كانت مملكة نور الدين في سوريا اقوى مملكة قامت على انقاض السلاجقة ، وقد خلّد نور الدين اسمه كبطل من ابطال المسلمين في حروبهم ضد الصليبيين ، واستطاع ان يضم الى سمعته الحربية مكانه كمصلح اجتماعي كبير ، ومن ابرز إصلاحاته في هذا المجال رعايته لشئون العلم فلقد اعد مملكته لتواصل حركة النشاط الذي بدأه نظام الملك او لتتلقى عن العراق وخراسان ما ضعفتا عن القيام به بعد انهيار السلاجقة ، ومن هنا جاءت اهمية الدور الذي قام به نور الدين فهو لم يكن راعيا للعلم فقط وانما كان مشرفاً على نهضته وحامياً لها حتى اسلمها الى خلفه صلاح الدين ، ولولا نور الدين لخيف على هذه النهضة ان تفنى او تضيع ، ولكنه واصل السير في الطريق الذي بدأه سلفه فبنى في الشام لأول مرة عدة من المدارس سبق الحديث عنها وفتح قلبه ومعاهده للمدرسين والعلماء الذين ضاقت بهم العراق وخراسان بعد ما حل بهما من شقاق واضطراب ، وهكذا كان نور الدين حلقة الاتصال بين نظام الملك الذي غرس النهضة التعليمية ورعاها وبين صلاح الدين الذي كتبت لها على يديه البركة والنماء .

صلاح الدين (٥٨٩ هـ) : الحديث عن صلاح الدين الايوبي متشعب النواحي ، ومجاله خصب في اي ناحية من نواحيه ، ولكنا نريد في هذه

الإلمامة السريعة المقتضبة ان نذكر المعنى الذي سبقت الاشارة اليه عند كلامنا على نور الدين فان صلاح الدين كان اولا قائداً من قواد نور الدين ، ثم حكم مصر باسمه ، ثم خلفه على عرشه في مصر ، ثم في الشام ، ومن هنا يظهر بوضوح سبب التشابه بين صلاح الدين ونور الدين .

وتلقى صلاح الدين غرس النهضة من سلفه ، فشيد لأول مرة المدارس في مصر وفي سبيل العلم والفضل كانت تهون عليه نفقات بيوت المال [١] وكان يقول للخبوشاني المشرف على احدى مدارسه : زد احتفالا وتأنقاً وعلينا القيام بمئونة [٢] ذلك . ودخول المدارس مصر ليس سهلاً في نظر من يكتب تاريخ التربية الاسلاميه ؛ لأن معناه حفظ ذلك التراث من غوغاء التتار الذين اجتاحوا معظم العالم الاسلامي ، وافنوا كثيراً من مظاهر الرقي فيه ، وكان كرم صلاح الدين وسخاؤه داعياً لجذب العلماء والطلاب لا من العراق فحسب بل من شمال إفريقية ايضاً حيث كانت مصر في منتصف المسافة فرحل لها من هنا وهناك جمهرة كبيرة وجدوا في صلاح الدين باراً كريماً وحامياً عظيماً ، جمعهم الاحسان الصلاحي كما يقول عبد اللطيف البغدادي [٣] .

نظام الملك (٤٨٥ هـ) : الذي حدا بي الى اختيار نظام الملك لاعطاء بعض تفاصيل عنه ، هو الاستجابة الى الرغبة التي سبقت الاشارة اليها والتي ابداها الكثيرون يأملون معلومات اوفى وحديثاً اوسع عن المدارس

---

١) ابن جبير ص ٥٢ .
٢) المرجع نفسه ص ٤٨ .
٣) الافادة والاعتبار ص ١٦ .

النظامية ، ولذلك سنجعل حديثنا عن نظـام الملك تحليلاً لنقطتين هامتين تتصلان بهذه المدارس ، وفي خلال الكلام عن النقطة الثانية سيرد طرف من سيرة ذلك الوزير العظيم اما هاتان النقطتان فهما :

١ ـ من كان اول منشىء للمدارس في الاسلام ؟

٢ ـ لماذا نسبت هذه المدارس لنظام الملك ولم تنسب لسلاطين السلاجقة ؟

والاجابة عن السؤال الاول موضع خـلاف بـين المؤرخين . يقـول ابن خلـكان [١] ان نظام الملك هو اول من انشأ المدارس فاقتدى به الناس . ولـكن السبكي [٢] والمقريزي [٣] يذكران ان نظام الملك ليس اول من انشأ المدارس في الاسلام ؛ فقد كانت المدرسة البيهقية بنيشابور قبل ان يولد نظام الملك والمدرسة السعيدية بنيشابور ايضاً بناها الامير نصر بن سبكتكين اخو السلطان محمود لما كان واليا بنيشابور ، ومـدرسة ثالثة بنيشابور بناهـا ابو سعيد اسماعيل بن علي ، ومدرسة رابعة بنيشابور ايضـاً بنيت للاستاذ ابي اسحق الاسفرائيني ، ويحاول السبكي [٤] ان يوفق بين الرأيين فينسب الى نظام الملك انه كان اول من قدر المعاليم للطلبة فكأنّ المقصود بإنشاء المدارس هو انشاء هذه المعاليم وتقديرها وصرفها للطلبة .

فماذا يمكن ان يقال بعد سرد هـذه الآراء ؟

لا يطيب لي ان اوافق على ما اقترحه السبكي من ان المراد ان نظام

---

١) الوفيات ١ : ٢٠٢ .
٢) طبقات الشافعية ٣ : ١٣٧ .
٣) الخطط ٢ : ٣٦٣ .
٤) طبقات الشافعية ٣ : ١٣٧ .

الملك هو اول من قدر المعاليم للطلبة ، فإن قول ابن خلكان صريح في ان نظام الملك هو اول من انشأ المدارس لا اول من قدر المعاليم ، ثم ان العزيز بالله الفاطمي سبق نظام الملك بقرن تقريباً في تقدير هذه المعاليم للطلاب [١] .

فالمشكلة اذاً هي هل كان نظام الملك أول من انشأ المدارس ام لا ؟ الجواب عندي بالايجاب اذا اريد المعنى الفني الدقيق لهذا التعبير ، وأما ما يطلق عليه كلمة مدارس مما ظهر قبل نظام الملك فجهد محدود ضحل لم يعمر طويلا ولم يكن قوي الأثر في الحياة الاسلامية ، وهذا الجهد المحدود الضحل ظهر قبل مدارس نيشابور بعهد طويل .

فالذي ينسب الى نظام الملك هو هذه النهضة التعليمية التي لم تتوقف قط ، هو هذا النظام الذي وضع لتعليم المسلمين في جميع البقاع هو هذه الشبكة من المدارس التي انتشرت في القرى والكفور والمدن . ولا يستطيع انسان ان يدعي انه يجاري نظام الملك في هذا المجال .

اما لماذا نسبت هذه المدارس لنظام الملك ولم تنسب لسلاطين السلاجقة فإن هذا يتضح اذا تعرفنا على شخصية هذا الوزير لنرى مكانها وسلطانها ونفوذها من سلاطين السلاجقة ، ودراسة هذه الشخصية يقتضينا ان نورد طرفاً من سيرته وهو ما سنشرع فيه [٢] .

---

١) المقريزي : الخطط ٢ : ٣٤١ .

٢) من أوفى التراجم التي كتبت عن نظام الملك تلك التي كتبها السبكي في طبقات الشافعية ٣ : ١٣٥ ـ ١٤٥ وقد كتبت بأسلوب رائع وصورت نظام الملك على أنه من أعظم المصلحين الاجتماعيين في الاسلام وأن شخصيته من أقوى الشخصيات التاريخية، ونحن اعتماداً على هذه الترجمة وعلى ما كتبه عماد الدين الاصفهاني وابن الأثير وابن خلكان وابن الجوزي عن نظام الملك نقدم ترجمة موجزة لهذا الوزير العظيم .

ولد نظام الملك يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ثمان واربعمائة للهجرة بنوقان احدى مدينتي طوس ، وليس يعنينا كثيراً أن نتتبع طفولة نظام الملك او صباه لأن ذلك لا يهمنا كثيراً فيما نحن بصدده ولأننا في الواقع ليس عندنا معلومات موثوق بها عن حياته الأولى ، فمن المعروف ان هذه الفترة من حياة الرجل العصامي تكتب في عهد متأخر عندما يبرز نبوغه وتظهر عبقريته ، ولهذا يدخلها كثير من المبالغة والتحريف لتأثر الكتاب بما وصل له صاحب الترجمة من مجد وعظمة .

اتصل نظام الملك في مطلع شبابه بخدمة علي بن شاذان المعتمد عليه بمدينة بلخ وكان يكتب له ، فكان يصادره في كل سنة فهرب منه وقصد داود بن ميكائيل السلجوقي والد السلطان ألب أرسلان ، فظهر له منه النصح والهبة فسلمه الى ولده ألب أرسلان وقال له اتخذه والداً ولا تخالفه فيما يشير به [1] . وقبيل وفاة السلطان طغرلبك عم ألب أرسلان أوصى السلطان بالأمر لسليمان بن داود أخي ألب أرسلان ، ولم ينص على سليمان لكفاءته بل لأن أمه كانت عنده فتبع هواها في ولدها ، فقام سليمان بالأمر ، وثار عليه اخوه ألب ارسلان يساعده نظام الملك كما ثار شهاب الدين قتلمش . فلم يتم الأمر لسليمان بل تمّ لألب ارسلان الذي عظمت مملكته ورُهبت سلطته [2] . ولما تم الامر لألب ارسلان عزل الكندري وزير عمه طغرلبك لان هذا الوزير كان في بادىء الامر يناصر سليمان [3]

---

١) ابن خلكان ١ : ٢٠٢ .

٢) ابن الاثير : الكامل ١ : ١٨ ـ ١٩ ، ابن خلكان ٢ : ٦٦ ـ ٦٧ .

٣) ابن الاثير نفس الصفحة وقد وجئت عنق هذا الوزير بعد ذلك .

واصبح الب ارسلان اذاً ألمع شخصيـة في القصر الملكي ، فأسند له الب ارسلان امر الوزارة ، فقام بها خير قيام و برهن على مقدرة فائقة ومواهب عظيمة ، و بهذا خطا نظام الملك الى قمة المجد ، ووضعت بين يديه مقاليد الامور ، وكان بجانب تفوقه في السياسة رجـلا له دراية كاملة بشئون الحرب وميادين القتال ، وقد صحب السلطان الب ارسلان في معظم حروبه كما غزا مع الامير الشاب ملكشاه عدة غزوات استوليا فيها على كثير من حاميات الاعداء وحصونهم ، كما قاد وحده الجيوش عدة مرات وخاض بها معارك كتب له فيها النصر ١) .

فلما اغتيل الب ارسلان سنة خمس وستين وأربعمائة ازدحم اولاده على الملك ، ومرة اخرى لعب نظام الملك دوراً هاماً حتى وطد الملك لملكشاه ، الذي كانت سنه لا تتجاوز الثمانية عشرة ، ولم يتم لنظـام الملك هذا الا بعد ان خاض مع الامير الشاب عدة معارك ضد اعداء الدولة من جانب ، وضد الذين قادوا ثورات داخلية من الامراء السلجوقيين وغيرهم من جانب آخر ٢) . كما استطاع نظـام الملك بحكمته وسياسته ان يتغلب على بعض المشكلات ، وان يجعل الامور تستقر دون كثير من اراقة الدماء ، يروي ابن خلكان ٣) ان بعض اعمام ملكشاه قـد خرج عليه فعاجله جيش السلطان وهزمه ، وتبعه بعض جند ملكشاه فأسروه وحملوه الى السلطان ، فأنفذ ذلك الاسير خريطة مملوءة من كتب امرائه وأنهم حملوه على الخروج

---

١) ابن الاثير ١٠ : ٢٥ .
٢) المصدر نفسه ١٠ : ٢٥ ، ابن خلكان ١ : ٢٠٢ .
٣) الوفيات ٢ : ١٨١ .

عن طاعته وحسنوا له ذلك ، فدعا السلطان الوزير نظامَ الملك وأعطاه الخريطة ليفتحها ويقرأ ما فيها فلم يفتحها ، وكان هناك كانون نار فرمى الخريطة فيه ، فاحترقت الكتب ، فسكنت قلوب الأمراء والعساكر ، وأمنوا ووطنوا انفسهم على الخدمة بعد ان كانوا قد خافوا من الخريطة ، لأن أكثرَهم كان قد كاتبه ، وكان هذا سبب ثبات قدم ملكشاه في السلطنة ، كما كانت هذه معدودة من جميل آراء نظام الملك .

وكل هذه العوامل جعلت السلطان يحس انه مدين لنظام الملك وأن أباه من قبله مدين له ، ثم ـ بالاضافة الى هذا ـ استجاب ملكشاه الى داعي الشباب ، فشغل نفسه بالصيد واللذة ، وتمتع بالأبهة والتنوُّع في الملذات [1] ، وردَّ الأمور كلها كبيرها وصغيرها الى نظام الملك قائلاً له : انت الوالد وحلف له وأقطعه إقطاعاً زائداً على ما كان ، من جملته طوس مدينة نظام الملك ، وخلع عليه ولقَّبه القاباً من جملتها (أتابك) ومعناه الأمير الوالد فظهر من كفايته وشجاعته وحسن سيرته ما هو مشهور [2] .

و بهذا أصبح نظام الملك هو الآمر المتصرف لا يجري جليل ولا حقير الا بأمره ، مستبدا بذلك واكتفى السلطان بالاسم وبانفاق وقته في اللذة والصيد [3] .

وكانت مواهب نظام الملك المتنوعة تساعده مساعدة كبيرة في ادارة شئون الدولة التي سيطر على امورها ، فكانت له اصلاحات ذات بال ؛

---

١) السبكي طبقات الشافعية ٣ : ١٣٩

٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ٥٤

٣) السبكي : ٣ : ١٣٩ ، ابن خلكان ١ : ٢٠٢

اذ أسقط المكوس والضرائب الجائرة ، وأزال لعن الأشعرية من المنابر [١] كما كان حسن المعاملة للرعية كثير الحدب عليهم [٢] .

وبالإضافة الى نجاحه في السياسية وتدبير الملك فانه كان تبعاً لرواية السبكي [٣] واسع الثقافة ؛ سمع الحديث بأصفهان من محمد بن علي الأديب وابي منصور شجاع ، وبنيشابور من الاستاذ ابي القاسم القشيري وببغداد من ابى الخطاب بن البطر وغيره وأملى ببغداد مجلسين أحدهما بجامع المهدي والآخر بمدرسته وحضر إملاءه الأئمة ، وروى عنه جماعة من العلماء ويضيف ابن الأثير [٤] انه كان يقول تعليقاً على جلسته مجلس المملي : اني لست من اهل هذا الشأن ، ولكني احب ان اجعل نفسي على قطار نقلة حديث الرسول (ص) . وكان اقباله على العلماء ، وسماحتُه معهم وابطالُه لعنَ الأشعرية داعيا الى ان يعود الى البلاد العلماء الأفاضل من امثال امام الحرمين وابي القاسم القشيري بعد ان كانوا هجروا البلاد ورحلوا عنها [٥] .

وكان اهل الدين والعلم والفضائل راتعين في انعامه ، وكان بابه مجمع الفضلاء وملجأ العلماء ، وكان نافذاً بصيراً ينقب عن احوال كل منهم ؛ فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه .... ومن رأى الانتفاع بعلمه اغناه ورتب له ما يكفيه حتى ينقطع الى افادة العلم ونشره وتدريسه ، وربما سيره الى اقليم خال من العلم ليحلى به عاطله ، ويحيي به حقه ، ويميت باطله [٦] .

١) ابن الأثير : ١٠ : ١٤١ .
٢) المرجع السابق ص ٥٤ .
٣) طبقات الشافعية ٣ : ١٤٠ .
٤) الكامل في التاريخ ١٠ : ١٤١ .
٥) ابن الاثير ١٠ : ١٤١ .
٦) عماد الدين الاصفهاني : تاريخ آل سلجوق ٥٦ - ٥٧ .

وبنى نظام الملك المدارس والربط والمساجد في البلاد ، وامدها بما تحتاج اليه من كتب ، وعين لها المدرسين والطلاب والخدم ، وبذل لهم العطايا الكريمة فأحيا بذلك معالم الدين ، ونشط من العلم واهله ما كان خاملاً مهملاً في ايام من قبله .

فإنشاء المدارس اذاً انما هو واحد من افضاله وأياديه ، ومأثرةٌ ترجع له وحده ولا ترجع لسواه ، ومن هنا نسبت له هذه المدارس وحملت اسمه وعرفت به ، هذا واذا كان من المتبع أن تنسب مثل هذه المؤسسات الى اعظم شخصية في الدولة فان تسمية المدارس النظامية مطابقة لهذه القاعدة فما كان في الدولة في ذلك العهد من يجاري نظام الملك او يناظر ذلك الوزير الخطير .

ويبدو ان طول الزمن ورغبة ملكشاه في استعادة سلطانه الشرعي وإحساسه بألا حيلة له بجوار نظام الملك ، كل هذا ادخل الغيرة على نفس السلطان فبدأ يتغير ، وانتهز فرصة تصرف خاطىء [1] قام به احد احفاد نظام الملك ، فأرسل السلطان للوزير يقول : ان كنت شريكي في الملك ويدك مع يدي في السلطنة فلذلك حكم ، وان كنت نائبي فيجب ان تلزم حد التبعية والنيابة ، وهؤلاء اولادك .... فأجابه الوزير : قولوا له : ان كنت ما علمت اني شريكك في الملك فاعلم ، فأنك ما نلت هذا الامر الا بتدبيري ورأيي ، اما يذكر حين قتل ابوه فقمت بتدبير امره وقمعت الخوارج عليه من اهله وغيرهم ، وقدت الأمور اليه ، وجمعت

---

١) القصة بأكملها في ابن الاثير ١٠ : ١٣٨ .

الكلمة عليه ، وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة ، واطاعه القاصي والداني ، وحينئذ اقبل يتجنى لي الذنوب ويسمع في السعايات ، قولوا له عني : ان ثبات تلك القلنسوة (التاج) مرتبط بهذه الدواة ومتى أطبقت هذه زالت تلك [1] .

وأشعل هذا الردُّ الصريحُ ثورةَ الغضب والحقد في نفس ملكشاه فيقال انه دبر قتله ، وقيل ان الذي اغتاله صبي ديلمي من الباطنية تقدم اليه في صورة مستميح او مستغيث ، فضربه بسكين كانت معه فقضى عليه [2] .

وانطفأت هذه الشعلة المتوهجة التي بعثت النور في عصر الظلام ، ولكن سيرته وسيرة أعماله بقيت عاطرة بعده اجيالا وقرونا ، وها نحن اولاء نجدد ذكراه بكثير من الاجلال والتقدير .

الأوقاف على التعليم

قبل بيت الحكمة كان التعليم يجري في امكنة غير مخصصة له ؛ كان يلتقي العلماء بالطلاب في المساجد ، كما كان الراغبون في العلم يسعون الى دور الشيوخ للسماع منهم فيها وهكذا ، ومن أجل هذا لم تكن هناك نفقات معينة تبذل في سبيل نشر العلم . فلما ظهرت الحاجة الى تأسيس مكان يخصص لرعاية العلم ونشر الثقافة ، ظهرت في الوقت نفسه فكرة ان

---

١) ابن الجوزي : المنتظم ٩ : ٦٧ وابن الاثير ١٠ : ١٣٨

٢) انظر ابن الأثير في المكان السابق .

يوقف على هذا المعهد وقف يغل ايراداً يكفي للانفاق على شئونه وشئون القائمين بالعمل فيه ، وكان المأمون اول من ابرز هذه الفكرة للوجود فانه لم يشأ ان يكون نشاط بيت الحكمة متوقفاً على سخاء الخلفاء والأمراء ، بل اراد ان يجعل نشاطه قوياً متصلاً سواء اكان الخليفة كريماً ام شحيحاً ، فهيأ للعلماء رزقاً سخياً يتقاضونه من وقف ثابت يفيض ريعه عن التكاليف المطلوبة لهذه المؤسسة الثقافية [١] . وانتشرت فكرة المأمون هذه بين من خلفه من الخلفاء والعظماء ، فأصبح من ضروريات انشاء معهد ثقافي أو مدرسة ان يعين لها وقف ثابت ، تتلقى منه ما يفي بنفقاتها ، وما يمدها بما تحتاجه من مصروفات ، ثم تطور هذا الاتجاه ، فظهرت الأوقاف أيضاً على الذين يشغلون انفسهم بخدمة العلم في المساجد ، بل ان بعض الأركان او الاعمدة بالمساجد كان يوقف عليها اوقاف سخية يصرف ريعها الى من يجلس بها للتدريس والتعليم وفيما يلي عرض سريع لنماذج من هذه الأوقاف :

نظام الملك : سبق الحديث عن النهاية الأليمة التي نزلت بالمدارس النظامية ، وكيف ان نظامية بغداد مثلا اختفت في ظروف غامضة ، وان مكانها اغتصب منذ عهد سحيق ، فلم يعد معروفاً بوجه الدقة للباحثين والدارسين . ويبدو ـ للأسف ـ ان هذه النهاية الاليمة حاقت لا بالبناء فقط وإنما بكثير مما كتب عنه ايضاً ؛ فقد كان مما ضاع على الباحثين هذه الوثيقة التي كتبت فيها وقفية نظام الملك على مدارسه . لقد ورد ذكر هذه الوثيقة في عدة مراجع ولكن الباحثين قديماً وحديثاً لم يستطيعوا ان

---

(١) Sayed Ameer Ali, A Short History of the Saracens p. 274.

يحصلوا على ذاتها او نصها .

وعلى كل حال فعندنا من المصادر ما يمدُّ الباحث في هذا الموضوع من معلومات ان لم تكن كاملة فهي قريبة من الكمال :

قال سبط بن الجوزي [1] : وفيها (اي في سنة ٤٦٢ هـ) اوقف نظام الملك الاوقاف على النظامية ، وحضر الوزير والقضاة والعدول بيت النوبة ، وكتبوا الكتب واثبتت ، ومما وقف سوقُ المدرسة وضياعٌ واماكن وشَرَط [نظام الملك] الشروط المعروفة .

ويقول ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي [2] في حوادث نفس السنة : وفي يوم الاثنين السادس والعشرين من جمادى الآخرة جمع العميد ابو نصر الوجوه فأحضر ابا القاسم ابن الوزير فخر الدولة والنقيبين والاشراف وقاضي القضاة والشهود الى المدرسة النظامية وقرئت كتب وقفيتها ووقف كتب فيها فكان في الوقف ضياع واملاك وسوق ابتنيت على بابها .

وقد رأى ابن جبير ببغداد نحواً من ثلاثين مدرسة وهو يقول انه ما فيها مدرسة الا وهي يقصر القصر البديع عنها واعظمها واشهرها النظامية التي بناها نظام الملك ولهذه المدارس اوقاف عظيمة وعقارات مُحَبة للانفاق على الفقهاء والمدرسين بها وللإجراء على الطلبة [3] .

اما ما خصص من المال لرعاية الشئون الثقافية على العموم ، وكذلك ريع الاوقاف المعينة للمدارس فان المراجع التي بين ايدينا اوردت تفصيلات

---

١) مرآة الزمان ١٢١ ــ ٢ مخطوط بباريس .
٢) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ٢٥٦ .
٣) رحلة ابن جبير ٢٢٩ .

نافعة عنها فقد ورد ان ما كان ينفقه نظام الملك في السنة على التعليم قد بلغ ٦٠٠،٠٠٠ دينار [١] .

اما الريع الذي كانت تنتجه الأوقاف المخصصة لنظامية بغداد فقد ورد انه كان ١٥،٠٠٠ دينار في العام [٢] وقد كان ذلك الريع كافياً لكل ما يحتاجه الشيوخ والطلبة وكان يشمل مؤنة طعامهم وملابسهم وفرشهم وسرجهم وغير ذلك من ضرورات معاشهم حتى نبغ فيها جمع من الفقهاء الأفاضل ممن لا يحصون كثرة [٣] اما اوقاف نظام الملك على نظامية اصفهان فقد كانت تغل ١٠،٠٠٠ دينار سنوياً [٤] .

نور الدين : فيما يختص بنور الدين سبق ان اوردنا وثيقة هامة تبين بوضوح الاوقاف التي عينها للمدرسة النورية الكبرى ، وقد ظهر منها ان ريعها الوفير كان يكفي للانفاق على الطلاب والمدرسين انفاقاً متواصلاً سخياً . ومن الممكن هنا ان نعطي مثالا آخر لنؤكد هذه الحقيقة فقد ذكر ابو شامة [٥] ان نور الدين وقف على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وعلى أئمتها ومدرسيها وفقهائها اوقافاً كافية ، ومن مناقبه انه عين للمغاربة الذين كانوا يلحقون بزاوية المالكية بالمسجد الجامع اوقافاً كثيرة منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكانان بالعطارين ، وجعل احد هؤلاء المغاربة مشرفاً على هذه الاوقاف [٦] .

---

١) ناجي معروف . المدرسة المستنصرية ص ٨ .
٢) محمد عبده : الاسلام والنصرانية ص ٩٨ .
٣) تاريخ مساجد بغداد للألوسي ص ١٠٣ .
٤) سعيد نفيس : مدرسة نظامية بغداد ص ٢ .
٥) الروضتين ١ : ١٦ .
٦) ابن جبير : الرحلة ص ٢٨٥ .

الاوقاف على التعليم في مصر* :

وجدت الاوقاف على التعليم في مصر قبل عهد نظام الملك ونور الدين بوقت طويل فمنذ سنة ٣٧٨ هـ في خلال عهد العزيز بالله اصبح الازهر معهداً علمياً اكثر منه مسجداً ١) ، ولذلك نجد ان الوزير يعقوب بن كلس يسأل الخليفة العزيز بالله في صلة رزق جماعة من الفقهاء فأطلق لهم ما يكفي كل واحد منهم من الرزق الناض وأمر لهم بشراء دار وبنائها فبنيت بجانب الجامع الأزهر ، فاذا كان يوم الجمعة حضروا الى الجامع وتحلقوا فيه بعد الصلاة الى ان تصلى العصر ، وكان لهم ايضاً من مال الوزير صلة ٢) . فلما جاء الحاكم عمد الى الاوقاف يُعيِّنها للإنفاق من ريعها على المساجد والمؤسسات الثقافية ؛ فلقد اوقف على الجامع الازهر ، والجامع براشدة ، ودار العلم ، اوقافاً عظيمة ذكرها في سجل اشهد عليه قاضي القضاة مالك بن سعيد الفاروقي . وكانت الاوقاف عبارة عن جميع الدار المعروفة بدار القرب وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة ويؤكد الحاكم ان هذه الوقفية دائمة للأبد لا يوهنها تقادم السنين ٣) .

فلما جاء الايوبيون الى مصر نقلوا معهم حماسة نظام الملك ونور الدين ،

---

* الحديث عن مصر سيشمل ايضاً الحديث عن سوريا ؛ اذ امتد نفوذ الفاطميين والايوبيين والمماليك الى بلاد الشام في فترات طويلة من حكم هذه الاسر ، وعلى هذا فستذكر امثلة عن الاوقاف في سوريا خلال هذا الحديث .

١) Stanley Lane - Poole : Cairo 123 - 124.

٢) المقريزي : الخطط ٢ : ٢٧٣ .

٣) المصدر السابق ٢ : ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

وحمايتهما للعلم ، ثم وجدوا انفسهم في مصر ، امام تراث الفاطميين العريق ، ومدنيتهم العريضة ، التي كان الفن والعلم من انضر فروعها . فحافظ الايوبيون على هذا التراث المزدوج ، ورعوا العلم ، وما بخلوا في الاغداق عليه ؛ انشأوا كثيراً من المدارس ، واوقفوا عليها الاوقاف السخية ، وظهرت موجة من التنافس في هذا السبيل اخذ فيها الامراء والوزراء والعلماء والعامة بنصيب ملحوظ ، وفيما يلي امثلة موجزة لهذه الاوقاف :

يقول ابن جبير [1] ان كل مسجد يستحدث بناؤه او مدرسة او خانقة يعين لها السلطان صلاح الدين اوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين بها ، ويضيف المقريزي ان صلاح الدين عندما بنى المدرسة الناصرية بالقرافة وقف عليها حماماً بجوارها ، وفرناً تجاهها ، وحوانيت بظاهرها ، والجزيرة التي يقال لها جزيرة الفيل ببحر النيل خارج القاهرة [2] .

واقتدى بصلاح الدين غيره ممن انشأوا المدارس ورعوا العلم في العهد الأيوبي ، ومن هؤلاء تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب الذي اشترى منازل العز التي كانت تشرف على النيل ومعدة لنزهة الخلفاء الفاطميين ، ثم وقفها على فقهاء الشافعية ، ووقف عليها الحمام وما حولها ، وبنى فندقاً عرف بفندق النخلة ووقفه عليها ، ووقف عليها جزيرة الروضة التي كان قد اشتراها من قبل [3] . ومن المدارس التي حظيت بوقف سخي المدرسة الدماغية بدمشق وكانت داراً لشجاع الدين بن الدماغ فلما مات جعلتها زوجته مدرسة

---

١) الرحلة ص ٢٧٥ .
٢) الخطط ٢ : ٤٠٠ .
٣) الخطط ٢ : ٣٦٤ .

للشافعية والحنفية ، ووقفت عليها ثمانية اسهم من اربعة وعشرين سهما من المزرعة الدماغية ، والحصة من رجم الحيات ، والحصة من حمام اسرائيل خارج دمشق ، والحصة بدير سلمان من المرج ، ومزرعة شرخوب عند قصر ام حكيم ومحاكرات وغير ذلك ١) .

ويذكر المقريزي ٢) ثمانية من زوايا جامع عمرو التي كانت تقام بها حلقات تعليمية ويشير الى الاوقاف التي وقفت على كل من هذه الزوايا وفيما يلي المامة موجزة ببعضها :

زاوية الامام الشافعي التي درس بها فعرفت به ، ووُقِفت عليها ارض بناحية سنديس وقفها السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين . ومنها الزاوية الكمالية بالمقصوزة المجاورة لباب الجامع الذي يدخل اليه من سوق الغزل ، رتبها كمال الدين السمنودي وعليها فندق بمصر موقوف عليها ، ومنها الزاوية التاجية امام المحراب الخشب رتبها تاج الدين السطحي وجعل عليها دوراً بمصر موقوفة عليها .

وهكذا كانت الاوقاف في الغالب هي المورد الذي ينفق منه على التعليم في العالم الاسلامي ، ولكن في بعض الحالات كانت نفقات التعليم تدفع من الخزانة العامة للدولة ؛ ذكر المؤرخون ان الوزير ابن كلس كان يُجري بأمر العزيز بالله ألف دينار في كل شهر على جماعة من اهل العلم والوراقين والمجلدين ٣) .

---

١) النعيمي : الدارس ١ : ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .
٢) الخطط ٢ : ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .
٣) متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١ : ٢٩٤ من الترجمة العربية .

ومن الامثلة التي تدعو للعجب والدهشة ما رواه ابن بطوطة [1] من ان احمد ملك إيذج كان يقسم خراج بلاده اثلاثاً ويجعل الثلث لنفقة الزوايا والمدارس .

وفي ختام هذا البحث نورد وقفية هامة هي تلك التي وقفتها ست الشام اخت السلطان صلاح الدين على المدرسة الشامية الجوانية ، وقد خربت هذه المدرسة واتُّخِذَتْ داراً ، ولكن تبقى منها بابها القديم وقد كتب على عتبته العليا نص الوقفية ، وفيما يلي صورة هذه العتبة (شكل رقم ١٥) وتمتاز هذه الوقفية فوق ان مرجعها هو النص المكتوب على العتبة وهو مرجع يوثق به تماماً بأنها وقفية مفصّلة دقيقة ، ثم بأن طريق انفاق ريع الاوقاف ورد لنا مفصلا في مرجع هام هو تاريخ مدارس دمشق للنعيمي وفيما يلي نص الوقفية :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذه مدرسة الخاتون الكبيرة الأجلة عصمة الدين ست الشام ام حسام الدين بنت أيوب بن شادي رحمها الله ، وقفتها على الفقهاء والمتفقهة من أصحاب الأمام (الشافعي) رضي الله عنه ، والموقوف عليها وعليهم وعلى مايتبع ذلك جميع القرية المعروفة ببزينة ، وجميع الحصة وهي احد عشر سهماً ونصف من اربعة وعشرين سهماً من جميع المزرعة المعروفة بجرمانا ، وجميع الحصة وهي اربعة عشر سهماً وسبع من اربعة وعشرين سهماً من القرية المعروفة بالتينة ، ونصف القرية المعروفة بمجيدل السويدا ، وجميع القرية المعروفة بمجيدل القرية ، وذلك

---

١) تحفة النظار ٢ : ٣١

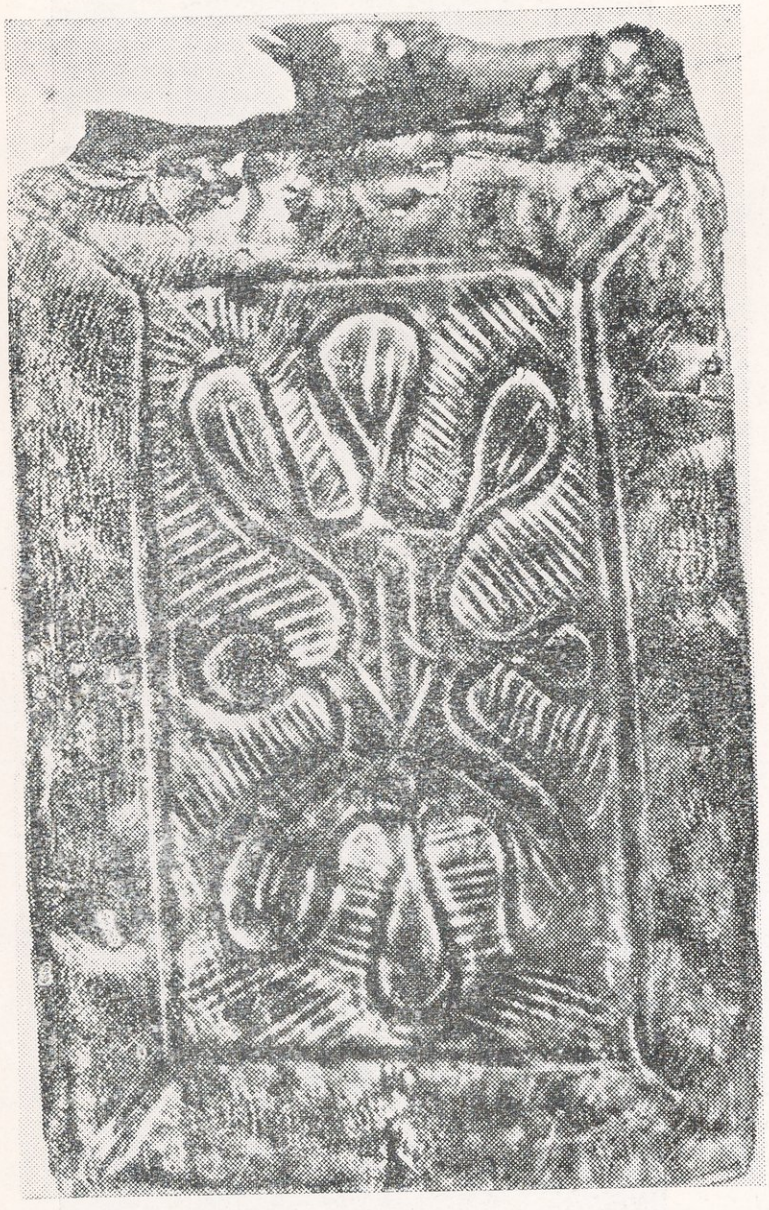

شكل رقم (١٢) تجليد رائع للقرآن الكريم

« راجع صفحة ١٥٢ »

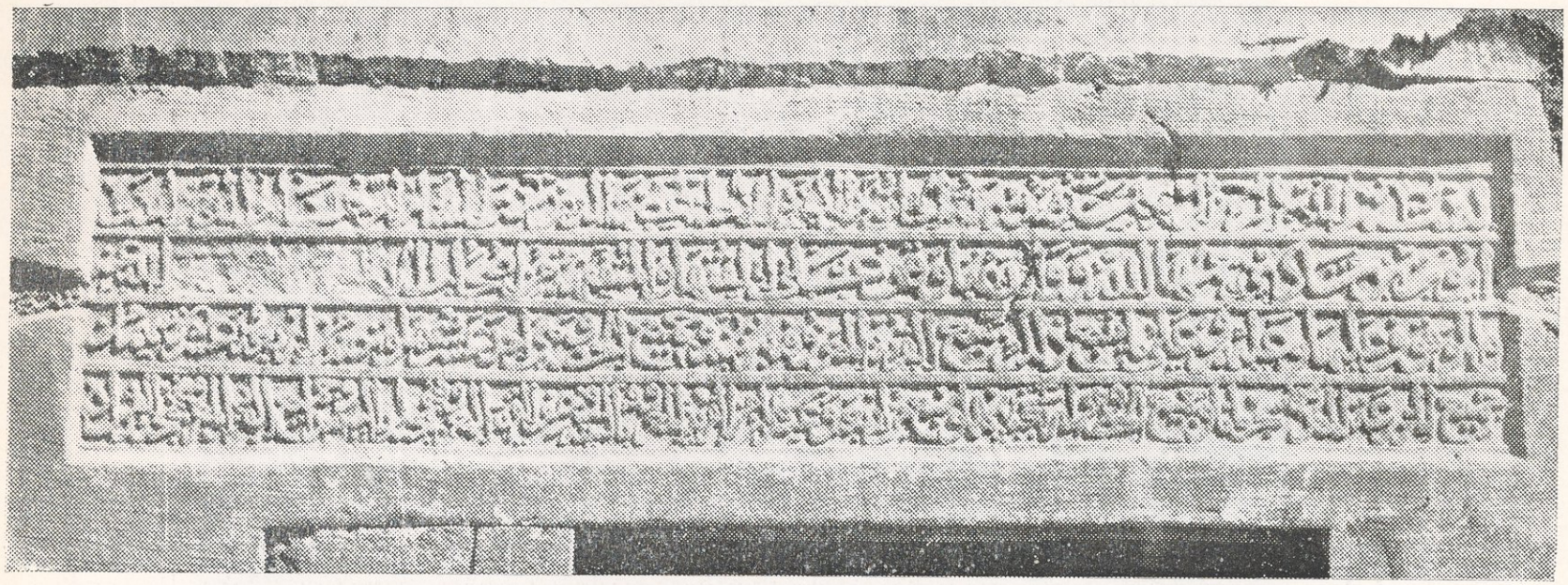

شكل رقم (١٥) اللوح الذي سجلت عليه اوقاف المدرسة الشامية الجوانية

في سنة ثمان وعشرين وستمائة .

اما الإنفاق على هذه المدرسة فقد وضع على النسق الآتي :

اولا ـ يبدأ في الانفاق بعمارة المدرسة ، وثمن زيت ، ومصابيح ، وحصر ، وبسط ، وقناديل ، وشمع ، وما تدعو الحاجة اليه .

ثانياً ـ يدفع للمدرس غرارة من الحنطة ، وغرارة من الشعير ، ومائة وثلاثون درهماً فضة ناصرية .

ثالثاً ـ عشر الباقي يصرف الى الناظر عن تعبه وخدمته ومشارفته للأملاك الموقوفة وتردده عليها .

رابعاً ـ اخراج ثلثمائة درهم فضة ناصرية في كل سنة ، تصرف في ثمن بطيخ ومشمش وحلوى في ليلة النصف من شعبان على ما يراه الناظر .

خامساً ـ الباقي يصرف الى الفقهاء والمتفقهة والمؤذن والقيم المعدّ لكنس المدرسة ورشها وفرشها وتنظيفها وايقاد مصابيحها ، ويعطى هؤلاء على قدر استحقاقهم على ما يراه الناظر في امر هذا الوقف من تسوية وتفضيل وزيادة ونقصان وعطاء وحرمان .

وقد ذكرت الواقفة ان من شرط الفقهاء والمتفقهة والمدرس والمؤذن والقيم ان يكونوا من اهل الخير والدين والصلاح والعفاف وحسن الطريقة وسلامة الاعتقاد والسنة والجماعة . كما شرطت رغبة منها في ان يظل الملتحقون بالمدرسة في مستوى مالي لائق ـ الا يزيد عدد الفقهاء والمتفقهة المشتغلين بهذه المدرسة عن عشرين رجلا ، من جملتهم المعيد بها والامام ،

وذلك خارج عن المدرس والمؤذن والقيم الا ان يوجد في ارتفاع الوقف نماء وزيادة وسعة فللناظر ان يقيم بقدر ما زاد ونما ١) .

حلقة التعليم

ظهرت حلقة التعليم في العالم الاسلامي مبكرة ، او قل انها ظهرت مع ظهور الاسلام ، وتعددت الحلقات واستمرت ، ولا تزال حتى العهد الحاضر تحمل طابع الماضي المجيد ، وحسبك ان تزور الازهر ، او تزور احد المساجد الشهيرة في العالم الاسلامي كله ، لترى الشيخ مقبلاً على اطلابه بحماسة ظاهرة ، وترى الطلاب تركزت عيونهم في الشيخ ، لا يرون سواه ، ولا يستمعون الا اليه ، كأنما شُدَّت عيونهم بوجه الشيخ ، وآذانهم بما ينطق به لسانه .

ويجلس الشيخ على حشيَّة صغيرة (شلتة) او على منصة ، ويغلب ان يكون ظهره الى حائط او سارية من سواري المسجد ، ويكوِّن الحضور حلقة أمامة ، يكون هو في ابرز نقطة في محيطها ، ولا يجلس المستمعون في الحلقة بدون ترتيب ، وانما لكل طبقة منهم مكان معين فيها ؛ فيجلس المعيدون والممتازون من الزوار عن يمين الشيخ ويساره ، ويجلس الرفقاء في درس واحد في جهة واحدة من الحلقة ، ليكون نظر الشيخ اليهم جميعاً ، ويترك في الحلقة فراغ ليجلس فيه من يحب ان يستمع الى الدرس من الطارئين او الذين لا يحضرون الدرس بانتظام .

---

١) النعيمي ١ : ٣٠٢ – ٣٠٣ بتقديم وتأخير .

والعادة ان يحرص كل فرد ان يكون قريباً من الشيخ ولكن على ألا يتعدى المكان الذي هو اهل له [1] .

ويفتتح الشيخ الدرس بالبسملة وبالصلاة والتسليم على الرسول وعلى آله وصحبه، وربما تلا بعض آيات من الذكر الحكيم، او بعض احاديث الرسول التي يحث الطلاب فيها على طلب العلم للعلم، وعلى التواضع في طلبه، وعلى حسن السيرة والاخلاق، مبيناً لهم ان ذلك يعين على حل المشكلات وادراك المعميات، ثم يبدأ الدرس بعد هذا التقديم .

فاذا كان المدرس يلقي من محفوظاته، او من مذكرات كتبها لأول مرة ليقرأ منها فان الدرس يسمى إملاء، وفي هذه الحالة يكون القاء الدرس بطيئاً فقرة فقرة او حديثاً حديثاً مع اتصال السند، ويكتب الطلاب خلف المدرس ما يمليه [2]، فاذا ما انتهى المدرس من القاء حديث او فقرة مستقلة عرَّج بالشرح والايضاح والتفسير لما يكون قد غمض في الفقرة او الحديث، ويدوِّن الطلاب هذه الشروح على هامش الاوراق التي كتبت عليها الاصول . فاذا ما اكتملت امالي الشيخ في ذلك الموضوع فانه ربما قرأ الامالي او قُرِئت عليه لتصحيحها، ويجب ان تلاحَظ الدقة في النقل وفي التصحيح قال الوليد بن بكر [3] « وليس النصح في أداء الشريعة باتخاذ مجالس الامالي مع وجود فساد الالفاظ في النقل ولكن النصح والاحتياط في ادائها التعاهد لأسباب النقل .... ثم

---

١) تذكرة السامع والمتكلم موجز ص ١٤٧ـ١٥١ وانظر ايضاً العبدري : المدخل ١ : ١٩٩.
٢) معجم ابن حجر ٨ ب ، ٩ أ .
٣) الوجازة في صحة القول بأحكام الأجازة ١٨ ب ، ١٩ أ مخطوط .

يقرؤه الطالب عرضاً على الراوي ؛ فان الراوي يكتب صوابه وينفي خطأه حتى لا يختلف لفظ الفرع عن لفظ الاصل » فاذا تم ذلك فان الشيخ قد يوقع على نسخة او اكثر من نسخ تلاميذه ذاكراً انه قرأها عليه ، ويضيف احياناً ان يجيزه في ان يروي ذلك عنه او ان يدرِّسه باذنه .

ومن هذه الامالي تكونت المخطوطات التي طبع كثيراً منها فأصبحت كتباً شهيرة ومنها ما زال مخطوطاً حتى الآن ، واتخذت تلك الكتب او هذه المخطوطات عناوين لها حسب موضوعاتها واحتفظ بعضها بلفظ الامالي عنواناً مثل امالي القالي وامالي المرتضى وامالي ابن الحاجب .

واذا كان الدرس سيلقى من كتاب يمكن الحصول عليه فقد كان المتبع ان يحصل الطالب على نسخة منه ، وان يقرأ بنفسه الدرس وحده او مع احد زملائه قبل ان يلقيه المدرس ، ثم يجيء الشيخُ فيعطي فكرة عامة عن موضوع الدرس ، ثم يبدأ في قراءته في الكتاب ، والطلاب يستمعون اليه ناظرين في نسخهم ، ويقطع المدرس قراءته من حين الى آخر ليشرح للتلاميذ اللفظة الشاذة او الجملة الصعبة او الخبر الغريب [1] . ويكتب التلاميذ على هامش الكتاب ما يلقيه الشيخ من شروح وايضاحات ، وكانت لهذه الشروح وتلك الايضاحات اهمية كبيرة يرحل لها الطلاب المسافات الطويلة ويتحملون من اجل الحصول عليها ألواناً من المشقة والجهد ، ثم اذا حصلوا عليها يعدونها غنماً يجب الحرص عليه والبخل به ان يضيع . روي ان الغزالي سار من طوس الى جرجان ليستمع الى الامام ابي نصر

---

١) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٢٨٢ .

الاسماعيلي وقد علّق عنه تعليقات مفيدة ، ثم رجع الى طوس . قال الغزالي : فقُطِعَت علينا الطريق ، وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا فتبعتهم ، فالتفت اليَّ مقدمُهم وقال : ارجع ويحك والا هلكت . فقلت له : أسألك بالذي ترجو السلامة منه ان ترد عليَّ تعليقتي فقط ، فما هي شيء تنتفعون به . فقال : وما هي تعليقتك ؟ فقلت : كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابة تعليقات عليها . فأمر بعض اصحابه فسلم اليَّ المخلاة [١] .

وكانت فقرات أغلب الكتب تنتهي بدائرة مثل ○ كالدائرة التي بين آيات القرآن الكريم في بعض طبعات المصاحف . فاذا ما انتهى الدرس عند فقرة معينة فأن الشيخ والتلاميذ يضعون خطاً مائلاً بهذه الدائرة مثل ⃠ علامة على ما وصل اليه الشرح .

وكان لكل طالب الحق في ان يسأل اي سؤال لاستيضاح ما صعب عليه فهمه ، فقد ورد عن الرسول (ص) انه قال : شفاء الى السؤال . وأنه قال : العلم خزانة مفتاحها السؤال . وحث علي بن ابي طالب الطلاب الا يهابوا السؤال ويستحيوا منه فقال : قُرنت الهيبة بالخيبة والحياء بالحرمان [٢] . وقال شيخ للمأمون : اقبيح بي ان أستفهم ؟ فقال : بل قبيح بك ان تستبهم [٣] ، وقيل لدغفل : بم ادركت هذا العلم ؟ فقال بلسان سئول وقلب عقول ، وكنت اذا لقيت عالماً اخذت منه واعطيته [٤] .

---

١) ترجمة الغزالي : الأحياء ١ : ٢ .
٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١٢٣ .
٣) الأصفهاني : محاضرات الادباء ١ : ٢٦ .
٤) الاصفهاني : محاضرات الأدباء ١ : ٢٧ ، ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١١٨ .

ولكن الأسئلة كانت تجري تبعاً لآداب خاصة فكان على الطالب ان يسأل تفقهاً لا تعنتاً [1] ولا رياء [2] ثم كان عليه ان يختار الوقت المناسب لالقاء سؤاله ؛ فلا يقاطع مدرسه وهو يتكلم ولا زميله وهو يسأل [3] .

وكان الطلاب يشجَعون على ان يسألوا ، ولكن على ان تفتح اسئلتهم آفاقاً جديدة ، وان تدل على عمق واعمال فكر ؛ فاذا حدث ووُجِّه سؤال تافه للمدرس فان ذلك ربما أثار الضحك او السخرية ففي مجلس ابي عبيدة (علي بن عبيدالله السمسمي المتوفى سنة ٤١٥ هـ) سأل احدُ الحاضرين قائلاً : رحمك الله يا ابا عبيدة ما العنجيد ؟ قال أبو عبيدة : ما اعرف هذا قال الرجل : سبحان الله اين يذهب عنك قول الأعشى :

يوم تبدي لنا قتيلة عن جيدٍ تليع تزينه الأطواق

فقال أبو عبيدة : عافاك الله ، عن حرف جر والجيد العنق . ثم قام ثان وثالث فسألا مثل ذلك فأخذ أبو عبيدة نعليه واشتد ساعياً في مسجد البصرة يصيح بأعلى صوته : من اين حُشرت البهائم عليَّ اليوم ؟ من اين حشرت البهائم علي اليوم [4] ؟ .

وكان المدرس احياناً يقوم مقام السائل ، فيلقي على الطلاب بضعة اسئلة ليختبر فهمهم ، وليجيب بنفسه على ما تعسر عليهم ان يجيبوا عنه ، وهو بهذا يعطي فرصة للطلاب محدودي المواهب ان ينتفعوا بما تستدعيه هذه الأسئلة واجوبتها من اعادة للموضوع وزيادة بسطٍ لمسائله .

---

١) ابن قتيبة : المكان السابق .
٢) الأصفهاني : محاضرات ١ : ٢٧ .
٣) العبدري : المدخل ١ : ٩٠ الطبعة القديمة .
٤) ياقوت : معجم الأدباء ٥ : ٢٧٢ .

مراحل التعليم

تنقسم مراحل التعليم في العهد الحاضر في اغلب الدول المتمدينة الى اربعة : التعليم الابتدائي ـ التعليم الثانوي ـ التعليمي الجامعي ـ الأبحاث والدراسات العليا . ومما يدعو الى الدهشة انّ هذه المراحل كانت متبعة ومتميزة في العصور الوسطى عند المسلمين . صحيح انهم لم يضعوا الحدود الفاصلة بين كل مرحلة واخرى كما هو متبع في العهد الحاضر ولكنهم الْتقوا بهذا التطور الطبيعي فاتبعوه في معاهدهم . وقبل ان نسوق كلام المؤرخين المسلمين عن هذه المراحل لعل من الأوفق ان نتذكر ان التعليم الابتدائي في العهد الحاضر يشمل دراسة موجزة سريعة واضحة للتاريخ والجغرافيا والرياضة وغيرها ، واما التعليم الثانوي فزيادة في الايضاح والتفاصيل لهذه الموضوعات ، وفي التعليم الجامعي يكون التخصص والتعمق والتحليل ، فاذا تذكرنا ذلك فلندع ابن خلدون يذكر لنا نظريته عن مراحل التعليم وكيف يجب ان تكون عند المسلمين ، قال :

اعلم ان تلقين العلوم للمتعلم انما يكون مفيداً اذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلا قليلا يُلقي عليه أولا مسائل من كل باب من الفن ، هي اصول ذلك الباب ، ويقرب له في شرحها على سبيل الأجمال ، ويراعي في ذلك قوة عقله ، واستعداده لقبول ما يرد عليه ، حتى ينتهي الى آخر الفن ، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم ، الا انها جزئية وضعيفة وغايتها انها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله .

١) المقدمة ص ٣٩٤ .

ثم يرجع الى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة الى أعلى منها ، ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه الى ان ينتهي الى آخر الفن فتجود ملكته .

ثم يرجع به ثالثاً وقد شدا فلا يترك عويصاً ولا مهماً ولا مغلقاً الا وضحه وفتح له مقفلة فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته .

وليس بعيداً عن هذا ما ذكره الغزالي في ذلك الموضوع فهو يقول : وعلى الطالب المبتدىء ان يتحرز عن الأصغاء الى اختلاف الناس ؛ فأن ذلك يدهش عقله ، وان يؤجل النظر في ذلك الى ان يصير متقدماً في العلم ، وان يبتدىء بأن يأخذ من كل علم من العلوم المحمودة بطرف فينظر فيه نظراً يطلع به على مقصد العلم وغايته ، ثم يختار واحداً من هذه العلوم ليتبحَّر فيه ، على الا يخوض في ذلك الموضوع دفعة واحدة بل يراعي الترتيب ويبدأ بالاهم [1] .

ويحث ابن خلدون [2] المعلم على ان يتبع هذه المراحل بكل دقة ويعيب على بعض المعلمين جهلهم بطرق التعليم وإفادته ؛ اذ يلقون على المتعلم في اول تعليمه المسائل المغلقة من العلم ويطالبونه باحضار ذهنه في حلها ، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم ، وصوابا فيه ، فهم بذلك يخلطون على المتعلم بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها قبل ان يستعد لفهمها ،

---

١) إحياء علوم الدين للغزالي ج ١ ص ٤٢ ـ وقد مر ذكر هذه الفقرة في الفصل السابق عند الحديث عن أخلاق التلاميذ وواجباتهم ، وأعيد ذكرها هنا لأنها وثيقة الصلة بما نتحدث عنه الآن .

٢) المقدمة ص ٣٩٤ .

فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجياً ، ويكون المتعلم اول الامر عاجزاً عن الفهم بالجملة الا في الاقل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالأمثال الحية ، ثم لا يزال الاستعداد فيه بتدرج قليلا قليلاً بدراسة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط بمسائل الفن .

تلك هي نظرية المسلمين فيما يتعلق بمراحل التعليم فاذا ذهبنا الى الواقع وجدنا انه في اغلب الاحوال لم يكن بعيداً عن الفكرة النظرية ؛ فقد وجد التعليم الابتدائي في الكتّاب حيث كان التلاميذ يتلقون مبادىء عامة يسيرة عن بعض الموضوعات اما التعليم الذي يشبه التعليم في المرحلة الجامعية في العهد الحديث فقد وجد في دكاكين الوراقين ومنازل العلماء والصالونات الأدبية كما مرَّ ذلك موضحاً بجملة من الامثلة .

اما المسجد فقد وجدت فيه المرحلتان الثانية والثالثة ، اذ كان يعقد فيه حلقات يختلف مستواها : فمنها ما هو الى الاجمال والوضوح أميل وهذه أقرب الى التعليم الثانوي ، ومنها ما هو ارفع مستوى وأكثر عمقاً وتلك بالتعليم الجامعي اشبه . ويتضح من هذا انني لا اميل الى ان اوافق على الرأي الشائع الذي يجعل المسجد في مستوى التعليم الجامعي فقط ، فالحقيقة ان المسجد اتسع للنوعين جميعاً ، فاننا لا يمكن ان ندعي ان الزوايا الثمان التي كانت في جامع عمرو هي جميعها في مستوى واحد ، فالمقريزي يصف احداها وهي زاوية الامام للشافعي بأنها نسبت الشافعي حيث كان يجلس للتدريس ويضيف بأنه لم يزل يتولى تدريسها أعيان

الفقهاء وجلة العلماء ، ويتحدث المقريزي عن غيرها من الزوايا ناسباً اياها الى مؤسسها او الى مدرس اقل شهرة واهمية من الامام الشافعي ومن جاء بعده في التدريس بزاويته [١] .

وكانت الحال في مسجد دمشق كالحال في مسجد عمرو بل ان كلام ابن جبير يفيد ان المراحل الثلاث وجدت في هذا المسجد ؛ اذ ينص على ان الصبيان كان لهم موضع فيه يقرأون القرآن ويتلقون مبادىء العلوم [٢] . وقد سبق ان ذكرنا عند الحديث عن الكتاب ان بعض معلمي الكتاتيب كانوا يتخذون من المسجد مكاناً لتعليم الصبيان .

وعلى هذا فقد كان الصبي المسلم يتلقى تعليمه الأولي في الكتاب الذي غلب ان يكون خارج المسجد ، فاذا انتهى بنجاح من تلقي هذه الطائفة من مبادىء العلوم فانه حينئذ يلتحق في المسجد بحلقة من الحلقات التي تدرس بها كتب سهلة التناول غير معقدة ولا كثيرة التفاصيل ، فاذا قطع في هذا الدور شوطاً موفقاً استطاع اذاً ان يلتحق بحلقات اخرى في نفس المسجد او في مسجد آخر حيث يجلس الى الشيوخ المشاهير الذين يدرسون كتباً عالية المستوى كثيرة التفاصيل والتعمق والإحاطة .

واتخذت المساجد شهرة معينة فمساجد الأقاليم وبعض المساجد الصغيرة بالعاصمة كان أغلب حلقاتها مما يناسب الصبيان الذين فرغوا حديثاً من الكتاتيب كما تخصص الأزهر مثلاً في الدراسة الجامعية فلا يؤم حلقاته الا

---

١) الخطط ٢ : ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .
٢) الرحلة ٢٦٥ ، ٢٧٢ .

من شذا عقله ـ كما يقول ابن خلدون ـ ومن كانت له معرفة تؤهله للاستفادة من الدراسة العالية التي كانت تعقد فيه .

ولما انشئت المدارس في العالم الاسلامي كان من الملاحظ ان مستوى المدرسة يتوقف على مستوى من يعين للتدريس بها ، فاذا تركت المدرسة للمعيدين او اذا عُيِّن فيها مدرس غير متبحر في العلوم فهي حينئذ في مستوى التعليم الثانوي ، فاذا اتيح لهذه المدرسة نفسها ان يعين فيها مدرس فذّ من المعروفين بالتعمق ، وسعة الاطلاع ، وحسن العرض ، فان مستوى المدرسة يرتفع وتصير بالتعليم الجامعي أشبه . وتدلنا المراجع التي بين أيدينا [1] على ان مستوى كثير من المدارس كان يتأرجح تبعاً للمدرس الذي يقوم بالعمل فيها ؛ غير أن بعض المدارس كالمدارس النظامية كانت جامعية المستوى دائماً ؛ ذلك لانها ما كان يعين بها الا خيرة الشيوخ ومشاهير العلماء وقد مرَّ ذكر كثير منهم .

اما المرحلة الرابعة وهي مرحلة الأبحاث والدراسات العليا فقد عرفت ايضاً في العالم الاسلامي . يروي ابن الانباري [2] ان امير المؤمنين المأمون أمر الفراء ان يؤلف ما يجمع به اصول النحو وما سمع من العرب وأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار وصيَّر له الوراقين والزمه الأمناء والمُنْفِقين ليمدُّوه بما يحتاجه من كتب ، ووكل به الجواري وخدماً للقيام بما يحتاج اليه ، فجعل الوراقون يكتبون عنه حتى صنف كتاب المعاني ، وأمر

---

١) انظر النعيمي وحسن المحاضرة في مواضع متعددة .
٢) طبقات الأدباء ١٢٧ ـ ١٢٨ .

المأمون به فكتب في الخزائن ، ثم خرج الفراء الى الناس ليملي عليهم ذلك النتاج .

وقد تحدثنا في مكان آخر من هذا الكتاب عن الترجمة التي كانت تدور في بيت الحكمة وفي بيت بني شاكر وغيرهم ، مع إضافة شروح وتعليقات على الأصل الذي يترجم عنه ، ومثل هذا العمل إنما هو نوع من الابحاث والدراسات العليا .

الداخلية في المدارس

عرف المسلمون النظام الداخلي في دور العلم منذ عهد مبكر ؛ فمذ شُيِّد الأزهر منذ اكثر من الف عام ، استقبل هذا المعهد العظيم افواج الطلاب من بلدان القطر المصري ومن بلدان العالم الاسلامي كله ، وكان كثير من هؤلاء يلازمون الاقامة فيه ، ولكل طائفة رواق يعرف بهم ، وكل قليل تحمل اليهم الأطعمة والخبز والحلاوات . ويذكر المقريزي [1] ان عدتهم في سنة ثمان عشرة وثمانمائة بلغت سبعمائة وخمسين رجلا ما بين عجم وزيالعة ومن اهل ريف مصر ومغاربة .

واما عن النظام الداخلي بمصر في عهد الدولة الأيوبية فيحدثنا عنه ابن جبير [1] حديث شاهد عيان فيقول : وقد جعل السلطان صلاح الدين جامع ابن طولون مأوى للغرباء يسكنونه ويحلقون فيه وأجرى عليهم الأرزاق

---

١) الخطط ٢ : ٢٧٦ – ٢٧٧ .

١) الرحلة ص ٤٢ .

في كل شهر .... وما من جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا مدرسة من المدارس الا وفضل السلطان يعم جميع من يأوي اليها ويلزم السكن فيها .

ويذكر Stanley Lane - Poole [1] ان المدرسة الناصرية التي بناها صلاح الدين بمصر كانت تشمل مساكن للطلاب والمدرسين بالأضافة الى أمكنة الدراسة والمكتب وغير ذلك من الملحقات الضرورية . وعلى ذكر الداخلية التي خصصت للمدرسين بهذه المدرسة نذكر ان الملك الأشرف موسى بن العادل (٦٣٥ هـ) لما اشترى دار صارم الدين قايماز وبناها مدرسة أخرب حمام الدار وبناه مسكناً للشيخ المدرس بها [2] .

ويبدو ان الداخلية وُجِدت اول ما وجدت متصلة بالأزهر ، ولكنها انتقلت منه الى سواه من المدارس في العالم الاسلامي كله ، ففي العراق كانت الداخلية بالمدارس النظامية شيئاً أساسياً ، ذكر عماد الدين الأصفهاني [3] ما نصه : « وسكن المدرسة النظامية ببغداد من حملة الشريعة رجالها » وكانت داخلية المدرسة المستنصرية غاية في الفخامة ، وكان الملتحقون بها من طلاب ومدرسين ينعمون بسخاء الخليفة وكرمه في الانفاق عليهم ، يقول ابن العبري [4] : ان المدرسة المستنصرية لم يعمر في الدنيا مثلها ، اذ كانت في اعظم وصف في صورتها ، وآلاتها ، واتساعها ، وزخرفتها ،

---

١) The Story of Cairo p. 190.
٢) النعيمي ١ : ١٩ .
٣) زبدة النصرة ص ٦٢ .
٤) تاريخ ابن العبري ص ٤٢٥ .

وكثرة فقهائها ، ووقوفها ؛ رتب فيها اربعة من المدرسين لكل مذهب مدرس كما رتب ثلثمائة فقيه لكل مذهب ٧٥ فقيهاً ورتب لهم من المشاهرات والخبز والطعام في كل يوم ما يكفي كل فقيه ويفضل عنه ، وبنى لهم داخل المدرسة حماماً خاصاً للفقهاء ، وعيّن طبيباً خاصاً يتردد عليهم في بكرة كل يوم يفتقدهم ، وبنى مخزناً فيه كل ما يحتاج اليه من انواع ما يطبخ من الاطعمة ومخزناً آخر فيه انواع الأشربة والأدوية [١] .

أما عن سوريا فقد اجمعت كل المراجع على ان الداخلية كانت تعد مرفقاً هاماً من مرافق مدارسها ، وقد زرت هذه البلاد ورأيت عدة من مدارسها الأثرية وكان في كل منها أمكنة مخصصة لمبيت الطلاب . وتعتبر المدرسة النورية الكبرى التي اوردنا عنها دراسة مفصلة نموذجاً صادقاً لمدارس سوريا الأخرى وللنظام الداخلي بها وقد تحدث ابن جُبير [٢] حديثاً ممتعاً وهو يصف احدى مدارس حلب وموقع القسم الداخلي بهذه المدرسة فقال بعد حديثه عن جامع حلب وفخامته : ويتصل بالجامع من الجانب الغربي مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً واتقان صنعة ، فهما في الحسن روضة تجاور اخرى ، وهذه المدرسة من احفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ، ومن اظرف ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي كله بيوت وغرف لها طيقان تطل على عريش كرم يثمر عنباً تحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدلياً امامها فيمدُّ الساكن فيها يده ويجنيه دون كلفة ولا مشقة .

---

١) انظر أيضاً في ذلك Khuda Bukhsh : Islamic Civilization p. 287.

٢) رحلة ابن جبير ٢٥٣ .

وللطالب في القسم الداخلي آداب فصلها ابن جماعة في كتابه تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلم والمتعلم ونحن نورد منها هنا طرفاً :

يهتم ابن جماعة بهذا المجتمع الذي سيقوم في المدرسة ، ولهذا يرى ان تخصص الداخلية الى الطلاب الذين عرفوا بحسن اخلاقهم وسماحتها حتى يكونوا في الداخلية متوادين متحابين ، كما يرى ان تكون الداخلية المخصصة للفتيان في امكنة منعزلة لا يكثر ان يمر بها الرجال [١] واذا سكن الطالب في البيوت العليا خفف المشي والاستلقاء عليها ، وخفف وضع ما يثقل كي لا يؤذي من تحته [٢] ولا يجلس او يقف على باب المدرسة او في صحنها ، ويقلل الدخول والخروج ما امكنه [٣] ، والا يعمل ما يؤذي زملاءه الساكنين [٤] ، ويتجنب على العموم كل العادات القبيحة [٥] .

---

١) تذكرة السامع ص ٢٢٩ .
٢) تذكرة السامع ص ٢٣٠ .
٣) تذكرة السامع ص ٢٣١ .
٤) تذكرة السامع ص ٢٣٣ .
٥) تذكرة السامع ص ٢٣٤ .

الفصل السادس

موضوعات الدراسة

هناك حقيقة هامة حددت موقفي فيما ينبغي ان يكتب في هذا الفصل من معلومات ؛ تلك ان موضوعنا الأساسي في هذه الدراسة هو التعليم لا العلم ، ومن أجل هذا لزم ان نتحدث عن المعلم ، والمتعلم ، والمكان الذي تدور الدراسة فيه ، والموضوع الذي يدرس ، ثم نذكر فذلكة ختامية هامة عن اشهر من أسسوا المدارس وعن الأوقاف على التعليم ونظام الحلقة وغيرها من فلسفة النظم بالمعاهد العلمية ، ويبدو ان فصول الرسالة السابقة قد استوعبت الحديث عن كل هذه العناصر . اما عن منهاج الدراسة فمن الواضح انه كان يختلف اختلافاً يسيراً او كبيراً باختلاف الأمكنة التي تدور فيها الدراسة ؛ فللكتّاب منهاجه ، وللمؤدبين خطة خاصة يرتسمونها ، وللمسجد اتجاهه ، وللصالونات الأدبية تنوعها وتطورها ، ومن أجل هذا تحدثنا عن الموضوعات التي كانت تدرس عند حديثنا عن كل مكان انعقدت فيه او قامت به دراسة ، وأعطينا من الأمثلة مجموعة كافية للإيضاح والابانة .

اما العلوم التي ارتقت في العالم الإسلامي والتي اولاها كثير من قادة المسلمين عناية وتشجيعاً كعلوم الشريعة والفلسفة والطب والرياضة فليس هنا مكان الحديث عنها لأنها تخرج بنا من التعلم الى العلم ثم هي في الوقت نفسه موضوعات معقدة طويلة يحتاج الواحد منها إلى كتاب قائم بذاته ، بل ان الكثير منها دُرس في كتب قائمة بذاتها [1] .

من الابحاث الحديثة عن الطب عند المسلمين :

١ ــ قوانين الصحة عند المسلمين للدكتور احمد صدقي القاهرة ١٩١٠ .

من اجل هذا لم يكن من الطبيعي ان نتعرض هنا للحديث عن هذه العلوم ، وكانت النية ان تقف هـذه الدراسة عند نهاية الفصل الخامس ، غير ان التعليم في مصر في العهد الفاطمي اتخـذ صبغة خاصـة ، ومال الى اتجاه معين ؛ ذلك هو نشر المذهب الاسماعيلي الذي كان يعتنقه خلفـاء الدولة . وكان نشر هـذا المذهب والدعاية له يتبعان خططاً جديدة لم يكن هنالك عهد بهـا ، فتغير بذلـك موضـوع الدراسة وطريقتها ، ولا يزال كلاهما غير واضح تماماً ، اذ فَقَدَ العالمُ الاسلامي كثيراً مـن المـؤلفات القيمة التى كتبها قادة الشيعة ، وكان فقدان هـذه المؤلفات غالباً على يـد مسلمين يعتنقون المذهب السني ، لاعتقادهم ان ما تدعو إليه انما هو نحراف عن الدين الحق الذي يدينون به ، ثم ان ما نجا من كـتب

---

٢ ــ فضل العرب على الجراحة للدكتور حسين الهواري القاهرة ١٩١٧ .

٣ ــ Arabian Medicine : Edward Browne, London 1921.

٤ ــ الات الطب والجراحة والكحالة عند العرب للدكتور احمد عيسى القاهرة ١٩٢٥ .

٥ ــ Arabian Medicine : Campbell, London 1926.

٦ ــ الطب العربي وآثاره للدكتور زكي علي القاهرة ١٩٣١ .

٧ ــ Encyclopoedia Britannica, S. V. Medicine.

ومن الأبحاث الحديثة عن العلوم الرياضية عند المسلمين :

١ ــ History of Physics in its Elementary Branches : Cajoria, New York 1929.

٢ ــ علوم العرب الرياضية وانتقالها إلى أوروبا لأحمد فهمي ابو الخير .

٣ ــ Mathematical Recreations : Rouse Ball, London 1914.

٤ ــ Encyclopoedia Britannica, S. V. Mathematics.

٥ ــ The Encyclopoedia of Education p. 1041.

الاسماعيلية احتفظ قادتهم بالأكثرية الغالبة منه ، ورغبوا عن طبعه واذاعته لاعتقادهم انه كُتِب للخاصة لا لعامة الناس . وقد انتهزتُ فرصة رحلتي بدول الشرق الاوسط سنة ١٩٥٠ فقابلت بعض شيوخ الشيعة الأفاضل وكثيراً ممن يعنون بهذه الدراسة ؛ وقد اتيح لي بذلك ان اقرأ جملة من مخطوطاتهم ، وانعرّف على الكثير من آرائهم التي أدون قبساً منها فيما يلي وسأحدُّ في هذا الفصل مهمتي وأجعلها الى التاريخ أقرب ؛ فأجمع أقوال الأسماعيلية ومعتقداتهم ، وأرتبها ، وأعرضها ، دون ان اتعرض لها مؤيداً أو ناقداً .

المذهب الاسماعيلي في مصر

عندما فتح الفاطميون مصر سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ادركوا انهم امام شعب ارقى ثقافة وأعظم مدنية من شعوب افريقية التي اقاموا بينها دولتهم الأولى ، وكان استسلام المصريين خضوعاً للقوة لا خضوعاً للعقيدة ومن اجل هذا نجد ذلك الشعب المغلوب يطلب من قائد الفاطميين وثيقة مكتوبة يعلن فيها ان يكون للمصريين الحق المطلق في الاستمرار على مذهبهم الديني الذي يرضونه وانه لن يكون هناك اي ضغط من هذه الجهة على ميول الناس ومعتقداتهم ويهدد المصريون بالمقاومة ان لم تتحقق لهم هذه الرغبة . ويمنحهم جوهر هذه الوثيقة المفصّلة التي يقول فيها : « . . . . وذكرتم وجوهاً التمستم ذكرها في كتاب أمانكم ، فذكرتها اجابة لكم وتطميناً لأنفسكم ، وهي اقامتكم على مذهبكم وثباتكم على ما كان

عليه سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم ومن فقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم [1] ....» وعلى هذا ادرك الفاطميون ان نشر مذهبهم بين المصريين لن يكون عملاً يسيراً ، ومن هنا بدأوا يرسمون الخطط ويحشدون القُوى للتأثير في هذا العناد او قل العداء الذي اظهره المصريون ضد التشيع منذ اللحظات الاولى .

وكانت خطة الفاطميين تشمل مرحلتين : المرحلة الاولى مرحلة التعليم والتشريع والمرحلة الثانية مرحلة الدعوة السرية ، وقد اتضحت هاتان المرحلتان من السجل الذى صدر عن الخليفة الفاطمي بتوليته داعي الدعاة وقد سبق ايراده ، ونحن نعود فنقتبس منه الفقرة التالية قال :

« واتل مجالس الحكم على المؤمنين والمؤمنات ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ، ولا تستقل أفهامهم بتقبُّله وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشدَّ العقد على كل منقاد ظاهر [2] » .

وعلى هذا النحو سار داعي الدعاة ونوابه فهم يدرسون في الجهر علوماً وتشريعات حول المذهب الشيعي ، حتى اذا عثروا بين جماهير المستمعين على مستجيب للدعوة راغب في الزيادة من علومها وأفانينها نقلوه من المجالس العامة الى المجالس الخاصة ومن علوم الجهر الى علوم السر ، ثم هم في العلوم السرية لا يطلعون المستجيب عليها دفعة واحدة بل يتدرجون به من مرتبة الى مرتبة من مراتبها التسع ، ولا ينقلونه من واحدة الى اخرى الا

---

١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ٦٧ ـ ٧٠ .
٢) القلقشندي : صبح الأعشى ١٠ : ٤٣٤ ـ ٤٣٩ .

اذا تقبل السابقة وهضمها . فاذا انتهى من الدرجات التسع كان قد وصل الى اعلى درجات التشيع وأسمى مراتبه .

ولن يكون للجانب السري ومراتبه التسع نصيب من الحديث في هذا الكتاب ، لأنه يبحث عن التعليم العام لا عن هذه الاتجاهات الخاصة ، هذا الى ان المقريزي قد تحدث بافاضة عن هذه الدرجات ، فمن الممكن ان يعود اليه من يرغب في الاستزادة من هذا الموضوع [1] وسيكون حديثنا اذاً عن المرحلة الأولى وهي مرحلة التعليم وسنتبع الخطة التالية في عرض هذا الموضوع :

أولا ـ العقائد الاسماعيلية في العهد الفاطمي .
ثانياً ـ الجهد الذي بذله الفاطميون لنشر تلك الدعوة .
ثالثاً ـ المصريون والمذهب الاسماعيلي .

اولا ـ عقائد الاسماعيلية *

ـ الوصي والأئمة :

يعتقد الشيعة ان لكل نبي وصياً ، وان الله سبحانه وتعالى هو الذي يختار الوصي لنبيه ، وقد كان وصي آدم هابيل ، ووصي نوح ابنه سام ،

---

١) الخطط ١ : ٣٩١ ـ ٣٩٧ .

* ١ ـ دعائم الاسلام ، تأويل دعائم الاسلام ، اساس التأويل الباطن ، المجالس المستنصرية ، المجالس المؤيدية وغيرها من الكتب والمخطوطات الواردة هنا هي في الواقع مراجع يوثق بها تمام الثقة عند الحديث عن عقائد الاسماعيلية اذ أن كل كتاب من هذه الكتب يغلب أن يكون مؤلفه هو داعي الدعاة في عهده .

ووصي ابراهيم ابنه اسماعيل ، وكان وصي موسى أخاه هارون ، ووصي عيسى بن مريم حوارية شمعون فوجب ان يكون لمحمد وصي [1] وسبب الحاجة الى الوصي ان سنة الله مضت في جميع من أرسله من رسله ان يكون الرسول الناطق بظاهر الشريعة والتنزيل ، ويقيم الله له أساساً (اصطلاح أسماعيلي معناه القائم بأمر الباطن) من أقرب الناس اليه ممن استجاب لدعوته ورضي محنته للقيام بأمر الباطن [2] . ومن اجل هذا اختار الله عليا ليكون وصي الرسول محمد والقائم بأمر الباطن ، وأعلَمَ الله محمداً بذلك فهمّ الرسول بأن يطلع أصحابه على ما أوحاه الله اليه ، ولكن كان عليّ أحدث الصحابة سناً ، وكان من المصلحة أن يُرْجأ هذا الاعلان ، فأنزل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة « لا تحرك به لسانك لتعجل به . . . ثم ان علينا بيانه [3] » فعلم الرسول من هذه الآيات ان اعلان التعيين لا يكون الا باذن الله ، فكتم ذلك الى ان انزل الله عليه في حَجَّة الوداع

---

٢ ــ تفضل الاستاذ عباس العزاوي المحامي ببغداد فأطلعني على مخطوط هام في مكتبته الخاصة ألفه الداعي علي بن حنظلة ــ والمخطوط عبارة عن أرجوزة شعرية تضم عقائد الاسماعيلية ومن أجل هذا أسماها مؤلفها « سمط الحقائق » وفيما يلي مقتطفات منها :

نفي الصفات	: الحمد لله العلي السامي	عن صفة الكمال والتمام .
الوصي	: وقادنا إلى ولي الوصي	من بعده مولى الورى علي .
لولا الأئمة ماخلق الخلق	: وأوجدوا نفوسنا من العدم تمنناً منهم علينا والكرم .	
الناطق والصامت	: وبعد كل ناطق وصي	بخلقه فتحت مرضي .
الظاهر والباطن	: مبيناً تأويل ما أتى به	من سنة الله ومن كتابه .
الابن بعد الوصي	: ثم يقم بعده أئمة	مطهرين ينشرون الحكمة .

١) جعفر بن منصور : الفترات والقرانات ١٢ ب مخطوط .
٢) القاضي النعمان : أساس التأويل الباطن ١٧٣ أ مخطوط .
٣) ٧٥ : ١٧ ــ ١٩ .

الآية الكريمة « يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته [1] » ومعناها عند الشيعة اخبر قومك ان عليا قد اختير ليكون وصيا . فلما صدر رسول الله عن حجة الوداع وصار بغدير خم أمر بروحات فقمن له ونادى بالصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، واخذ بيد علي فأقامه الى جانبه وقال : ايها الناس ، اعلموا ان عليا مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي ، وهو وليكم بعدي ، فمن كنت مولاه ، فعلي مولاه ، ومن كنت وليه فعلي وليه وأميره . ثم رفع يديه حتى رؤي بياض أبطيه وقال : اللهم وال من ولاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وادر الحق معه حيث دار [2] .

وكان هذا التصرف من الرسول هو نهاية الفرائض ولذلك نزل بعد ذلك قوله تعالى « اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا [3] » . وتولى الحسن بعد علي فكان الحسن بذلك اول امام ولم تنتقل الولاية من الحسن بعد موته لأولاده بل تولاها الحسين نظراً لمكانته من الرسول ومن علي وفاطمة ، فلما مات الحسين انتقلت الأمامة في ذريته لقوله تعالى « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله [4] » .

ويعتقد الشيعة ان الامام ضروري للجنس البشري ، وان الارض لا

---

١) ٥ : ٦٧ .

٢) القاضي النعمان : اساس التأويل الباطن ١٨٩ أ والمناقب والمثالب ٦٨ ب ، دعائم الاسلام ١٣ ب مخطوطات .

٣) سورة رقم ٥ آية ٣ .

٤) سورة ٨ آية ٧٦ انظر دعائم الاسلام ٢٦ أ ، ب .

تخلو قط من امام ظاهر او مستور تبعاً للقوة المادية التي تؤيده ، ولا بد لكمال الاسلام ان يعرف الشخص امام عصره ، روي عن الامام الباقر انه قال : بني الاسلام على سبع دعائم الولاية هي افضلها [١] . ويقول الكليني : أثافي الاسلام ثلاثة : الصلاة والزكاة والولاية لا تصلح واحدة منهن الا بصاحبتها [٢] ، ويروون عن الرسول انه قال : من مات ولم يعرف امام زمانه مات ميتة جاهلية [٣] ، ويشرح المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي هذه الفكرة بقوله في احد مجالسه : لو ان رجلاً عمل بفرائض الله تعالى وسنته التي جاء بها رسوله كلها ، ثم لم يقترن بعمله اعتقاد ولاية الرسول لم يغن عنه ما عمل فتيلا ، ولم يتبع غير اهل النار سبيلا ، اذ ولاية الرسول كالمركز الذي تدور عليه الفرائض فلا يصح وجودها الا بوجوده ، واذا كانت هذه نصبة الرسول في حياته ، كانت نصبة من يولّيه امر الدين مثلها وكمثل ذلك نصبته من يليه ، ومن يلي من يليه وهكذا [٤] .

ويروون عن الرسول أنه قال : يا علي ، انت والأئمة من ولدك أعراف الله بين الجنة والنار ، لا يدخل الجنة الا من عرفكم وعرفتموه ، ولا يدخل النار الا من أنكركم وأنكرتموه [٥] .

وتجب طاعة الوصي والأئمة من بعده طاعة شاملة لا تردد فيها ، اذ

---

١) تأويل دعائم الاسلام ج ١ ص ٧ .
٢) أصول الكافي ١٧٤ ب مخطوط .
٣) المجالس المؤيدية ١ : ١٥٦ مخطوط .
٤) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٥ .
٥) دعائم الاسلام ١٨ ب مخطوط .

يروي النعمان عن ابي جعفر محمد بن علي انه قال في قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم [1] » إيانا عُنِيَ بهذا [2] وفي قوله تعالى « ولو رووه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم [3] » قال هم الأئمة [4] .

ب ـ العصمة

قال الاسماعيلية بعصمة الامام والرسول ، بل لعل الفاطميين لم يدينوا بعصمة الأنبياء الا لاثبات عصمة أئمتهم [5] .

وعصمة الانبياء وعدم ارتكابهم الخطيئة صغيرة كانت او كبيرة من الضرورات الاولية عند الشيعة ؛ اذ لو جاز الخطأ عليهم لكان جائزاً بوجه عام من غير تقييده بنوع دون نوع ، ولو لم يكن الرسول معصوماً من الزلل لقلت الثقة به ولانتفت فائدة البعثة [6] ، والعلة التي اقتضت عصمة الانبياء هي التي اقتضت عصمة الأئمة : اذ ان جواز الخطأ على الأمام يحول دون قيامه بأمور الإمامة فوجبت لهم العصمة كما وجبت للأنبياء والدليل على ذلك قوله تعالى « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً [7] » فالامام حافظ للشرع قائم به ، والحاجة الى

---

١) سورة ٤ آية ٥٩ .
٢) دعائم الاسلام ١٦ أ .
٣) سورة ٤ آية ٨٥ .
٤) دعائم الاسلام ١٨ أ .
٥) دكتور محمد كامل حسين : في ادب مصر الفاطمية ص ٧ .
٦) السيد محمد صادق الصدر : الشيعة ص ١١٧ .
٧) سورة ٣٣ آية ٣٣ المرجع السابق ص ١١٨ ، ١١٩ ومنتهى المراد للموسوي ٥٩ أ ، ب مخطوط .

الامام انما هي للانتصاف للمظلوم من الظالم ورفع الفساد ، وحسم مادة الفتن ، وان الامام يمنع القاهرين من التعدي ، ويحمل الناس على فعل الطاعات واجتناب المحارم ، ويقيم الحدود والفرائض ، ويؤاخذ الفساق ، فلو جازت عليه المعصية او صدرت عنه لانتفت هذه الفوائد [١] . فاعتقادنا في الأنبياء والرسل والأئمة والملائكة أنهم معصومون مطهرون ، لا يذنبون ذنباً كبيراً ولا صغيراً [٢] . ويسوق الشيعة من الآثار ما يؤيد وجهة نظرهم ؛ فيروون عن الرسول انه قال : « أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهرون معصومون » ويروون عن بعض الأئمه قوله : الامام مطهر من الذنوب مبرأ من العيوب . وعن إمام آخر قوله : الامام مبرأ عن العاهات معصوم من الزلات [٣] .

ومن أشهر الكتب التي أُلِّفت في ذلك الموضوع كتاب تنزيه الأنبياء للسيد الشريف المرتضي أبي القاسم علي بن الحسين الموسوي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ [٤] ومؤلف الكتاب يضع المنهاج الذي اتبعه فيه في مقدمته التي يقول فيها : سئلت ـ احسن الله توفيقك ـ املاء كتاب في تنزيه الأنبياء والأئمة عليهم السلام عن الذنوب والقبائح كلها كبيرة او صغيرة ، والرد على من خالف في ذلك على اختلافهم وضروب مذاهبهم : وأنا اجيب الى ما سئلت على ضيق الوقت وتشعب الفكر ، وأبتدىء بذكر الخلاف في هذا

---

١) { سليمان بن الحسين : ارشاد البشر
ابو جعفر الغمي : اعتقاد الصدوق } مخطوطان بمكتبة آل كاشف الغطاء بالنجف غير مرقمين

٢) اعتقاد الصدوق للغمي .

٣) الموسوي : منتهى المراد ٥٩ ب .

٤) المطبعة الحيدرية بالنجف ١٢٥٠ هـ .

الباب ثم بالدلالة على المذهب الصحيح من جملة ما أذكره من المذاهب ثم بتأويل ما تعلق به المخالف من الآيات والأخبار التي اشتبه عليه وجهها ، وظن انها تقتضي وقوع كبيرة او صغيرة من الأنبياء والأئمة عليهم السلام .... قالت الشيعة لا يجوز على الانبياء شيء من المعاصي والذنوب كبيراً كان او صغيراً الا قبل النبوة ولا بعدها ، ويقولون في الأئمة مثل ذلك .

وهكذا ينساق المؤلف في كتابة الكبير يؤيد مذهب الشيعة في عصمة الأنبياء والائمة ويرد على من خالفهم في ذلك ويؤوّل ما احتج به المخالفون .

حـ ـ صفات الأئمة :

تصف بعض كتب الشيعة الأئمة بأوصاف تسمو بهم الى مراتب الأنبياء بل الى مرتبة الواحد القهار ، ويمدح الشعراء أئمة الشيعة بقصائد ومقطوعات تحمل نفس المعنى ، وسيرد من هذه وتلك بضعة نماذج فيما يلي من صفحات ، ولكني أشير الآن الى الفكرة التي اتخذها هؤلاء اساساً لينسبوا للامام مثل هذه الصفات او ليمدحوه بمثل تلك القصائد ، فقد ارجع الدكتور كامل حسين هذا الى ما سماه « نظرية المثل والممثول » وهو يقول : لا نعدو الصواب اذا قلنا ان « نظرية المثل والممثول » هي مركز الدائرة التي تدور عليها عقائد الاسماعيلية ، وهي التي تشرح لنا شعر المدح في العصر الفاطمي ، وفحوى هذه النظرية ان مخلوقات الله المحسوسة كالسماء والأرض وغيرها ليس كل منها الا مثلاً لممثول معقول غير مرئي ، وان لكل محسوس او مثل معقولاً او ممثولا ، ويعتقد الاسماعيلية ان :

١ ـ اول ما خلق الله القلم (ويطلقون عليه ايضاً العقل الكلي) .

٢ ـ الله منزه عن الصفات التي يصفه بها اهل السنة وانما الذي يتصف بهذه الصفات هو القلم (العقل الكلي) .

٣ ـ هذا العقل الكلي او القلم ممثول والنبي في عصره هو المثل لهذا العقل فاذا انتقل النبي الى العالم الآخر أخذ الأئمة من اهل بيته مكانه .

٤ ـ المثل يأخذ نفس الصفات التي لممثوله في الحدود العلوية ، وبهذا يأخذ الأئمة الصفات التي للقلم تلك الصفات التي ينسبها السنيون لله جل وعلا ، فكل الاوصاف التي تذكرها كتب الشيعة للأئمة أو المدائح التي يذكرها شعراء الشيعة في قصائدهم انما هي في الواقع (عند الاسماعيلية) موجهة للأئمة على ان كلا منهم مثل لممثول يستحق هذه الصفات وتلك المدائح [١] .

ذلك موجز نظرية المثل والممثول وفي ضوئها أسند الشيعة لأئمتهم الصفات التالية .

الامام وجه الله ويده ونوره ، ونور الله لا يزال ينتقل من امام الى امام ، والأئمة سبب وجود المخلوقات وهم خلفاء الله في أرضه ، وللأوصياء أبواب الله التي يؤتي منها [٢] ، والأئمة والأنبياء يوفقهم الله ويؤتيهم من مخزون علمه وحكمه ما لا يؤتيه غيرهم [٣] وتعرض عليهم اعمال الناس [٤]

---

١) انظر نظرية المثل والممثول واثرها في شعر مصر الفاطمية للدكتور كامل حسين .
٢) الكليني : أصول الكافي ورقة ٥٧ أ .
٣) المصدر السابق ٦٠ أ .
٤) المصدر السابق ٦٥ أ ، ب .

واذا اراد الإمام ان يعلم شيئاً اعلمه الله إياه ، ويعلمون متى يموتون ، ولا يموتون الا باختيارهم [١] وتدخل عليهم الملائكة وتأتيهم بالاخبار [٢] .

ويروي الموسوي في كتابه « منتهى المراد » عن الباقر انه قال : نحن سبب خلق الخلق [٣] . وروى كذلك ان الرسول (ص) قال مخاطباً علياً : : يا علي : أنت الامام والخليفة بعدي ، حربك حربي وسلمك سلمي ، وانت ابو سبطيّ وزوج ابنتي ، من ذريتك الأئمة المطهرون ، فأنا سيد الأنبياء وانت سيد الرؤساء ، وانا وانت من شجرة واحدة ، ولولانا لم يخلق الله الجنة ولا النار ، ولا الانبياء ولا الملائكة [٤] ، ورَوَى ان علياً خطب في جامع البصرة فكان مما ذكره من خصائصه قوله : انا عالم بضمائر قلوبكم والأئمة من اولادي يعلمون [٥] .

ويروي الكرماني في الرسالة الوضيّة [٦] : ان معرفة الامام عبادة لله واستكمال للدين ، والتولّي له عقد الضمير على انه القائم مقام الله تعالى ومقام رسوله ، وأمره امر الله ، ورضاه رضاء الله ، وسخطه سخط الله .

د ـ الظاهر والباطن :

مسألة الظاهر والباطن هي ابرز ما يفرق بين الاسماعيلية من جانب والفرق الاخرى للشيعة من جانب آخر ، والقول بالظاهر والباطن مبدأ

---

١) المصدر السابق ٧٧ أ .
٢) المصدر السابق ١٢٠ ب .
٣) ورقة رقم ١٥ أ .
٤) ١٧ أ .
٥) ٣٩ ب .
٦) الرسالة الوضية ٤١ ب .

هام عند الاسماعيلية وترجع تسميتهم بالباطنية الى قولهم بالظاهر والباطن ، وهذا المبدأ خطير جداً فقد استغله بعض الاسماعيلية ليفسروا القرآن والحديث على النحو الذي يصل بهم الى غاية معينة ، وكانت بعض تفسيراتهم لا يربطها اي رابط بنص القرآن او الحديث بل لا توصي بها هذه النصوص .

ويستدل الاسماعيلية على مبدأ الظاهر والباطن بقوله تعالى « وذروا ظاهر الاثم وباطنه » [١] وقوله « وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة » [٢] . ويقول الداعي : ان الظاهر والباطن كالروح والجسد ، اذا اجتمعا انقدحت الفوائد ، وعرفت المقاصد ، وأدركت النفس ما في العالم من البدائع [٣] . وقد ورد في سجل تولية داعي الدعاة قول الخليفة الفاطمي : ان الظواهر أجسام والبواطن أشباحها ، والبواطن انفس والظواهر ارواحها ، وأنه لا قوام للأشباح الا بالارواح ، ولا قوام للأرواح في هذه الدار الا بالاشباح ، ولو افترقا لفسد النظام وانتسخ الايجاد بالاعدام [٤] .

وجاء في تأويل دعائم الاسلام [٥] ما نصه : مثل الاسلام مثل الظاهر ومثل الايمان مثل الباطن ولا يقوم ظاهر الا بباطن ولا باطن الا بظاهر . ونص الاسماعيلية على انه من عبد الله بظاهر دون باطن او بباطن دون ظاهر فهو ممن يعبده على حرف [٦] ولنورد فيما يلي بضعة امثلة لبواطن

---

١) سورة رقم ٦ آية ١٢٠ .
٢) سورة رقم ٣١ آية ١٩ .
٣ المجالس المستنصرية ص ٢٧ .
٤) القلقشندي : صبح الأعشى ١٠ : ٤٣٧ .
٥) ج ١ ورقة ٧ أ .
٦) المجالس المستنصرية ص ٢٩ .

بعض الآيات على ما يقوله الاسماعيلية :

« ألم نشرح لك صدرك [1] » المعنى الباطن لها : اقمنا لك الأساس .
« ولقد آتيناك سبعاً من المثاني [2] » المعنى الباطن لها : جعلنا في ذريتك سبعة أئمة [3] . « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم [4] » المعنى الباطن لها : أن النصباء اثنا عشر منهم اربعة اصول [5] . « وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله [6] » المعنى الباطن لها : الصدقة المقبولة ما كانت لارضاء الرسول أو الأئمة من بعده [7] . « ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها [8] » المعنى الباطن لها : ما ينقرض امام من الأئمة الذين هم آيات الله وأعلامه وأركان دينه وقوامه .... الا ونقيم مقامه مثله في فضله او أفضل منه [9] .

هـ ـ الأئمة والتشريع :

المصادر الرئيسية للشريعة الاسلامية هي القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة ، غير انه بعد وفاة الرسول جدّت بعض حالات لم يكن في

---

١) سورة ٩٤ آية ١.
٢) سورة ١٥ آية ٨٧ .
٣) القاضي النعمان : أساس التأويل الباطن ١٨٢ أ ، ب .
٤) سورة ٩ آية ٣٦ .
٥) أساس التأويل الباطن ٢٥ ب ، ٢٦ أ .
٦) سورة ٢ آية ٢٧٢ .
٧) المجالس المؤيدية ١ : ١١١ .
٨) سورة ٢ آية ١٠٦ .
٩) المجالس المؤيدية ١ : ١٩ أ .

القرآن ولا في الاحاديث اجابةٌ مباشرة لها ، ومن اجل هـذا اجتهد علماء اهل السنة في الاجابة عن هـذه الاسئلة باستعمال الرأي الناتـج عـن العلم والاجتهاد ، او بقياس هذه المسألة بأقرب نظير لهـا وَرَدَتْ عنه إجابـةٌ صريحة ، واصبح بذلك الرأي والقياس معترفاً بهما بين علماء اهـل السنة لسدِّ ذلك الفراغ الذي قد يظهر امام الباحثين ورجال الافتاء .

ولكن الشيعة ـ كما مرَّ ـ يعتقدون في أئمتهم ان الله يؤتيهم من مخزون علمه وحكمه ما لا يؤتيه غيرهم ، وتنزل عليهم الملائكة وتأتيهم بالأخبار ، واذا أراد الإمام ان يعـلم شيئاً اعلمه الله اياه . وهم من اجل هـذا لا يحتاجون للرأي والقياس فـكلما جد أمر ليس في القرآن ولا في احاديث الرسول اجابة صريحة عنه تلقى الامام من الله الردَّ على هذا السؤال كما كانت الحال مع الرسول تماماً ومن أجل هذا يبطل استعمال الرأي والقياس .

ثم ان الشيعة يستمدون احـكامهم من احاديث الرسول التي روتهـا سلسلة من علماء الشيعة .

فقد روى جعفر بن محمد عن آبائه عن الرسول عليه السلام انه قال : تعلموا من عالم اهل بيتي ، ومن تعلم من عالم اهل بيتي نجا من النار [1] .

وقد روى القاضي النعمان في كتابه (دعائم الاسلام) مجموعـة من الحوار الذي دار بين جعفر بن محمد والامام أبي حنيفة النعمان ، والذي كان هدف الاول فيه ان يوضح للثاني بطلان الأخـذ بالرأي والقيـاس ، وفيما يلي طرف من ذلك الحوار اللطيف :

---

١) القاضي النعمان : دعائم الاسلام ٥٤ أ .

جعفر : ما الذي تعتمد عليه فيما لم تجد فيه نصّاً من كتاب الله ولا خبراً عن الرسول ؟

أبوحنيفة : أقيسه على ما وجدت من ذلك .

جعفر : ان اول من قاس ابليس فأخطأ ، اذ قال : انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، فرأى ان النار أشرف عنصراً من الطين فخلده ذلك في العذاب المهين .

يا ابا حنيفة ؛ أيهما اطهر : المني او البول ؟

ابوحنيفة : المني .

جعفر : قد جعل الله في البول الوضوء وفي المني الغسل ولو كان يُحمَل على القياس لكان العكس اولى . وأيهما اعظم الصلاة ام الصوم ؟

ابوحنيفة : الصلاة .

جعفر : أمر رسول الله الحائض ان تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة ، ويقضي القياس ان يكون الأمر بالعكس ١) .

وبناء على اختلاف الاسس التي تؤخذ منها الشريعة ، وبسبب المصدر الجديد الذي اعتمده الشيعة اصبح لهم فقه خاص بهم يتفق ويختلف مع فقه اهل السنة ، وفيما يلي امثلة لفقه الشيعة مقتبسة من الترجمة العبقرية للعلامة علام حليم بن قطب الدين الهندي ٢) ومن غيره من الكتب الهامة :

---

١) القاضي النعمان : دعائم الاسلام ٥٩ ب ، ٦٠ أ .
٢) مخطوط بدار الكتب ٣٦٠٨ تاريخ .

الطهارة : طهارة الخمر [١] .

لا يحتّمون طهارة مكان الصلاة ما دامت النجاسة لا تعلق بالثوب [٢] .

الصلاة : يجيزون الجمع بين الظهر والعصر و بين المغرب والعشاء من غير عذر [٣] .

يقنتون في الركعة الثانية في صلاة الجمعة [٤] .

لا يجيزون القصر في الصلاة للمسافر الا اذا كان مسافراً الى مكة او المدينة او الكوفة او كربلاء [٥] .

تختلف عدد التكبيرات على الميت تبعاً لمكانته [٦] .

الصوم : صوم اليوم الثامن عشر من ذي القعدة سنة مؤكدة [٧] .

لا يبحثون عن هلال رمضان ولا عن هلال شوال ، ودائما يبدأون رمضان قبل اهل السنة بيوم او يومين ، ورمضان عندهم كامل دائماً [٨] .

الزكاة : لا تجب الزكاة في اموال التجارة .

يدفع الشيعي خمس ايراده للامام [٩] .

---

١) ٣٧٠ أ .
٢) ٣٧٣ أ .
٣) ٣٧٤ ب .
٤) الخطط ٢ : ٢٤٠ ، ٢٧٠ .
٥) الترجمة العبقرية ٣٧٥ أ .
٦) الخطط ١ : ٣٥٣ .
٧) الترجمة العبقرية ٣٧٦ أ .
٨) سيرة المؤيد في الدين ٥ – ٦ .
٩) القاضي النعمان : كتاب الهمة ٦٦ – ٦٧ .

النكاح : يجوّزون نكاح المتعة [١] .

لا يقع الطلاق الا بشاهدين كالزواج [٢] .

الميراث : يقدمون القرابة على العصبة (ولعلهم بذلك يريدون تقديم فاطمة على العباس)

يقدمون البنت على الولد في الميراث [٣] .

لا يورثون الجد عند وجود ابن الابن [٤] .

الأذان : يزيدون فيه عبارة : حي على خير العمل [٥]

ثانياً – جهود الفاطميين لنشر مذهبهم

١ – بواسطة حلقات التعليم :

سبق القول ان الفاطميين كانوا يهتمون بنشر مذهبهم اهتماماً كبيراً ، وأنهم لمسوا أن المصريين لن يستجيبوا بسهولة لذلك المذهب الجديد ، وأنه لا بد للوصول لهذا الهدف من بذل جهود كبيرة ، وكان من اهم هـذه الجهود انشاء معاهد للعلم وتعيين الشيوخ ليجلسوا للناس ليعلموهم ويرشدوهم . وهكذا بكّر الفاطميون بانشاء الأزهر أقدم جامعة إسلامية ، او اقل أقدم جامعة عالمية ذات شأن . وجاء بعد الأزهر عددٌ من المساجد التي انتظمت فيها حلقات تعليم ، وضنّ الحاكم بالجهود ان توزع في المساجد بين العبادة

---

١) الترجمة العبقرية : ٣٨١ ب .
٢) المصدر السابق ٣٨٥ ب .
٣) المقريزي الخطط ١ : ١١١ ، ٢ : ٣٤٠ .
٤) الترجمة العبقرية ٣٩٠ أ .
٥) علي بن ظافر : الدول المنقطعة ٤٨ أ مخطوط .

والعلم فأنشأ دار العلم حيث يخلو العلماء للطلاب وحيث لا يأوى الا الراغبون في الثقافة وتحصيل العلم ، ثم اعدَّ الفاطميون ووزراء الفاطميين قصورهم لتقوم بها مجالس منتظمة للثقافة الرفيعة ، وفي هذه او تلك كان يجلس داعي الدعاة او الوزراء للدعاية الصريحة او المستترة للمذهب الجديد .

وكان يعقوب بن كلس يجلس بنفسه للناس ليقرأ لهم كتاباً ألَّفه في الفقه يتضمن ما سمعه من المعز لدين الله ومن ابنه العزيز بالله ، وهو مبوَّب على ابواب الفقه ، ويقع في حجم نصف صحيح البخاري ، ويشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية ، وكان يجلس ليقرأ منه وبين يديه خواص الناس وعوامهم ، وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء وأفتى الناس به ودرسوا فيه بالجامع العتيق [١] .

وكان القاضي النعمان يجلس بالمسجد ليقرأ للناس [٢] ، ثم كان قاضي القضاة علي بن النعمان يجلس بالجامع الازهر ليقرأ مختصر ابيه في فقه آل البيت [٣] .

اما عن دار الحكمة فقد مر حديث قصير عنها ، ونريد ان نضيف الآن ان الحاكم اراد في بادىء الامر ان يجذب لها الناس بإيهامهم انها للدراسة الحرة في جميع المذاهب فدعا اليها الشيوخ من السنيين والشيعيين وقرئت فيها فضائل الصحابة ، ولكن سرعان ما ابعد عنها شيوخ اهل السنة ، بل قتل بعضهم وتأكدت بذلك ميولها المذهبية وأصبحت بما فيها من استعداد وتيسير على الطلاب من ابرز الأمكنة في الدعاية لمذهب

---

١) المقريزي : الخطط ٢ : ٣٤١ .
٢) ابن حجر : رفع الاصر ٩١ أ ، ب .
٣) الخطط ٢ : ٣٤١ .

الدولة [1] ، كما كانت هذه الدار المكان الذي يجتمع فيه داعي الدعاة بالدعاة والفقهاء لتنظيم أمور الدعوة [2] .

اما عن قصور الخلفاء فقد فتحها الخلفاء لأتباعهم ليلقوا فيها الدرس ، وقلدهم في ذلك وزراؤهم ، وفي قصر الخليفة كان هناك مكان يسمى (المحول) وهو يشبه ما نسميه الآن (قاعة المحاضرات) ، وقد كان المحول قبلة انظار المصريين من مختلف الطبقات وكذلك كان يرد اليه الطارئون على مصر ليتلقى فيه هؤلاء وأولئك علوم اهل البيت ، وكانت هذه المجالس تعرف بمجالس الحكمة أو مجالس الدعوة [3] .

قال القاضي النعمان : اخرج اليَّ المعز لدين الله كتاباً عن علم الباطن ، وأمرني ان اقرأه على الناس في كل يوم جمعة في مجلس قصره المعمور ، فكثر ازدحام الناس وغص بهم المكان [4] . وكان القاضي محمد بن النعمان يجلس على كرسي بالقصر لقراءة علوم اهل البيت وكان يقبل عليه الناس اقبالا عظيما حتى انه في احدى جلساته في ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ كثر لحاضرون مما سبب ان مات في الزحام احد عشر رجلاً [5]

وكانت هذه المجالس تقرَّر للناس ؛ كل على حسب طبقته فكان لآل علي مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ، وللعامة والطارئين مجلس ، وللخدم مجلس ، وللنساء مجلس ، وهكذا . ثم كان للمبتدئين مجلس وللمستجيبين

---

١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٤ : ٢٢٣ .
٢) الخطط ١ : ٣٩١ .
٣) الخطط ١ : ٣٩٠ ـ ٣٩١ .
٤) المجالس والمسايرات ٦٨ أ ، ب .
٥) الخطط ١ : ٣٤١ ، ٣٩١ .

مجالس على حسب درجاتهم . وكانت اذا انتهت القراءة أقبل المؤمنون او المؤمنات على الداعي فيمسح على رؤوسهم بالقطعة التي بها امضاء الخليفة [١] .

وكان الدعاة في الأقاليم يؤدون المهمة التي كان داعي الدعاة يقوم بها في القاهرة من شرح المذهب الشيعي والدعاية للعقائد الاسماعيلية [٢] .

وقد جمعت هذه الدروس المذهبية في مجموعة كبيرة من الكتب فُقِد أغلبها في ظلام الاحداث التي مرت بالدولة الفاطمية في اثناء قيامها ، والتي اطاحت بكثير من تراثها العلمي بعد سقوطها ، ولكن لحسن الحظ لا تزال هناك مجموعة قيمة من هذه الكتب نذكر منها : اساس التأويل الباطن ، دعائم الاسلام ، تأويل دعائم الاسلام ، المجالس المؤيدية ، المجالس المستنصرية ، المجالس والمسايرات ، وفيما يلي نماذج موجزة لهذه المجالس العلمية .

١ ـ من المجلس العاشر من الجزء الرابع من تأويل دعائم الاسلام

(درس من داعي الدعاة للدعاة)

قال النعمان : قال رسول الله (ص) صِلُوا صفوفكم . وحاذوا بين مناكبكم ؛ فتعديل الصفوف وسد ما فيها من الفرج من واجب الصلاة وحدودها في الظاهر . ومثله في الباطن اعتدال اهل الدرجات في دعوة الحق على درجاتهم وحدودهم التي حُدَّت لهم ، لا يتجاوز احد منهم حده الى غيره ، ومن رأى منهم خللا فليجتهد حتى يسده [٣] .

---

١) المرجع نفسه .

٢) الخطط ١ : ٣٩١ .

٣) المجلس كله ١٧٢ ب ـ ١٧٥ ب .

٢ ـ من المجلس التاسع من المائة الثانية من المجالس المؤيدية
(درس للعامة)

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى اخيه وابن عمه علي بن ابي طالب البرزخ بن البحرين : العذب الفرات والملح الأجاج ، وعلى الأئمة من ذريته هداة من ذرأ الله من خلقه والمتميّن كلمة عدله وصدقه .... ايها المؤمنون ، صلوا ما امر الله به ان يوصل بقوله « اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الامر منكم [١] » فأولو الامر هم الأئمة ، وتذكروا قوله تعالى « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم [٢] » والنعيم في بعض الروايات هو ولاية علي بن ابي طالب [٣] .

ب ـ الشعر في خدمة المذهب الاسماعيلي :

كان الشعر هو صحافة ذلك العهد او محطات الارسال والاذاعة فيه ، يقول Nicholson [٤] ان الشعراء كانوا يقودون افكار الجماهير ويوجهونها فكانت مقطوعاتهم الشعرية تقوم مقام النشرات السياسية او خطب البلغاء والفصحاء الذين يؤيدون حكومة ما او يعارضونها . ومن هنا اتجه الخلفاء الفاطميون للشعراء ليجذبوهم نحوهم ، وليستغلوا لصالح الدعوة هذه القوة الكبيرة ، وبالغ الخلفاء في إكرام الشعراء ومنحهم الهدايا العظيمة بين الحين والحين ، فأغرى ذلك الشعراء وانطلقوا يؤيدون الدعوة الجديدة

---

١) سورة ٤ آية ٥٩ .
٢) سورة ١٠٢ آية ٨ .
٣) المجلس كله من وجه الورقة ١٩ إلى ظهر الورقة ٢١ .
٤) Literary History of the Arabs p. 241.

ويجمعون بشعرهم لها الانصار والاتباع ، وقد اصبح مما يشين الشاعر ان يمدح الخليفة دون ان يضمّن شعره فنوناً من العقائد الاسماعيلية ، داعياً لها حاثاً على اعتناقها ، ومن هنا اصبحت دواوين شعراء الفاطميين مصدراً هاماً من المصادر التي نستقي منها عقائد الاسماعيلية ، وقد ادى شعر هؤلاء الشعراء مهمته في اثناء حياتهم كما دام هذا الشعر يؤدي نفس المهمة بعد وفاتهم ؛ اذ ظل شعرهم يُروى ويُدرس وينتقل من جماعة الى اخرى ومن جيل الى جيل .

وفيما يلي نماذج مختارة من شعر ثلاثة من شعراء الفاطميين ذوي الأثر الكبير في ذلك الموضوع :

١ ـ من شعر ابن هانىء [١] .

ص ٣ ـ ٧

هو علة الدنيا ومن خُلِقت له ... ولعلة ما ، كانت الأشياء
هذا أمين الله بين عباده ... وبلاده ان عُدَّت الأمناء
فاسلم اذا راب المنية حادث ... واخلد اذا عمّ النفوس فناء

ص ٧ ـ ١٠

ولله علم ليس يُحجب دونكم ... ولكنه عن سائر الناس محجوب
وأنت معدّ وارث الأرض كلِّها ... فقد حُمَّ مقدورٌ وقد خط مكتوب

ص ٢٦

حل برقادة المسيحُ ... حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو المعالي ... وكل شيء سواه ريح

---

١) ديوان ابن هانئ طبعة القاهرة ١٢٧٤ .

ص ٣٠

ما أجزل الله ذخري قبل رؤيته ولا انتفعت بايمان وتوحيد

ص ٣١ - ٣٥

إمام له مما جهلت حقيقةٌ وليس له - فيما علمتُ - مزيد
وان الذي سمّاك خير خليفة لمجري القضاء الحتم حيث تريد

ص ٥٥ - ٥٩

مام رأيت الدين مرتبطاً به فطاعته فوز وعصيانه خسر

ص ٦٢ - ٦٤

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
هذا الذي ترجى النجاة بحبه وبه يُحَطُّ الإصر والاوزار
هذا الذي ترجى شفاعته غداً حقاً ، وتَخْمُد ان تراه النار
انتم احباء الاله وآلُه خلفاؤه في ارضه ، الأبرار
شرُفت بك الآفاق ، وانقسمت بك الأرزاق والآجال والاعمار

ص ٩٦ - ١٠٠

فافخر فمن انشائك الفردوس إن عُدَّت ومن احسانك التنزيل

ص ١٠٠ - ١٠٤

وعلمتَ من مكنون علم الله ما لم يؤتِ في الملكوت ميكائيلا

ص ١٠١ - ١٢٨

ومتصل ، بين الإله وبينه ممرٌّ من الأسباب لم يتصرم

ص ١٣٧ - ١٤٠

ماذا تريد من الكتاب ؟ نواصب وله ظهور دونها و بطون
لو كان رأيك شائعاً في أمة علموا بما سيكون قبل يكون

ص ١٥٠ - ١٥٣

هو الوارث الارضَ عن والدين أب مصطفى وأب مرتضى
شهيدي على ذاك حكم النبي بين المقام و بين الصفا

٢ - من شعر الأمير تميم [١] :

ص ٢٣

وانك انت المصطفى الملك الذي بطاعته من ربنا نتقرب
ولولاك كان الملك في غير أهله وكان على افق الشريعة غيهب

ص ٥١ - ٥٢

لولا العزيز امين الله ما لجأت نفسي الى ملجأ منه ولا وزر
يا ابن الأئمة والهادين متصلاً بصفوة الله اهل الوحي والسور
ما انت دون ملوك العالمين سوى روح من القدس في جسم من البشر
وانت بالله دون الخلق متصل وانت لله فيهم خير مؤتمر

ص ٦١

يا صفوة الله من بريَّته وسرَّ عليائه الذي ظهرا

ص ٦٣

يا حجة الله التي اشرقت فينا ، ويا صاحب كنز الجبار

١) الديوان نسخة خطية في مكتبة الدكتور كامل حسين .

ويا هدى من ضل عن رشده واشتبه الحق عليه فجار
أبوك جلا الظلم والبغي عن شرائع الدين وانت المنار

ص ٦٨ - ٦٩

بدت لك آيات عليك شواهد بأنك انت المصطفى من اولي الأمر
وانك انت الخامس القائم الذي تدين له ارض العراقين بالقسر
وأنك مهدي الأئمة كلهم وصاحب ذا الوقت المسمى وذا العصر

ص ٢٢٦

يا حجة الرحمن عند عباده وشهابه في كل امر مقبل
من لم يكن في صومه متقربا بك للاله فصومه لم يقبل

٣ - من شعر المؤيد في الدين [١] (داعي الدعاة في عهد المستنصر)

ص ٢٠١

بنفسي مستنصرٌ بالإله جنود السماء له ناصره
شهدت بأنك وجه الإله وجوه الموالي به ناضره

ص ٢٠٥

وهم أولو الأمر أئمة الهدى عصمة من لاذ بهم من الردى
مفروضة طاعتهم على الامم قاطبة من عرب ومن عجم
اقرأ : أطيعوا الله والرسولا ثم أولى الأمر بهم موصولا

ص ٢٣١ - ٢٣٢

فوجهك وجه الإله المنير ونورك من نوره كالحجاب

١) طبعة القاهرة ١٩٤٩ .

يداك يدا الله مبسوطتان وأنت له الجنب غيرَ ارتياب
وأنت المثيب لأهل الثواب وأنت المعاقب أهلَ العقاب

ص ٢٧٣

قصر به يصلى السعيرَ عدوُّه والى الولي بـه تحنّ جِنانهُ
قـد حله وجه الآله وجنبه ولسانُ صدق محمـدٍ وجنانه
ملك ملائكة السماء جنوده وملوك مَن فوق الثرى عُبدانه
أيصح توحيد بغـير ولائـه وولاؤه لكتابـه عنوانـه
أم هل لقرآن كريم منزل في بيتـه الا عليه بيانـه

ص ٢٧٩

معد امير المؤمنين الذي بدا شهاباً يضيء الغرب والشرق ثاقباً
يقوم مقـام الله بين عبـاده متيحاً لهم روح الحيـاة وسالبا
وتلقى النبيَّ المصطفى إن لقيتَـه خلائق لاهوتيـة وضرائبـا
ترى منه ان صلى النبي مصليا وتحسبه إن قام يخطب خاطبا

حـ ـ الاحتفالات بمناسبات معينة :

اهتم الفاطميون بأن يقووا الدعوة في نفوس اتباعهم ، وان يعملوا على كسب اتباع جدد بين الحين والحين ، واقترحوا لذلك مناسبـات متعددة يحتفلون بها ، حيث تجري في هذه الاحتفالات رسوم ونظـم تجدد الدعوة وتقربها الى القلوب ، فكانوا يحتفلون بستة موالد : مولد النبي (ص) ، ومولد علي ، ومولد فاطمـة ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولـد

الخليفة الحاضر . وكانوا يحتفلون كذلك بمناسبة رأس السنة وعاشوراء وعيد الفطر وعيد النحر وعيد الغدير ونحوها مما وزع خلال العام حتى تتجدد الذكرى وتظل العقائد حاضرة في الاذهان ، وفيما يلي تفاصيل موجزة عن بعض هذه الاحتفالات :

عيد الغدير : سبق ان تحدثنا عن غديرهم الذي يعتقد الشيعة ان الرسول (ص) اعلن عنده « ان عليا مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي ، وهو وليكم بعدي » وقد تم ذلك في الثامن عشر من ذي الحجة عقب حجة الوداع . وغدير خم موضع يبعد عن الجحفة بثلاثة اميال .

ويوم الغدير عيد من اسعد الاعياد عند الشيعة ، حافل بمظاهر السرور والغبطة ، حكى المقريزي [1] ان الشيعة كانوا يحيون ليلته بالصلاة ، ويصلون في صبيحته ركعتين ، ويلبسون فيه الجديد ، ويعتقون الرقاب ، ويكثرون من عمل البر ، ومن الذبائح ، وكان الناس يجتمعون بجامع القاهرة وفيهم القراء والفقهاء والمنشدون ، فيكون جمعاً عظيماً يستمر الى الظهر ، وحينئذ يصل ركب الخليفة الذي يكون قد ارسل الى الخطيب بدلة من الحرير يخطب فيها ، وأرسل له كذلك ثلاثين ديناراً ، فاذا وصل الركب دُفِع الى الخطيب كُرَّاس محرَّر من ديوان الانشاء يتضمن نص ما قاله النبي (ص) الى امير المؤمنين علي بن ابي طالب يوم الغدير فيلقيه الخطيب مع الخطبة حتى اذا فرغ ونزل صلى قاضي القضاة بالناس ركعتين [2] ، فاذا انتهت

---

١) الخطط ١ : ٣٨٨ - ٣٨٩ ، ٤٩٢ .

٢) الخطط ١ : ٣٨٩ .

الصلاة خرجت الجموع الى القصر فتخرج لهم الجائزة [1] وروى المقريزي [2] ايضاً ان الاسماعيلية كانوا يتبادلون التهاني بهذا العيد وانه عندهم اعظم من عيد النحر وينحر فيه اكثرهم . وكان الخليفة يذهب بنفسه الى الميدان ويذبح ما جرت به العادة ، ثم يذبح الجزارون بعده مثل عدد الكباش المذبوحة في عيد النحر ، ويأمر بتفرقة ذلك للخصوص دون العموم (غير الشيعة لا ينالون شيئاً من عطايا وهبات ذلك اليوم) ولنعطي فكرة عن عدد ما يذبح في ذلك اليوم ننقل ما رواه المقريزي [3] من ان عدة ما ذبح ثلاثة أيام النحر وفي عيد الغدير سنة ٥١٥ هـ كان ألفين وخمسمائة وواحداً وستين رأساً من النوق والبقر والجاموس والكباش نصفها في عيد النحر والنصف الآخر في عيد الغدير .

عاشوراء : هو يوم العاشر من المحرم وهو التاريخ الذي قتل فيه الحسين ابن علي بكربلاء سنة ٦١ هـ على يد الامويين ، ومن هنا يظهر انها كانت مناسبة حزينة باكية ، وكان الفاطميون يتخذون ذلك اليوم يوم حزن تتعطل فيه الاسواق ، ويخرج المنشدون الى جامع القاهرة وينزلون فيه بين النوح والنشيد ، وكان الخليفة يجلس في ذلك اليوم على الارض ، متلثماً يُرى به الحزن ، كما كان القاضي والداعي والاشراف والامراء يظهرون بغير مناديل وهم ملثمون حفاة ، وكانت الارض تُفرَش بالحصر بدل البسط ، وينصب في الاماكن الخالية من المصاطب دكك لتُلحق

---

١) المصدر السابق .
٢) المصدر نفسه ١ : ٣٨٩ ـ ٣٩٠ .
٣) خطط ١ : ٤٣٦ .

بالمصاطب ، وكان الخليفة يجلس على كرسي من الجريد بغير مخدة ويحيط به حاشيته متلثمين محزونين ، ويعمل في ذلك اليوم السماط العظيم المسمى سماط الحزن ، ويتكوّن الطعام الذي يقدم عليه في ذلك اليوم من العدس الاسود والملوحات والمخللات والاجبان وخبز الشعير المغيّر لونه قصداً ، وكان الشعراء ينشدون في هذه المناسبة شعراً يرثون به اهل البيت عليهم السلام ، ويُنْحون باللائمة على من غصب الخلافة من اصحابها الحقيقيين ، ثم يذكر قُصّاصُهم ما رواه اصحابهم من ان السماء لما قُتِل الحسين بكت عليه ، وانه لم يُقلب حجر من احجار بيت المقدس يوم قتل الحسين الا وجد تحته دم ، وان الدنيا اظلمت يوم قُتل ، ولم يمسّ احد شيئاً من زعفران فيجعله على وجهه الا احترق ، وان الامويين اصابوا إبلاً في عسكر الحسين فنحروها وطبخوها فصارت مثل العلقم فما استطاعوا ان يسيغوا منها شيئاً [1] .

اعياد الميلاد : سبق ان عددنا الموالد الستة التي كان يحتفل بها الفاطميون وقد وضح المقريزي طريقة الاحتفال بهذه الموالد ونصيبها في الدعاية للمذهب الاسماعيلي ، ولم يكن من المتبع ان تنحر الذبائح في هذه المناسبات السعيدة ، بل كانت تصرف بدل اللحوم كميات كبيرة من الحلوى والكعك [2] ، وكان يصرف لدار الفطرة عشرون قنطاراً من السكر لتصنعها حلواء يابسة من

---

١) الخطط ١ : ٤٣٠ ـ ٤٣٢ ، ٤٩٠

٢) انحدرت إلى العهد الحاضر في مصر عادة بيع الحلوى وشرائها في أثناء الاحتفال بمولد الرسول ومولد الحسين وغيرهما ، بل إن أعياد الميلاد التي تقيمها الأسر في المناسبات الخاصة تقدم فيها الفطائر والحلوى أكثر مما تقدم اللحوم والطعام ، مما يوحي بأن الناس في حياتهم العامة والخاصة تأثروا ـ دون أن يفطنوا ـ بما ابتدعه الفاطميون .

طرائفها ، وتُعَبَّأ الحلوى في بضع مئات من الصواني النحاسية وتفرق تلك الصواني في ارباب الرسوم ، كما توزع كميات كبيرة للقراء والفقراء ، وكان الناس يجتمعون في جموع حاشدة وعلى رأسهم قاضي القضاة ، وداعي الدعاة ، والنقباء ، والرؤساء ، وخطباء المساجد . وكان خطباء المساجد يخطبون في هذه الجموع خطيباً بعد خطيب ريتحدثون عن النبي (ص) والسعادة بمولده وما منَّ الله به على ملة الاسلام من رسالته ، ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة ، فاذا كان الاحتفال بمولد الحسين تحدث عن فضله ، وعلمه ، ودعاء الرسول له ، ومكانته من علي وفاطمة ، وكيف ثبتت له الامامة ، وكيف جهر برأيه لاعلاء كلمة الله غير مستضعف ولا مكترث بقوة . . . . . وينتهي ايضاً بالدعاء للخليفة الحاضر وهكذا [1] .

د ـ إسناد الوظائف للاسماعيلية :

كان من الطبيعي ان يعتمد الخلفاء الفاطميون في قيادة امور الدولة على رجال يعتنقون مذهبهم ويدينون باتجاههم ويرجع السبب في ذلك كما ذكره ابن منجب احد رؤساء التكّاب في الدولة الفاطمية « ان موظفي الديوان يجب ان يكونوا شيعيين فالتشيع لموظف الدولة الفاطمية لا يقل عن الاسلام » بل ان التاريخ يحدثنا ان بعض الخلفاء الفاطميين اشترطوا التشيع في الموظف اذا كان مسلماً ولم يشترطوا الاسلام فيه ، وعلى هذا فقد عَيَّن العزيز ـ والدولة في أوج عظمتها ـ عيسى بن نسطورس وزيراً

---

١) الخطط ١ : ٤٣٢ ـ ٤٣٣ ، ٤٩١ .

ومِنَشَّا اليهودي واليا على الشام ، ويبدو ان فكرة الفاطميين كانت ان اليهود والنصارى لن يتعصبوا ضد مذهب الدولة اما المسلمون السنيون فمن المحتمل او المتوقع ان يحاربوا المذهب الاسماعيلي في السر او العلانية ، ثم كان من الطبيعي ان يكافىء الفاطميون أتباعهم من المغاربة باسناد المناصب الرئيسية اليهم فهم الذين استجابوا لهذا المذهب من قبل ، ودرسوه ودانوا به ، وتحمسوا له ، وهم الذين حملوا لنشره السيوف ، وقهروا به الاعداء ، ودخلوا به ديار مصر .

غير ان الفاطميين وجدوا من الحكمة ان يعملوا على استقرار الحياة ، وان يتجنبوا ثورة المصريين ريثما يتم الاستقرار والهدوء ، ولهذا ارجأوا بعض الوقت شغل الوظائف بأتباعهم وتركوها في يد الموظفين السنيين الذين كانوا يشغلونها حين دخول الفاطميين فأقرَّ جعفر بن الفرات في الوزارة ، وترك ابو طاهر محمد بن احمد في كرسي القضاء ، واستمر بنو عبد السميع يقومون بالخطابة [1] .

ومن الطبيعي ان هذا كان حلاً مؤقتاً للمشكلة وان الفاطميين أخذوا ينتقصون من نفوذ هؤلاء ويعيِّنون معهم من يستولي على السلطة شيئاً فشيئاً ، ولم يمض وقت طويل حتى اصبحت امور الدولة الهامة في ايدي الشيعيين فاسندت الوزارة ليعقوب ابن كلس واضطلع بنو النعمان بشئون القضاء [2] وصُرِف بنو عبد السميع عن الخطابة وجعلت خطابة الجامع

---

١) ابن دقاق ٤ : ٦٤ .

٢) ابن ظافر : الدول المنقطعة ٤٩ ب ، ٥٠ أ ، ب ، ٦٦ ب مخطوط .

العتيق لجعفر بن الحسن الحسيني وجعل الى اخيه الخطابة بالجامع الازهر [1].

وجاء بعد ذلك سلسلة من الوزراء وجلهم بين عالم اسماعيلي واسع الثقافة في المذهب ، او على الاقل تابع من اتباعه الذين يدينون به [2].

اما منصب قاضي القضاة فقد تولاه في العهد الفاطمي بضع واربعون قاضياً ، وكانو جميعاً اسماعيلية فيما عدا قليلاً جداً منهم وقد اشترط على هؤلاء ان يحكموا بمذهب الخليفة ، واول سني شغل منصب القضاء في العهد الفاطمي هو ابو طاهر محمد بن احمد الذي سبق ذكره وقد امره جوهر ان يحكم في المواريث بقول اهل البيت ، وكذلك في الطلاق ، وفي هلال رمضان [3]. وممن ولي القضاء من غير الفقهاء الاسماعيلية ايضاً أحمد بن محمد بن ابي العوام وكان حنبلياً فاشترط عليه الخليفة (الحاكم بأمر الله) أنه اذا جلس للحكم ان يكون معه اربعة من فقهاء الاسماعيلية لئلا يقع الحكم بغير ما يذهب اليه الخليفة [4].

ولما اختير ابو العباس احمد للقضاء وهو سني المذهب اشترَط ألا يحكم بمذهب الدولة فلم يُمكَّن من ذلك [5].

اما منصب داعي الدعاة فهو عميق الصلة بالمذهب الاسماعيلي ، وكان بطبيعة الحال لا يشغله الا من تعمق في هذا المذهب وأجاده ، وكان داعي الدعاة اعظم شخص في الدولة وُكِل له الاشراف على نشر تعاليم المذهب

---

١) المقريزي ٢ : ٢٤٨ .
٢) انظر قائمة وزراء الفاطميين : حسن المحاضرة ٢ : ١٢٩ ـ ١٣٧ .
٣) رفع الاصر ورقة ٩٨ مخطوط .
٤) المرجع نفسه ١٩ ب .
٥) حسن المحاضرة ٢ : ١٠٤ .

وكان يلي قاضي القضاة في الرتبة ويتزيّا بزيه ، وطالما أُسند منصبا قاضي القضاة وداعي الدعاة لشخص واحد .

وكان الوزير وقاضي القضاة وداعي الدعاة يختارون من الشيعيين من يعمل معهم ويعاونهم على القيام بما وكل لهم . وكان الاخير على وجه الخصوص يختار الدعاة والنقباء من خاصة العارفين بالمذهب المتحمسين له ، وكان فقهاء الدولة تحت نفوذه ، وقد وجد كثير من المصريين ألا مناص لهم من الخضوع لرغبة الخلفاء فتظاهروا بالاستجابة للمذهب الجديد كي ينعموا بهذه الوظائف وكي لا يعرضوا انفسهم لنقمة القائمين بالأمر .

ثالثاً ـ المصريون والمذهب الاسماعيلي

تظاهر المصريون او اغلبهم باعتناق المذهب الاسماعيلي خلال حكم الدولة الفاطمية طلباً للسلامة وتخلصاً من عنت الفاطميين ورجال دولتهم [1] . ويبدو ان المصريين لم يتأثروا كثيراً بالدعاية والشعر والتدريس ، وكان سيرُهم في موكب الاسماعيلية مجرد تظاهر لتفادي العسف والقسوة دون اعتقاد او ايمان ، ومن اجل هذا نجد انه ما كادت الدولة الفاطمية تسقط حتى هوى المذهب الاسماعيلي دون ان تقوم له قائمة بعد ذلك ، ومما يدل على ان الفكرة الاسماعيلية لم تتغلغل في نفوس المصريين ان الحركات التي ظهرت في عهد الايوبيين لاعادة النفوذ الفاطمي كانت حركات هزيلة شاحبة لم تجد استجابة من الجماهير ولا قبولا من افراد الشعب ؛ ويحدثنا

---

١) : ذكر المقريزي أمثلة من التعذيب والتنكيل اللذين كانا يصبان على من يظهر المقاومة لمذهب الدولة أو عدم الرضاء به أو التحدي له ، وقد أدى هذا التعذيب في بعض الحالات إلى الموت الخطط ١ : ٣٥٥ ، ٢ : ٣٤١ .

ابن واصل [1] ان اثني عشر شيعياً انتهزوا فرصة غياب صلاح الدين عن مصر في احدى حملاته الحربية فطافوا بشوارع القاهرة يهتفون ويدعون الناس ان ينضموا لهم لاعادة سلطان الفاطميين ولكن احداً لم يستجب لدعوتهم فتفرقوا مذعورين .

وقد استطاع صلاح الدين ان يقضي على المذهب الأسماعيلي في مصر دون كبير عناء وأحل محله المذهب السني ، وكان اول ما فعل ان حذف اسم الخليفة العاضد الفاطمي من الخطبة ودعا للخليفة المستضيء بالله العباسي ، وقد تردد صلاح الدين في تنفيذ ذلك بادىء الامر ثم أوعز الى أحد أتباعه ان يفعل ذلك في احد المساجد ليرى ردّ الفعل عند الجماهير ، ولكن احداً لم يحرك ساكناً مما دعا صلاح الدين ان يأمر جميع خطباء المساجد ان يفعلوا ذلك في الجمعة التالية [2] وشرع صلاح الدين في تغيير الدولة وازالتها فحجر على العاضد ، وأوقع بأمراء الدولة وعساكرها ، وقتل ابن عبد القوي آخر داعي دعاة للدولة الفاطمية ، وكان قتله على أثر المؤامرة التي كان يراد بها اعادة الحكم الفاطمي [3] ، وأنشأ بمدينة مصر مدرسة للفقهاء الشافعية ، ومدرسة للفقهاء المالكية ، وصرف قضاة مصر المتشيعين كلهم ، وفوّض القضاء لصدر الدين عبد الملك ابن درباس الشافعي فلم يستنب عنه في اقليم مصر الا من كان شافعي المذهب فاختفى مذهب الشيعة حتى فُقِد من مصر كلها [4] .

---

١) مفرج الكروب ٣٢٨ ـ ٣٢٩ مخطوط .
٢) الروضتين ١ : ١٩٤ .
٣) المصدر نفسه ١ : ٢١٩ .
٤) المقريزي : الخطط ١ : ٣٥٩ ، ٢ : ٣٤٣ .

مصادر البحث

ملاحظتان :

١) ـ الكتب التي ستذكر هنا هي فقط الكتب التي وردت في أسفل صفحات هـذا الكتاب وأما الكتب التي اسهمت في هذا البحث بطريق غير مباشر فلا داعي لايرادها في هذه القائمة لكثرتها .

٢) ـ نظمت المراجع فيما يلي حسب الترتيب الأبجدي لاسم المؤلف مع صرف النظر عن (ابن ـ أب ـ أل)

اولا ـ المخطوطات والمصوّرات

١	تميم (الأمير تميم)	ديوان الأمير تميم	مخطوط ملك الدكتور كامل حسين
٢	الجاحظ	رسالة المعلمين	مخطوط بالمتحف البريطاني ٣١٣٨ ومدرسة الحجيات بالموصل
٣	جعفر بن منصور	الفترات والقرانات	مصور ملك الدكتور كامل حسين
٤	ابن الجوزي (سبط)	مرآة الزمان	مخطوط بدار الكتب المصرية ٥٥١ تاريخ
٥	أبو الحاج	الألف با للألبا	« بمكتبة بايزيد باستامبول ٥٣٣٦
٦	ابن حجر	رفع الاصر عن قضاة مصر	« بدار الكتب المصرية ١٠٥ تاريخ
٧	« «	معجم ابن حجر	« بدار الكتب المصرية ٢٥ مجاميع م
٨	« «	انباء الغمر في أنباء العمر	« بدار الكتب المصرية ٢٤٧٦ تاريخ
٩	« «	تأويل التأسيس	« بدار الكتب المصرية ٤٤٦ تاريخ
١٠	ابن حنزابه	مجالس أبي مسلم	« بدار الكتب المصرية ٧٧ أدب
١١	ابن زولاق	أخبار سيبويه المصري	« بمكتبة تيمور بدار الكتب المصرية ١٤٦١
١٢	سبط بن العجمي	كنوز الذهب في تاريخ حلب	« ملك الدكتور سامي الدهان
١٣	السلفي	أصول سماعات ابي الحسن	« بمكتبة Professor Arberry
١٤	سليمان بن أحمد	ارشاد البشر	« بمكتبة آل كاشف الغطاء بالنجف
١٥	السيوطي	نزهة الجلساء في أخبار النساء	« بالمكتبة الظاهرية بدمشق ٤٥٨٦
١٦	ابن شداد (محمد بن علي)	الأعلاق الخطيرة	« بلاهاي رقم ١٤٦٦
١٧	الصابي	رسوم دار الخلافة	« بالمتحف العراقي رقم ١٥

١٨	الصفدي	التذكرة الصلاحية	مخطوط ملك Professor Arberry
١٩	طاش كبرى زاده	رسالة في علم الأدب	« بالمتحف العراقي رقم ٧٢١
٢٠	ابن ظافر	تاريخ الدول المنقطعة	« بالمتحف البريطاني Or. ٣٦٨٥
٢١	ابن عبد البر	أدب المجالسة	« بدار الكتب المصرية ١٢٣ مجاميع م
٢٢	علي بن حنظلة	عقائد الاسماعيلية	« ملك الأستاذ عباس العزاوي ببغداد
٢٣	عمارة اليمني	النكت العصرية	مصور بدار الكتب المصرية ٨٠٤٨ م
٢٤	ابن عنبة	عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب	مخطوط بمكتبة الأوقاف ببغداد رقم ٢٨٠٨
٢٥	العيني	عقد الجمان	مخطوط بدار الكتب المصرية ٨٢٠٣ أ
٢٦	القابسي	الفضلة	« نشره الدكتور احمد فؤاد الأهواني
٢٧	ابن قاضي شهبة	مناقب الشافعي وأصحابه	« بالمكتبة الظاهرية بدمشق ٥٧ تاريخ
٢٨	القيمي	اعتماد الصدوق	« بمكتبة آل كاشف الغطاء بالنجف
٢٩	الكرماني	الرسالة الوضية	« ملك الدكتور كامل حسين
٣٠	الكليني	أصول الكافي	« بدار الكتب المصرية رقم١ مواعظ شيعية
٣١	المؤيد في الدين	المجالس المؤيدية	« ملك الدكتور كامل حسين
٣٢	الموسوي	منتهى المريد	« بدار الكتب المصرية ٥٣٤٤ تاريخ
٣٣	النعمان بن محمد (داعي الدعاة)	دعائم الاسلام	فوتوغراف بدار الكتب المصرية ١٩٦٦٥ ب
٣٤	« « « «	تأويل دعائم الاسلام	« مكتبة جامعة القاهرة
٣٥	« « « «	أساس التأويل الباطن	مخطوط بدار الكتب المصرية ٢٤٣٤٦ ب
٣٦	« « « «	المناقب والمثالب	« بدار الكتب المصرية ١١٥٤٨٢
٣٧	« « « «	المجالس والمسايرات	فوتوغراف مكتبة جامعة القاهرة
٣٨	ابن واصل	مفرج الكروب في أخبار بني ايوب	مخطوط بجامعة Cambridge 1 - 1 - 1 - 6
٣٩	الوليد بن بكر	الوجازة في صحة القول بأحكام الاجازة	« ملك الاستاذ عباس العزاوي ببغداد
٤٠	المؤلف غير معروف	منهاج المتعلم	« بالمكتبة العثمانية بحلب ١٢٢١
٤١	« « «	نصيحة الى هارون الرشيد	« بمكتبة جامعة استامبول رقم ٦٣٧٧ أ
٤٢	« « «	في اللبس	« بمكتبة أسعد افندي باستامبول مجموع ٦٩٦

ثانيا ـ كتب عربية مطبوعة

٤٣	ابن ابي أصيبعة	عيون الأنباء	الناشر Ed. August Muller 1884
٤٤	ابن الأثير	الكامل في التاريخ	طبعة ليدن ١٨٥١

٤٥	الدكتور أحمد أمين	فجر الاسلام	القاهرة ١٩٣٢
٤٦	« « «	ضحى الاسلام	
٤٧	« « «	ظهر الاسلام	
٤٨	الدكتور أحمد فؤاد الأهواني	التعليم عند القابسي	الطبعة الأولى
٤٩	أحمد بن يحيى المرتضى	المنية والأمل	حيدر أباد ١٣١٦ هـ
٥٠	أسعد طلس	ذيل ثمار المقاصد	الطبعة الأولى
٥١	ابن الأنباري	طبقات الأدباء	القاهرة ١٢٩٤ هـ
٥٢	البخاري	صحيح البخاري	ليدن ١٨٦٢
٥٣	ابن بشكوال	الصلة	مجريط ١٨٨٢
٥٤	ابن بطوطة	تحفة النظار	باريس ١٨٥٣
٥٥	البلاذري	فتوح البلدان	القاهرة ١٣٥٠ هـ
٥٦	بهاء الدين العاملي	الكشكول	« ١٣٠٥ هـ
٥٧	البيهقي	المحاسن والمساوىء	ليبسك ١٣٢٠ هـ
٥٨	ابن تغربردي	النجوم الزاهرة	القاهرة ١٩٣٨
٥٩	الثعالبي	يتيمة الدهر	دمشق ١٣٠٥ هـ
٦٠	الجاحظ	الحيوان	الناشر الأستاذ عبد السلام هارون ١٩٣٨
٦١	«	البيان والتبيين	القاهرة ١٣٣٢ هـ
٦٢	«	التاج في اخلاق الملوك	« ١٩١٤
٦٣	«	المحاسن والأضداد	« ١٩٣٢
٦٤	ابن جبير	الرحلة	ليدن ١٩٠٧
٦٥	ابن جماعة	تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم	حيدر اباد ١٣٥٣ هـ
٦٦	الجهشياري	كتاب الوزراء والكتاب	القاهرة ١٩٣٨
٦٧	جورجي زيدان	تاريخ التمدن الاسلامي	« ١٩٠٢
٦٨	ابن الجوزي (عبد الرحمن)	المنتظم	حيدر اباد ١٣٥٩ هـ
٦٩	« «	أخبار الحمقى والمغفلين	دمشق ١٣٤٨ هـ
٧٠	« «	مناقب بغداد	بغداد ١٣٤٢ هـ
٧١	« «	صيد الخاطر	القاهرة ١٩٢٧
٧٢	ابن الحاج (العبدري)	المدخل	« ١٩٢٩
٧٣	حاجي خليفه	كشف الظنون	ليبسك ١٨٢٥
٧٤	ابن حجر	الاصابة في تمييز الصحابة	كلكتا ١٨٧٣
٧٥	« «	الدرر الكامنة	حيدر اباد ١٣٤٩
٧٦	ابن حجة الحموي	ثمرات الأوراق (على هامش المستطرف)	القاهرة ١٣٠٨ هـ

٧٧	الحريري	المقامات	القاهرة ١٢٦٦ هـ
٧٨	حسن ابراهيم	الفاطميون في مصر	« ١٩٣٢
٧٩	« «	تاريخ الاسلام السياسي	« ١٩٤٠
٨٠	حسين الاصفهاني	محاضرات الأدباء	« ١٢٨٧ هـ
٨١	ابن حنبل	المسند	« ١٣١٣ هـ
٨٢	ابن حوقل	كتاب صورة الأرض	ليدن ١٩٣٨
٨٣	ابو حيان التوحيدي	الامتاع والمؤانسة	القاهرة ١٩٣٩
٨٤	« « «	الصداقة والصديق	طبعة بالقاهرة
٨٥	« « «	المقابسات	القاهرة ١٩٢٩
٨٦	الخطيب البغدادي	تاريخ بغداد	« ١٣٤٩ هـ
٨٧	« «	تقييد العلم	دمشق ١٩٤٩
٨٨	ابن خلدون	المقدمة	الناشر عبد الرحمن بن محمد بدون تاريخ
٨٩	« «	العبر	القاهرة ١٢٨٤ هـ
٩٠	ابن خلكان	وفيات الأعيان	« ١٢٧٥ هـ
٩١	خليل طوطح	التربية عند العرب	الطبعة الأولى
٩٢	الخياط المعتزلي	الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد	طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥
٩٣	ابن دقاق	الانتصار	القاهرة ١٣٠٩ هـ
٩٤	الذهبي	تاريخ الاسلام	حيدر أباد ١٣٣٧ هـ
٩٥	الزرقاني	شرح المواهب اللدنية	القاهرة بدون تاريخ
٩٦	الزركشي	تاريخ الدولتين	تونس ١٢٨٩ هـ
٩٧	الزرنوجي	تعليم المتعلم	استامبول ١٢٩٢ هـ
٩٨	زكريا الأنصاري	اللؤلؤ النظيم في روم التعليم	القاهرة ١٣١٩
٩٩	دكتور زكي مبارك	النثر الفني	القاهرة ١٩٣٤
١٠٠	زين الدين العاملي	منية المريد في أدب المفيد والمستفيد	القاهرة ١٩٤٦
١٠١	ابن الساعي	الجامع المختصر	بغداد ١٩٣٤
١٠٢	السبكي	طبقات الشافعية الكبرى	القاهرة ١٣٢٤ هـ
١٠٣	«	معيد النعم ومبيد النقم	ليدن ١٩٠٨
١٠٤	ابن سحنون	آداب المعلمين	تونس ١٣٤٨ هـ
١٠٥	السنجناوي	الضوء اللامع	القاهرة ١٣٤٨ هـ
١٠٦	السمعاني	كتاب الأنساب	Gibb Memorial Edition
١٠٧	ابن سيده	المخصص	القاهرة ١٣١٦ هـ
١٠٨	ابن سينا	القانون	روما ١٥٩٣

١٠٩	السيوطي	حسن المحاضرة	القاهرة ١٣٢١ هـ
١١٠	«	تاريخ الخلفاء	دمشق ١٣٥١ هـ
١١١	«	تبييض الصحيفة في مناقب ابي حنيفة	حيدر أباد ١٣٣٤ هـ
١١٢	«	بغية الوعاة	القاهرة ١٣٢٦ هـ
١١٣	«	الاتقان في علوم القرآن	« ١٢٧٨ هـ
١١٤	أبو شامة	الروضتين	« ١٢٨٧ هـ
١١٥	ابن شحنة	الدر المنتخب في تاريخ حلب	بيروت ١٣٠٩ هـ
١١٦	ابن شداد (بهاء الدين)	المحاسن السلطانية	القاهرة ١٣١٧ هـ
١١٧	شهاب الدين بن أحمد	المستطرف في كل فن مستظرف	« ١٣٠٨ هـ
١١٨	الشهرستاني	الملل والنحل	ليبسك ١٩٢٣
١١٩	الشهيد	المنية في أدب العلم	طبعة القاهرة
١٢٠	الشيزري	نهاية الرتبة	القاهرة ١٩٤٦
١٢١	صلاح الدين المنجد	خطط دمشق	بيروت ١٩٤٩
١٢٢	طاش كبرى زاده	مفتاح السعادة	حيدر أباد ١٣٢٩ هـ
١٢٣	الطبري	تاريخ الأمم والملوك	ليدن ١٨٨١
١٢٤	ابن الطقطقي	الفخري في الآداب السلطانية والأمم الاسلامية	القاهرة ١٩٢٣
١٢٥	ابن طولون الصالحي	القلائد الجوهرية	دمشق ١٩٤٩
١٢٦	أبو الطيب محمد	الموشى	ليدن ١٣٠٢ هـ
١٢٧	ابن ظافر	بدائع البدائه	القاهرة ١٢٦٨ هـ
١٢٨	عباس العزاوي	العراق بين احتلالين	بغداد بدون تاريخ
١٢٩	ابن عبد البر	جامع بيان العلم	القاهرة ١٩٣٧
١٣٠	ابن عبد الحق البغدادي	مراصد الاطلاع	طبعة بغداد
١٣١	ابن عبد الحكم	سيرة عمر بن عبد العزيز	القاهرة ١٩٢٧
١٣٢	ابن عبد ربه	العقد الفريد	« ١٩١٣
١٣٣	عبد الرزاق الحصان	الحسبة	بغداد ١٩٤٦
١٣٤	عبد اللطيف البغدادي	الافادة والاعتبار	الناشر Faulder
١٣٥	عبدالله بن بشر	حق اليقين	صيدا ١٣٥٣ هـ
١٣٦	عبدالله عفيفي	المرأة العربية	القاهرة ١٩٣٥
١٣٧	ابن عبدون	رسالة ابن عبدون	نشرت في The Journal Asiatique 1934
١٣٨	ابن العبري	تاريخ مختصر الدول	بيروت ١٨٩٠
١٣٩	ابن العربي	أحكام القرآن	طبعة القاهرة
١٤٠	ابن عساكر	تاريخ دمشق	دمشق ١٣٢٤ هـ

١٤١ ابن العماد	شذرات الذهب	القاهرة ١٣٥٠ هـ
١٤٢ عماد الدين الأصفهاني	تاريخ آل سلجوق	بريل ١٨٨٩
١٤٣ الغزالي	احياء علوم الدين	القاهرة ١٣٠٦ هـ
١٤٤ «	الرسائل العشرة	« ١٩٣٤
١٤٥ «	الجام العوام	« ١٣٠٦ هـ
١٤٦ الغزي	نهر الذهب في تاريخ حلب	حلب ١٣٦٢ هـ
١٤٧ ابن الفقيه	كتاب البلدان	ليدن ١٣٠٢ هـ
١٤٨ ابو الفدا	البداية والنهاية	القاهرة ١٣٥١ هـ
١٤٩ ابو الفرج الاصفهاني	الأغاني	طبعة الساسي
١٥٠ دكتور فريد رفاعي	عصر المأمون	الطبعة الأولى
١٥١ ابن الفوطي	الحوادث الجامعة	بغداد ١٣٥١ هـ
١٥٢ القالي	الأمالي	القاهرة ١٣٤٨ هـ
١٥٣ ابن قتيبة	عيون الأخبار	« ١٩٢٨
١٥٤ « «	المعارف	« ١٣٠٠ هـ
١٥٥ القرشي	معالم القربة	الناشر Prof. Levy
١٥٦ القزويني	آثار البلاد وأخبار العباد	الطبعة الأولى
١٥٧ القسطلاني	المواهب اللدنية	الطبعة الأولى
١٥٨ القفطي	اخبار العلماء بأخبار الحكماء	ليبسك ١٣٢٠ هـ
١٥٩ القلقشندي	صبح الأعشى	القاهرة ١٩١٣
١٦٠ الكتبي	فوات الوفيات	« ١٢٩٩ هـ
١٦١ كشاجم	أدب النديم	الاسكندرية ١٣٢٩ هـ
١٦٢ كمال الدين هبة الله	الدراري في الذراري	استامبول ١٢٩٨ هـ
١٦٣ الكندي	كتاب الولاة والقضاة	Gibb Memorial
١٦٤ كوركيس عواد	خزائن الكتب القديمة في العراق	بغداد ١٩٤٨
١٦٥ لسان الدين بن الخطيب	الاحاطة في تاريخ غرناطة	القاهرة ١٣١٩ هـ
١٦٦ الماوردي	الأحكام السلطانية	« ١٨٥٣
١٦٧ «	أدب الدنيا والدين	استامبول ١٢٩٩ هـ
١٦٨ المؤيد في الدين	ديوان المؤيد	القاهرة ١٩٤٩
١٦٩ المبرد	الكامل	الناشر Wright
١٧٠ المتنبي	ديوان المتنبي	طبعة الحلبي ١٩٣٦
١٧١ مجير الدين	الأنس الجليل	القاهرة ١٢٨٣
١٧٢ محمد زاهد الكوثري	حسن التقاضي في سيرة ابي يوسف القاضي	« ١٩٤٨

١٧٣ محمد صادق الصدر	الشيعة	بغداد ١٣٥٢
١٧٤ محمد عبدالله عنان	الحاكم بأمر الله	القاهرة (الطبعة الأولى)
١٧٥ محمد عبده	الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية	« ١٣٢٣ هـ
١٧٦ دكتور محمد كامل حسين	نظرية المثل والممثول	« ١٩٤٨
١٧٧ محمد كرد علي	خطط الشام	الطبعة الأولى
١٧٨ « « «	الاسلام والحضارة العربية	طبعة لجنة التأليف ١٩٣٤
١٧٩ « « «	رسائل البلغاء	القاهرة ١٩٤٦
١٨٠ محمود الألوسي	تاريخ مساجد بغداد	بغداد ١٣٤٦ هـ
١٨١ محمود دهمان	المقصورة التاجية	دمشق ١٩٥٠
١٨٢ محمود عكوش	الجامع الطولوني	القاهرة ١٩٢٧
١٨٣ المرتضى	تنزيه الأنبياء	النجف ١٢٥٠ هـ
١٨٤ المرزباني	الموشح	القاهرة ١٣٤٣ هـ
١٨٥ المسعودي	مروج الذهب	الناشر Barbier
١٨٦ ابن مسكويه	تهذيب الأخلاق	القاهرة ١٣٢٣ هـ
١٨٧ « «	سقوط الخلافة العباسية	« ١٩١٤
١٨٨ ابن المعتز	ديوان ابن المعتز	« ١٨٩١
١٨٩ المعري	رسالة الغفران	« ١٩٠٣
١٩٠ «	رسائل أبي العلاء	اكسفورد ١٨٩٨
١٩١ المقدسي	أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم	ليدن ١٩٠٦
١٩٢ المقري	نفح الطيب	القاهرة ١٢٧٩ هـ
١٩٣ المقريزي	الخطط	« ١٢٧٠ هـ
١٩٤ «	اتعاظ الحنفا	القدس ١٩٠٩
١٩٥ ابن منجب	قانون الرسائل	الطبعة الاولى
١٩٦ ابن منجب الصيرفي	الاشارة الى من نال الوزارة	القاهرة ١٩٢٤
١٩٧ ناجي معروف	المدرسة المستنصرية	بغداد ١٩٣٥
١٩٨ ابن نباتة المصري	سرح العيون	القاهرة ١٢٧٨ هـ
١٩٩ ابن النديم	الفهرست	« ١٣٤٨ هـ
٢٠٠ النعيمي	الدارس فيما في دمشق من المدارس	دمشق ١٩٤٨
٢٠١ ابو نواس	ديوان أبي نواس	القاهرة بدون تاريخ
٢٠٢ النويري	نهاية الأرب	طبعة دار الكتب المصرية
٢٠٣ ابن هانىء الأندلسي	ديوان ابن هانىء	القاهرة ١٢٧٤ هـ
٢٠٤ ابن هشام	السيرة	« ١٣٣٢ هـ

٢٠٥ ياقوت	معجم الأدباء	الناشر Margolioth
٢٠٦ »	معجم البلدان	القاهرة ١٣٢٣ هـ
٢٠٧ اليعقوبي	البلدان	ليدن ١٨٦٠
٢٠٨ يوسف بن عبد الهادي	ثمار المقاصد	بيروت ١٩٤٣

ثالثا ـ كتب مطبوعة بلغات أجنبية

Barthold, W.	Turkestan Down to the Mongol Invasion.	Luzac, 1928	209
Brockelmann, C.	Geschichte der Arabisher Litteratur.	Weimar 1898-902	210
Browne, E.	A Literary History of Persia.	London 1906	211
Dozy, R.	Dictionnaire des Noms des Vétements chez les Arabes.	Amesterdam 1845	212
Gertrude Stern	Marriage in Early Islam.	The Royal Asiatic Society 1939	213
Gibb, H.	Arabic Literature.	Oxford 1928	214
Gibb. H.	Muhammadanism.	Oxford 1949	215
Hitti, P.	The History of the Arabs.	London 1949	216
Ilse Lichtenstadter	Women in Ayyam al - Arab.	The Royal Society 1935	217
John Longdom	A Short History of women.	The Royal Society 1937	218
Khuda Bukhsh	Contribution to the History of Islamic Civilization.	Calcutta 1905	219
Lammens	Etudes sur le Règne du Calife Omaiyade Moawia, 1er.	Paris 1908	220
Lane - Poole	Cairo.	London 1912	221
Lane - Poole	History of Egypt in the Middle Ages.	London 1901	222
Matiel Mugannam	The Arab Women.	London 1937	223
Mez, Adam	Die Renaissance des Islams, (Arabic translation).	Cairo 1940	224
Nicholson, A.	A Literary History of the Arabs.	Cambridge 1930	225
Palmer, E.	Hārūn al - Rashid.	Marcus Ward 1881	226
Paul Monroe.	The Educational Renaissance of the Sixteenth Century.	New York 1904	227
Richard Coke	Baghdad, the City of Peace.	Thornton 1927	228
Rosenthal	The Tecknique and Approoch of Muslim Scholarship.	Analecta Orientalia 1947	229
Sarre, F.	Islamic Bookbindings.	Berlin 1923	230
Sayid Ameer Ali	A Short History of the Saracens.	London 1916	231
Sayid Ameer Ali	The Spirit of Islam.	London 1940	232

٢٣٣ طهران ١٣١٣ هـ	مدرسة نظامية ء بغداد (فارسي)	سعيد نفيس	
234	Germany MCMXXIX	The Islamic Book.	Thomas Arnold and Adolf Grohmann
235	London 1949	The Legacy of Islam.	Thomas Arnold and Guillaume
236	Calcutta 1927	The Arab Kingdom and Its Fall, (English Translation).	Wellhausen
237	London 1894	The Life of Muhammad.	William Muir

رابعا ـ دوائر معارف

238 Encyclopaedia of Islam.
239 Encyclopaedia and Dictionary of Education.
240 Encyclopaedia of Religion and Ethics.
241 The Dictionary of Islam.
٢٤٢ دائرة معارف البستاني
٢٤٣ دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي

خامسا ـ مطبوعات دورية

244 Islamic Culture.
245 The Nineteenth Century.
246 The Journal of Education.
247 The Journal Asiatique.
٢٤٨ المشرق
٢٤٩ المعلم الجديد (عراقية)
٢٥٠ مجلة الجامعة الاسلامية (تصدر في حلب)
٢٥١ يا دجار (فارسية تصدر في طهران)

سادسا ـ وثائق وكتب لم يعرف مؤلفوها

٢٥٢ وقفية الملك المعظم على مدرسته بالشام (مخطوط لدى الاستاذ صلاح الدين المنجد)
٢٥٣ لوحات اثرية ورد صور بعضها في الكتاب
٢٥٤ كتاب الارشاد والتعليم لبعض الرجال الصوفية
٢٥٥ المجالس المستنصرية
٢٥٦ رسائل اخوان الصفا

فهارس الاعلام

ملاحظات :

١ ــ اعتمد هذا الكتاب على ٢٥٢ مصدراً . وتحاشياً من الاسهاب لم نورد في قائمة الاعلام أسماء مؤلفي هذه المصادر اكتفاء بورودها في ذيل صفحات الكتاب .

٢ ــ كانت الطريقة المتبعة في تنظيم هذه الأعلام مبنية على عدم اعتبار الملحقات [أبو ــ ابن ــ ال] فيما عدا بعض الأسماء التي تعد هذه الملحقات بعضاً منها مثل ابي بكر في التعريف بأبي بكر الصديق .

٣ ــ اذا تكرر الاسم في صفحة واحدة وضعنا رقم الصفحة وبعده حرف «م» اي مكرر.

ــ حرف الألف ــ

آدم « عليه السلام » ٣٨٩ ، ٤٠٢
ابراهيم « عليه السلام » ٨٥ ، ٣٩٠
ابراهيم الحزمي ١٧١
ابراهيم الزجاج ٣٠٥
ابراهيم بن محمد ٢٥٢
ابراهيم بن المهدي ٢٠٩ ، ٣٣٧م ، ٣٣٨م ، ٣٣٩
ابراهيم الموصلي ٦٢
أبو بكر « الصديق » ٢٨
أبو بكر بن الاخشاد ٧٠ ، ٤٠٣
ابليس ٤٠١
الابياري ٨
ابن ابي بشر ٧٠
أحمد « ملك ايذج » ٣٦٦
أحمد بن ابي دواد ٢٠٢ ، ٢١٤م ، ٢٢٧
أحمد بن أحمد ١٤٧
أحمد التبريزي ١٦٥
أحمد بن حنبل ٢٨ ، ٩٨ ، ٢١٦
أحمد بن شاكر ١٤٥ ، ١٥٦
أحمد شلبي « دكتور » ١٦
أحمد بن طولون ٨٧ ، ٢٨٨ م ، ٣٠٦
أبو أحمد عبد السلام بن الحسين البصري ١٤١
أحمد بن عبد الملك « أبو جعفر » ٣٨٣ م
أحمد بن علي بن خيران ١٦٧
أحمد الغزالي ٣٤ م ، ٢٨٢
أحمد بن كامل « البلخي » ٣٢
أحمد بن محمد بن العوام ٤١٨
أحمد الميهني ٢٣٤
أحمد بن يحيى ابو العباس ثعلب ٣٧ ، ٢٠٩ ، ٢٢٦
أحمد بن يحيى المرتضى ٦٧
الأحمر « علي بن الحسن » ٣٩ ، ٨٩ ، ٢٠٨ م ، ٢٠٩ ، ٢٢٥ ، ٢٥٥ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ م
الأحنف ٢٧٣
أخت الحفيد بن زهر ٢٤١
الاخشيد ٧٤ ، ٧٥ ، ٢٠٩

ابن الارسوفي ١٠٦
الارقم بن ابي الارقم ٤٦ ، ٤٧
اسحاق بن احمد بن موسى المروزاني ٥٠
أبو اسحاق الاسفرائيني ٣٥٢
اسحاق بن حنين ١٤٥ ، ١٦٢
أبو اسحاق الشيرازي ٧٤، ١٠٢، ٢٣٣، ٢٣٥
٢٣٦
أبو اسحاق الكازروني ٣٠٤
اسحاق الموصلي ٦١ ، ٦٢، ٢٥٤، ٣٣٨، ٣٣٩
أسد بن الفرات ٣٢٤
أسلم بن سدرة ٢٠
أسماء بنت أبي بكر ٣٢٥ ، ٣٢٦ م
أسماء بنت أسد بن الفرات ٣٢٤
اسماعيل « عليه السلام » ٨٥ ، ٣٩٠
اسماعيل بن علي ٢٠٦ ، ٢٠٩
أبو اسماعيل بن نعيم ١٩٤
اسماعيل نور الدين ١٠٩ م
ابو الاسود الدؤلي ٢١١
أبو أسيد ٢٦
ابن اشته ٢٨
اصطفن القديم ١٤٤
الاصمعي ٦٢
الأعشى ٣٢٤
أغا بزرك ٢٤٨ ، ٢٥١
افرائيم بن الزفان ١٤٩ ، ١٨٤ ، ١٨٥ م
الأفشين التركي ٢١٤
الأفضل «الملك» ١٧٠ م ، ٢١٥
أفلاطون ٤٩ م
الأفضل بن أمير الجيوش ١٨٥
الأفضل بن صلاح الدين ١٠٤
ألب ارسلان ١٠٠ ، ٣٥٤ م ، ٣٥٥
امرؤ القيس ٦٤
ام عيسى « اخت صالح بن علي » ٣٤٢
الامين ١٦٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٢٥ ، ٢٥٥ م ، ٣٣١
أمية بنت قيس الغفارية ٣٤٠
ابن الانباري ٤٠ ، ٨٣
آية الله « العلامة الهندي » ١٥٣

— حرف الباء —

بدر الدين بن ابي القاسم ١٠٥
أبو البركات الانباري ٢١٧ ، ٢٣٤
برهان الدين الخضر السنجاري ٢٣١
برعان الدين مسعود ١١٣
بشار بن برد ٨٣
بشر بن عبد الملك ٢٠
أبو بشر متى ٧٠ م
بشر بن مروان ٥٩ م
بشر المريسي ٨٠
ابن البطريق ١٤٤ ، ١٦٢
بكار القاضي ٢٢٨
ابن بكتاش ٢٣٥
القاضي ابو بكر الابهري ١٢٧
ابو بكر الشاسي ٢٣٣
ابو بكر الصبغي ٤٥
ابو بكر القومسي ٤٨
ابو بكر محمد بن ثابت الخوجندي ٢٣٣
بهاء الدين بن شداد ٢٣٥
بهاء الدين بن العقادة ١١٣
الباقر ٣٩٧
بدانية (مولاة أبي المطرف بن عبد الرحمن بن غلبون) ٣٣٢
بدر الجمالي ١٧٨ ، ٢٠٩
بكار بن قتيبة ٣٠٦

بكار الأزدي ٢٤٩
ابو بكر الجوزي ٢٠٧
بنت الحفيد بن زهر ٣٤١
بهاء الدولة بن عضد الدولة ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٦٦
بهاء الدين قراقوش ١٨٥

— حرف التاء —

تاج الدين السطحي ٣٦٥
تاج الدين الكندي ١٧٧ م
تقية أم علي بنت أبي الفرج ٣٣٤
تقي الدين بن شاهنشاه ١٠٥
تقي الدين عمر (الملك المظفر ابن اخي صلاح الدين) ١٠٥ م ، ٣٣٤ م
ابن التوأم ٣٣
تيمور ٤١

— حرف الثاء —

ثابت بن سنان ٢٥٢
ثابت بن قرة ١٤٥ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ٢١٤
ابو ثوران العكلي ٨٤
ثور بن يزيد (ابو جاموس) ٨١

— حرف الجيم —

جابر بن عبدالله الأنصاري ٣١٠
جالينوس ١٤٧
جبريل بن بختيشوع ١٦٧ ، ٢١٨
الجرجاني ٤٧ ، ٢٢٢
جرير ٥٨ م ، ٥٩ م ، ٦٠ م ، ٨٩ م ، ٩٠ ، ٢٠٧ ، ٣٣٠
الجعد بن أدهم ٢٠٨
جعفر بن الحسن الحسيني ٤١٨
جعفر بن الفرات (ابو الفضل) ٧٠ م ، ٧١، ٧٢، ١٥١ ، ٤١٧
جعفر بن محمد ٤٠٠م ، ٤٠١ م
ابو جعفر محمد بن علي ٣٩٣
جعفر بن يحيى ٢٦٠
الجمال ابراهيم بن حذيفة ١٥٥
جمال الدين اقبال ١٠٦
جمال الدين (ابن الجمالة) ١٥٠
جمال الدين الدولعي ١٠٦
جمال الدين بن صيرم ١٠٥
جمال الدين محمود بن أحمد الحصيري ١١٤
جمال الدين محمود بن علي ١٣٧
جميلة (مولاة بني سليم) ٣٣٦
جنكيز خان ١٧٢
جوهر الصقلي ٨٨ ، ٣٨٧ ، ٤١٨
جويرية بنت أبي سفيان ٣٤٢
الجويني ٧٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٣

— حرف الحاء —

الحارث بن محمد ٢١٦
ابن الحاجب ٣٧٠
الحافظ ابو الحسن الفارسي ٣٢٨
الحافظ بن الخاضبة ١٣٥
الحافظ المرادي ٢٦٦
الحاكم بأمر الله ٧٦ ، ٨٨ م ، ١٦٩ ، ١٩٥ ، ٤١٨
ابو حامد احمد بن محمد الاسفرائيني ٢١٤
حبابة ٣٣٦
ابو حبيب حمزة بن عبدالله ٣١٣
حبيش بن الحسن ١٤٥ ، ١٥٦
الحجاج بن مطر ١١٤ ، ١٦٢
الحجاج ٨٠ ، ٢١١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠ ، ٣٢٥م ، ٣٢٩
حرب بن أمية ٢٠

الحريري ١٦٦ م
حسام الدين قايماز ١٠٦
أبو الحسن الأشتري ٢٤٠
الحسن البصري ٢١٢ ، ٢٤٧ ، ٣١٠
أبو الحسن البيهقي ١٣٣
أبو الحسن الزيات ٣٠٦
أبو الحسن بن سراج ٩٣
الحسن بن سهل ١٣٣
لحسن بن شاكر ١٤٥، ١٥٦
أبو الحسن علي بن احمد (الزيدي) ١٦٧ ، ١٦٨ م
أبو الحسن عبدالله المنجم ٤٨
الحسن بن علي بن اسحاق الطوسي ٣٤٩
الحسن بن علي ٦٥ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٤١٢
أبو الحسن علي بن رضوان ١٨٤
أبو الحسن علي بن علي بن سعادة ٢٤٠
أبوالحسن يحيى بن الخطيب التبريزي ١٤٢
الحسين بن جوهر ٢٠٩
الحسين بن شيبة ١٣٩
الحسين بن الضحاك ٦٨ م ، ٦٩
الحسين بن عبدالله بن جبلة ٣٤
الحسين بن علي ٦٥، ٣٩١، ٣٩٤م، ٤١٢، ٤١٤، ٤١٥ م ، ٤١٦
أبو الحسين بن غزال (الصاحب ايد الدولة) ١٤٩
الحسين قطرب ٢٠٩
حسين المعلم ٢٠٠
الحصين ٣١
الحضرمي ١٢٨
حفص ٢٥٤ ، ٢٥٥
حفصة بنت الحاج الركوني ٣٣٢
حفصة بنت عمرو ٣٢٤
الحكم ٣٤٤
أم حكيم ٣٦٥
حماد الراوية ٩٤ م
حماد بن اسحاق ٣٤٠
حماد بن ابي سليمان ٢٤٦
حمد بن احمد بن موسى المروزاني ٥٠
حمدة بنت زياد المؤدب ٣٣١
حمدة بنت زيد الوراق ٤٤
أبو حمزة العلوي ١٢٦
أبو حنيفة ٥٠، ٨٠، ٩٨، ١١٣، ١١٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٨٠، ٣١٦، ٣١٧، ٤٠٠، ٤٠١ م
حنين بن اسحاق ١٤٤، ١٤٧م، ١٥٦م، ١٦٢م، ١٨١ م ، ٢١٨ م
أبو حيان الغرناطي ١٣٦ ، ١٦٥
القاضي ابو حيان النيسابوري ١٣٧

— حرف الخاء —

ابن خاقان ١٤٠
الخالدي ٧٠
خالد بن يزيد ١٤٣ ، ١٤٤
الخبوشاني ٣٢، ٢٣١، ٢٤٠، ٢٨٤
خاتون بنت عزالدين ١٠٥
خاتون عزيزة ١٠٥
خديجة بنت الامام سحنون ٣٢٤
خديجة بنت الخليفة المأمون ٣٣٩
ابن الخشاب (عبدالله بن احمد الخشاب البغدادي) ١٨١ ، ١٨٢
ابن الخطيب التبريزي ٣١١
أبو خلف الوراق ١٣٤
خليدة الشماسية ٣٣٦
الخليل بن احمد ٤٠م، ٨٣ ، ١٧٧، ١٨١ ، ٢٠٧ ، ٢٨٨ م
خليل المعلم ٣٢٢
الخيزران ٣٤٣

— حرف الدال —

داود بن ميكائيل السلجوقي ٣٥٤
أبو الدرداء ٣٠٨
أم الدرداء ٢٦
ابن دريد ١٧٧ ، ٢٨٨
دعبل ٦٢
دغفل ٣٧١
أبو دلف (القاسم بن عيسى العربي) ٢١٤ م
دنانير ٣٣٦
الدينوري ٢٠٣

— حرف الراء —

لراضي ١٤٨ ، ٢٠٩ ، ٣٠٥
ارام هرمز ١٦٦
ابن الراوندي ٦٦ ، ٦٧
رابعة العدوية ٣٣٠
اربيحة الشماسية ٣٦٦
الربيع ٣٠٠
اربيعة الرأي ٣١٠
الربيع بن سليمان ٢٢٨
الربيع بنت معوذ ٣٤٠
ربيعة بنت نجم الدين ١٠٥
أبو رجب بن عاصم ١٩٤
الرسول (محمد صلى الله عليه وسلم) ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٦٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٢٢٨ ، ٣١١ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٤٠ م ، ٣٥٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٩٠ م ، ٣٩١ ، ٣٩٢ م ، ٣٩٣ م ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٦
الرشيد (هارون) ٣٩ ، ٤٠ ، ٦١ ، ٦٢ م ، ٨٢ ، ٨٩ ، ١٢٤ ، ١٤٦ ، ١٥٩ م ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ م ، ٢١٣ م ، ٢١٤ ، ٢٢٥ ، ٢٥٥ م ، ٢٦٠ ، ٣٠٥ م ، ٣٠٦ م ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ م ، ٣٤٣ م ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ م
ابن رشيد ٧٠
أبو الرشد مبشر بن احمد الحاسب ١٧٤
رضي الدين القزويني ٢٣٤
رضي الدين النيسابوري ٢٩٣
الرقاش ٢٢٣
ركن الدين منكورس ١٠٦
ابن رياح ٧٠
الرياحي (ابو البيدا) ٨١
الرياشي (أبو الفضل العباس بن الفرح) ٨٤

— حرف الزاي —

زبيدة (أم جعفر زوجة الرشيد) ٣٣٠ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ م ، ٣٤٤ م
الزبير بن أبي بكر ٢٧٣
الزجاج ٢٠٩ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ م
أبو زرعة الفيلسوف ٧٢
الزرقاء بنت عدي الهمدانية ٣٤٢ م
ابو زكريا الصيمري ٤٨
ابو زكريا يحيى الخطيب التبريزي ٢٣٤
زكي الدين بن رواحة ١٠٦ ، ١٤٨ ، ١٧٥
الزهري ٢٢٥
زيد بن عاصم ٣٤١
زينب بنت زياد المؤدب ٣٣١
زينب بنت زيد الوراق ٤٤
زينب بنت عبد الرحمن الشعري ٣٢٨
زينب (طبيبة بني أود) ٣٤٠ ، ٣٤١

— حرف السين —

سابور بن أردشير ١٢١، ١٣٩ ، ١٤١، ٢٦٤
سام بن نوح ٣٨٩
ست الشام بنت نجم الدين ١٠٥ م ٣٦٦ م
سحنون (الامام) ٤
سديد الدين المنطقي ١٨٤
سعد بن ابي وقاص ٢٦ ، ٢٨
ابن السعدان ٤٨ ، ٧١ ، ٨٩
سعدان بن مسلم ٢٤٩
ابن سعيد ٢٦٢
ابو سعيد احمد بن ابي بكر ٢٣٤
ابو سعيد البزار ٢٣٤
ابو سعيد البندهي ٢٠٩
ابو سعيد السيرافي ٧٠ م ، ٧١ م ، ٧٢
ابو سعيد العقيلي ١٥٥ م
ابو سعيد الصوفي ١٠٢
سعيد بن مسلم ٢٠٦
سعيد بن المسيب ٢١٢ م ، ٣١٠
ابو سعيد المعلم ٢٠٠
سعيد بن هارون ١٤٠ ، ١٦٢
سفيان بن أمية ٢٠ م
سفيان الثوري ٢١٦
سفيان بن عيينة ٢٩١ ، ٣١٢
سقراط ٤٨
ابن السكيت ٢٠٩ م ، ٢٢٢ ، ٢٢٦
سلامة ٣٣٦
السلفي (احمد بن محمد السلفي) ٥٠
سلمى بنت عدي بن الرقاع ٦٠
سلم ١٤٤
ابو سليمان ٤٨ م ، ٤٩ م
سليمان بن داود ١٥٤
سليمان بن عتر التجيبي ٩٢
سليمان بن علي ٤٠ م
سليمان الكلبي ٣٩
سليمان بن نجاح ٢٣٢
سليمان بن نعيم ٢٩
ابو سماك الأسدي ٣٤١
السمرقندي ٢١٦
سنان بن ثابت ٢٥٢
سنجر السلجوقي ١٩٧
السندوبي ٤٢
سهل بن عبدالله التستري ٢٩١ ، ٣١٢
ابو سهل الفضل بن نوبخت ١٤٤، ١٥٩، ١٦٠م
سهل بن هارون ١٤٠ م ، ١٦١
السهيلي ٨٦
ابن سوار ١٢٠
سويد بن غفلة ٥٧
سيبويه (المصري) ٤١ ، ٧٤
سيبويه ٦٢ م ، ٨١ ، ١٢٣ ، ٢٣٢
سيف الدولة الحمداني ٧٣
سيف الدين بن ايوب ١٠٥
سيف الدين ايا زكوج ١٠٥

— حرف الشين —

شارية ٣٣٩ م
الشافعي (الامام) ٣٢ ، ٤٠ ، ٨٣، ٩٢، ٩٨، ١٣٥ ، ١٩٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٥٠ ، ٢٨١ ، ٢٩١م ، ٣٠٠ م ، ٣٢٨ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦
شبل الدين كافور ١٠٦
شبيب بن شيبة ٨٠
شجاع الدين بن الدماغ ١٠٦ ، ٣٦٤
شرف الدين بن عروة ١٠٦
شرف الدين بن عصرون ١٠٦ ، ٢٦٦

الشرف داود ١١٤
شرف الدين هبة الله ١٠٥
شرف الدين يوسف الدمشقي ٢٣٤
شرقي بن القطامي ٢٠٩
شريح القاضي ٢٥٣
الشريف حسين ٣١٦
الشريف فخرالدين ١٠٥
شريك القاضي ٢١٢ ، ٢٧٩
الشفاء بنت عبدالله العدوية ٣٢٤
شمس الدين الكبشي ٢٣٤
الشمس علي بن الكتبي ١٤٢
شمس الملك بن نظام الملك ٢٨٥
شمعون ٣٩٠
أبو الشمقمق ٢٢٣
شهاب الدين قتلمش ٣٥٤
ابن شهيد ٢٠٩
الشيخة شهدة ٣٢٨

— حرف الصاد —

الصاحب صفي الدين عبدالله بن علي ١٧٢
الصاحب بن عباد ٧٢ ، ١٢٦ ، ١٣٣ ، ٢٠٤ م ٢٦١
صارم الدين بن أزبك ١٠٦
صارم الدين قايماز ٣٧٩
صالح العقاد ١١١
صالح بن عبد القدوس ٦٦ ، ٦٧
صالح بن علي ٣٤٢
الصالح نجم الدين أيوب ١٠٤
صبيح بن عبدالله ١٦٨
صدر الدين ابراهيم ١١٤ م
صدر الدين البصراوي ١١٤
صدرالدين عبدالملك بن درباس ٤٢٠
صدرالدين علي بن التيار ١٧٥
الصعلوكي (أبو الطيب) ٢٩٣
صفراء ٣٣٦
صفي الدين عبدالله بن جميل ١٧٤
صفي الدين عبدالمؤمن بن فاخر ١٤٨ ، ١٧٥ م
صلاح الدين ١ ، ٢ ، ١٣ ، ١٠٤ م ، ١٧٠ ، ١٧٩ م ، ١٩٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٨٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ م ، ٣٥١ م ، ٣٦٤ م ، ٣٦٦ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٤٢٠ م
صلاح الدين المنجد ١١٠
ابن صورة الكتبي ١٢٧ ، ١٧٩

— حرف الضاد —

الضحاك بن مزاحم ٣٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٧

— حرف الطاء —

طاهر بن الحسين ٢٠٩
أبو طاهر محمد بن احمد ٤١٧ ، ٤١٨
طاووس ٣١٠
الطرماح ٩٣
طغرلبك ٣٥٤
طلائع بن رزيك ٧٦
طل (خادم الرشيد) ٣٣٧ ، ٣٣٨ م

— حرف الظاء —

الظاهر بن صلاح الدين ١٠٤
الظاهر (الخليفة) ٢٥٩

— حرف العين —

عائشة ام المؤمنين ٣٢٧ م
ابن عائشة ٣٣٦

العادل ١٠٤
عاشوراء بنت صاروخ ١٠٥
العاضد ١٠٧ ، ٤٢٠
ابو عامر سعيد بن عمرو ٢٤٩
عامر الشعبي ٢٠٨
العباس ٤٠٣
ابو العباس احمد ٤١٨
العباس بن الاحنف ٦٢
ابو العباس الاصم ٢١٦
عبد الحميد الكاتب ٣٦ ، ٢٠٠
عبد الرحمن الثاني ٣٣٩
عبد الرحمن بن القاسم ٣١٢
عبد الرحمن بن مأمون ٢٣٤
عبد الرحمن بن محمد بن سعيد الحبراوي ١٥٥
ابن عبد السلام ٢٤١
عبد السلام بن الحسين البصري (ابو احمد) ١٤١
عبد السلام القزويني ١٧١
عبد الصمد عبد الاعلى ٢٠٨
عبد العزيز الحباب (ابو المعالي) ٧٦ ، ٧٧
عبد العزيز بن عمر بن محمد ٢٠٢
ابن عبد العزيز الهاشمي ٧٠
عبد الغني بن سعيد ٧٦
ابن عبد القوي ٤٢٠
عبدالله بن احمد بن الخشاب ١٢٥
عبدالله الارسوني ١٠٦
عبدالله بن انيس الجهني ٣١١
عبدالله بن الحارث ٢١٧
ابو عبدالله الحسين بن سعدان ٧١
عبدالله بن خليد (ابو العميثل) ٨٢ ، ٢٠٩
عبدالله بن الزبير ٣٢٥ ، ٣٢٦ م
عبدالله بن سليمان ٢٣٢
عبدالله بن شفيق ٢١٦
عبدالله الضبي (القاضي) ١٣٩ ، ١٤١
عبدالله بن طاهر ٢٢٦
عبدالله بن عباس ٢٩ ، ٣٠٩
عبدالله بن العباس بن الفضل بن الربيع ٣٣٧
عبدالله بن علي ٨٧ م ، ١٠٥
عبدالله بن عمرو بن ابي صبح ٨٢
عبدالله بن عمرو بن العاصي ٣٠٩
ابو عبدالله القضاعي ١٣٤
عبدالله بن المبارك ٢٧٤ ، ٢٩٣
عبدالله بن مسعود ١٩٣ ، ٢٠٩
عبدالله بن المعتز ٥٥ م
عبدالله ن المقفع ٨٢ ، ٢٠٦ م ، ٢٠٧ ، ٢٠٩
ابو عبدالله بن محمد بن اسحاق الحافظ الجوال (ابن منده) ٣١٤
عبدالله بن هاشم ٥٦ م
عبدالله بن وهب ٣١٢
عبدالله بن يعقوب ٤٥
عبد الملك الفشني ٤٢
عبد الملك بن مروان : ٢١، ٢٩م ، ٣٠، ٣٧م، ٥٢ ، ٥٧ م ، ٥٨ م ، ٥٩، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٢ ، ٣٢٥
ابن عبدون ١٩٠ م ، ٢٠٣ م ، ٢٠٤
عبد الوهاب البهنسي ٩٢
ابو عبيدة ٦٢ ، ٣٧٢ م
ابو عبيد الله بن احمد ١٣٩
ابو العتاهية ٤٤ ، ٦٢ ، ٦٨ م ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١٣٥
العتبي ٧٣
عثمان بن صلاح الدين ٩٢، ١٠٤، ٣٦٣، ٣٦٥م
عثمان بن عفان ١٩٤
العدل ضياء الدين احمد ١٣٤
عدي بن الرقاع ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١

عذراء بنت نور الدولة ١٠٥
عذرة ٥٨
عريب ٣٣٧
عز الدين الاعظمي ١٠٥ ، ١٠٦
عزيز الدين ابو نصر احمد بن حامد ٢٨٥
العزيز بن العادل ١٠٤
العزيز بالله الفاطمي ٥٠م، ٨٨ ، ١٤١ ، ٣٥٣ ، ٤٠٤ ، ٤١٠ ، ٤١٦
ابن عسامة ٢٢٧
ابن عصفور ٢٦٦
عصمت الدين بنت العادل ١٠٥
عضد الدولة ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥
عضد الدين محمد ١٦٨
عطاء بن رباح ٣١٠
عطاء بن عبدالله الخراساني ٣١٠
عقيلة العقيقية ٣٣٦
عكرشة بنت الاطرش ٣٤٢
ابو العلاء المعري ١٢١ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٤ ، ١٦٧ ، ٣١٢
ابن العلقمي ١٧٥
علام حليم بن قطب الدين الهندي ٤٠١
علان الشعوبي ١٤٦
علم ٣٣٩
علي بن آدم ٣٢٢
علي بن ابي طالب ٢٩ ، ٤٣ م ، ٦٥ ، ١٦٤م ، ١٦٥ م ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٧٣ ، ٣٤٢م ، ٣٧١ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ م ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ م ، ٤٠٧ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٦ .
علي بن جبلة ٣٤م ، ٢٠٨
علي بن جعفر ٢٠٩
علي الرضا ٦٥ م
علي بن رضوان ١٨٤ ، ٢٨٤
ابو علي بن سوار الكاتب ١٦٥ ، ١٦٦
علي بن شاذان ٣٥٤
علي بن عبد السميع (ابو طالب) ٢٦٥
علي بن عيسى الجراح ٧٠
علي بن عيسى بن كوجك ٤٢
علي بن عيسى الولواجي ٣٠٥
ابو علي الفارسي ١٦٥
علي بن محمد الشابشتي ١٤١
علي بن محمد الفصيحي ٤٩
ابو علي بن مقلة ١٤٧ ، ١٤٨
علي بن منصور الحلبي ٢٠٩
علي بن النعمان ٤٠٤
علي بن هشام ٣٣٩
علي بن هلال (ابن البواب) ١٤٧ ، ١٤٨
علي بن الهيثم ٦٣
علي بن يحيى بن أبي منصور ١٨٠
علي بن يحيى بن المنجم ١٢٠م ، ١٤٠
علي بن يوسف ٤٣
علية بنت المهدي ٣٣٧ م
عماد الدين الدنيسري ١٠٧
عماد الطرسوسي ١١٤
عمارة اليمني ٧٦
عمر بن احمد بن العديم ٢٩١
ابو عمر بن حيوية ١٧١
عمر بن الخطاب ٢٨ ، ٣٣ ، ٧٩ ، ٨٠م ، ٨٦ ، ١٩٣ ، ٢٩٩
عمر بن شاهنشاه بن أيوب ٣٦٤
عمر بن عبد العزيز ٢١٦
عمر بن الفرخان ١٤٥ ، ١٦٨
عمر بن ميمون ٢٦
ابو عمرو الزاهد ٩٠ ، ٩٣
عمرو بن العاص ٨٧م ، ٩١م ، ٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٨١

عمرو بن عبيد ٦٧
عمرو بن عتبة ٣٨
ابو عمرو بن العلاء ٢٨٩
ابو عمرو المقدسي ١٠٦
ابن العميد ٧٢م ، ١٢٦م ، ١٤١
العميد ابو النصر ٢٦٤ ، ٣٦١
عنيدة (جدة ابي الخير التيناني) ٣٢٩
عنيدة الطنبورية ٣٣٩
ابو عياض ٢٠٩
المعظم عيسى ملك دمشق ١٠٤ ، ٢٧٩
عيسى بن نسطورس ٤١٦
عيشة بنت سعد ٢٣٤
عباس العزاوي ٥

— حرف الغين —

الغزنويون ٧٣
غلام زحل ٤٨

— حرف الفاء —

فاطمة رضي الله عنها ٦٥م، ١٩٥، ٢٢٨، ٣٦٤م، ٣٨٣، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩١، ٤٠٣م، ٤٠٤، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤١٢م، ٤١٤، ٥١٥، ٤١٦م ٤١٧، ٤١٩، ٤٢٠
ابو الفتح النوشجاني ٤٨
ابو الفتح بن الجزار ٤٣
الفتح بن خاقان ١٨٠م
فخر الدين الياروسي ١٥٠
الفراء ٨٩ ، ٢٠٩ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨
فرخشاه بن شاهنشاه ٧٧م ، ١٠٥
الفردوسي ٧٣ ، ٤٠٩
الفرزدق ٥٩ ، ٣٣٠
فضل ٣٣٩
الفضل بن غانم ٢٢١
فلك الدين سليمان ١٦٠

— حرف القاف —

القائم بأمر الله ٢٦٥
القالي ٣٧٠
ابو قابوس الحيري ٢٦٠
ابن قادوس ٧٦
القاسم (ابن أبي دلف) ٢٠٩
ابو القاسم البلخي ٣٠ ، ٣٢م
ابو القاسم الجرجاني ١٣٤
القاسم بن عبد الله بن سليمان ٢٣٢
ابو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي ١٢٠
ابو القاسم عبد الله بن محمد ٢٩٦
ابو القاسم العلوي الدبوسي ٢٣٣
القاسم بن علي بن محمد ٢٤٩
ابو القاسم القشيري ٣٥٧ م
ابو القاسم بن المهدي ١٧٦
ابو القاسم بن الوزير فخر الدولة ٣٦١
القاضي الفاضل ٧٧م ، ١٠٥ ، ١٢٧ ، ١٥٠ ، ١٧٩
قتادة ٢٩١
قتيلة بنت الحارث ٣٣٠
قدامة بن جعفر ٧٠
قطب الدين خسرو ١٠٥
القطب النيسابوري ٢٦٦
قطب الدين النيشابوري ١٧٢ م
قطرب ٢٠٩
قلم ٣٣٩
قوام الدين محمد بن جمال الدين الحصيري ١١٤
قيس بن سعد ٢٠٠

— حرف الكاف —

كافور ٢٠٩ ، ٧٥ م
الكتبي ٧٠

كثير ٦٠م ، ٦١
كريمة بنت احمد المرزوى ٣٢٩
كريمة بنت المقداد ٣٢٤
الكسائي ٢٠م ، ٦٣م ، ٨١م ، ٨٣م ، ٨٩ م ،
١٩٩ ، ٢٠٩م ، ٢٢٥
ابن كعب ٧٠
ام كلثوم بنت عقبة ٣٢٤
كمال الدين السمنودي ٣٦٥
الكميت بن زيد ٣٦ ، ٩٤م ، ٢٠٠
الكندري ٣٥٤
الكيا الهرس ٢٣٤

- حرف اللام -

لقمان ٢٠٠
لبابة اخت صالح بن عيسى ٣٤٢
لبانة ٣٣٤

- حرف الميم -

ابن ماسويه ١٥٦
مالك (الامام) ٣١ ، ٩٨ ، ٢١٢ ، ٢١٣ م ،
٢٦٣ ، ٢٨١ ، ٣١٢
ابن مالك ٢٣٢
ابو مالك الحضرمي ٦٤
مالك بن سعيد الفاروقي (قاضي القضاة) ٣٦٣
المأمون ٤٠م ، ٦١ ، ٦٤م ، ٦٥م ، ٦٦ م ،
٦٨م ، ٨١ ، ١٣٣م ، ١٤٤ ، ١٤٦ ،
١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،
١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٨١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ،
٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٥٥ م ،
٣٣١ ، ٣٤٩ ، ٣٦٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨
المأمون بن البطائحي ١٧٠
المؤيد في الدين ٣٩٢ ، ٤١١
المبارك بن المبارك (ابو طالب) ٢٣٤
المبشر بن فاتك ١٨٣ ، ١٨٤
المتنبي ٧٣ ، ٧٥ م ، ١٢٥ م
المتوكل ٥٥ ، ٦٨ ، ١٤٠ ، ١٦٣ ، ١٨٠ م ،
١٨٩ ، ٢٠٩ ، ٢٢٦ ، ٣٣٩
متيم الهاشمية ٣٣٨ م
ابو المجد بن ابي الحكم ١٠٧
مجد الدين ابو الاشبال ٩٢
مجد الدين البهنسي ١٠٥
مجد الدين بن جعفر ٢٣٤
مجد الدين بن الداية ٢٦٦
مجد الدين ابو علي يحيى بن الربيع ٢٣٤
محب الدين بن النوار ١٧١
محمد بن ابي القاسم بن ابي بكر النيشابوري ٢٣٨
محمد بن احمد الأبيوردي ١٤٢
محمد بن احمد بن كيسان ٢٧٩
محمد بن اسحاق ١٢٣
محمد الجبتي ٢٣١
محمد بن الجهم ٢٠٨ ، ٢٢٥
محمد بن الحارث التغلبي ١٨٠
محمد بن حبيب ١٨٠
محمد بن حسن ٣٣٢
محمد بن الحسن ١٣٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٨٨ م
محمد بن الحسن بن دينار ١٤٧
محمد دقيق العيد ١١٠ ، ١١١
محمد بن سعد ١٤٧ ، ١٤٩ ، ٣٢٧
محمد بن سليمان النعالي ٢٩٣
محمد بن سيرين ٢٨
محمد بن شاكر ١٤٥ ، ١٤٦
محمد بن طاهر بهرام (السجستاني) ٤٧
محمد بن عبد الملك الزيات ١٢٣ ، ١٥٧ ، ٢٢٧
محمد بن عبدالله بن جعفر الحميري ٢٣٩
محمد بن عبدالله بن طاهر ٣٧ ٢٢٦ م
ابو محمد عبد الوهاب الشيرازي ٢٣٤

محمد بن العفيلي ٢٣٤
محمد بن علي حامد ٢٣٤
محمد بن علي الأديب ٣٠٧
محمد بن علي بن اسماعيل ٢٣٢
محمد بن فخر الدين ٩٢
محمد بن القاسم ابو بكر الانباري ٣٠٥
محمد بن محمد الاشعث ٢٥١
محمد بن مسلم الزهدي ٢٨
ابو محمد المقدسي ٤٨
محمد بن موسى الخوارزمي ١٦٢
محمد بن النعمان (القاضي) ٤٠٥
محمد بن يحيى ٢٣٤
ابو محمد يحيى بن المغيرة ٢٠٧
محمد بن يحيى النيشابوري ١٩٧ ، ١٩٨
ابو محمد اليزيدي ٢٥٥
محمود جوهر (الحاج) ١١٢ ، ١١٣ م
محمود الغزنوي ٧٣ ، ٣١٤
محيي الدين ابو حامد ٢٣٤
مخارق ٦٨ م ، ٦٩
المرتضى ابو القاسم ١٣٩ ، ٢٦٤
المرزباني (صاحب آل ساسان) ٧٠
مروان بن محمد ٥٧ م ، ٨٧ ، ٢٠٨
ابو مريم ٢٥٥ م
مريم بنت ابي يعقوب الانصاري ٣٣٢
المستضيء بالله العباسي ٤٢٠
المستعصم ١٤٨ ـ ١٦٣ ـ ١٧٤ ـ ١٧٥ م
المستنصر بالله ٩٩ ، ١٣٤ ، ١٤٨ ، ١٧٨ ، ١٩٦
مسرور الصفدي ١٠٦
مسعود (السلطان) ٣١٤
ام سلمة ٢٦
ابو مسلم الخراساني ٥٧
مسلم بن عمر القاضي ٣٠ م
مسلم بن الوليد ٦٢ ، ٩٤
المسيح ٣٩٠ ، ٤٠٨
مصطفى فتح الله ١٤ ، ١٥ ، ١٦
مصعب بن الزبير ١٨٩
ابو المطرف (قاضي الجماعة) ١٥٠
ابو المظفر القشيري ٣٢٨
معاوية ٥٢ ، ٥٦ م ، ٥٧ ، ٨٢ ، ١٩٤ م ، ٢١٨ ، ٣٤٢
ابو معاوية الاعمى ٢١٣
معبد ٣٣٦
ابن المعتز ٢٠٩
المعتصم ٥٢ ، ٦٨ ، ٨٢ ، ١٦٢ ، ٢١٤ ، ٣٣٨
المعتضد بالله ٥٦ ، ٢٠٩ م ، ٢١٤
المعتمد ١٤٠
المعز لدين الله ٥٠ ، ١٧٦ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥
ابو المعمر المبارك الانصاري ٢٤٩
معيقب بن ابي الازهر ٢٩٦ م
معين الدين سعيد بن الرزاز ٢٣٤
المقتدر ٢٢٨ ، ٢٥٢
المكتفي ١٢٤
مكحول ٣١٠
ملح العطارة ٣٣٩ م
ملكشاه ١٠٠ ، ٣٥٥ م ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩
ابو ملك عمر بن كركرة ٨٤
ابو المناقب الزنجاني ٢٣٤
منشا اليهودي ٤١٧
المنصور (ابو جعفر امير المؤمنين) ٥٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥
المنصور (امير المؤمنين عبدالمؤمن بن علي الاندلسي) ٣٣٣
منصور الساماني ١٢٦
ابو منصور شجاع ٣٥٧

منصور بن مزيد ١٤٢
ابو منصور بن يوسف ٢٣٩
المهدي ١٧٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ،
٢٧٩ ، ٣٤٣
المهذب بن الزبير ٧٦
مهذب الدين دخور ١٠٧
المهلبي ٧٢ م
موسى (عليه السلام) ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤١٣
ابو موسى الاشعري ٨٠ م ، ٨٧ ، ١٩٣ ، ٣٠٩
موسى بن العادل (الملك بن الاشرف) ١٠٤ ، ٣٧٩
الموفق ٣٠٦
الموفق بن الحلال ٧٦
موفق الدين بن المطران ١٥٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ م
موهوب الدين بن احمد الجواليقي البغدادي ٢٣٤
ميكائيل ٤٠٩
ميمون بن عبدالله ١٠٥
ميمون بن هرون ٢٢٧

— حرف النون —

الناصر لدين الله (ابو العباس احمد) ١٧٣ م ،
١٧٤ م ، ١٧٩
ابن نباتة ٣٠ م ، ١٦١
نجاح بن مسلمة ٥٥
نجم الدين ايوب (الملك الصالح) ٢٤٠
نجم الدين الباذرائي ٢٣٥
ابو النجيب ٢٣٤
النخعي ٣١٠
نسيبة (زوجة زيد بن عاصم) ٣٤١
ابو نصر الاسماعيلي ٣٧٠
ابو نصر الزجاج ٤٣ م
ابو نصر سابور بن اردشير ١٦٦ م ، ١٦٧
ابو نصر الصباغ ٢٣٣ ، ٢٣٦ م
نصير الدين الطوسي ١٤٣
النصير بن الطباخ ٢٤١
النضر بن الحارث ٣٢٩ ، ٣٣٠
النظام ٦٧ م
نظام الدين الحصيري ١١٤
نظام الملك ١ ، ١٣ ، ١٩ م ، ٧٤ م ، ٩٩ ،
١٠٠ ، ١٠١ ، ١٧٠ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ،
٢١٨ م ، ٢٣٦ ، ٢٦٤ ، ٢٨٢ م ، ٣٤٩ م ،
٣٥٠ ، ٣٥١ م ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ م ، ٣٥٤ م ،
٣٥٥ م ، ٣٥٦ م ، ٣٥٨ م ، ٣٦٠ م ،
٣٦١ م ، ٣٦٢ م ، ٣٦٣ م
النعمان (القاضي) ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦
نفطويه ٩٣
نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي ٣٢٨
نهشل بن جزيل ١٤٨
ابو نواس ٦٢ ، ٦٨ م ، ٦٩ م ، ٩٤ ، ٢٥٤
نوح « عليه السلام » ٣٨٩ ، ٤٠٨
نوح بن منصور ١٣٠
نور الدين زنكي ١١ ، ١٣ ، ٧٤ ، ٩٧ ، ١٠٠ م ،
١٠٢ م ، ١٠٧ م ، ١٠٩ م ، ١١١ ، ١١٤ ،
١٧٢ م ، ١٩٦ ، ٢٦٦ م ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ،
٣٤٩ ، ٣٥٠ م ، ٣٥١ م ، ٢٦٢ م ، ٣٦٣ م

— حرف الهاء —

هابيل ٣٨٩
الهادي ٥٢ ، ٣٤٣ م
هارون « عليه السلام » ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤١٣
ابن هانىء ٢٠٨
هبة الدين بن علي ١٦٥
ابو الهذيل العلاف ٦٦ م ٦٧ م
الهشامي ٣٣٨
هشام بن عبد الملك ٣٩ ، ٢٢٥
ابو هفان الراوية ٤٢
هند بنت عتبة ٣٤٢

أبو هندام كلاب بن حمزة ٨٤
ابن هود ٢٦٢

— حرف الواو —

الواثق ٥٢ ، ٦٨ م ، ٦٩ ، ١٤٥ ، ١٥٦ م
ابن واصل ٢١٥ ، ٤٢٠
واصل بن عطاء ٦٧ ، ٩٣ م ، ٢٤٧
ابو وداعة ٢١٢
ابو الوفاء المهندس ٧٢
الوليد بن بكر (ابو العباس) ٥ ، ٢٥٠
الوليد بن عبد الملك ٢١ ، ٥٢ ، ٦٠ م ، ٦١ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٢١٢
الوليد بن يزيد ٢٠٨ م

— حرف الياء —

ياقوت الرومي ١٣٦ ، ١٦٨
ياقوت المستعصمي ١٦٥
يحيى بن خالد البرمكي ١٦٠ ، ٢٠٩ ، ٢٨٤
يحيى بن زيد ٢٦٣
ابن يحي العلوي ٧٠
يحيى بن يحيى الليثي ٣١٢
يزيد ٨٢
يزيد بن ابي حبيب ٣١٠
يعقوب بن كلس ٥٠ ، ٧٦ ، ١٤٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٤٠٤ ، ٤١٧
يعقوب بن المهدي ٣٧٣
يوحنا بن ماسويه ١٤٤ ، ١٦١ ، ١٦٢ م ، ١٦٣ ، ٢١٨
ابو يوسف ١٣ ، ٦٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٠ م ، ٢٨٠ ، ٣٠٤
ابو يوسف الاسفرائيني ١٤٢ م
يوسف بن خالد السمتي ٣١٦ ، ٣١٧ م
يوسف بن عقيل الثقفي ٣٠ م
يونس بن حبيب ٢٨٨ م

فهرس الطوائف

الاخشيديون ٤١ ، ٧٤ ، ٧٥
الاسماعيلية ٣٨٧ م ، ٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ م ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٤
آل سلجوق ١١
آل علي ٤٠٥
الأمويون ٨٢ ، ٣٢٥ ، ٤١٤ ، ٤١٥
أهل البيت ٤٠٤ ، ٤٠٥
أهل السنة ٣٩٦ م ، ٤٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤١٧
الأيوبيون ١٣ ، ٨٨ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٤١٩
البطالسة ٢١٩
البرابرة ١٧٨ م
البرامكة ١٤٦ ، ١٥٩ م
البويهيون ٩٨ م ، ٩٩ ، ١٩٥
بنو النعمان ٤١٧
بنو عبد السميع ٤١٧ م
بنو عمار ١٥٠
التتر ١٦٣ ، ١٧٥ ، ٣٥١
الترك ٢٠١ م ، ٢٣٦

الحنفية ٣٦٥ ، ٣٨٠
الخوارج ٤٣ ، ٦٧
الدهرية ٦٧
الذميون ٢٢ ، ٢٣
الروم ٢٠٠ م
الزبيريون ٢١٢
الزنادقة ٦٧
السامانيون ١٣٠ ، ١٧٣
السريان ١٤٣
السلاجقة ٧٤م ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠م ، ٣٥٠م ،
٣٥٢ ، ٣٥٣م ، ٣٥٥
الشافعية ٣٦٤ ، ٣٦٥
الشيعة ٦٧ ، ٩٩ ، ١٦٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٩ ،
٣٩١ ، ٣٩٥م ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ ،
٤٠٤ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٧
الصليبيون ٣٥٠
الطولونيون ٤١ ، ٧٤ ، ٧٥
العراقيون ٤١١
الفاطميون ١٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٩٨ ، ١٢٩ ،
١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٧٦ ، ١٧٩ م
الفرس ٦١ ، ١٤٣ ، ٢٣٦
المرجئة ٦٧
المشارقة ١٧٨
المصريون ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٤١٧ ، ٤١٩
المعتزلة ٦٥ ، ٦٦م ، ٦٧ ، ٦٧ ، ١٢١ ، ١٦٦
المغاربة ١٧٨
المغول ١٧٤
الهنود ١٤٣

فهرس الاماكن

— حرف الالف —

أحد ٣٤١
أرز الروم ٣١٦
أسكندرية ٥٠م ، ٨٨ ، ١١٩
اسطنبول ١١٠
أسبانيا ٣ ، ١٣٥
أشبيلية ٢٦٢
أصفهان ١٠١ ، ٢٣٣م ، ٢٣٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢
إفريقية ١٧٦ ، ٣٥١ ، ٣٨٧
أقصرا ٢١٤
آمل ٢٠٢
أنقرة ١٤٤ ، ١٦١
الأندلس ١٢٧م ، ١٢٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ،
١٥٢م ، ١٥٨ ، ٢٦٢ ، ٣١٢ ، ٣٣٢
الأناضول ٣٣٦
أوروبا ١ ، ١٤ ، ١٣٠ ، ٢٦٢
إيذج ٣٦٦
ايران ١٦٤

— حرف الباء —

باريس ٣
الباكستان ١٥ ، ١٦٤
بخاري ٣١٢
بدر ٢٣٠
برك الغماد ٣٠٨

بزينة ٣٦٦
البصرة ٧٩ ، ٨٦، ٩٣، ٩٤ م، ١٠٢ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٦٥ ، ١٦٦م ، ١٩٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٢٧م ، ٢٢٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٩٧
بعلبك ١٠٣
بغداد ٥ ، ١٠ ، ١٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ م ، ٥٦ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٧م ، ٨٨ م ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ م ، ١٠٢ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٦٣ م ، ١٦٧ ، ١٦٨ م ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٩٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣م ، ٢٣٤ م ، ٢٣٥ م ، ٢٣٦م ، ٢٣٧م ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ ، ٣١٢ ، ٣٢٨ م ، ٣٥٧ م ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٧٩
بلخ ١٠١ ، ٣٥٤
بلرم ٣٢ م ، ٢٠٢ م
بيت المقدس ١٠٤ ، ١٠٥
بيروت ١٤

— حرف التاء —

تبريز ٣١٢
تركيا ٣
تهامة ٨٣
التينة ٣٦٦

— حرف الجيم —

جامع عمرو ٤٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨
الجامع الازهر ٢٨٣ ، ٣٦٣ م ، ٣٦٨ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٤١٨
جامع حلب ٣٨٠
جامع ابن طولون ١٧٨
جرجان ٣٧٠
جرمانا ٣٦٦
جزيرة الروضة ٣٦٤
جزيرة الفيل ٣٦٤

— حرف الحاء —

الحجاز ٨١ ، ٨٣ ، ٣٢٥
حلب ٥ ، ٧٣ ، ٩٧ م ، ١٠٣ ، ١٨٣
حماه ١٠٣
حمام اسرائيل ٣٦٥
حمص ١٠٣ ، ٣١٢
حوز مؤمل ٣٣٣ م
الحيرة ٢٠ م

— حرف الخاء —

خان الخليلي ٤٢
خراسان ٥٧م ، ١٠٢ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٧٠ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٥٠
خورستان ٢٣٤
خيبر ٣٤٠

— حرف الدال —

دجلة ١٠٢ ، ٢٣٨
درب العجمي ٢٧٩
دمشق ٤ ، ٦ ، ٨ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ٩٠ م ، ٩١ م ، ١١٠ ، ١٠٢ م ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٤٩ ، ١٧٢ م ، ٢١٤ ، ٢٥٩ ، ٢٧٩ م ، ٢٨٥ ، ٢٩٤ ، ٣١٢ ، ٣٣٤ م ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧٦

— حرف الذال —

ذو المجاز ٤٠

— حرف الراء —

رام هرمز ١٢٠
رجم الحيات ٣٦٥
الرملة ٣٣٢
الروم ١٤٤ ، ٣٤٢
روما ٩٧
الري ٣١٢

— حرف الزاي —

الزاوية الكمالية ٣٦٥
زاوية الامام الشافعي ٣٦٥ ، ٣٧٥
زمزم ٨٩ ، ٢٠٤

— حرف السين —

سامرا ١٦٣ ، ١٨٠
سجلماسة ١٧٦
سلمية ١٧٦
سنديس ٩٢ ، ٣٦٥
سوريا ٣ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٧٠ ، ٢٣٦ ، ٣١٠ ، ٣٥٠ ، ٣٨٠
سيحان ٢٢٧
سيواس ٣١٦

— حرف الشين —

الشام ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤٩م ، ١٥٠م ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٩ ، ٣١٣ ، ٣٤٢ ، ٣٥١ ، ٣٨٠ ، ٤١٧
شرخوب ٣٦٥
شيراز ١٢٩ م ١٣٣

— حرف الصاد —

الصالحية ٢٤١
صفين ٣٤٢
صقلية ٣٢ ، ٢٠٢
الصين ٢٧٣

— حرف الطاء —

الطاحونة ١٧٦
الطائف ٣٠
طرابلس ١٢٦ ، ١٥٠ ، ١٧٦
طرسوس ٣٤٤
طوس ٣٥٤ ، ٣٧٠ ، ٣٧١

— حرف العين —

العراق ٣ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٨ م ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٨٤ ، ٢٣٧ ، ٢٧٣ ، ٢١٣ ، ٣١٦ م ، ٣٢٥ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٧٩
عسقلان ٣١٢
عكاظ ٤٠
عمورية ١٤٤ ، ١٦١

— حرف الغين —

غرناطة ٤٤

— حرف الفاء —

فلسطين ٣ ، ٧٨ ، ٢٧٩
الفسطاط ٧٥ ، ٨٧ م
الفيوم ١٠٥

— حرف القاف —

القاهرة ١١٩ ، ١٢٩ م ، ١٣١ ، ١٣٦ م ، ١٥٥ ، ١٦٩ م ، ١٧٢ ، ١٧٦ م ، ١٧٨ ، ١٩٥ ، ٣٦٤ ، ٤٠٦ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٠
قبرص ١٦١ م
قباء ٨٦ م ، ٣٣٠
قرطبة ٩٣ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٥٠ ، ١٦٢ ، ٣١٢ ، ٣٤٤
القسطنطينية ١٦١
قصر الذهب ٨٨

القطائع ٨٧
القطبية ٢٤١
قيسارية ٣١٢

— حرف الكاف —

كربلاء ١٦٤ ، ٤٠٢ ، ٤١٤
الكرخ ١٦٦
كركر ١١٩
كمبردج ١٠٣ ، ٢٦٣
كندا ٣٠
الكوفة ٧٩ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٤م ، ١٩٣ ، ٢٠٦ ،
٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣٢٢م ، ٤٠٢

— حرف اللام —

لبنان ٣
لندن ١٢٨

— حرف الميم —

المحول ٤٠٥
مجيدل السويدا ٣٦٦
مجيدل القرية ٣٦٦
المدرسة الشامية الجوانية ٣٦٦
المدينة ٤٧ ، ٧٩ ، ٨٦م ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٣٠٩ ،
٣١٠ ، ٣١٢ ، ٤٠٢
المرج ٣٦٥
مرو ١٠٢ ، ١٣٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٣١٢
مصر ٣ ، ١٣م ، ٤١ ، ٤٤ ، ٧٤م ، ٨٦ ،
٨٧م ، ٨٨م ، ٩٨م ، ١٠٠ ، ١٠٤ ،
١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٤٩م ،
١٥١ ، ١٥٨ ، ١٧٠ ، ١٧٦م ، ١٧٨ ،
١٨٣م ، ١٨٤ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٢١ ،
٢٢٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤م ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ ،
٢٩٤م ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٥١م ،
٣٦٣م ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٨م ، ٣٧٩ ،
٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٤٠٥ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ،
٤٢٠
معرة النعمان ٣١٢
المغرب ٢٩٦ ، ٣٣١
المزرعة الدماغية ١٦٥
الملا ٦٤
مكة ٢٠ ، ٢٢ ، ٤٧ ، ٨٣م ، ٨٦ ، ١٩٢ ،
٢١٢ ، ٢١٣م ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،
٣١٢ ، ٣٢٥ ، ٣٤٤م ، ٤٠٢
الموصل ٢ ١ ، ١٢٠ ، ١٩٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦

— حرف النون —

نجد ٨٣
النجف ١٦٤م ، ٢٤٨
نوقان ٣٥٤
نيويورك ١٢٨
نيشابور ٤٩ ، ١٠١ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢١٧ ،
٢٣٣ ، ٢٣٤م ، ٢٣٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،
٣١٢ ، ٣٠٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧

— حرف الهاء —

هرات ١٠١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤
الهند ١٥ ، ١٦٤ ، ٣١٤
هولنده ٣

— حرف الواو —

وادي الحمى ٤٤
وادي آش ٣٣٢

— حرف الياء —

اليرموك ٣٤١
يركي ٣١٦
اليمن ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٢٥
اليمامة ٣١٠
اليونان ١٤٣ ، ١٤٤

كتب للمؤلف*

١ – كيف تكتب بحثاً او رسالة :

دراسة منهجية لكتابة الأبحاث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه

الناشر : مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلي بالقاهرة الثمن ٢٠

٢ – تاريخ التربية الاسلامية :

وهو هذا الكتاب الذي بين يدي القارىء

الناشر : دار الكشاف ببيروت (فرع القاهرة : ٣٧ شارع عبد العزيز) الثمن ١٠٠

٣ – History of Muslim Education :

الأصل الانجليزي للكتاب السابق وهو الذي حصل به المؤلف على درجة الدكتوراه من جامعة كمبردج .

الناشر : دار الكشاف الثمن ١٠٠

٤ – في قصور الخلفاء العباسيين:

دراسة تاريخية ونفسية للعصر العباسي الأول وما كان فيه من دسائس ومؤامرات جرت في قصور الخلفاء وانعكس اثرها على الدولة .

الناشر : مكتبه الانجلو المصرية بشارع محمد بك فريد بالقاهرة الثمن ٤٠

٥ – تاريخ الحضارة الاسلامية :

كتاب في ثلاثة اجزاء يبحث الجزء الاول في الحياة السياسية عند المسلمين والثاني في الحياة الاقتصادية والثالث في الحياة الاجتماعية (لم ينشر بعد)

---

* الأثمان المدونة امام هذه الكتب هي بالقروش المصرية .

B1202777
I13331413

AUC - LIBRARY

DATE DUE

A.U.C 11 DEC 1997	
A.U.C 8 - JAN 1998	

99
S512
1954
c.1

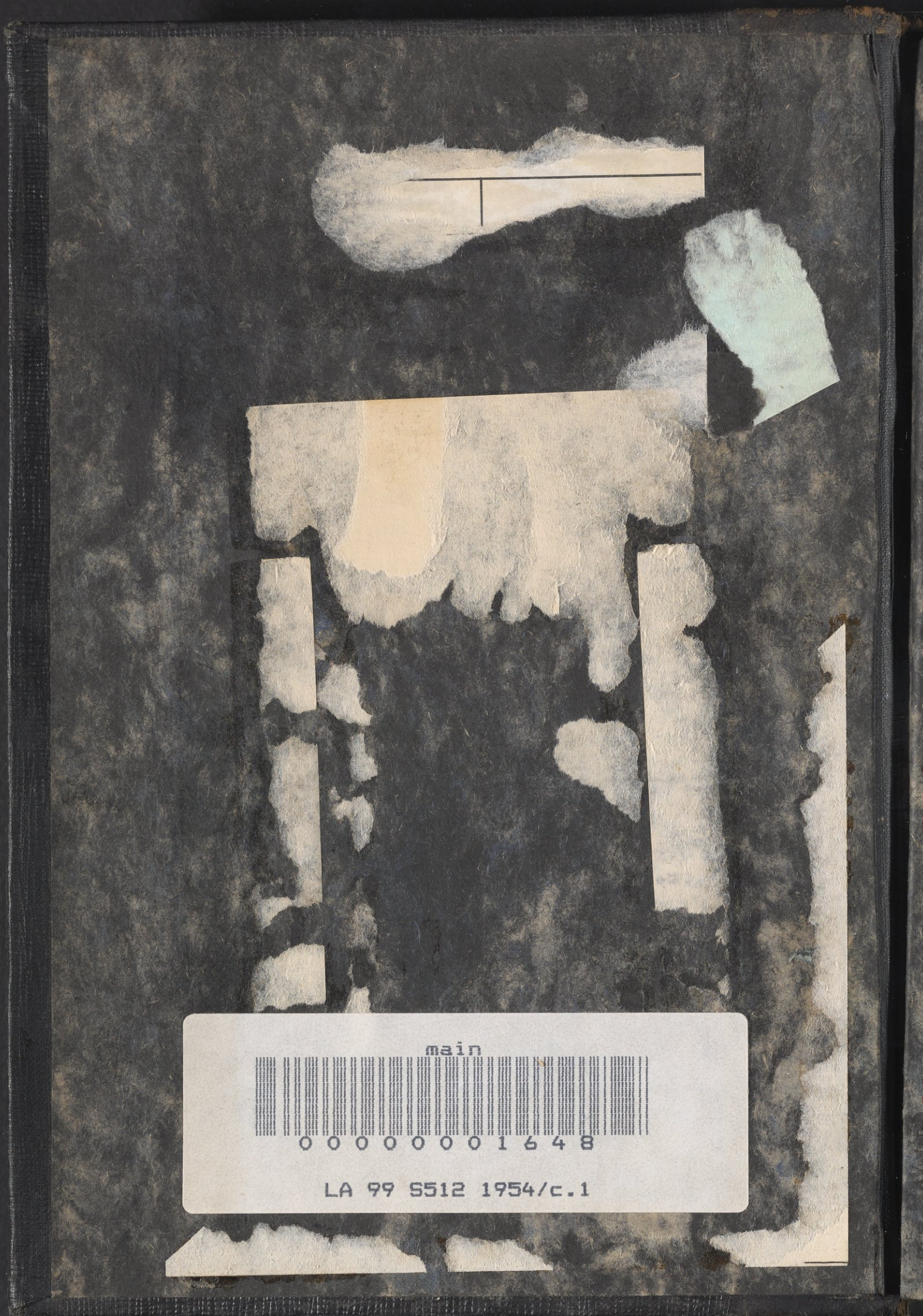

main

0000000001648

LA 99 S512 1954/c.1